

تَفْسِيرُ
حَدِيثِ الشُّرُوحِ وَالسَّجَّاتِ
فِي
رَوَايَةِ عُلُومِ الْقُرْآنِ

تَأْلِيفُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ

مُحَمَّدِ الْأَمِينِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأُرْمِيِّ الْعَلَوِيِّ الْهَرَيْرِيِّ الشَّافِعِيِّ
الْمُدَرِّسِ بِدَارِ الْحَدِيثِ الْخَيْرِيَّةِ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ

إِشْرَافُ وَمُرَاجَعَةُ

الدُّكْتُورِ هَاشِمِ مُحَمَّدٍ عَلِيِّ بْنِ حَسَنِ تَهْدِي
خَيْرِ الدِّرَاسَاتِ بِرَابِطَةِ الْعَتَايِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ
مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ

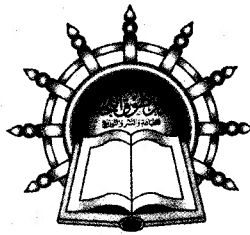
المجلد السادس والعشرون

ذِي طُوقِ النَّجَاةِ

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دار ابتداء النجاة

بيروت - لبنان

تَفْسِيرُ
حَدِيثِ الشُّرُوحِ وَاللِّحَاجَاتِ
فِي
رَوَايَةِ عُلُومِ الْقُرْآنِ



شعر

أَتَاكَ الرُّوحُ يَلْفِظُ بِالْغَوَالِي وَيَرْمِي بِالزَّبْزَجِدِ وَاللَّالِي
يَقُولُ لِسَابِحِيهِ وَخَائِضِيهِ هَلُمُّوا قَالَتِ النَّفَائِسُ فِي خِلَالِي

آخر

كُنْ مِنَ الْخَلْقِ جَانِبًا وَأَرْضَ بِاللَّهِ صَاحِبًا
قَلْبِ الْخَلْقِ كَيْفَ شِئْتَ تَجِدْهُ عَقَّارِبًا

آخر

بِلَادُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ فَضَاءٌ وَرِزْقُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا فَسِيحٌ
فَقُلْ لِلْقَاعِدِينَ عَلَى هَوَانٍ إِذَا ضَاقَتْ بِكُمْ أَرْضٌ فَسِيحُوا

آخر

لَا تَرْضَ مِنْ رَجُلٍ حَلَاوَةَ قَوْلِهِ حَتَّى يُزَيِّنَ مَا يَقُولُ فَعَالُ
وَإِذَا وَرَّزْتَ فَعَالَهُ بِمَقَالِهِ فَتَوَازَنَا فَأِخَاءُ ذَاكَ جَمَالُ

آخر

مَحَنُ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لَا تَنْقُضِي وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كَالْأَغْيَادِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمداً لك يا فارق الفرقان، ويا منزل القرآن، على ما أكرمتنا بنعمة الإيمان وخصصتنا بصنوف العرفان، والصلاة والسلام على من اصطفيته، من ولد عدنان، وأرسلته لهدايتنا بأفضل الأديان، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه، من حازوا قصب الميدان، ومن تبعهم في الإسلام والإيمان والإحسان، إلى يوم العرض، والوقوف بين يدي الرحمن.

أما بعد: فلما تجهزت تفسير الجزء الرابع والعشرين من القرآن الكريم، تجشمت لتفسير الجزء الخامس والعشرين منه، مستمداً من الله سبحانه التوفيق والهداية، لأقوم الطريق، في تفسير كتابه الكريم، مستعيذاً به من الزيغ والزلل والخطأ فيه، وأقول: وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَعْذَرْنَا مَا مَنَّا مِنْ شَيْءٍ ۚ﴾ (١٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿١٨﴾ لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿١٩﴾ وَلَكِنْ أَدْفَعْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةٌ وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَاقِشَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٢١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثَمَرٌ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مَعَنَ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٢٢﴾ سَتَرْنَاهُمْ عَائِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطُونَ ﴿٢٤﴾

المناسبة

قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية

لما قبلها: أن الله سبحانه لما هدد^(١) الكافرين، بأن جزاء كل عامل سيصل إليه يوم القيامة كاملاً غير منقوص، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.. أردف ذلك ببيان، أن هذا اليوم، لا سبيل للخلق إلى معرفته، فلا يعلمه إلا هو، وأن علم الحوادث المقبلة في أوقاتها المعينة، مما استأثر الله به، فلا يعلم أحد متى تخرج الثمرات من الأكمام، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع، ثم ذكر أنه سبحانه يوم القيامة، ينادي المشركين، تهكماً وتقريعاً لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون فيجيئون الآن لا نشهد لأحد منهم بالشركة في الألوهية، وقد غابوا عنهم، فلا يرجون منهم نفعاً ولا يفيدونهم خيراً، وأيقنوا حينئذ أن لا مهرب لهم من العذاب.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر^(٢) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا...﴾ الآية.. كان في ذلك دلالة على الجزاء يوم القيامة وكأن سائلاً قال: ومتى ذلك؟ ف قيل: لا يعلمها إلا الله، ومن سئل عنها فليس عنده علم بتعيين وقتها، وإنما يرد ذلك إلى الله، ثم ذكر سعة علمه، وتعلقه بما لا يعلمه إلا هو تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما بيّن حال الكافرين في الآخرة، وذكر أنهم حينئذ يتبرؤون من الشركاء بعد أن كانوا معترفين بهم في الدنيا.. أردف ذلك ببيان، أن الإنسان متبدل الأحوال، متغير الأطوار، إن أحس بخير وقدرة، انتفخت أوداجه، وصغر خديّه، ومشى الخيلاء، وإن أصابته محنة وبلاء، تطامن واستكان ويش من الفرج، وهذا دليل على شدة حرصه على الجمع، وشدة جزعه من الفقد، إلى ما فيه من طيش يتولد عنه إعجابه واستكباره حين النعمة، وتطامنه حين زوالها، وذلك مما يوميء بشغله بالنعمة عن المنعم، في حالي وجودها وفقدها، أما في حال وجودها فواضح، وأما في حال فقدها، فلأن التضرع جزعاً إنما كان على

(٢) البحر المحيط.

(١) المراغي.

الفقد، الدال على الشغل عن المنعم بالنعمة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أوعد^(١) على الشرك وهذد وحذر وأنذر، وذكر أن المشركين ينكرون الشرك يوم القيامة، ويتبرؤون من الشركاء، ويظهرون الذل والخضوع لاستيلاء الخوف عليهم، لما يرون من شديد الأحوال، وأردف ذكر طبيعة الإنسان، وأنه متبدل لا يثبت على حال واحد، فإن أحسن القوة تكبر وتعظم، وإن شعر بالضعف أظهر المسكنة والمذلة.. أعقب ذلك بلفت أنظار الطاعنين في نبوة محمد ﷺ، إلى التأمل والتفكر، فيما بين أيديهم من الدلائل، ليرعوا عما هم فيه من الغي والضلال، ويقرؤا بها لتظاهر الأدلة عليها، وعلى أن القرآن منزل من عند الله تعالى حقاً، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية^(٢): ما روي أن المشركين، قالوا: يا محمد، إن كنت نبينا، فأخبرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت هذه الآية رداً عليهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه تعالى، لا إلى غيره ﴿يُرْدُّ﴾ ويرجع ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إذا سئل عن القيامة، يقال: الله يعلم، إذ لا يعلمها إلا الله، فإذا جاءت، يقضي بين المحسن والمسيء بالجنة والنار، يعني: إذا سئل عنها^(٣) أحد، وجب على المسؤول أن يرد علمها إليه تعالى، لا إلى غيره، فإنه لا يعلم متى قيامها سواء تعالى، وقد جاء في الحديث الصحيح: أن جبرائيل عليه السلام، سأل

(٣) المراغي.

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَّبُّكَ مُتَنَبِّهًا﴾، وقوله: ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوقُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

وبعد أن ذكر أنه استأثر بعلم الساعة، بيّن أنه اختص أيضاً بعلم الغيب، ومعرفة ما سيحدث في مستأنف الأزمنة، فقال: ﴿وَمَا﴾ نافية ﴿تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتِ﴾ ﴿مِنْ﴾: مزيدة^(١) للتنقيص على الاستغراق، فإنه قبل دخولها، يحتمل نفي الجنس، ونفي الوحدة.

والمعنى: ما تخرج أي ثمرة من الثمرات ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾؛ أي: من أوعيتها، يعني: الكُفْرَى قبل أن ينشق، وقيل: قشرها الأعلى من الجوز واللوز والفسق وغيرها، جمع كم بالكسر، وهو وعاء الثمرة وغلافها؛ أي: ما يغطي الثمرة، كما أن الكم بالضم، ما يغطي اليد من القميص.

قال أبو عبيدة^(٢): أكامها أوعيتها، وهي ما كانت فيه الثمرة، واحدا كم وكمة. قال الراغب: الكم ما يغطي اليد من القميص، وما يغطي الثمرة، وجمعه أكام، وهذا يدل على أن الكم بضم الكاف؛ لأنه جعله مشتركاً بين كم القميص، وما يغطي الثمرة، ولا خلاف في كم القميص أنه بالضم، ويمكن أن يقال: إن في الكم الذي هو وعاء الثمر لغتين.

وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة والحسن، بخلاف عنه، ونافع وابن عامر في غير رواية، والمفضل وحفص وابن مقسم^(٣): ﴿مِنْ ثَمَرَاتِ﴾ بالجمع، وقرأ باقي السبعة، والحسن في رواية طلحة والأعمش: ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ بالإنفراد.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ حملاً في بطنها، أي كان إنساناً أو غيره ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي: ولا تلد ذلك الحمل، بمكان على وجه الأرض ﴿إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ سبحانه وتعالى^(٤)، استثناء مفرغ من أعم الأحوال، ولم يذكر متعلق العلم للتعميم؛ أي: وما يحدث شيء من خروج ثمرة: ولا حمل حامل، ولا وضع واضع ملابساً

(٣) البحر المحيط.

(٤) روح البيان.

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

بشيء من الأشياء إلا ملابساً بعلمه المحيط، واقعاً حسب تعلقه به، يعلم وقت خروج الثمرة من أكمامها وعددها وسائر ما يتعلق بها، من أنها تبلغ أوان النضج، أو تفسد قبله ونحوه ووقت الحمل، وعدد أيامه وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة. والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك، ووقت الوضع وما يتعلق به.

وفي «حواشي ابن الشيخ»، المعنى: أن إليه يضاف علم الساعة؛ أي: علم وقت القيامة، فإذا سئلت عنه، فرد العلم إليه تعالى فقل: الله أعلم، كما يردّ إليه علم جميع الحوادث الآتية من الثمار والنبات وغيرهما، والمعنى: أي: وما تبرز الثمرة من وعائها الذي هي مغلفة به، وما تحمل أنثى حملها ولا تضع ولدها إلا بعلم من الله، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ونحو الآية قوله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٩).

وفي هذا^(١): دليل على أن المنجمين لا يمكنهم الجزم بشيء مما يقولون البتة، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف، قد يصيب وربما لا يصيب، وعلم الله هو المقطوع به، الذي لا يشركه فيه أحد.

ولما كان^(٢) ما يخرج من أكمام الشجرة، وما تحمل الإناث وتضعه، هو إيجاد أشياء بعد العدم، ناسب أن يذكر مع علم الساعة، إذ في ذلك دليل على البعث، إذ هو إعادة بعد إعدام، وناسب ذكر أحوال المشركين في ذلك اليوم، وسؤالهم سؤال التوبيخ، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ وفي ذلك تهكم بهم وتقريع، والضمير في يناديهم عام في كل من عبد غير الله، فيندرج فيه عباد الأوثان؛ أي: واذكر يا محمد لقومك، يوم ينادي الله سبحانه وتعالى المشركين وذلك يوم القيامة، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ الذين كنتم تزعمون، أنهم شركائي في الدنيا، من الأصنام وغيرها، فادعوهم الآن فليشفعوا لكم، أو

(٢) البحر المحيط.

(١) المراغي.

يدفعوا عنكم العذاب، وهذا على طريقة التهكم بهم. قرأ الجمهور^(١): ﴿شُرَكَائِي﴾ بسكون الياء، وقرأ ابن كثير: بفتحها. ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال المشركون ﴿ءَاذَنَّاكَ﴾؛ أي: أخبرناك وأعلمناك ﴿مَا مِنَّا﴾؛ أي: ليس منا ﴿مِنْ شَهِيدٍ﴾؛ أي: من أحد يشهد لهم اليوم بالشركة، إذ تبرأنا منهم، لما عاينا الحال، والشهيد من الشهادة، أو ما منا من أحد يشهدهم ويعاينهم، لأنهم ضلوا عنهم حيثئذ، فهم لا يبصرونهم في ساعة التوبيخ، فالشاهد من الشهود.

والمعنى^(٢): أي واذكر أيها الرسول لقومك، يوم ينادي سبحانه عباده المشركين، على رؤوس الأشهاد، تهكماً بهم، واستهزاء بأمرهم: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ فيجيبون ويقولون: أعلمناك أنه ليس أحد منا يشهد اليوم، أن معك شريكاً، ونفي الشهادة يراد به التبرؤ منهم؛ لأن الكفار يوم القيامة ينكرون عبادة غير الله، كما حكى الله عنهم، أنهم قالوا: ﴿وَاللَّهُ رِئَاسًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

والخلاصة: أن قوله: ﴿ءَاذَنَّاكَ﴾ إخبار بإعلام سابق علمه الله من أحوالهم يوم القيامة، وأنهم لم يبقوا على الشرك، وعلى تلك الشهادة، كأنهم يقولون: أنت أعلم به، ثم يأخذون في الجواب.

﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: غاب عن المشركين ﴿مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: الآلهة التي كانوا يعبدونها من قبل يوم القيامة، فأخذ بها بطريق غير طريقهم، فلم تنفعهم، ولم تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله الذي حل بهم، وظهر عدم نفعهم، فكان حضورهم كغيبتهم ﴿وَطَنُّوْا﴾؛ أي: أيقنوا ﴿مَا لَهُمْ مِّنْ نَّجِيٍّ﴾؛ أي: من مهرب؛ أي: وأيقنوا حيثئذ أنه لا ملجأ لهم من عذاب الله تعالى.

والمحيص^(٣): المحيد والمعدل والمميل والمهرب، والظن معلق عنه بحرف النفي، والتعليق أن يوقع ما ينوب عن المفعولين جميعاً.

(٣) روح البيان.

(١) الشوكاني.

(٢) المراعي.

ثم ذكر سبحانه بعض أحوال الإنسان فقال: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ﴾؛ أي: لا يمل ولا يضجر ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾؛ أي: من دعائه الخير، وطلبه السعة في النعمة وأسباب المعيشة، فحذف الفاعل، وأضيف إلى المفعول، والمعنى: أن الإنسان في حال إقبال الخير إليه، لا ينتهي إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها، ولا يمل من طلبها أبداً، وفيه إشارة إلى أن الإنسان مجبول على طلب الخير، بحيث لا يتطرق إليه السآمة فبهذه الخصلة بلغ من بلغ رتبة خير البرية، وبها بلغ من بلغ دركة شر البرية.

والخير هنا^(١): المال والصحة والسلطان والرفعة، قال السدي: والإنسان هنا، يراد به الكافر، وقيل: الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمّية بن خلف، والأولى حمل الآية على العموم، باعتبار الغالب، فلا ينافيه خروج خلص العباد، وقرأ عبد الله بن مسعود ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْمَالِ﴾ وفي «البحر المحيط»: وقرأ عبد الله ﴿مِنْ دُعَاءِ بِالْخَيْرِ﴾ بباء داخل على الخير.

والمعنى^(٢): أي لا يمل الإنسان من دعائه ربّه، ومسألته إياه، أن يؤتيه صحة وعافية، وسعة في الرزق، فهو مهما أوتي من المال، فهو لا يقنع، وقد جاء في الأثر: «منهومان لا يشبعان، طالب علم، وطالب مال»، وجاء أيضاً: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنّى لهما ثالثاً».

﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾؛ أي: وإن أصابه البلاء والشدة والفقر، والمرض الذي أنهك قواه، واضمحل به جسمه ﴿فَيَتُوسُّ﴾ من روح الله وفضله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته وإحسانه، وقيل: يؤوس من إجابة دعائه، قنوط بسوء الظن بربه، وقيل: يؤوس من زوال ما به من المكروه، قنوط بما يحصل له من ظن دوامه، وهما صيغتا مبالغة، يدلان على أنه شديد اليأس، عظيم القنوط، والفرق بين اليأس والقنوط، أن اليأس من صفة القلب، وهو قطع الرجاء من رحمة الله تعالى، والقنوط من صفة البدن، بأن يظهر أثر اليأس في بدنه، فيتضاءل ويحزن وينكسر

(٢) المراغي.

(١) الشوكاني.

ويتذلل، وبدأ بصفة القلب، لأنها هي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من الانكسار، وبهذا ظهر الفرق بينهما، وقال بعضهم: هما مترادفان وذكرهما معاً للتأكيد.

والحاصل: أن اليأس من صفة القلب، والقنوط إظهار آثاره على ظاهر البدن، اهـ «كرخي»، وهذا صفة الكافر لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾.

وفي «فتح الرحمن»^(١): ولا ينافي ما هنا من قوله: ﴿وَلَنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ما سيأتي من قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ لأن المعنى قنوط من الصنم، دعاء لله، أو قنوط بالقلب دعاء باللسان، أو الأولى في قوم والثانية في آخرين؛ انتهى.

وخلاصة ذلك: أن الإنسان متبدل الأحوال، متغير الأطوار، إن أحسّ بخير بطر وتعظم، وإن شعر بيؤس ذل وخضع، فهو شديد الحرص على الجمع، شديد الجزع على الفقد.

ثم ذكر حال هذا اليؤوس القنوط ﴿وَلَنْ أَدْفِنَهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لنن أذقنا الإنسان وأعطيناه ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾؛ أي: نعمة من عندنا ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ﴾ وأصابته، وذلك بتفريج تلك الضراء عنه، كالمرض والضيق، بالرحمة، كالصحة والسعة ﴿... لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك الإنسان: ﴿هَذَا﴾ الخير ﴿لِي﴾؛ أي: مستحق لي، وصل إلي، لأنني استحقته، لما لي من الفضل وعمل البر، فاللام^(٢): للاستحقاق، أو لي لا لغيري، فلا يزول عني أبداً، فاللام للاختصاص، فيكون إخباراً عن لازم الاستحقاق، لا عن نفسه، كما في الوجه الأول، ومعنى الدوام استفيد من لام الاختصاص؛ لأنّ ما يختص بأحدٍ، الظاهر أنه لا يزول عنه، فذلك المسكين لم ير فضل الله، وتوفيقه، فادّعى الاستحقاق في الصورة الأولى، واشتغل بالنعمة عن المنعم، وجعل أن الله تعالى أعطاه ليلبوه أيشكر أم يكفر،

(٢) روح البيان.

(١) فتح الرحمن.

فلو أراد لقطعها منه، وذلك في الصورة الثانية.

والمعنى^(١): أي ولئن كشفنا ما أصابه من سقم في نفسه، أو شدة وجهه في معيشتة فوهبنا له العافية بعد السقم، والغنى بعد الفقر، ليقولن هذا حقي قد وصل إلي؛ لأنني استوجبه بما حصل لي من ضروب الفضائل، وأعمال البر والقرب من الله، لا تفضل منه عليّ، أو لا يعلم أن هذه الفضائل، لو وجدت فإنما هي بفضل الله وإحسانه، وهو لا يستحق على الله شيئاً.

والخلاصة: أي ولئن آتيناه خيراً وعافية وغنى، من بعد شدة ومرض وفقر. . ليقولن هذا الخير شيء أستحقه على الله، لرضاه بعملي، فظن أن تلك النعمة التي صار فيها، وصلت إليه باستحقاقه لها، ولم يعلم أن الله يتلي عباده بالخير والشر ليتبين له الشاكر من الجاحد، والصابر من الجزع، قال مجاهد: معناه هذا بعملي وأنا محقوق به ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾ أي: القيامة ﴿قَائِمَةً﴾؛ أي: ستقوم؛ أي: ما أظنها تقوم كما يخبرنا به الأنبياء، فلا رجعة ولا حساب ولا عقاب على شيء من الآثام، التي يقترفها الإنسان في دنياه، ويجترمها مدى حياته الدنيوية. أولست على يقين من البعث.

وما نتج هذا إلا من شدة رغبته في الدنيا، وعظيم نفرتة من الآخرة، فهو حين ينظر إلى أحوال الدنيا، يقول: إنها لي، وأنا جدير بها، لما لي من فضل به استحققتها، وحين ينظر إلى أحوال الآخرة يقول: وما أظن الساعة قائمة، وهذا خاص بالكافرين والمنافقين، فيكون المراد بالإنسان المذكور في صدر الآية: الجنس، باعتبار غالب أفراده؛ لأنّ اليأس من رحمة الله، والقنوط من خيره، والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين، أو المتزلزلين في الدين، المتطهرين بالإسلام، المبطنين للكفر.

﴿وَلَيْنِ رُجِعْتُ﴾ ورددت ﴿إِلَى رَبِّي﴾ وبعثت على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء، من قيام الساعة، وحصول البعث والنشور ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ...﴾؛ أي:

(١) المراغي.

عند ربي في الآخرة ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: للحالة الحسنة من الكرامة، فظن أنه استحقَّ خير الدنيا بما فيه من الفضل، واستحقَّ خير الآخرة بذلك الفضل، الذي اعتقده في نفسه، وأثبت له، فقام أمر الآخرة على أمر الدنيا بالوهم المحض، والأمنية الكاذبة، وهو اعتقاد باطل، وظن فاسد.

وبعد أن حكى عنهم هذه الأقوال، ذكر أنه سيظهر لهم، أنَّ الأمر بعكس ما يظنون وبضد ما يعتقدون، فقال: ﴿فَلْيَتَنَزَّلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: فعزتي وجلالي، لنخبرن هؤلاء الكافرين يوم يرجعون فيه إلينا، وهو يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من المعاصي، واجترحوا من الآثام، وما دسوا به أنفسهم من الخطايا، ثم لنجازينهم عليها، فيستبين لهم أنهم جديرون بالإهانة والاحتقار، لا بالكرامة والإحسان ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: من عذاب شديد، بسبب ذنوبهم، لا يعرف كنهه، ولا يمكنهم التفصي ولا الفكاك منه، لغلظته وإحاطته بجميع جهاتهم، وهو عذاب جهنم التي لا موت فيها، ولا يجدون عنها حولاً، واللام هذه والتي قبلها هي الموطئة للقسم. وفي «بحر العلوم» غليظ؛ أي: شديد أو عظيم، بدل ما اعتقدوه لأنفسهم من الإكرام والإعزاز من الله تعالى.

وبعد أن حكى أقوال الذي أنعم عليه، بعد وقوعه في الجهد الجهيد، حكى أفعاله فقال: ﴿وَإِذَا﴾ نحن ﴿أَنفَعْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ﴾؛ أي: على هذا الجنس باعتبار غالب أفراد، فكشفنا عنه المرض، ووهبنا له الصحة والعافية، ورزقناه سعة العيش ﴿أَعْرَضَ﴾ عما دعونا إليه: من طاعتنا، وعن الشكر على نعمتنا، كأنه لم يلق شدة قط، فنسي المنعم، وكفر بنعمته بترك شكره وطاعته ﴿وَنَآ﴾؛ أي: تباعد بنفسه عن الشكر والطاعة، واستكبر عن الانقياد لأمرنا بكليته، لا ﴿بِحَاجَتِهِ﴾ وعطفه فقط، ولم يمل إلى الشكر والطاعة تكبراً وتعظماً فالجانب مجاز عن النفس، كما في قوله تعالى: ﴿فِي جَنِّبِ اللَّهِ﴾، ويجوز^(١) أن يراد به عطفه، فيكون على حقيقته، وهو عبارة عن الانحراف والازورار؛ لأنَّ نأى الجانب عن الشكر،

(١) روح البيان.

يستلزم الانحراف عنه، كما قالوا: ثنى عطفه وتولى بركنه، فالباء للتعديّة، والمعنى: حينئذٍ انحرف عن شكرنا. وقرأ يزيد بن القعقاع^(١): ﴿وَنَاءَ بِجَانِبِهِ﴾ بالالف قبل الهمزة.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ﴾؛ أي: وإذا مس هذا الإنسان المعرض المتكبر ﴿الشَّرُّ﴾؛ أي: جنس الشر كالبلاء والمحنة، وإنما جيء بلفظ الماضي، ﴿وإذا﴾ لأنّ المراد: الشر المطلق، الذي حصوله مقطوع به ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾؛ أي: فهو ذو دعاء كثير؛ أي: وإذا مسه البلاء والجهد والفقر والمرض، فذو دعاء كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة مجازاً، يقال: أطال فلان الكلام وأعرض الدعاء إذا أكثر، فهو مستعار مما له عرض متسع، للإشعار بكثرتّه، فإنّ العريض يكون ذا أجزاء كثيرة وامتداد فمعنى الاتساع يؤخذ من تنكير عريض، فإنه يدل على التعظيم ومعنى: الامتداد يؤخذ من معنى الطول اللازم للعرض.

وإنما قال: ﴿عَرِيضٍ﴾^(٢) ولم يقل: طويل، مع أن كلاهما كناية عن الكثرة؛ لأنّ قوله: عريض أبلغ من قوله: طويل إذ الطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك؛ أي: متسعاً فما ظنك بطوله، وقد استعير^(٣) العرض هنا لكثرة الدعاء ودوامه، وهو من صفة الأجرام كما استعير الغلظ لشدة العذاب، ولا منافاة بين قوله: فيؤوس قنوط، وبين قوله: فذو دعاء عريض؛ لأنّ الأول في قوم، والثاني في آخرين، أو قنوط في البر وذو دعاء عريض في البحر، أو قنوط بالقلب، وذو ودعاء عريض باللسان، أو قنوط من الصنم، ذو دعاء عريض لله تعالى كما مر.

والمعنى: أنه إذا مسه الشر تضرع إلى الله، واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به واستكثر من ذلك فذكره في الشدة ونسيه في الرخاء، واستغاث به عند نزول النعمة، وتركه عند حصول النعمة، وهذا صنيع الكافرين، ومن كان غير

(٣) النسفي.

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

ثابت القدم من المسلمين .

ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة الكفار ومحاجتهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﷺ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني أيها المشركون؛ لأنّ الرؤية سبب للإخبار ﴿إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ سبحانه ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾؛ أي: كذبتُم به من غير نظر، واتباع دليل، ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه، مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿مَنْ﴾ استفهام ﴿أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾ وخلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عنه؛ أي: لا أحد أضلّ منكم لفرط شقاوتكم وشدة عداوتكم والأصل: من أضلّ منكم فوضع ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾ موضع الضمير لبيان حالهم في المشاققة، وأنها السبب في ضلالهم، فإن^(١) من كفر بما نزل من عند الله، بأن قال: أساطير الأولين ونحوه، فقد كان مشاقاً لله؛ أي: معادياً ومخالفاً له تعالى خلافاً بعيداً عن الوفاق، ومعاداة بعيدة عن الموالاة ولا شك أنّ من كان كذا، فهو في غاية الضلال، وفي الآية إشارة إلى أن كل بلاء وعناء ونعمة ورحمة ومضرة ومسرة، ينزل بالعبد، فهو من عند الله تعالى فإن استقبله بالتسليم والرضى صابراً شاكراً للمولى في الشدة، والرخاء والسراء والضراء، فهو من المهتدين المقربين، وإن استقبله بالكفر والجزع، فهو من الأشقياء المبعدين المضلّين، وفي الحديث القدسي: «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه، أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل . . استحييت منه يوم القيامة، أن أنصب له ميزاناً وأنشر له ديواناً» .

قال بعض الكبار^(٢): النعمة توجب الإعراض كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَقَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ . . .﴾ إلخ، ومس الضر يوجب الإقبال على الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ . . .﴾ إلخ، فالله تعالى رحيم على العبد بدفع النعمة والصحة عنه، لأنها مظنة الإعراض والبلاء للولاء كاللهب للذهب، فالبلاء كالنار، فكما أن النار لا تبقى من الحطب شيئاً إلا وأحرقتة، فكذا البلاء لا يبقى من ضر الوجود شيئاً، فالطريق إلى الله على جادة المحنة أقرب من جادة المنحة إذ الأنبياء

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والأولياء جاؤوا وذهبوا من طريق البلاء، وقد ثبت أن النار لا ترتفع من الدنيا أبداً، فكيف يؤمل العاقل الراحة في الدنيا، فهي دار محنة، وقد ورد: «الدنيا سجن المؤمن» فالمؤمن لا يستريح في الدنيا، ولا يخلو من قلة أو علة أو ذلة، وله راحة عظمى في الآخرة، والكافر خاسر في الدنيا والآخرة، فعلى العبد أن يمشي على الصراط السوي، ويخاف من الزلق، ومن مكر الله تعالى.

وفي «فتح الرحمن»: قال هنا^(١): ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ﴾ عاطفاً بـثم، وفي الأحقاف قال: ﴿وَكَفَرْتُمْ﴾ عاطفاً بالواو، فما الفرق بين الموضعين قلت: عطف هنا بـ﴿ثُمَّ﴾ لأن المعنى: ثم كان عاقبة أمركم بعد الإمهال، للنظر والتدبر الكفر، فناسب ذكر ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على الترتيب، وما في الأحقاف لم ينظر فيه إلى ترتيب كفرهم على ما ذكر، بل عطف على ﴿كَفَرْتُمْ﴾ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ بالواو، فناسب ذكرها لدالاتها على مطلق الجمع.

والمعنى^(٢): أي قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين بالقرآن، الذي جتتهم به من عند ربك: أخبروني أيها القوم: إن كان هذا الذي أنتم به تكذبون، من عند ربي، ثم كفرتم به.. أفلا تكونون مفارقين للحق، بعيدين من الصواب، وقد كانوا كلما سمعوا القرآن، أعرضوا عنه، وبالغوا في النفرة منه، حتى قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءَآذَانِنَا وَقَرْ﴾، فلفت أنظارهم إلى أنه يجب عليهم النظر، والتأمل فيه، فإن دل دليل على صحته قبلوه، وإن أرشد إلى فساده تركوه، أما قبل ذلك، فالإصرار على الإعراض والإنكار، بعيدان عن الصواب وعما يحكم به العقل، فما أضلكم وأكثر عنادكم ومشاقتكم للحق واتباعكم للهوى.

وخلاصة ذلك: قل لهم: من أشد ذهاباً عن قصد السبيل، وأسلك لغير طريق الصواب، ممن هو في فراق لأمر الله، وخلاف له، وبعد عنه.

وبعد أن ذكر أدلة التوحيد، والنبوة، أجاب عن شبهات المشركين، وتمويهات الضالين، فقال: ﴿سَرُّبِهِمْ﴾؛ أي: سنري كفار قريش ﴿ءَايَاتِنَا﴾؛ أي:

(٢) المراغي.

(١) فتح الرحمن.

دلائلنا الدالة على قدرتنا . ووجدانيتنا المذكورة في القرآن، المبينة لهم فيما أوحى إلى محمد ﷺ، من الحكمة الدالة على صدق القرآن وحقيقته، وكونه من عند الله تعالى حالة كون تلك الآيات ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾؛ أي: في آفاق الأرض ونواحيها والمراد^(١) بالآيات الأفاقية: ما أخبرهم النبي ﷺ من الحوادث الآتية، كغلبة الروم على فارس في بضع سنين، وآثار النوازل الماضية، الموافقة لما هو المضبوط، المقرر عند أصحاب التواريخ، والحال، أنه ﷺ أمي لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يخالط أحداً، وما يسر الله له، ولخلفائه من الفتوح، والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاء على بلاد المشارق، والمغرب، على وجه خارق للعادة، إذا لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ﴿و﴾ حالة كونها ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: في أنفس أهل مكة، والمراد بالآيات التي في أنفسهم، هو ما ظهر بين أهل مكة من القحط والخوف، وما حل بهم يوم بدر ويوم الفتح من القتل والمقهورية، ولم ينقل إلينا أن مكة فتحت على يد أحد، قبل رسول الله ﷺ، وكذا قتل أهلها وأسرههم.

وقيل^(٢): المراد بالآفاق: أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات ومن النبات والأشجار والأنهار، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة في تكوين الأجنة في ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة، والتركيب الغريبة، كقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

واعتذر بأن معنى السين - مع أن اراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك - أنه تعالى سيطلهم على تلك الآيات زماناً فزماناً، ويزيدهم وقوفاً على حقائقها يوماً فيوماً، قالوا: الآفاق هو العالم الكبير، والأنفس هو العالم الصغير ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ﴾ ويتضح ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأهل مكة بما أريناهم من تلك الآيات. المذكورة في القرآن، أو في الحكمة ﴿أَنَّهُ﴾؛ أي: أن القرآن أو الرسول محمداً ﷺ،

(٢) روح البيان.

(١) روح البيان.

فالقصر المستفاد من تعريف المسند حقيقي ادعائي، أو الله أو التوحيد فالقصر إضافي تحقيقي؛ أي: لا الشركاء ولا التشريك، والأول أولى، والضمائر في ﴿سُرِّيهِمْ﴾ ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿وَلَهُمْ﴾ للمشارفين منهم على الاهتداء، أو للجميع، على أنه من وصف الكل بوصف البعض.

والمعنى^(١): أي سنري هؤلاء المشركين، وقائعنا بالبلاد المحيطة بمكة، وبمكة بما أجريناه على يدي نبينا، وعلى يدي خلفائه وأصحابه من الفتوح الدالة على قوة الإسلام وأهله، ووهن الباطل وحزبه، حتى يعلموا حقيقة ما أوحينا به إليك، وأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأن وعده صادق، وأنه مظهر دينك على الأديان كلها.

والخلاصة: سنيسر لهم من الفتوح، ما لم يتيسر لأحد ممن قبلهم، ونظهرهم على الجبابرة والأكاسرة، ونجري على أيديهم من الأمور الخارجة عن المعهود الخارقة للعادة، فيستبين لهم أنّ هذا القرآن هو الحق، ومن ثم نصر حامله، وأظهرهم على أعدائهم في قليل من الزمان.

ثم وبخهم على إنكارهم تحقّق هذه الإراءة وحصولها فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ استئناف وارد^(٢) لتوبيخهم على ترددهم في شأن القرآن، وعنادهم المحجوج إلى إراءة الآيات، وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى والهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف يقتضيه السياق، والباء مزيدة للتأكيد؛ أي: ألم يغن، ولم يكف ربك ﴿أَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه؛ أي: ألم يغنهم عن إراءة الآيات الموعودة، المبيّنة لحقّية القرآن، ولم يكفهم في ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء، وقد أخبر بأنه من عنده، فعدم الكفاية معتبر بالنسبة إليهم، كما يصرّحه قوله الآتي: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ وقرىء (إن) بكسر الهمزة على إضمار القول، أو على الاستئناف.

(٢) روح البيان.

(١) المراغي.

والمعنى^(١): أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده، وأقوالهم، وهو يشهد بأن محمداً ﷺ صادق، فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ الآية، وقال أيضاً: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾.

وقصارى ذلك: ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة، التي أوضحها سبحانه في هذه السورة، وفي كل سور القرآن، وفيها البيان الكافي لإثبات وحدانية الله، وتنزيهه عن كل نقص، وإثبات النبوة والبعث.

وبعد أن أقام الأدلة، وأوضح الحجج، حتى لم يبق بعدها مقال لمتعنت، ولا جاحد بين سبب عنادهم واستكبارهم، فقال: ﴿أَلَا﴾ كلمة استفتاح، تنبه السامع على ما يقال ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: كفار مكة ﴿فِي رِيَّوٍ﴾؛ أي: في شك عظيم وشبهة شديدة، وقرأ^(٢) السلمي والحسن ﴿فِي مُرْيَةٍ﴾ بضم الميم، وهو لغة في مكسورة الميم ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث والجزاء، فإنهم استبعدوا إحياء الموتى بعد ما تفرقت أجزاؤهم وتبددت أعضاؤهم، ومن ثم لا يلتفتون إلى النظر فيما ينفعهم، عند لقائه، كالتفكر في نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن حق لا شك فيه، وفيه إشارة^(٣) إلى أن الشك أحاط بجميع جوانبهم، إحاطة الظرف بالمظروف، لا خلاص لهم منه، وهم مستمررون دائمون فيه ﴿أَلَا إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ﴾ من الموجودات؛ أي: بجميع الأشياء جملها وتفصيلها، ظواهرها وبواطنها ﴿مُحِيطٌ﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات، وأحاطت قدرته بجميع المقدورات، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن من أحاط علمه بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء جازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

والمعنى: أي إنه تعالى علیم بجمل الأشياء وتفصيلها، مقتدر عليها لا يفوته شيء منها، فهو يعلم ما تفرق من أجزاء الأجسام، ويقدر على إعادتها إلى

(٣) روح البيان.

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

أمكنها، ثم بعثها وحسابها، لتستوفي جزاءها على ما قدمت من عمل.

الإعراب

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾.

﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يُرَدُّ﴾، ﴿يُرَدُّ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿تَخْرُجُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنْ﴾: حرف جر زائد. ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ فاعل. ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ متعلق بـ﴿تَخْرُجُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرَدُّ﴾، وقيل: ﴿مَا﴾: موصولة في محل جر، معطوف على الساعة؛ أي: علم الساعة، وعلم التي تخرج من ثمرات، ومن الأولى للاستغراق، ومن الثانية لابتداء الغاية. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿تَحْمِلُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿أُنْثَى﴾: فاعل، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لَا﴾ نافية، وفاعله ضمير يعود على أنثى، والجملة معطوفة على ما قبلها ﴿تَضَعُ﴾ فعل مضارع والفاعل يعود على ﴿أُنْثَى﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، من أعم الأحوال، ﴿بِعِلْمِهِ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف، وقع حالاً من أعم الأحوال، والتقدير: وما يحدث شيء من خروج ثمرة، أو حمل حمل، أو وضع واضع ملابساً بحال من الأحوال، إلا حالة كونه ملابساً بعلمه المحيط.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا مَا أَذْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٤٧) ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ (٤٨).

﴿وَيَوْمَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿يوم﴾: ظرف زمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد لقومك، قصة يوم يناديهم، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يُنَادِيهِمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿أَيْنَ﴾: اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿شُرَكَائِيَ﴾: مبتدأ

مؤخر، ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب، مفعول ثان لـ ﴿يُنَادِيهِمْ﴾، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ءَاذَنَّاكَ﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول به، والجملة في محل نصب مقول لـ ﴿قَالُوا﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿مِنَّا﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مِنْ﴾: حرف جر زائد، ﴿شَهِدَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل نصب، سادة مسدّ المفعول الثاني والثالث لـ ﴿ءَاذَنَّاكَ﴾ علق عنهما بما النافية؛ لأنه بمعنى أعلمناك، فيتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، ﴿وَضَلَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض، ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَدْعُونَ﴾: خبره، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: متعلق بـ ﴿يَدْعُونَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، وجملة ﴿ضَلَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿قَالُوا﴾. ﴿وَعُتُّوا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿عُتُّوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على قالوا. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿مِنْ﴾: زائدة ﴿يَحْيِيصُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية سادة مسدّ مفعولي ظن، لأنه علق عنهما بما النافية.

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّ قَنُوطٌ﴾ ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَسْتَمُ﴾، ﴿وَإِنْ﴾: الواو: عاطفة. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿مَسَّهُ الشَّرُّ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَيَتَوْسَّ﴾: الفاء رابطة الجواب وجوباً، ﴿يَتَوْسَّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهو يتوسس ﴿قَنُوطٌ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية في محل الجزم، بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿لَا يَسْتَمُ﴾. ﴿وَلَيْنَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، واللام موطئة للقسم، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم ﴿أَذَقْنَهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول ثان لـ ﴿أَذَقْنَهُ﴾. ﴿مِنَّا﴾ صفة لـ ﴿رَحْمَةً﴾. ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَذَقْنَهُ﴾،

﴿ضَرَّاءٌ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف لألف التانيث الممدودة. ﴿سَتَّاءٌ﴾: فعل ماضٍ ومفعول به. وفاعل مستتر يعود على ضراء، والجملة الفعلية في محل الجر، صفة لـ ﴿ضَرَّاءٌ﴾، وجواب الشرط محذوف، لسد جواب القسم مسده، تقديره: وإن أذقناه رحمة منا، يقول هذا لي، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه على القاعدة المشهورة، فيما إذا اجتمع شرط وقسم، يكون الجواب للسابق، وجواب الآخر محذوف ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ اللام: رابطة لجواب القسم، مؤكدة للأولى ﴿يقولن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب والجازم. مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، والجملة الفعلية جواب القسم. لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مع جوابه، معطوفة على جملة قوله: وإن مسه الشر ﴿هَذَا﴾: مبتدأ. ﴿لي﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، واللام فيه للاستحقاق؛ أي: استحققه بعلمي، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿ليقولن﴾.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿أَظُنُّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ﴿السَّاعَةَ﴾: مفعول أول لـ ﴿أَظُنُّ﴾، ﴿قَائِمَةً﴾: مفعول ثانٍ له، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: هذا لي، على كونها مفعولاً لـ ﴿يَقُولُ﴾، ﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطن للقسمة. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم، ﴿رُجِعْتُ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾: متعلق بـ ﴿رُجِعْتُ﴾، وجواب الشرط محذوف لسد جواب القسم مسده، على القاعدة المذكورة في قوله:

وَأَحْذِفْ لَدَىٰ أَجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمٍ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمٌ

والتقدير: وإن رجعت إلى ربي فإن لي عنده للحسنى، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه، لا محل لها من الإعراب. ﴿إن﴾ حرف نصب. ﴿لي﴾: خبر مقدم لـ ﴿إن﴾، ﴿عِنْدُ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال

من الحسنی ﴿لَلْحُسْنَى﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿الحسنی﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه، معطوفة على جملة قوله: هذا لي، على كونها مقولاً ليقولن ﴿فَلَنَنبِئَنَّ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حال الكافر المذكور، وأردت بيان عاقبته.. فأقول لك، ﴿لَنَنبِئَنَّ﴾ واللام: موطئة للقسم، ﴿نَنبِئَنَّ﴾: فعل مضارع مبني على الفتح، في محل الرفع، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن، ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب. مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿يَمَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿نَنبِئَنَّ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، وما موصولة أو مصدرية. ﴿عَمِلُوا﴾ فعل وفاعل، صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما عملوه، أو صلة لما المصدرية؛ أي: بعملهم. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمُ﴾ ﴿الْوَاوُ﴾: عاطفة، واللام موطئة للقسم. ﴿نُذِيقَنَّهُمُ﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والهاء ضمير الغائبين في محل النصب مفعول أول، ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿نُذِيقَنَّهُمُ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له ﴿عَلِيظٍ﴾ صفة لـ﴿عَذَابٍ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَنَنبِئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

﴿وَإِذَا أُنْمِتْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أُغْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الْوَاوُ﴾: استئنافية، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أُنْمِتْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل خفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿أُغْرَضَ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الإنسان، وجملة أعرض جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة إذا مستأنفة. ﴿وَنَا﴾ ﴿الْوَاوُ﴾: عاطفة. ﴿نَايَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر. معطوف على أعرض، ﴿بِجَانِبِهِ﴾

متعلق بـ ﴿نَآءٍ﴾، ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الْوَاوِ﴾: عاطفة، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مَسَّهُ الشَّرُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، ﴿فَدُّوْا دُعَاءَكُمْ﴾ الفاء: رابطة لجواب إذا وجوباً ﴿ذُو﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو ذو دعاء. ﴿ذُو﴾ مضاف ﴿دُعَاءَكُمْ﴾: مضاف إليه، ﴿عَرِضَ﴾: صفة ﴿دُعَاءَكُمْ﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الأولى.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلَّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة، ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ومفعول ﴿رَأَى﴾ الأول: محذوف، وتقديره: أرايتم أنفسكم. والثاني: هو الجملة الاستفهامية. ﴿إِنْ﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بأن على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير مستتر فيها، تقديره: هو يعود على القرآن. ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿كَفَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم، معطوف على ﴿كَانَ﴾. وجواب الشرط محذوف تقديره: فأنتم أضل من غيركم، أو ليس ثمة أضل منكم، وجملة الشرط جملة اعتراضية، لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المفعولين الأول والثاني. ﴿بِهِ﴾ متعلقان به ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام، في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَضَلَّ﴾: خبره. ﴿مِمَّنْ﴾ متعلق بـ ﴿أَضَلَّ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ خبر، ﴿بَعِيدٍ﴾ صفة ﴿شِقَاقٍ﴾، والجملة الاسمية صلة من الموصولة. ﴿سَرُّهُمْ﴾ السين حرف استقبال. ﴿نَرِيهِمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول ﴿ءَايَتُنَا﴾ مفعول ثان. والرؤية هنا بصرية، فلذلك عدت إلى اثنين

فقط، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ حال من آياتنا، ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾: معطوف على في الآفاق، ﴿حَتَّى﴾: حرف جر وغاية ﴿يَبَيِّنَ﴾: فعل مضارع منصوب، بأن مضمرة وجوباً بعد حتى، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ﴿يَبَيِّنَ﴾، ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ناصب واسمه، وخبره، وجملة أن في تأويل مصدر، مرفوع على الفاعلية ليتبين، تقديره: حتى يتبين لهم كونه الحق من ربهم، وجملة يتبين صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، تقديره: إلى تبين كونه الحق، الجار والمجرور متعلق بـ﴿سُئِرِيهِمْ ءَايَاتِنَا﴾، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف يقتضيه السياق، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يغنهم ولم يكفهم، والجملة المحذوفة جملة استفهامية، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَكْفِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿رَبِّكَ﴾ الباء زائدة، ﴿رَبِّكَ﴾: فاعل مجرور لفظاً مرفوع محلاً، والمفعول محذوف تقديره: أو لم يكفك ربك، أو لم يكفهم ربك، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أَنَّهُ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿شَهِيدٌ﴾، و﴿شَهِيدٌ﴾: خبر ﴿أَنْتَ﴾، وجملة ﴿أَنْتَ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر، مرفوع على كونه بدلاً من ربك، والتقدير: أو لم يكف ربك شهادته على كل شيء، ﴿أَلَا﴾ حرف استفتاح ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي مَرِيَّةٍ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿مَرِيَّةٍ﴾، أو صفة له، ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح، ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ﴿مُحِيطٌ﴾، و﴿مُحِيطٌ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة أيضاً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ﴾ وهو من المضاعف، أصله: يردد بوزن يفعل نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء، فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية، فصار يرد بوزن يفل. ﴿يَنْ أَكْمَامَهَا﴾ قال في «القاموس»: الكم بضم الكاف، مدخل اليد ومخرجها من الثوب، والجمع أكمام وكممة، وبكسرهما وعاء الطلع وغطاء النور كالكمامة،

والكمة بالكسر فيهما، والجمع أكمة وأكام وكمام، ويؤخذ من «الأساس»، وغيرها من المعاجم الكبرى، الكم بضم الكاف مدخل اليد ومخرجها من الثوب، جمعه أكام، وكمة بكسر الكاف، والكمة بضم الكاف، القلنسوة المدورة، وكل ظرف غطيت به شيئاً، وألبسته إياه فصار له، كالغلاف، والكم بكسر الكاف، الغلاف الذي يحيط بالزهر، أو الثمر، أو الطلع فيستره، ثم ينشق عنه جمعه أكمة، وأكام وكمام وأكاميم، ومن ذلك أكام الزرع؛ أي: غلفها التي يخرج منها، وأكمة الخيل مخاليتها المعلقة على رؤوسها، الواحد منها كمام، والكمامة بكسر الكاف غطاء الزهر، ووعاء الطلع. والكمامة أيضاً بالكسر، والكمام ما يكمن به فم الحيوان، لثلا يعضّ، أو يأكل إلى آخر هذه المادة المطولة.

﴿مِنْ مَّحِيصٍ﴾؛ أي: مهرب، اسم مكان، من حاص كمبيص من باع، وأصله: محيص بكسر الياء، بوزن مفعّل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى الحاء، فسكنت فصارت حرف مد، من حاص يحيص حيصاً ومحيصاً إذا هرب، وفي «المفردات»: أصله من قولهم: وقع في حيص بيص؛ أي: في شدة، وحاص عن الحق، يحيص إذا حاد عنه إلى شدة ومكروه. وفي «القاموس»: حاص عنه إذا عدل، وحاد، والمحيص المحيد والمعدل والمميل والمهرب.

﴿فَيُؤَسُّ قَنُوطٌ﴾ وفي «المختار»: اليأس القنوط، وقد يش من الشيء من باب فهم، وفيه لغة أخرى، يش ييش بالكسر فيهما، وهي شاذة. ورجل يؤس وييش، أيضاً، وبمعنى علم في لغة النخع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِشَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وآيسه من كذا، فاستيأس منه، بمعنى أس اهـ. وفيه أيضاً أس منه، لغة في يش، وبابهما فهم، وآيسه منه غيره بالمد، مثل أيأسه، وكذا آيسه بتشديد الياء تأيساً اهـ، وفيه أيضاً القنوط اليأس، وبابه جلس ودخل وطرب وسلم، فهو قنط وقنوط وقانط، فأما قنط يقنط بالفتح فيهما، وقنط يقنط بالكسر، فإنما هو على الجمع بين اللغتين اهـ، والفرق بين اليأس والقنوط، أن اليأس انقطاع الرجاء القلبي من حصول الخير، والقنوط ظهور أثر ذلك على البدن، من المذلة والانكسار والحزن.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾ أصله: أظنن بوزن أفعل، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء، فسكنت فأدغمت في النون الثانية، فصار أظن بوزن أفل ﴿وَنَا بِحَايَةٍ﴾ قرأه الجمهور ﴿نأى﴾، وفيه إعلال بالقلب أصله: نأى بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، وقرأ ابن ذكوان وغيره عن ابن عامر ﴿وناء﴾ بتقديم الألف على الهمزة بوزن بَاء إما لأنه من ناء ينوء، بمعنى نهض، وليس من النأى أو من نأى، ووقع في الكلمة قلب مكاني، حيث قدمت لام الفعل التي هي الياء، وجعلت مكان العين التي هي الهمزة، ثم أبدلت الياء المقدمة ألفاً، لتحركها بعد فتح، والله أعلم، وعلى أنه من ناء ينوء، فأصله: نوا بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً، لتحركها بعد فتح، ومعناه: نهض، وفي «الفتوحات»: ناء بتأخير الهمزة عن الألف بوزن قال، ونأى بتقديم الهمزة على الألف بوزن رمى، اهـ.

﴿سَرِيرِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ أصله: سئرئهم، بوزن سنفعل نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت للتخفيف، ثم سكنت الياء لوقوعها بعد كسرة، لتكون حرف مد. والآفاق جمع أفق بضمين، كأعناق وعنق أبدلت همزته ألفاً. وهي الناحية من نواحي الأرض، وكذا آفاق السماء نواحيها وأطرافها كذا قال أهل اللغة، ونقل الراغب: أنه يقال: أفق بفتحتين كجبل وأجبال، وأفق فلان؛ أي: ذهب في الآفاق، والآفاقي الذي بلغ نهاية الكرم تشبيهاً في ذلك بالذاهب في الآفاق، والنسبة إلى الأفق أفقي بفتحهما، قلت: ويحتمل أنه نسبة إلى المفتوح، واستغنوا بذلك عن النسبة إلى المضموم، وله نظائر اهـ «فتوحات».

﴿فِي مَرِيَجٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ لقاء فيه إعلال بالقلب أصله: لقاى أبدلت الياء همزة، لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ من الإحاطة، والإحاطة إدراك الشيء بكماله، وفيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: محوط بوزن مفعل، نقلت حركة الواو إلى الحاء، فسكنت إثر كسرة، فقبلت ياء حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرورياً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان

والبيدع:

فمنها: الحصر المستفاد من تقديم المعمول على عامله، في قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ﴾؛ أي: لا إلى غيره.

ومنها: الطباق بين ﴿رَحْمَةً﴾ و﴿ضَرَاءً﴾.

ومنها: وصف الجنس بوصف غالب أفراده، في قوله: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ﴾ لأن اليأس من رحمة الله، لا يتأتى إلا من الكافر.

ومنها: المبالغات في قوله: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ وقد تضمن هذا الكلام مبالغات، حيث أكد بالقسم، وبيان، وبتقديم الطرفين، وبالعدول إلى صيغة التفضيل، إذ الحسنى تأنيث الأحسن، وإنما يقول ذلك، لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا، يستحقه، فيستحق مثله في الآخرة. اهـ «كرخي».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَنَا بِحَايَةِ﴾؛ لأن الجانب مجاز عن النفس، كالجنب في قوله تعالى: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ علاقته الكلية والجزئية.

ومنها: الاستعارة المكنية، التخيلية في قوله: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ فقد شبه الدعاء بأمر يوصف بالامتداد، ثم أثبت له العرض، فاستعار العرض لكثرة الدعاء وديمومته، وهو من صفات الأجرام، ويستعار له الطول أيضاً، ولكن استعارة العرض أبلغ؛ لأنه إذا كان عرضه كذلك، فما ظنك بطوله، والطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه بهذه المثابة. . فناهيك بطوله.

ومنها: تنكير عريض للدلالة على التعريض.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

مجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

- ١ - وصف الكتاب الكريم.
- ٢ - إعراض المشركين عن تدبره.
- ٣ - جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين.
- ٤ - إقامة الأدلة على الوحدانية.
- ٥ - إنذار المشركين بأنه سيحل بهم ما حل بالأمم قبلهم.
- ٦ - شهادة الأعضاء عند الحشر على أربابها.
- ٧ - ما يفعله قرناء السوء من التضليل والصد عن سبيل الله.
- ٨ - ما كان يفعله المشركون حين سماع القرآن.
- ٩ - طلب المشركين إهانة من أضلوهم انتقاماً منهم.
- ١٠ - ما يلقاه المؤمنون من الكرامة يوم العرض والحساب.
- ١١ - إعادة الأدلة على الوحدانية.
- ١٢ - القرآن هداية ورحمة.
- ١٣ - إحاطة علم الله وعظيم قدرته.
- ١٤ - من طبع الإنسان التكبر عند الرخاء والتضرع وقت الشدة.
- ١٥ - آيات الله في الآفاق والأنفس الدالة على وحدانيته وقدرته.
- ١٦ - شك المشركين في البعث والنشور ثم الرد عليهم^(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

(١) وكان الفراغ من تفسير هذه السورة يوم السبت وقت الضحوة، في السابع من شهر شوال، من شهور سنة ألف وأربع مئة، وأربع عشرة، سنة ١٠/٧ / ١٤١٤ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

سورة الشورى

سورة الشورى، وتسمى سورة حم عسق، وسورة حم عسق مكية في قول^(١) ابن عباس والجمهور، وحكي عن ابن عباس: إلا أربع آيات، نزلت بالمدينة، أولها: ﴿قُلْ لَا اسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وقيل: فيها من المدني: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾، إلى قوله: ﴿يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وقوله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾^(٢) إلى قوله: ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾.

وآيها: ثلاث وخمسون آية، نزلت بعد فصلت. وكلماتها: ثمان مئة وست وثمانون كلمة. وحروفها: ثلاثة آلاف، وخمس مئة، وثمانية وثمانون حرفاً، والله تعالى أعلم.

ومناسبتها لما قبلها^(٣): اشتمال كل منهما على ذكر القرآن، ودفع مطاعن الكفار فيه، وتسلية النبي ﷺ على ذلك.

وقال أبو حيان^(٣): مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها، أنه قال فيما قبلها: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ الآية، وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال، لما كفروا به، وقال هنا: ﴿كَذَلِكَ﴾؛ أي: مثل الإيحاء السابق في القرآن، الذي كفر به هؤلاء ﴿يُوحَى إِلَيْكَ﴾؛ أي: إن وحيه تعالى إليك متصل غير منقطع، يتعهدك وقتاً بعد وقت.

ومن فضائلها: ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ حم عسق، كان ممن يصلي عليه الملائكة، ويستغفرون له ويسترحمون له».

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله، محمد بن حزم: سورة الشورى كلها محكم، غير ثماني آيات:

(٣) البحر المحيط.

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

أولاهن: قوله تعالى: ﴿يُسَيِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الآية (٥) نسخت بالآية التي في سورة المؤمن: ﴿يُسَيِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (٧).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ نسخت بآية السيف.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُْ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٥)، نسخت بقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَتَلَبَّسُوا الدِّيبَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الآية (٢٠)، نسخت بقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ﴾.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ الآية (٢٣)، مختلف في نسخها، ناسخها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ الآية (٤٧) سبأ.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩).

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) الآيتان، نسختا بقوله عز وجل: ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٢).

الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ الآية (٤٨) نسخت بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٣﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظُ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنَ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٩﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرْكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٠﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَلَئِنْ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَقِمَ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ مَا أَمَرْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يَخَافُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمَ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارَضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ...﴾ الآيات، مناسبة أول هذه السورة لآخر السابقة: أنه قال في آخر السابقة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ...﴾ الآية، ولما كان في ذلك، الحكم عليهم بالضلال لما كفروا به، قال هنا كذلك؛ أي: مثل الإيحاء السابق في القرآن، الذي كفر به هؤلاء يوحى إليك؛ أي: إن وحيه تعالى إليك، متصل غير منقطع، يتعهدك وقتاً بعد وقت.

وبين سبحانه: أن ما جاء في هذه السورة، موافق لما في تضاعيف الكتب، المنزلة على سائر الرسل، من الدعوة إلى التوحيد، والإيمان باليوم الآخر، والتزهيد في جمع حطام الدنيا، والترغيب فيما عند الله، ثم ذكر أن ما في السموات والأرض فهو ملكه وتحت قبضته، وله التصرف فيه إيجاداً وإعداماً، وتكويناً وإبطالاً وأن السموات والأرض على عظمهما، تكاد تتشقق فرقاً من هيئته، وجلاله سبحانه، وأن الملائكة ينزهونه عما لا يليق به، من صفات النقص، ويطلبون المغفرة لعباده المؤمنين، ثم أردف هذا بتسليية رسول ﷺ، بأنه ليس بالرقيب على عبدة الأصنام والأوثان، فيستطيع أن يردهم إلى سواء السبيل، بل ليس عليه إلا البلاغ، وعلينا حسابهم، فلا يبخع نفسه عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما^(١) بين فيما سلف، أنه هو الرقيب على عباده، المحصي لأعمالهم، وأنه ﷺ نذير فحسب، وليس عليه إلا البلاغ... ذكر هنا أنه أنزل كتابه بلغة العرب، ليفهمه قومه من أهل مكة، وما حولها كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾ وينذرهم، بأن يوم القيامة آت لا شك فيه، وأن الناس إذ ذلك فريقان: فريق يدخل الجنة، بما قدّم من صالح

(١) المراغي.

الأعمال، وفريق يدخل النار بما دسّى به نفسه من سيّء الأفعال، ثم ذكر أنّ حكمته اقتضت أن يكون الإيمان بالتكليف اختياراً، ولم يشأ أن يكون قسراً وجبراً، ولو شاء أن يكون كذلك لفعل، فمن أخبت الله وأتاب وعمل صالحاً أفلح، وفاز بالسعادة، ومن عاث في الأرض فساداً، واتجهت همته إلى ارتكاب الشرور والآثام خسر، وباء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المهاد، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً.

قوله تعالى: ﴿أَرِ اخْذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر أنهم اتخذوا من دون الله أولياء، وأن الله وكيل عليهم، ولست أيها الرسول بالحفيظ عليهم. . طلب إليه هنا، أن يدع الاهتمام بأمرهم، ويقطع الطمع في إيمانهم، مبيناً أنهم اتخذوا من دون الله أولياء، وهو سبحانه الولي حقاً، القادر على كل شيء فقد عدلوا إلى ما لا نسبة بينه وبينهم بحال.

قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾ الآية، مناسبة لما قبلها: أنه سبحانه لما عظم^(١) وحيه إلى رسوله ﷺ، وأبان ما له من كبير الخطر، حين نسبه إليه تعالى، وأنه صادر من عزيز حكيم، لا يوحى إلا بما فيه مصلحة البشر، ومنفعتهم في دينهم ودنياهم. . ذكر هنا تفصيل هذا الوحي، وأرشد إلى أنه هو الدين الذي وصّى به أكابر الأنبياء، وأصحاب الشرائع العظيمة، والأتباع الكثيرة، وأردف ذلك أن المشركين يشقّ عليهم دعوتهم إلى التوحيد، وترك الأنداد والأوثان، وأنّ الله يهدي من يشاء من عباده لهدي دينه، وأنهم ما خالفوا الحق إلا بعد إبلاغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وأنه ما حملهم على ذلك إلا البغي والعدوان والحسد، وأنه لولا الكلمة السابقة من الله، بإنظار المشركين بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد. . لعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن من اعتنقوا الأديان من بعد الأجيال الأولى، ليسوا على يقين من أمرهم، وإيمانهم،

(١) المراغي.

وإنما هم مقلّدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب، وشقاق بعيد.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعِ وَأَسْتَقِمْ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أَنَّ الله سبحانه، لما^(١) أمرهم بالوحدة في الدين وعدم التفرّق فيه، وذكر أنهم قد تفرّقوا فيه من بعد ما جاءهم العلم بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً، أمر رسوله ﷺ، بالدعوة إلى الاتفاق على الملة الحنيفية والثبات عليها، والدعوة إليها، وأن لا يتبع أهواءهم الباطلة. ثم أمره بالإيمان بجميع الكتب السماوية وبالعدل بين الناس والمساواة بينهم وبين نفسه، فلا يأمرهم بما لا يعمل، أو يخالفهم فيما نهاهم عنه، ثم أردف ذلك ببيان أن إلههم جميعاً واحد، وأنّ كل امرئ مسؤول عن عمله، وأن الله يجمع الناس يوم القيامة، ويجازيهم بأعمالهم.

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة، على عشرة أوامر ونواه، كل منها مستقل بذاته ودالّ على حكم برأسه، ولا نظير لها في ذلك إلا آية الكرسي، فهي عشرة فصول أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّوكَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جُمُوعُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أَنَّ الله سبحانه وتعالى، لما ذكر فيما سلف، أن لا محاجة بين المشركين والمؤمنين لوضوح الحجة، بين هنا أنّ الذين يخاصمون في دين الله، من بعد ما استجاب الناس له، ودخلوا فيه أفواجا، حجتهم في الصرف عنه زائفة، لا ينبغي النظر إليها، وعليهم غضب من ربهم، لمكابرتهم للحقّ بعد ظهوره، ولهم عذاب شديد يوم القيامة.

رُوي: أن اليهود قالوا للمؤمنين: إنكم تقولون: إن الأخذ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف فيه، ونبوة موسى وتوراته مسلّمة بيننا وبينكم، ونبوة محمد ﷺ ليست كذلك، وإذا الأخذ باليهودية أولى فدحض الله سبحانه وتعالى هذه الحجة، بأنّ الإيمان بموسى إنما وجب لظهور المعجزات على يديه. دالة

(١) المراغي.

على صدقه، وقد ظهرت المعجزات على يدي محمد ﷺ، واليهود قد شاهدوها، فوجب الاعتراف بنبوته، ثم أردف ذلك تخويفهم يوم القيامة، حتى يستعدوا له ويتركوا المماراة بالباطل، ثم ذكر أن المشركين يستعجلون به استهزاء، وإنكاراً لوجوده، والمؤمنون خائفون منه لعلمهم بالجزاء حينئذ، ثم أعقب ذلك بذكر أن المماراة في الساعة ضلال بيّن، لتظاهر الأدلة على حصولها لا محالة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية^(١): ما أخرجه ابن المنذر عن عكرمة، قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال المشركون بمكة، لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أظهرنا، فعلام تقيمون بين أظهرنا، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ...﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ...﴾ الآية، قال: هم اليهود والنصارى، قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝﴾ اسمان^(٢) للسورة، ولذلك فصل بينهما في الكتابة، وعدّا آيتين، بخلاف كهيعص والمصر والمر، فإنها آية واحدة. وقيل: هما اسم واحد للسورة وآية واحدة، وفصلت لتطابق سائر الحواميم، فعلى الأول: يكونان خبرين لمبتدأ محذوف. وعلى الثاني: يكون خبراً لذلك المبتدأ المحذوف، وقرأ ابن مسعود وابن عباس ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الحاء حكم الله، والميم ملك الله، والعين علو الله، والسين سناء الله، والقاف قدرة الله، أقسم الله بها، فكانه يقول: فبحكمي وملكي وعلوي وسنائي وقدرتي،

(٢) روح البيان.

(١) لباب النقول.

لا أعذب عبداً قال: لا إله إلا الله مخلصاً فلقيني بها. ومعناه على ما قاله أبو الليث في تفسيره: لا يعذبه عذاباً دائماً خالداً. وفي الحديث: «افتتحوا صبيانكم بلا إله إلا الله، ولقنوا موتاكم بلا إله إلا الله» والحكمة في ذلك أنّ حال الصبيان حال حسن لا غلّ - غش - في قلوبهم، وحال الموتى حال الاضطرار، فإذا قلتم في أول ما يجري عليكم القلم، وآخر ما يجفّ عليكم القلم، فعسى الله أن يتجاوز ما بين ذلك.

واختلفوا^(١) في حمّ، فأخرجها بعضهم من حيّز الحروف، وجعلها فعلاً فقال: معناها حم الأمر؛ أي: قضى، وبقي عسق على أصله، وفي «المراغي»: وقد تقدم قولنا: إن الحروف المقطعة التي جاءت في أوائل السور، حروف تنبيه، نحو: ألا ويا، ونحوها، يؤتى بها لإيقاظ السامع، وتنبيهه إلى ما سيلقى إليه من الأمور العظام، المشتملة عليها هذه السورة، وينطق بأسمائها هكذا ﴿حاميم عين سين قاف﴾.

وقيل غير ذلك، مما هو متكلف متعسف، لم يدل عليه دليل، ولا جاء به حجة، ولا شبهة حجة، والأسلم تفويض علمه إلى الله تعالى، فيقال: الله أعلم بمراده بذلك.

﴿كَذَلِكَ يُرْجَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه: ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه، والكاف في حيز النصب على أنه مفعول ليوحى، والجلالة فاعله؛ أي: مثل ما في هذه السورة من المعاني، يوحى الله العزيز الحكيم إليك، في سائر السور، وإلى من قبلك من الرسل في كتبهم، على أن مناط المماثلة هو الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق، وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد، ويجوز أن يكون الكاف في حيز النصب، على أنه نعت لمصدر مؤكد ليوحى؛ أي: مثل إحياء هذه السورة؛ يوحى الله العزيز الحكيم إليك، عند إحياء سائر السور، وإلى سائر الرسل عند إحياء كتبهم إليهم لا إحياء مغايراً على أن مدار

(١) الخازن.

المثلية كونه بواسطة الملك.

وإنما ذكر^(١) بلفظ المضارع، مع أن مقتضى المقام، أن يذكر بلفظ الماضي، ضرورة أن الوحي إلى الذين من قبله قد مضى، دلالة على استمرار الوحي، تجددته وقتاً فوقتاً، وأن إحياء مثله عادته تعالى، ويجوز أن يكون إيذاناً أن الماضي والمستقبل بالنسبة إليه تعالى واحد، كما في «الكواشي». وقيل^(٢): إن المضارع استعمل في حقيقته، ومجازه مستعمل في المستقبل، بالنظر إلى ما لم ينزل عليه من القرآن إذ ذاك وفي الماضي بالنظر لما أنزل بالفعل، وبالنظر إلى ما أنزل على الرسل السابقين، ووجه الشبه أن الموحى به في الكل، يرجع لأمر ثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث. فهذا القدر موجود في القرآن وغيره من الكتب، اهـ شيخنا. وفي «زاده»: ووجه المشابهة الاشتراك في الدعوة إلى التوحيد، والنبوة والمعاد وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب في أمور الآخرة اهـ.

وقال الشوكاني: والمعنى: أي^(٣) مثل ذاك الإحياء الذي أوحى إلى سائر الأنبياء من كتب الله، المنزلة عليهم، المشتملة على الدعوة إلى التوحيد، والبعث يوحى الله إليك يا محمد في هذه السورة، وقيل: إن حمّ عسق أوحيت إلى من قبله من الأنبياء، فتكون الإشارة بقوله: كذلك إليها اهـ.

وقرأ الجمهور^(٤): ﴿يُوحَى﴾ بكسر الحاء مبنياً للفاعل، والفاعل الله، وهي واضحة اللفظ والمعنى: وقرأ أبو حيوة والأعمش وأبان ﴿نوحى﴾ بنون العظمة مع كسر الحاء، وقرأ مجاهد، وابن كثير وابن محيصة وعباس ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو ﴿يوحى﴾ بفتح الحاء مبنياً للمفعول، والقائم مقام الفاعل ضمير مستتر يعود على ذلك، والتقدير: مثل ذلك الإحياء يوحى هو إليك، أو القائم مقام الفاعل إليك، أو الجملة المذكورة؛ أي: يوحى إليك هذا اللفظ أو القرآن، أو مصدر يوحى وارتفاع اسم الجلالة، على أنه فاعل لفعل محذوف، كأنه قيل:

(٣) الشوكاني.

(١) روح البيان.

(٤) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

من يوحى فليل: يوحى الله العزيز الحكيم، أو على الابتداء، والتقدير: الله العزيز الحكيم هو الموحى. وعلى قراءة النون يكون قوله: الله العزيز الحكيم، في محل نصب، والمعنى عليه: نوحى إليك هذا اللفظ.

والمعنى^(١): أي بمثل ما في هذه السورة من الدعوة إلى التوحيد، والنبوة والإيمان باليوم الآخر، وتجميل النفس بفاضل الأخلاق، وتبعيدها عن رذائل الأخلاق، والعمل على سعادة المرء والمجتمع، يوحى إليك الله العزيز في ملكه الغالب بقره، الحكيم بصنعه المصيب في قوله وفعله، كما أوحى إلى الأنبياء بمثله من قبلك.

وسياتي تفصيل هذا في سورة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فقد ذكر في أولها التوحيد، وفي وسطها النبوة، وفي آخرها المعاد، ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَنَفِي الضُّحَى الْأَوَّلَى﴾ ﴿صُفِّى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾. أي: إن المقصود من إنزال جميع الكتب الإلهية، ليس إلا هذه المطالب الثلاثة العالية، التي لا تتم السعادة إلا بها، ولا الفوز بالنعيم في الدارين إلا بسلوكها.

ثم بين سبحانه عظمته وكبريائه وحكمته فقال: ﴿لَهُ﴾ سبحانه لا لغيره ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى يختص به جميع ما في العوالم العلوية والسفلية، خلقاً وملكاً وعلماً، ذكر سبحانه هذا الوصف لنفسه، وهو ملك جميع ما في السموات والأرض لدلالته على كمال قدرته، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْعَلِيُّ﴾؛ أي: الرفيع الشأن ﴿الْعَظِيمُ﴾ الملك والقدرة والحكمة، أو هو العلي؛ أي: المرتفع عن مدارك العقول، إذ ليس كذاته ذات، ولا كصفاته صفات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، وهو العظيم الذي يصغر عند ذكره وصف كل شيء سواه، والعظيم من العباد، الأنبياء والعلماء الوارثون لهم، فالنبي العظيم في حق أمته، والأستاذ العظيم في حق تلميذه، وإنما العظيم المطلق، هو الله سبحانه وتعالى.

(١) المراغي.

والخلاصة^(١): أي إن ما في السموات والأرض تحت قبضته، وفي ملكه، وله التصرف فيه إيجاداً وإعداماً، وهو المتعالي فوقه، العظيم عن مماثلته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ﴾؛ أي: تقرب السموات يتشققن من عظمة وخشية وهيبة الإله الذي ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾؛ أي: فوق السموات بالألوهية والقهر والعظمة والقدرة، والتفطر التشقق، قال^(٢) الضحاك والسدي: يتشققن من عظمة الله وجلاله من فوقهن. وقيل: المعنى: تكاد كل واحدة تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين: اتخذ الله ولداً، وقيل: من فوقهن من فوق الأرضين، والأول أولى، ومن في قوله: من فوقهن لابتداء الغاية؛ أي: يبتدىء التفطر من جهتهن الفوقانية إلى جهتهن التحتانية.

ووجه تخصيص^(٣) جهة الفوق، أنها أقرب إلى أعظم الآيات، وأدلها على القدرة الباهرة من العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله من آثار الملكوت العظمى، فكان المناسب أن يكون تفطر السموات مبتدأ من تلك الجهة، بأن يتفطر أولاً أعلى السموات ثم إلى أن ينتهي إلى أسفلها، بأن لا تبقى سماء إلا سقطت على الأخرى.

وقيل: تتشققن من أدعاء الولد له، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِزُّ اللَّيَالِ هَذَا أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾، فتخصيصها حينئذٍ للدلالة على التفطر من تحتها بالطريق الأولى؛ لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض، إذا أثرت في جهة الفوق فلأن تؤثر في جهة التحت أولى، وقيل: لنزول العذاب منهن.

وقرأ الجمهور: ﴿تَكَادُ﴾ بالفوقية، وكذلك ﴿تتفطرن﴾ قرؤوه بالفوقية مع

(٣) روح البيان.

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

تشديد الطاء، وقرأ نافع والكسائي وابن وثاب ﴿يَكَادُ﴾، ﴿يَنْفَطِرُنَ﴾ بالتحتيه فيهما. وقرأ أبو عمرو والمفضل وأبو بكر وأبو عبيد: ﴿يَنْفَطِرُنَ﴾ بالتحتيه والنون من الانفطار كقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝﴾.

وبعد أن بين كمال عظمته، باستيلاء هيئته على الجسمانيات، انتقل إلى ذكر الروحانيات فقال: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ﴾ هذا كلام مستأنف، لا تعلق له بما قبله؛ أي: ينزهونه تعالى عما لا يليق به، من الشريك والولد، وسائر صفات الأجسام، حال كونهم متلبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ سبحانه وتعالى، فقدم التسبيح على الحمد؛ لأنّ التخليه مقدمة على التحلية، وقيل: إن التسبيح موضوع موضع التعجب؛ أي: يتعجبون من جراءة المشركين على الله. وقيل: معنى ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ بأمر ربهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: للمؤمنين بالشفاعة، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فالمطلق محمول على المقيد، أو يستغفرون للمؤمن والكافر والفاسق، بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم، من الشفاعة والإلهام، وترتيب الأسباب، المقربة إلى الطاعة، واستدعاء تأخير العقوبة، جمعاً في إيمان الكافر وتوبة الفاسق، وتكون الآية عامة، وهذا لا ينافي كون الملائكة لاعنين للكفار من وجه آخر، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ﴾، وفي الحديث: «ما فيها موضع أربع أصابع، وفي رواية موضع راحة، إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض». وهذا يدل على أن المراد بالملائكة في الآية: ملائكة السموات كلها، وقال مقاتل: حملة العرش، وإليه ذهب الكاشفي في تفسيره، ويدل عليه قوله تعالى، في أوائل سورة المؤمن: ﴿الَّذِينَ يَجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

يقول الفقير: تخصيص ملائكة العرش، لا ينافي من عداهم، فلعله من باب الترقى؛ لأنّ آية سورة المؤمن - غافر - مقيدة بحملة العرش، وباستغفار المؤمنين، وهذه الآية مطلقة في حق كل من الملائكة والاستغفار.

ثم بين سبحانه أن من شأنه المغفرة والرحمة لعباده، فقال: ﴿أَلَا﴾ للتنبيه؛

أي: اعلّموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾؛ أي: كثير المغفرة لعباده، يغفر ذنوب المقبلين ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير الرحمة بهم، بأن يرزقهم جنته وقربه، وبرحمته يأمر الملائكة بالاستغفار لبني آدم، مع كثرة عصيانهم، والكفار الذين يرتكبون الشرك، والذنوب العظام، لا يقطع رزقهم ولا صحتهم، وتمتعاتهم من الدنيا، وإن كان يريد أن يعذبهم في الآخرة.

يقول الفقير: إن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للمؤمنين، فالمؤمنون يسألون عليهم كما يقولون في التشهد: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إذ لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فالمنة لله تعالى على كل حال.

وفي الآية: إشارة إلى أن قوماً من الجهلة يقولون على الله ما لا يعلمون، ومن عظم افترائهم تكاد السموات تنشق من فوقهم؛ لأن الله تعالى ألبسها أنوار قدرته، وأدخلها روح فعله، حتى عقلت عبودية صانعها؛ وعرفت قدسه وطهارته عن قول الزائغين، وإشارة الملحدين، والملائكة يقدسون الله، عما يقولون فيه من الزور والبهتان، والدعاوى الباطلة، ويستغفرون للمؤمنين، الذين لم يبلغوا حقيقة عبوديته، فإنهم هم القابلون للإصلاح، لاعترافهم بعجزهم، وقصورهم، دون المصيرين المبتدعين.

وفي الآية: إيماء أيضاً إلى قبول استغفار الملائكة، وهو يزيد على ما طلبوه من المغفرة، الرحمة بهم، وتأخير عقوبة الكافرين والعصاة نوع من المغفرة والرحمة، لعلهم يراعون عن غوايتهم، ويثوبون إلى رشدهم، وينيبون إلى ربهم، ثم أبان وظيفة الرسل، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: أصناماً وأنداداً وشركاء، أشركوهم معه تعالى، في العبادة ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه ﴿حَفِظْتُ﴾؛ أي: رقيب ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أحوالهم، ومطلع على أعمالهم، ليس بغافل عنهم، فيجازيهم، لا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﷺ ﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: بموكل إليه أمورهم، ولا بموكل بهم، حتى تسأل عنهم وتؤخذ بهم، وإنما وظيفتك الإنذار وتبليغ الأحكام، قيل: وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

وفيه إشارة، إلى أن كل من عمل بمتابعة هواه، وترك الله حداً، ونقض له عهداً، فهو متخذ الشياطين أولياء؛ لأنه يعمل بأوامرهم، وأفعاله موافقة لطباعهم، الله حفيظ عليهم بأعمال سرهم وعلايتهم، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وما أنت عليهم بوكيل، لتمنعهم عن معاملتهم، فعلى العاقل أن لا يتخذ من دون الله أولياء، بل يتفرد بمحبة الله تعالى وولايته، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ حتى يتولاه في جميع أموره. وما أحوجه إلى أحد سواه.

حكاية: وقال الأستاذ أبو علي الدقاق - رحمه الله تعالى -: ظهرت علة بالملك يعقوب بن الليث، أعيت الأطباء، فقالوا له: في ولايتك رجل صالح، يسمى سهل بن عبد الله، لو دعا لك، لعل الله يستجيب له، فاستحضره فقال: ادع الله لي، فقال: كيف يستجاب دعائي فيك، وفي حبسك مظلومون، فأطلق كل من حبسه، فقال سهل: اللهم كما أريت ذل المعصية، فأره عز الطاعة، وفرج عنه، فعوفي، فعرض مالا على سهل، فأبى أن يقبله، فقيل له: لو قبلته ودفعته إلى الفقراء، فنظر إلى الحصباء في الصحراء، فإذا هي جواهر فقال: من يُعطى مثل هذا، يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث؟ فالمعطي والمانع والضار والنافع هو الله، الولي، الوكيل، الذي لا إله غيره.

والمعنى: أي والمشركون الذين اتخذوا آلهة من الأصنام، والأوثان، يعبدونها، الله هو المراقب لأعمالهم، المحصي لأفعالهم، وأقوالهم، المجازي لهم يوم القيامة على ما كانوا يفعلون، ولست أنت أيها الرسول، بالحفيظ عليهم، إنما أنت نذير تبليغهم ما أرسلت به إليهم، إن عليك إلا البلاغ، وعلينا الحساب، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإنك لست بمدرِك ما تريد من هدايتهم، إلا إذا شاء ربك.

والإشارة في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ إلى مصدر أوحينا، ومحل الكاف النصب على المصدرية. وقرآنًا عربياً مفعول به لأوحينا؛ أي: ومثل ذلك الإيحاء البديع، الواضح المفهم، أوحينا إليك إيحاء لا لبس به، عليك وعلى قومك.

والمعنى^(١): أي أنزلنا عليك قرآنًا عربياً، بلسان قومك، كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه. ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾؛ أي^(٢): لتخوف أهل مكة بعذاب الله، على تقدير إصرارهم على الكفر، والعرب تسمي أصل كل شيء بالأم، سميت أم القرى تشريفاً لها، وإجلالاً لاشتغالها على البيت المعظم، ومقام إبراهيم عليه السلام، ولما رُوي من أن الأرض دحيت من تحتها، فمنزلة القرى منها. البنات من الأمهات ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: حول أم القرى من العرب، وتفسير من حولها بالعرب لا ينافي عموم رسالته ﷺ؛ لأن تخصيص الشيء بالذكر لا ينافي حكم ما عداه. وقيل: من أهل الأرض كلها شرقاً وغرباً، وبذلك فسره البغوي فقال: من قرى الأرض كلها، وكذا القشيري حيث قال: العلم محقق بالكعبة ومكة؛ لأنهما سرّة الأرض.

والمعنى^(٣): أي ومثل ذلك الإيحاء البديع البين، أوحينا إليك قرآنًا عربياً بلسان قومك، لاختفاء فيه عليك، ولا عليهم، ليفهموا ما فيه من حجج الله وذكره، ولتنذر به أهل مكة، وما حولها من البلاد، إلى منقطع الأرض كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه.

وقصارى ذلك: أنا كما أوحينا إليك أنك لست بالحفيظ عليهم، ولا بالوكيل، أوحينا إليك قرآنًا عربياً، لتنذر أهل مكة وما حولها، وخص هؤلاء بالذكر؛ لأنهم أول من أُنذروا، ولأنهم أقرب الناس إليه، فلا دليل فيها على أنه أرسل إليهم خاصة، كيف وقد جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

وهذا الإنذار يعم شؤون الدنيا وشؤون الآخرة، ثم خصّ من بينها أمور الآخرة، بياناً لعظيم أهوالها، وشديد نكالها فقال: ﴿وَتُنْذِرَ﴾ أهل مكة ومن حولها ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾؛ أي^(٤): بيوم القيامة وما فيه من العذاب، سمي يوم الجمع؛

(١) الشوكاني.

(٣) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٤) روح البيان.

لأنه يجمع فيه الخلائق من الأولين والآخرين، وأهل السموات وأهل الأرض، أو الأرواح والأشباح أو الأعمال والعمال، أو الظالم والمظلوم، فالباء محذوف من اليوم، كما قال: لتنذر بأساً شديداً؛ أي: ببأس شديد. كما قاله أبو الليث. فيكون مفعولاً به لا ظرفاً، كما في «كشف الأسرار». وقد سبق نظير ذلك في سورة المؤمن: عند قوله: ﴿لِتُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

وجملة قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك في يوم الجمع، جملة معترضة، مقررة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب، أو صفة ليوم الجمع، أو حال منه، أي: لا بدّ من مجيء ذلك اليوم، وليس بمرتاب فيه في نفسه وذاته، لأنه لا بدّ من جزاء العاملين من المنذرين وأهل الجنة والنار، وارتباب الكفار فيه لا يعتد به. أو لا شك في الجمع أنه كائن، ولا بد من تحققه.

والمعنى^(١): أي ولتنذر الخلائق كافة، عقاب الله، يوم جمعهم للعرض والحساب، وهو يوم لا شك فيه، لتظاهر الأدلة على تحققه، عقلاً ونقلاً، فالحكمة قاضية بجزاء المحسن على إحسانه، ومعاقبة المسيء على إساءته، ولما فيه من نصوص قاطعة، على وجوده، لا تحتمل تأويلاً ولا تفسيراً.

ثم ذكر عاقبة العرض والحساب، فقال: ﴿فَرِيقٌ﴾ منهم، وهم المؤمنون ﴿فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ﴾ منهم وهم الكافرون ﴿فِي السَّعِيرِ﴾؛ أي: في النار سميت بها لالتهابها، وذلك بعد جمعهم في الموقف؛ لأنهم يجمعون فيه أولاً، ثم يفرقون بعد الحساب، وقرأ الجمهور^(٢): برفع ﴿فَرِيقٌ﴾: في الموضعين، إما على أنه مبتدأ، وخبره الجار والمجرور، وسوّغ الابتداء بالنكرة، كونه في معرض تفصيل، أو كونه موصوفاً بصفة محذوفة؛ أي: فريق منهم، كما قدرناه أولاً في حلنا، أو على أن الخبر مقدّر قبله، أي: منهم فريق في الجنة ومنهم فريق في السعير. وجاز حينئذٍ الابتداء بالنكرة لأمرين تقديم خبرها، وهو الجار والمجرور المحذوف، ووصفها بقوله في الجنة، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو ضمير

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

عائد إلى المجموعين المدلول عليهم بذكر الجمع؛ أي: هم فريق في الجنة وفريق في السعير، وقرأ زيد بن عليّ ﴿فريقاً﴾ بالنصب في الموضعين على الحال، من جملة محذوفة؛ أي: افترقوا حال كونهم فريقاً كذا وفريقاً كذا. وجوز الفراء والكسائي النصب على تقدير لتنذر فريقاً. والضمير المجرور في منهم للمجموعين، لدلالة لفظ الجمع عليه، فإن المعنى يوم يجمع الخلائق في موقف الحساب.

وفي «التأويلات النجمية»^(١): وتنذر يوم الجمع بين الأرواح والأجساد، لا شك في كونه، وكما أنهم اليوم فريقان: فريق في جنة القلوب، وراحات الطاعات، وحلاوات العبادات، وتنعمات القربات، وفريق في سعير النفوس، وظلمات المعاصي، وعقوبات الشرك، والجحود، فكذاك غداً، فريق هم أهل اللقاء، وفريق هم أهل الشقاء والبلاء.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، قابضاً على كفه، ومعه كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان» قلنا: لا يا رسول الله، فقال: للذي في يده اليمنى «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وعشائرتهم، وعدّتهم، قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام، إذ هم في الطينة منجدلون، فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم، إجمال من الله عليهم، إلى يوم القيامة»، ثم قال: للذي في يساره: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل النار، وأسماء آبائهم، وعشائرتهم، وعدّتهم، قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقروا في الأرحام، إذ هم في الطينة منجدلون، فليس بزائد فيهم، ولا ناقص منهم إجمال من الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة. فقال عبد الله بن عمرو: فقيم العمل إذا؟ قال: اعملوا وسددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أيّ عمل، ثم قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، عدل

(١) روح البيان.

من الله تعالى، أخرجه الإمام أحمد في «مسنده».

ثم سلى رسوله على ما كان يناله من الغم والهم، بتولي قومه عنه وعدم استجابة دعوته، وأعلمه أن أمور عباده بيده، وأنه الهادي إلى الحق من يشاء، والمضل من أراد، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، جمع الناس على الهداية، أو على الضلالة ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾ في الدنيا، والضمير لجميع الناس المشار إليهم بالفريقين ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مهتدين أو ضالين، وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: على دين واحد. قال الضحاك: أهل دين واحد، إما على هدى وإما على ضلالة، ولكنهم اختلفوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية، وهو معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ﴾ في الدين الحق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يدخله ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ وجنته ويدخل في الضلال من يشاء أن يدخله في عذابه ونقمته، ولا ريب في أن مشيئة الله تعالى، لكل من الإدخالين، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله، ومن ضرورة اختلاف الرحمة اختلاف حال الداخلين فيهما قطعاً، فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة، بل جعلهم فريقين ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾؛ أي: المشركون ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ما يلي أمرهم ويغنيهم وينفعهم، ف﴿مِنْ﴾: مزيدة لاستغراق النفي ﴿وَلَا﴾ من ﴿نَصِيرٍ﴾ ما يدفع العذاب الواقع عنهم ويخلصهم منه، وفيه إيذان، بأن الإدخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالى، كما في الإدخال في الرحمة.

قال سعدي المفتي في «حواشيه»^(١): لعل تغيير المقابل حيث لم يأت المقابل، ويدخل من يشاء في نقمته، بل عدل إلى ما في النظم، للمبالغة في الوعيد، فإن في نفي من يتولاهم وينصرهم في دفع العذاب عنهم، دلالة على أن كونهم في العذاب أمر معلوم مفروغ عنه، وأيضاً فيه سلوك طريق ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ﴾ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٥﴾ وأيضاً ذكر السبب الأصلي في جانب الرحمة ليجتهدوا في الشكر، والسبب الظاهري في جانب النعمة ليرتدعوا عن الكفر.

(١) روح البيان.

وفي «التأويلات النجمية»: ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، كالملائكة المقربين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾، الآية، أو جعلهم كالشياطين، المبعدين، المطرودين، المتمردين، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت، أن يجعلهم مركبين من الجواهر الملكي، والشيطاني، ليكونوا مختلفين، بعضهم الغالب عليه الوصف الملكي، مطيعاً لله تعالى، وبعضهم الغالب عليه الوصف الشيطاني، متمرداً على الله تعالى، ليكونوا مظاهر صفات لطفه وقهره، ويدل على هذا التأويل، قوله: ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: ليكونوا مظاهر صفات لطفه، ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: ليكونوا مظاهر صفات قهره، انتهى.

وحاصل المعنى^(١): أي ولو شاء الله لجعل الجميع مؤمنين، كما تريد وتحرص عليه، ولكن حكمته اقتضت أن يكون بعضهم مؤمنين وبعضهم كفاراً، وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء؛ لأنه سبحانه شاء أن يكون الإيمان مبنياً على التكليف والاختيار، يدخل المرء فيه بمحض الرضا. والتأمل في الأدلة الموصلة إلى الهدى، وبذلك يتم الفوز والسعادة في الدارين، وينفر منه من دنس نفسه بأدران الشرك، وركب رأسه وأطاع هواه، فكان من الخاسرين، ولو شاء لجعل الإيمان بالقسر والإلجاء، فكان الناس جميعاً أمة واحدة، ولكن له الحجة البالغة والمثل الأعلى، ولم يشأ ذلك، فلاتأس على عدم إيمان قومك، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَائِدَتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (١)، وقد جاء هذا المعنى في غير آية سلف كثير منها، كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾.

وجملة قوله: ﴿إِنِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ مستأنفة مقررلة لما قبلها من انتفاء كون الولي والنصير للظالمين. و﴿أَمْ﴾ (٢) هذه هي المنقطعة المقدرة ببل المفيدة للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، وبالهزمة المفيدة لإنكار الوقوع

(٢) روح البيان.

(١) المراغي.

ونفيه على أبلغ وجه وآكده، لا لإنكار الواقع واستقبحه كما قيل، إذ المراد بيان أن ما فعلوا من اتخاذ الأولياء، ليس في شيء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء، وهو أظهر الممتنعات؛ أي: بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام، التي يعبدونها ليس ذلك في شيء. والفاء^(١) في قوله ﴿فَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى - ﴿هُوَ الْوَلِيُّ﴾؛ أي: هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً، فإنه هو الخالق الرازق، الضار النافع - فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إن أرادوا أن يتخذوا ولياً في الحقيقة، فأقول لهم: الله سبحانه هو الولي، الذي يجب أن يتولى ويعتقد أنه المولى، لا ولي سواه، وهو متولي الأمور من الخير والشر، والنفع والضرر.

قلت: ويحتمل أن تكون الفاء تعليلية، لكون ما بعدها علة لإنكار اتخاذ الأولياء من دون الله، كقولك: أتضرب زيداً فهو أخوك، على معنى: لا ينبغي أن تضربه، لكونه أخاك، والمعنى هنا: لا ينبغي لهم أن يتخذوا أولياء من دون الله، لأن الله هو الولي الحقيقي.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه؛ أي: ومن شأنه أنه ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ليس في السماء والأرض معبود يحى الموتى غيره ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه على كل شيء من الإحياء والإماتة ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً، فليخضوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شيء.

ومعنى الآية^(٢): أي إن هؤلاء المشركين من قومك، قد اتخذوا أولياء ينصرونهم من دون الله، وقد ضلوا ضلالاً بعيداً، فهؤلاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، فإن أرادوا ولياً بحق يدفع عنهم الملمات ويجلب لهم الخيرات، فالله هو القادر على ذلك وهو محيي الموتى، ويحشرهم يوم القيامة، فجدير بمثله أن يتخذ ولياً، لا من لا يستطيع دفع الشر عن نفسه، ولا جلب الخير لها، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

يَسْتَلْبِثُ الدُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ.

وبعد أن منع رسوله أن يحمل الكفار على الإيمان قسراً، منع الكافرين أن يتنازعوا معهم، في شأن من شؤون الدين فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ﴾ هذا^(١) حكاية قول النبي ﷺ للمؤمنين؛ أي: ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين، فاختلستم أنتم وهم فيه ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: في أمر من أمور الدين ﴿فَحُكْمُهُ﴾؛ أي: حكم ذلك المختلف فيه مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وهو إثابة المحققين فيه من المؤمنين، ومعاقبة المبطلين، وهذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين، فإن حكمه ومرجعه إلى الله، يحكم فيه يوم القيامة بحكمه، ويفصل خصومة المختصمين فيه، وعند ذلك يظهر المحق من المبطل، ويتميز فريق الجنة وفريق النار، وقال مقاتل: إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، وآمن به بعضهم فنزلت، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ويمكن^(٢) أن يكون معنى قوله: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أنه مردود إلى كتابه، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين، أنه يرد إلى كتاب الله تعالى، ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَنْتَزِعَنَّ فِي شَيْءٍ قُرْآنَهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. وقد حكم سبحانه وتعالى بأن الدين هو الإسلام، وأن القرآن حق، وأن المؤمنين في الجنة والكافرين في النار، ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقاً إلا في الدار الآخرة، وعدهم الله بذلك يوم القيامة.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿ذَلِكُمْ﴾ الحاكم بهذا الحكم العظيم الشأن، وهو مبتدأ ﴿اللَّهُ﴾ خبر ﴿رَبِّي﴾ ومالكي لقب لله سبحانه، ﴿عَلَيْهِ﴾ خاصة لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في كل أموري، التي من جعلتها رد كيد أعداء الدين ﴿وَالِإِيَّاهِ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿أُنِيبُ﴾؛ أي: أرجع في كل ما يعنّ لي، من معضلات الأمور، التي منها كفاية شرهم والنصر عليهم.

(٢) الشوكاني.

(١) النسفي.

ولما كان التوكل أمراً واحداً مستمراً، والإنابة متعددة، متجددة بحسب تجدد موادها، أُوثر في الأول صيغة الماضي، وفي الثاني صيغة المضارع، وفيه إشارة إلى أنه إذا اشتغلت قلوبكم بحديث نفوسكم لا تدرون، أبالسعادة جرى حكمكم، أم بالشقاوة مضى اسمكم، فَكَلُوا الأمر فيه إلى الله، واشتغلوا في الوقت بأمر الله، دون التفكير فيما ليس لعقولكم سبيل إلى معرفته وعلمه من عواقبكم.

والمعنى: أي ذلكم الموصوف بهذه الصفات، من الإحياء والإماتة والحكم بين المختلفين، هو ربي وحده، لا آلهتكم التي تدعون من دونه، عليه توكلت في دفع كيد الأعداء. وفي جميع شؤوني، وإليه أرجع في كل المهمات، وإليه أتوب من الذنوب.

وفي هذا تعريض لهم، بأن ما هم عليه من اتخاذ غير الله ولياً لا يجديهم نفعاً، ولا يدفع عنهم ضرراً، فالأجدر بهم أن يقلعوا عنه، إذ من شأن العاقل أن لا يفعل إلا ما يفيد في دينه أو دنياه.

ثم بين الأسباب، التي تحمله على أن يلتجئ إليه، وتجعله الحقيق بذلك فقال: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والفاطر: هو الخالق المبدع، وقرأ الجمهور: ﴿فَاطِرُ﴾ بالرفع، على أنه خبر آخر لذلك، أو خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ وخبره ما بعده، أو نعت لربي؛ لأن الإضافة فيه محضة، ويكون ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ معترضاً بين الصفة والموصوف، وقرأ زيد بن علي ﴿فَاطِرِ﴾ بالجر على أنه نعت للاسم الشريف، في قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، وما بينهما اعتراض أو بدل من الهاء، في عليه أو إليه، وأجاز الكسائي النصب على النداء، وأجازه غيره على المدح.

والمعنى: أي أنه الجدير بأن يعتمد عليه ويستعان به، لأنه خالق العوالم جميعها علويها وسفليها، على عظمتها التي ترونها، لا آلهتكم التي لا تستطيع أن تخلق شيئاً.

ثم بين بعض ما خلقه وأنعم به، فقال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي:

خلق لكم من جنسكم ﴿أَزْوَاجًا﴾؛ أي: نساء وحلائل، أو المراد: حواء لكونها خلقت من ضلع آدم. وقال مجاهد: نسلاً بعد نسل ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: خلق للأنعام من جنسها إناثاً، أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور والإناث، وهي الثمانية التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿يَذَرُوكُم﴾ من الذرء، وهو البث، أو يخلقكم وينشئكم، والضمير في يذروكم للمخاطبين والأنعام، إلا أنه^(١) غلب فيه العقلاء على غيرهم، حيث لم يقل يذروكم وإياهن، وغلب فيه المخاطبين على الغائبات، حيث لم يقل يذرؤها وإياكم؛ لأن الأنعام ذكرت بلفظ الغيبة، فإن ﴿كم﴾ مخصوص بالعقلاء، ففيه تغليان ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في هذا الجعل والخلق أزواجاً المدلول عليه بالفعل؛ لأنه يكون بين ذكوره وإناثهم تناسل وتوالد، أو في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً، ففيه بمعنى به، واختير فيه على لفظ به، لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع، والمعدن للبث والتكثير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾؛ أي: كذاته سبحانه وتعالى ﴿شَيْءٌ﴾ من الموجودات، قيل^(٢): إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفي التمثيل والتقدير: ليس مثله شيء، فتكون الكاف زائدة، وقيل: المثل زائدة، والتقدير: ليس كهو شيء كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ﴾؛ أي: بما آمنتم به، وذلك لأن المراد نفي المثلية، وإذا لم تجعل الكاف أو المثل زائدة، لزم إثبات المثل له تعالى؛ لأن المنفي مثل المثل. وقيل: المعنى ليس كذاته شيء؛ لأنهم يقولون: مثلك لا ييخل، يريدون به نفي البخل عن ذاته، ويقصدون المبالغة في نفي ذلك البخل؛ لأنهم إذا نفوه عمن يقوم مقامه، فقد نفوه عنه، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين ليس كمثله شيء، وبين ليس كالألّه شيء، وقال أبو البقاء^(٣) مرجحاً لزيادة الكاف: إنها لو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى إثبات المحال إذ يكون المعنى أن له تعالى مثلاً وليس لمثله مثل، وفي ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل، وهو مع أن إثبات المثل لله سبحانه وتعالى محال انتهى. ولكنه يندفع ما

(١) روح البيان.

(٢) العكبري.

(٣) النسفي.

أورده بما ذكرنا، من كون الكلام خارجاً من مخرج الكناية.

وقال الإمام الراغب في «المفردات»: المثل عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة، وذلك أن النذ يقال لما يشارك في الجوهر فقط، والشبه يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمثل عام في جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله سبحانه وتعالى نفي التشبيه، من كل وجه، خصه بالذكر فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ انتهى.

والشيء عبارة عن الموجود، وهو اسم لجميع المكونات، عرضاً كان أو جوهرراً. وعند سيبويه الشيء ما يصح أن يعلم ويخبر عنه موجوداً أو معدوماً، ومن^(١) فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق تدبرها. . مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات، على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل، معنى قوله: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿الَسْمِيعُ﴾ لجميع المسموعات بلا أذن ﴿الْبَصِيرُ﴾ لجميع المرئيات بلا حدقة، وكأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له، كما لا مثل له.

وحاصل معنى الآية: أي ومن حكمته تعالى لبقاء العمران في هذه الحياة، إلى الأجل الذي حدده في علمه، أن خلق لكم من جنسكم زوجات، لتتوالدوا ويكثر النسل، ويستمر بقاء هذا النوع، وجعل للأنعام مثل هذا، وبهذا تنتظم شؤون الحياة لهذا الخليفة، الذي جعله الله في الأرض وتقضى مآربه الدنيوية، من مأكول ومشروب، وتستمر تغذيته على أتم النظم وأكمل الوجوه، فيشكر ربه على ما أولى، ويعبده على ما أنعم، فيفوز بالسعادة في الحياة الآخرة، كما فاز في الدنيا.

وبعد أن ذكر بعض صنعه، الدال على عظمته، أرشد إلى بعض صفاته العظيمة، فقال:

١ - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؛ أي: ليس كخالق الأزواج شيء؛ لأنه الفرد

(١) الشوكاني.

الصمد، وقد يكون المعنى: ليس مثله شيء في شؤونه التي يدبرها، بمقتضى قدرته، الشاملة، وعلمه الواسع، وحكمته الكاملة، ومن ثم، جعل هذا التدبير المحكم لإحاطة علمه بكل شيء.

٢ - ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: وهو السميع لما ينطق به خلقه من قول البصير بأعمالهم لا يخفي عليه شيء مما كسبت أيديهم من خير وشر.

٣ - ﴿لَهُ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع خزائن السموات والأرض، من الأرزاق والرحمة.

قال الجواليقي في كتابه «المعرب»: المقلد: المفتاح، فارسي، معرب لغة في الأقلد، والجمع مقاليد، فالمقاليد: المفاتيح، وهي كناية عن الخزائن، وقدرته عليها، وحفظه لها، قال النحاس: والذي يملك المفاتيح، يملك الخزائن، انتهى. وفيه مزيد دلالة على الاختصاص؛ لأن الخزائن لا يدخلها، ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها؛ أي: له تعالى مفاتيح خزائن السموات والأرض، فييده مقاليد الخير والشر، فما يفتح من رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك منها، فلا مرسل له من بعده، وقد بين هذا بقوله: ﴿يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾؛ أي: يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق ويقتصر على من يريد، بحسب السنن والنواميس، التي وضعها بين عباده في هذه الحياة.

ثم ذكر سبب هذا البسط والتقتير فقال: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إنه تعالى عليم بكل ما يفعله من توسعة على من يوسع عليه، وتقتير على من يقتصر عليه، ومن الذي يصلحه البسط في الرزق، ومن الذي يفسده، ومن الذي يصلحه التقتير، ومن الذي يفسده لا يخفى عليه شيء من ذلك، فيفعل كل ذلك على مقتضى حكمته الكاملة، وقدرته الواسعة وعلمه المحيط، فلا يوسع الرزق، إلا إذا علم سعته خير للعبد، وكذا التضيق.

ثم إن الرزق قسمان: رزق صوري: وهي المأكولات والمشروبات الحسية، ورزق معنوي: وهي العلوم الحقيقية والمعارف الإلهية، فالأول داخل في الآية

بطريق العبارة، والثاني بطريق الإشارة.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ شروع في تفصيل ما أجمله، أولاً بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ اهـ «خطيب». والخطاب في ﴿لَكُمْ﴾ لأمة محمد ﷺ؛ أي: بين وأوضح وسن لكم من التوحيد، ودين الإسلام، وأصول الشرائع والأحكام، سنةً وطريقاً واضحاً؛ أي: سن الله سبحانه لكم، يا أمة محمد ﷺ، ﴿مَا وَصَّيَ بِهِ نُوْحًا﴾ عليه السلام؛ أي^(١): أمر به نوحاً من التوحيد الذي لم يختلف فيه الرسل، وتوافقت عليه الكتب، أمراً مؤكداً، فإن التوصية معربة عن تأكيد الأمر، والاعتناء بشأن المأمور به؛ لأن الوصية التقديم إلى الغير بما يعمل به، مقترناً بوعظه، وقدم نوحاً لأنه أول أنبياء الشريعة، فإنه أول من أوحى إليه الحلال والحرام، وأول من أوحى إليه تحريم الأمهات والأخوات والبنات وسائر ذوات المحارم، فبقيت تلك الحرمة إلى الآن ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﷺ؛ أي: وشرع لكم يا أمة محمد ﷺ الذي أوحينا إلى نبيكم ﷺ من القرآن، وشرائع الإسلام، والبراءة من الشرك، والتعبير عنه بالموصول، لتفخيم شأنه.

وتغيير التوصية إلى الإيحاء في جانب النبي ﷺ، للتصريح برسالته قطعاً لإنكار الكفرة، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحاؤه، وهو السر في تقديمه على ما بعده، مع تقدمه عليه زماناً، وتقديم توصية نوح، للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، والتعبير بالأصل في الموصولات، وهو الذي في جانب نبينا محمد ﷺ للتعظيم، وتوجيه الخطاب إليه ﷺ بطريق التلوين للتشريف، والتنبيه على أنه تعالى، شرعه لهم على لسانه ﴿و﴾ شرع الله لكم أيضاً ﴿مَا وَصَيْنَا﴾؛ أي: أمرنا ﴿بِهِ﴾ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴿ابن مريم - على نبينا، وعليهم الصلاة والسلام - أمراً أكيداً.

وحكمة تخصيص هؤلاء الخمسة بالذكر هنا، أنهم أكابر الأنبياء، ومشاهيرهم، من أولى العزم، وأصحاب الشرائع العظيمة، والأتباع الكثيرة.

(١) روح البيان.

وحاصل المعنى^(١): أي شرع لكم من الدين، ما شرع لنوح ومن بعده، من أرباب الشرائع، وأولي العزم من الرسل، وأمرهم به أمراً أكيداً، وتخصيص هؤلاء الأنبياء بالذكر، كما تقدم آنفاً، لعلو شأنهم، وعظيم شهرتهم، ولاستمالة قلوب الكفار إلى اتباعه، لاتفاق كلمة أكثرهم على نبوتهم، واختصاص اليهود بموسى عليه السلام، والنصارى بوعيسى عليه السلام، وإلا فكل نبي مأمور بما أمروا به، من إقامة دين الإسلام، وهو التوحيد وأصول الشرائع والأحكام، مما لا يختلف باختلاف الأعصار، كالإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة واكتساب مكارم الأخلاق وفاضل الصفات.

وفي الآية: إيماء إلى أن ما شرعه لهم، صادر عن كامل العلم والحكمة، وأنه دين قويم أجمع عليه الرسل، وما أوحاه إليه، هو إما ما ذكر في صدر السورة، وفي قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا﴾ الآية، وإما ما يعمهما وغيرهما مما وقع في سائر المواضع، التي من جملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا﴾.

ثم فصل ما شرعه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ المراد^(٢) بإقامته تعديل أركانه، وحفظه من أن يقع فيه زيغ، أو المواظبة والتشمر له و﴿أَنْ﴾ تفسيرية بمعنى أي؛ أي: أقيموا الدين لأنه قد تقدمها ما في معنى القول. ويجوز أن تكون مصدرية في محل رفع خبر مبتدأ مقدر، تقديره: هو أن أقيموا إلخ، أو في محل نصب، بدلاً من الموصول، أو في محل جر، بدلاً من الدين، اهـ «سمين».

وعبارة «أبي السعود»: ومحل ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ إما النصب على أنه بدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفين، أو الرفع على أنه جواب سؤال، نشأ من إبهام المشروع، كأنه قيل: وما ذاك، فقيل، هو إقامة الدين؛ أي: أقيموا دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله وباليوم الآخر، وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً، ﴿وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾؛ أي: في الدين، الذي هو عبارة عن

(٢) أبو السعود.

(١) المراغي.

الأصول، والخطاب فيه متوجه إلى أمته ﷺ، فهذه وصية لجميع العباد؛ أي^(١): لا تختلفوا في التوحيد والإيمان بالله، وطاعة رسله وقبول شرائعه، فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع، وتوافقت فيها الأديان، فلا ينبغي الخلاف في مثلها، وليس من هذا فروع المسائل التي تختلف فيها الأدلة، وتتعارض فيها الأمارات، وتباين فيها الأفهام، فإنها من مطارح الاجتهاد، ومواطن الخلاف.

واعلم^(٢): أن الأنبياء عليهم السلام مشتركون، ومتفقون في أصل الدين، وجميعهم أقاموا الدين، وقاموا بخدمته، وداموا بالدعوة إليه، ولم يختلفوا في ذلك، وباعتبار هذا الاتفاق، والاتحاد في الأصول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَلَدِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ من غير تفرقة بين نبي ونبي، ومختلفون في الفروع والأحكام، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وهذا الاختلاف الناشيء من اختلاف الأمم، وتفاوت طبائعهم لا يقدر في ذلك الاتفاق، ثم أمر عباده بإقامة الدين والاجتماع عليه، ونهاهم عن التفرق فيه، فإن يد الله ونصرته مع الجماعة، وإنما يأكل الذئب الشاة البعيدة، النافرة، والمنفردة عن الجماعة.

أوصى حكيم أولاده عند موته، وكانوا جماعة، فقال: ائتوني بعصي، فجمعها، فقال لهم: اكسروها وهي مجموعة، فلم يقدروا على ذلك، ثم فرقها فقال: خذوا واحدة واحدة فاكسروها فكسروها، فقال لهم: هكذا أنتم بعدي لن تغلبوا ما اجتمعتم، فإذا تفرقتم تمكن منكم عدوكم فأهلككم، وكذا القائمون بالدين، إذا اجتمعوا على إقامته، ولم يتفرقوا فيه لم يقهرهم عدوهم، وكذا الإنسان في نفسه، إذا اجتمع في نفسه على إقامة الدين، لم يغلبه شيطان من الإنس والجن بما يوسوس به إليه، مع مساعدة الإيمان، والملك بإقامته له. وقال علي رضي الله عنه: لا تفرقوا فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب، وكونوا عباد الله إخواناً.

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وكان^(١) ﷺ قبل نبوته يعبد ربه، بشريعة إبراهيم عليه السلام، حتى جاءه الوحي، وجاءته الرسالة. ولم يكن على ما كان عليه قومه، باتفاق الأمة وإجماع الأئمة.

والخلاصة^(٢): أننا شرعنا لكم، ما شرعنا للأنبياء قبلكم، ديناً واحداً في الأصول، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب بصلح الأعمال، كالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحرمانا عليكم الزنا، وإيذاء الخلق، والاعتداء على الحيوان، فكل هذا قد اتحد فيه الرسل، وإن اختلفوا في تفاصيله.

ثم ذكر سبحانه وتعالى، أن ما شرعه لعباده شق على المشركين، فقال: ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: عظم وشق ﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَى﴾ يا محمد من التوحيد، ورفض عبادة الأصنام، واستبعده حيث قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ وقال قتادة: شهادة أن لا إله إلا الله وحده، ضاق بها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يظهرها على من ناوأها؛ أي: عاداها.

والمعنى: أي شق على المشركين دعوتهم إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام والأوثان، وتقريرهم على ذلك، لأنهم توارثوا ذلك كابراً عن كابر، ونقلوه عن الآباء والأجداد، كما حكى سبحانه عنهم بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ وَابْنَانَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مُفْتَدُونَ﴾.

وبعد أن أرشد المؤمنين إلى التمسك بالدين، ذكر أنه إنما هداهم إلى ذلك لأنه اصطفاهم من بين خلقه فقال: ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَجْتَنِي إِلَى يَدِ يَدَيْهِ﴾؛ أي: إلى دينه الحق؛ أي: يختار لتوحيده والدخول في دينه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ اجتناءه من عباده، والاجتناء^(٣): الجمع على طريق الاصطفاء، وهو هنا مأخوذ من الجباية، وهي جلب الخراج، وجمعه لمناسبة النهي عن التفرق في الدين، ولأن الاجتناء

(٣) روح البيان.

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

بمعنى الاصطفاء لا يتعدى إلى إلا باعتبار تضمين معنى الضم والصرف.

والمعنى: الله سبحانه يجتلب إلى ما تدعوهم إليه من يشاء أن يجتلبه إليه، وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه ﴿وَهَدَىٰ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الدين بالإرشاد والتوفيق، وإمداد الألفاظ ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾ ويقبل إليه؛ أي: يوفق لدينه ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته، ويقبل إلى عبادته. ويجوز^(١) أن يكون الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ لله في كلا الموضعين، فالمعنى: الله يجمع إلى جنابه على طريق الاصطفاء من يشاء من عباده، بحسب استعداده، ويهدي إليه بالعناية من ينيب، واجتباء الله تعالى العبد، تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء عليهم السلام، ولبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء.

فعليك أيها المؤمن الإتيان بجميع القرب بقدر الاستطاعة في كل زمان وحال، فإن المؤمن لن تخلص له معصية أبداً، من غير أن تخالطها طاعة، لأنه مؤمن بها أنها معصية، فإن أضاف إلى هذا الخليط استغفاراً وتوبة، فطاعة على طاعة، وقربة على قربة، فيقوى جزاء الطاعة التي خالطها العمل السيء، وهو الإيمان بأنها معصية، والإيمان من أقوى القرب وأعظمها عند الله تعالى، فإنه الأساس الذي ابتنى عليه جميع القرب، وفي الخبر الصحيح: «وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» وكان قربه تعالى من العبد، ضعف قرب العبد منه، وعلى كل حال، لا يخلو المؤمن من الطاعة والقرب، والعمل الصالح يمحو الخطايا، فإن العبد إذا رجع عن السيئة وأناب إلى الله وأصلح عمله، أصلح الله شأنه وأعاد عليه نعمه الفاتنة.

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: بلغني أن رجلاً من بني إسرائيل، ذبح عجلاً بين يدي أمه، فبيست يده، فبينما هو جالس إذ سقط فرخ من وكره،

(١) روح البيان.

وهو يتصبص؛ أي: يضطرب ويحرك الذنب، فأخذه ورده إلى وكره، فرحمه الله تعالى لذلك، ورد عليه يده بما صنع، والوكر: بفتح الواو، عش الطائر.

والمعنى^(١): أي الله يصطفي من يشاء من عباده، ويقربهم إليه تقرب الكرامة، ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه ﷺ من الحق، من راجع التوبة من معاصيه.

ثم أجاب عن سؤال قد يخطر بالبال، لماذا صار الناس متفرقين في الدين، مع أنهم أمروا بالأخذ به، وعدم التفرق فيه، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾؛ أي^(٢): وما تفرقت اليهود والنصارى في الدين الذي دعوا إليه، ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم في حال من الأحوال، أو في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ﴾ بحقيقته؛ أي: إلا حال مجيء العلم. أو إلا وقت مجيء العلم بحقية ما شاهدوا في رسول الله ﷺ، والقرآن من دلائل الحقية، حسبما وجدوه في كتابهم، أو العلم بمبعثه ﴿بَيِّنَاتٍ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ما تفرقوا إلا لأجل البغي والعدوان، على محمد ﷺ والحسد له، فيما بينهم لابتغاء طلب الدنيا، وطلب ملكها وسياستها وجاهاها وشهرتها، وللحمية الجاهلية؛ لأن لهم في ذلك شبهة، كما يدل عليه قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ وقيل: المراد بهم: كفار قريش، تفرقوا بعد ما جاءهم العلم، وهو محمد ﷺ بغياً منهم عليه، وحسداً له فيما بينهم، وكانوا يقولون فيما حكاه الله عنهم، بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ الآية، وقيل: المراد بهم: كفار الأمم الماضية، وأنهم فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ اختلفوا لما طال بهم المدى، فأمن قوم وكفر قوم.

والمعنى^(٣): أي وما تفرقت الأمم إلا من بعد ما علموا، أن الفرقة ضلالة، وقد فعلوا ذلك بغياً وطلباً للرياسة، وللحمية حمية الجاهلية، التي جعلت كل طائفة تذهب مذهباً وتدعو إليه، وتقبح ما سواه طلباً للأحدوثة بين الناس،

(٣) المراغي.

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

والسيطرة عليهم.

والخلاصة: أن الأمم قديمها وحديثها، أمروا باتفاق الكلمة، وإقامة الدين، وبلغهم أنبياءهم ذلك، وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بذلك، بغياً وحسداً وعناداً وحباً للرياسة، فدعت كل طائفة إلى مذهب، وأنكرت ما عداه.

ثم ذكر أن هؤلاء كانوا يستحقون العذاب المعجل على سوء أفعالهم، ولكن حكمته تعالى اقتضت تأخيرهم عنهم إلى وقت معلوم، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ ووجبت ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي العدة بتأخير العقوبة عن هذه الأمة، وتلك الكلمة، كقوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ﴿٦١﴾﴾. ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت معين، معلوم عند الله تعالى، وهو يوم القيامة، أو آخر أعمارهم المقدرة ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لأوقع القضاء بينهم، باستئصالهم لاستيجاب جنائتهم لذلك قطعاً، وقيل: لقضي بين من آمن منهم، ومن كفر، بنزول العذاب بالكافرين، ونجاة المؤمنين.

والمعنى: أي ولولا الكلمة السابقة من ربك، بإنظار حسابهم، وتأخيرهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً، بما دسّوا به أنفسهم، من كبير الآثام وقبيح المعاصي.

ثم ذكر أن تفرقهم في الدين باق في أعقابهم، مضافاً إليه الشك في كتابهم، مع انتسابهم إليه فقال: ﴿وَلِأَنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا﴾ وأعطوا ﴿الْكِتَابَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل، من اليهود والنصارى المعاصرين لمحمد ﷺ: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد^(١) من قبلهم: من سلف اليهود والنصارى ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾؛ أي: من القرآن، أو من محمد ﷺ ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: مقلق مدخل في الريبة؛ أي: موقع في الريب، ولذلك لم يؤمنوا. وقال مجاهد: معنى من بعدهم: من قبلهم، يعني: من قبل مشركي مكة، وهم اليهود والنصارى، والمعنى عليه؛ أي: وإن المشركين الذين أورثوا الكتاب؛ أي: القرآن من بعد ما أوتي أهل الكتاب كتابهم، لفى

(١) الشوكاني.

شك منه؛ أي: من القرآن، والإيراث في الأصل: تملك قهري، يثبت لقريب الميت بموته، والشك^(١): اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما ﴿مُرِيبٌ﴾؛ أي: موقع ذلك الشك في القلق، أي: الاضطراب، ولذلك لا يؤمنون لمحض البغي، والمكابرة، بعد ما علموا بحقيقته، كدأب أهل الكتابين. والريب: قلق النفس واضطرابها، ويسمى الشك بالريب؛ لأنه يقلق النفس، ويزيل طمأننتها، كما سيأتي في مبحث اللغة، قرأ الجمهور: ﴿أُورِثُوا﴾، وقرأ زيد بن علي: ﴿وَرِثُوا﴾ مشدد الراء، مبنياً للمفعول، وقرأ ﴿وَرِثُوا﴾ بتخفيف الراء، مبنياً للفاعل.

والمعنى^(٢): أي وإن أهل الكتاب الذين كانوا في عهده ﷺ وورثوا التوراة، والإنجيل عن السابقين لهم، لفي شك من كتابهم، إذ لم يؤمنوا به حق الإيمان، فهم مقلدون أسلافهم بلا حجة ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك أقض مضاجعهم، وأوقعهم في اضطراب وقلق.

وقصارى ذلك: أنهم تفرقوا بعد العلم الذي حصل من النبي المبعوث إليهم المصدق لكتابهم، لأنهم شكوا في كتابهم فلم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه من أمر ونهي.

﴿فَلَاذِلَكَ﴾؛ أي: فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب، أو فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم، القديم الحقيق، بأن يتنافس فيه المتنافسون ﴿فَادْعُ﴾ يا محمد الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين، والعمل بموجبه، فإن كلا من تفرقهم وكونهم في شك مريب، ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسوله ﷺ، سبب للدعوة إليه، والأمر بها، وليس المشار إليه ما ذكر من التوصية، والأمر بالاتفاق، والنهي عن التفرق حتى يتوهم شائبة التكرار؛ أي: فلأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر في الأمم السالفة شعباً، ادع إلى الاتفاق والاتلاف على الملة الحنيفية ملة إبراهيم ﴿وَأَسْتَقِمَّ﴾ عليه وعلى الدعوة

(٢) المراغي.

(١) روح البيان.

إليه ﴿كَمَا أُمِرْتُ﴾ وأوحى إليك من عند الله تعالى، والمراد: الثبات والدوام عليهما؛ لأنه كان مستقيماً في هذا المعنى؛ أي: واثبت أنت ومن اتبعك على عبادة الله كما أمركم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: ولا تتبع أيها الرسول أهواءهم المختلفة الباطلة، والضمير للمشركين، وكانوا يهوون أن يعظم عليه السلام آلهتهم وغير ذلك، أو للذين شكوا في الحق الذي شرعه الله لكم، من الذين أورثوا الكتاب من قبلكم، فتشكوا فيه كما شكوا؛ أي^(١): فلاجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين، فادع الناس كافة إلى الاتفاق على الملة الإسلامية، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها، كما أمرك الله تعالى، ولا تتبع أهواءهم المختلفة.

﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي كتاب كان من الكتب المنزلة، لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض، وذلك لأن كلمة ﴿مَا﴾ من ألفاظ العموم؛ أي: وقل لهم يا محمد: صدقت بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء، من التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، لا أكذب بشيء منها، وفي هذا^(٢) تعريض بأهل الكتاب، إذ صدقوا ببعض وكفروا ببعض، وتأليف لقلوبهم إذ آمن بما آمنوا به.

والمعنى: وقل لهم يا محمد: آمنت بما أنزل الله على الأنبياء، من كتاب صح أن الله أنزله، وهو الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأن المتفرقين آمنوا ببعض منها، وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بذلك الذي أمرت به ﴿لَأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: لكي أعدل وأسوي بينكم؛ أي: بين شريفكم ووضيعكم في تبليغ الشرائع، وفي الحكم، وفصل القضايا بينكم، عند المحاكمة والمرافعة إليّ، فاللام لام كي، والمأمور به محذوف، كما قدرناه. وقيل: اللام بمعنى الباء؛ أي: وأمرت بأن أعدل بينكم في الحكم، إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ، وأسوي بين أكابركم وأصاغركم، فيما يتعلق بحكم الله تعالى، فلا أخصّ البعض بأمر أو نهى، وقيل: اللام زائدة.

(١) المراح.

(٢) المراغي.

والمعنى: أمرت أن أعدل بينكم، والأول أولى. والظاهر^(١): أن الآية عامة في كل شيء، المعنى: أمرت لأعدل بينكم في كل شيء ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَبُّنَا﴾؛ أي: معبودنا وخالقنا ومتولي أمورنا ﴿وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: ومعبودكم وخالقكم ومتولي أموركم أيضاً، لا الأصنام والهوى، فنحن نقر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه، فله يسجد من في السموات والأرض، طوعاً وكرهاً ﴿لَنَا﴾ لا لكم ﴿أَعْمَلْنَا﴾ لا يتخطانا جزاؤها، ثواباً كان أو عقاباً ﴿وَلَكُمْ﴾ لا لنا ﴿أَعْمَلَكُمْ﴾ لا يجاوزكم آثارها لا ننتفع بحسناتكم، ولا تضرنا سيئاتكم، ونحو الآية قوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: لا حجاج ولا خصومة بيننا وبينكم، لأن الحق قد ظهر ووضح وليس للمحاجة مجال فما المخالف إلا معاند أو مكابر، وسيأتي الوقت الذي يستبين فيه الحق، ويتضح فيه سبيل الرشاد، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم يوم القيامة في المحشر، فيقضي بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه، ومثل الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَقْعُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾. ﴿وَالَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا إلى غيره ﴿الْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع والمعاد بعد مماتنا يوم الحساب، فيجازي كل نفس بما كسبت ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، قيل: الخطاب لليهود، وقيل: للكفار على العموم.

وهذه الأوامر والنواهي^(٢)، وإن وجهت في الظاهر إلى الرسول ﷺ، فهي له ولأمته، كما هي القاعدة من أن أمر النبي ﷺ أمر لأمته، إلا إذا ورد دليل على التخصيص، قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل^(٣): ليس في الآية إلا ما يدل على المتاركة في المفاولة، لا مطلقاً، حتى لا تكون منسوخة بآية القتال، يعني: هذه الآية إنما تدل على المتاركة القولية، لحصول الاستغناء عن المحاجة القولية معهم؛ لأنهم قد عرفوا صدقه من الحجج، وإنما كفروا عناداً، وبعد ما ظهر الحق وصاروا محجوجين كيف يحتاج إلى المحاجة القولية، فلا يبقى بعد

(٣) روح البيان.

(٢) المراغي.

(١) الشوكاني.

هذا إلا السيف، أو الإسلام، فقد قوتلوا بعد ذلك.

فعلى العبد قبول الحق بعد ظهوره، والمشي خلف النصح بعد إضاءة نوره، فإن المصير إلى الله تعالى، والدنيا دار عبور، وإن الحضور في الآخرة، والدنيا دار التفرق والفتور، فلا بد من التهيؤ للموت، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى لرجل في الطواف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين، حتى تجوز ست عقبات:

أولها: تغلق باب النعمة، وتفتح باب الشدة.

والثانية: تغلق باب العز، وتفتح باب الذل.

والثالثة: تغلق باب الراحة، وتفتح باب الجهد.

والرابعة: تغلق باب النوم، وتفتح باب السهر.

والخامسة: تغلق باب الغنى، وتفتح باب الفقر.

والسادسة: تغلق باب الأمل، وتفتح باب الاستعداد للموت، وأنشدوا:

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطِنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطِنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفُنَا
﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾ ويخاصمون ويجادلون ﴿فِي اللَّهِ﴾ وينازعون نبيه ﷺ، في
دين الله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ﴾؛ أي: من بعد ما استجاب الناس له،
ودخلوا فيه لظهور حجته، ووضوح محبته، والتعبير^(١) عن ذلك بالاستجابة
باعتبار دعوتهم إليه والضمير في ﴿لَهُ﴾ راجع إلى الله، وقيل: راجع إلى
محمد ﷺ، والأول أولى كما عرفت.

وفيه إشارة إلى أنهم استجابوا له تعالى يوم الميثاق بقولهم: بلى حين قال

(١) روح البيان.

لهم المولى: ألسنت بربكم، ثم لما نزلوا من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح، نسوا الإقرار والعهد، فأخذوا في المحاجة والإنكار، بخلاف المؤمنين، فإنهم ثبتوا على التصديق والإقرار، قال مجاهد: وهؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود، وقال قتادة: هم اليهود والنصارى ومحاجتهم قولهم: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة، بأنهم أهل كتاب، وأنهم أولاد الأنبياء، وكان المشركون يقولون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ فنزلت هذه الآية.

والموصول مبتدأ أول ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ مبتدأ ثان ﴿دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول؛ أي: زائلة باطلة يل لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبّر عن أباطيلهم بالحجة، مجازاة على زعمهم الباطل ﴿وَعَلَّتْهُمْ﴾؛ أي: وعلى أولئك المحاجين ﴿عَصَبٌ﴾ عظيم من الله تعالى، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره، ومجادلتهم بالباطل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة على كفرهم الشديد، وضلالهم البعيد، لا يعرف كنهه، وهو عذاب النار.

والمعنى^(١): أي والذين يجادلون المؤمنين، المستجيبين لله ورسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، حجتهم زائفة لا تقبل عند ربهم وعليهم غضب منه، لأنهم ماروا في الحق بعد ما تبين، ولهم عذاب شديد يوم القيامة، لتركهم الحق، بعد أن وضحت محجته عناداً واستكباراً ﴿اللَّهُ﴾ الذي يستحق منكم العبادة، أيها الناس هو ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾؛ أي: جنس الكتاب حال كونه متلبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ في أحكامه وأخباره، بعيداً من الباطل، أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام ﴿وَالْمِيزَانَ﴾؛ أي: وأنزل الشرع الذي^(٢) يوزن به الحقوق، ويسوى به بين الناس على أن يكون لفظ الميزان، مستعاراً للشرع، تشبيهاً له بالميزان العرفي، من حيث إنه يوزن به الحقوق الواجبة الأداء، سواء كان من حقوق الله، أو من حقوق العباد، أو نفس العدل والتسوية، بأن أنزل الأمر به في الكتب الإلهية، فيكون تسمية العدل بالميزان، تسمية المسمى باسم آله، فإن

(٢) روح البيان.

(١) المراغي.

الميزان آلة العدل، أو أنزل آلة الوزن، والوزن معرفة قدر الشيء، فيكون المراد بالميزان معناه الأصلي وإنزاله إما حقيقة لما رُوي أن جبرائيل عليه السلام نزل بالميزان، فدفعه إلى نوح عليه السلام، فقال له: مر قومك يزنوا به، وقيل: نزل آدم عليه السلام، بجميع آلات الصنائع، وإما مجاز عن إنزال الأمر به، واستعماله في الإيفاء والاستيفاء.

والمعنى^(١): الله أنزل كتبه على أنبيائه حاوية للحق، الذي لا شبهة فيه، بعيدة من الباطل، الذي لا خير فيه، وأنزل العدل ليقضي بين الناس بالإنصاف، ويحكم بينهم بحكمه، الذي أمر به في كتابه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

ثم رغب سبحانه وتعالى في الآخرة، وزهد في الدنيا، فقال: ﴿وَمَا يَذْرِيكَ﴾ ويعلمك يا محمد، بحال القيامة من^(٢) الإدراك بمعنى الإعلام؛ أي شيء يجعلك دارياً؛ أي: عالماً بحال الساعة، التي هي من العظم والشدة والخفاء، بحيث لا تبلغها دراية أحد، وإنما يُدري ذلك بوحي منا. قال الراغب: كل موضع ذكر في القرآن، وما أدراك فقد عقب ببيانه نحو: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ ۝١ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾، وكل موضع ذكر فيه وما يدريك لم يعقبه بذلك، نحو: ﴿وَمَا يَذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ﴾ التي يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق ﴿قَرِيبٌ﴾؛ أي: شيء قريب، أو قريب مجيئها، وإلا فالفعل بمعنى الفاعل، لا يستوي فيه المذكر والمؤنث عند سيبويه، فكان الظاهر أن يقال: قريبة، لكونه مسنداً إلى ضمير الساعة، إلا أنه قد ذكر لكونه صفة جارية على غير من هي له، وقيل: القريب بمعنى ذات قرب، على معنى النسب، وإن كان على صورة اسم الفاعل، كلابن وتامر بمعنى ذي لبن، وذو تمر؛ أي: لبني وتمر لا على معنى الحدث كالفعل، فلما لم يكن في معنى الفعل حقيقة لم يلحقه تاء التأنيث، أو الساعة بمعنى البعث، تسمية باسم ما حل فيه، وقال الزمخشري: لعل مجيء الساعة، قريب بتقدير المضاف.

(٢) روح البيان.

(١) المراغي.

والمعنى: أن القيامة على جناح الإتيان، فاتبع الكتاب يا محمد، واعمل به، وواظب على العدل، قبل أن يفاجئك اليوم، الذي يوزن فيه الأعمال، ويُوقى جزاؤها، وفيه زجرهم عن طول الأمل، وتنبيههم على انتظار الأجل وهجومه، نبهنا الله تعالى وإياكم أجمعين آمين.

والمراد بذلك ^(١): حث المؤمنين على اتباع نهج الشرع وترك مخالفته. روي أن النبي ﷺ ذكر الساعة، وعنده قوم من المشركين، فقالوا: متى الساعة: استهزاء بها، وتكديماً لمجيئها، فأنزل الله الآية. ويدل على ذلك قوله ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾؛ أي: بمجيئها ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال إنكار، واستهزاء، وتكذيب بمجيئها، ولا يشفقون منها، ويقولون متى هي، ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق، أهو الذي نحن عليه، فنفوز بالنجاة، أم الذي عليه محمد ﷺ وأصحابه. فنكون من الخاسرين، فإنهم لما لم يؤمنوا بها، لم يخافوا ما فيها، فهم يطلبون وقوعها استبعاداً لقيامها، والعجلة ^(٢): طلب الشيء وتحريه قبل أوانه.

وبعد أن بين حال المشركين في شأنها، ذكر حال المؤمنين بها، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وصدقوا بمجيئها ﴿مُسْتَفِقُونَ مَتَا﴾؛ أي: خائفون منها، وجلون من مجيئها؛ لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم، وهم موقنون أنهم محاسبون، ومجزيون على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ علم اليقين ﴿أَنَّهَا﴾؛ أي: أن مجيئها ﴿الْحَقُّ﴾ لا ريب فيه، فهم يستعدون له ويعملون من أجله، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

رُوي أن رجلاً، سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فقال: يا محمد، فقال رسول الله ﷺ، بنحو من صوته: «هاؤم» فقال له: متى الساعة؟ فقال له: «إنها كائنة، فما أعددت لها؟» فقال: حب الله، ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت».

ثم بين ضلال الممارين فيها فقال: ﴿آلَا﴾ انتبهوا واعلموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(٢) روح البیان.

(١) المراغي.

يُمَارُونَ ﴿ وَيَجَادِلُونَ ﴾ فِي السَّاعَةِ ﴿؛ أي: القيامة، وينكرون مجيئها، عناداً، ويخاصمون فيها مخاصمة شك وريبة، من^(١) المماراة، وهي المخاصمة والمجادلة، أو من المرية، وهي الشك والريبة، فمعناه في الأصل: تداخلهم المرية والشك فيها، فيؤدي ذلك إلى المجادلة، ففسر المماراة بلامها ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، لأنهم لم يتفكرون في الموجبات للإيمان بها، من الدلائل التي هي مشاهدة لهم، منصوبة لأعينهم، مفهومة لعقولهم، ولو تفكروا لعلموا أن الذي خلقهم ابتداء، قادر على الإعادة، فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات؛ لأنه كإحياء الأرض بعد موتها، فمن لم يهتد إلى تجويزه، فهو من الاهتداء إلى ما وراء أبعد وأبعد.

ووصف^(٢) الضلال بالبعد، من المجاز العقلي؛ لأن البعد في الحقيقة للضلال، لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، ويحتمل أن يكون المعنى: في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد، لأن الضال قد يضل عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

والمعنى^(٣): أي ألا إن الذين يجادلون في وجودها، ويدفعون وقوعها، لفي جور عن طريق الهدى، وزيف عن سبيل الرشاد، وبعد من الصواب؛ لأن الذي خلق السموات والأرض، قادر على إحياء الموتى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَالِيَهُ﴾.

وفي الآية أمور^(٤):

الأول: ذم الاستعجال، ولذا قيل: العجلة من الشيطان، إلا في ستة مواضع: أداء الصلاة إذا دخل الوقت، ودفن الميت إذا حضر، وتزويج البكر إذا أدركت. وقضاء الدين إذا وجب، وإطعام الضيف إذا نزل، وتعجيل التوبة إذا أذنب.

(٣) المراغي.

(١) الشوكاني.

(٤) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والثاني: الإيمان والتصديق، فإنه الأصل، وذلك بجميع ما يكون به المرء مؤمناً، خصوصاً الساعة، وكذا الاستعداد لها بالأعمال الصالحة.

والثالث: مدح العلم، لكن إذا قرن بالخوف والخشية والعمل الصالح، كان أمدح، فإن العلم ليس جالباً للسؤدد إلا من حيث طرده الجهل فلا تعجب بعلمك، فإن فرعون علم بنبوة موسى وإبليس علم بحال آدم، واليهود علموا بنبوة محمد ﷺ، وحرموا التوفيق للإيمان.

والرابع: ذم الشك والتردد، فلا بد من اليقين الصريح، بل من العيان الصحيح.

والخامس: أن الشقاوة والسعادة أزليتان، وإنما يشقى السعيد لكون سعاده عارضة، وإنما يسعد الشقي لكون شقاوته عارضة، فكل يرجع إلى أصله، فنسأل الله سبحانه الهدى، نعوذ به تعالى من الهوى.

الإعراب

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ۝٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾
لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤﴾.

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ۝٢﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه سورة حم عسق، إن قلنا إنه اسم للسورة، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الأخير، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية، والجملة مستأنفة، ﴿كَذَلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف ﴿يُوحَىٰ﴾ فعل مضارع مرفوع ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿يُوحَىٰ﴾، ﴿وَإِلَى الَّذِينَ﴾: معطوف على إليك، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: صلة الذين، ﴿اللَّهُ﴾ فاعل، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ نعتان للجلالة، والجملة الفعلية مستأنفة، والتقدير: يوحى الله العزيز الحكيم إليك، وإلى الذين من قبلك من الرسل: إichاء مثل إichاء هذه السورة، وقرئ ﴿يُوحَىٰ﴾ بالبناء للمجهول، فثائب الفاعل هو الجار والمجرور، ولفظ الجلالة فاعل لفعل محذوف دل عليه ﴿يُوحَىٰ﴾، كأن سائلاً سأل، فقال: من الموحى، فأجاب يوحى الله العزيز الحكيم، والجملة المحذوفة، مستأنفة استئنافاً

بيانياً ﴿لَمْ﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾ مبتدأ مؤخر ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل الإيحاء ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف على ما في السموات، ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾: خبران له، والجملة مستأنفة.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿تَكَادُ﴾: فعل مضارع من أفعال المقاربة ﴿السَّمَوَاتُ﴾: اسمها ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾ فعل وفاعل، ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿تَكَادُ﴾ وجملة ﴿تَكَادُ﴾ مستأنفة، ومعنى ﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ الابتداء؛ أي: يبتدئ انفطارهن من جهتهن الفوقانية، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ مبتدأ. وجملة ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: خبره، ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: حال من فاعل ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، ﴿لِمَنْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صلة ﴿لِمَنْ﴾ الموصولة ﴿أَلَا﴾ حرف استفتاح وتنبيه، ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: خبران؛ لـ ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استثنائية. ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿اتَّخَذُوا﴾: فعل وفاعل من أخوات ظنّ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: مفعول أول لـ ﴿اتَّخَذُوا﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ثان، ﴿حَفِيفٌ﴾ خبره ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿حَفِيفٌ﴾، وجملة المبتدأ الثاني خبر الأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَا﴾: نافية حجازية ﴿أَنْتَ﴾: اسمها، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿وَكِيلٍ﴾: و﴿يُوكِيلٍ﴾ خبرها، والباء زائدة، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية معطوفة على جملة قوله: الله حفيظ عليهم، على كونها خبراً لقوله: والذين اتخذوا من دونه.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾: ﴿الواو﴾ استثنائية ﴿كَذَلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره:

إيحاء مثل إيحاء هذه السورة، أوحينا إليك قرآنًا عربيًا، ﴿أَوْحَيْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق له، والجملة مستأنفة ﴿قُرْآنًا﴾: مفعول ﴿أَوْحَيْنَا﴾، ﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة ﴿قُرْآنًا﴾، ﴿لِنُنْذِرَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل ﴿تُنْذِرُ﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً، بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ مفعول به، ﴿وَمَنْ﴾ معطوف على أم القرى، ﴿حَوْلَهَا﴾: ظرف مكان، متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإنذارك أم القرى ومن حولها، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَوْحَيْنَا﴾، ﴿وَتُنْذِرُ﴾ معطوف على ﴿لِنُنْذِرَ﴾. ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ مفعول به ثان لـ ﴿تُنْذِرُ﴾، والمفعول الأول محذوف؛ أي: وتنذر الناس يوم الجمع، أي: عذابه، فحذف المفعول الأول من الإنذار الثاني، كما حذف المفعول الثاني من الإنذار الأول. تقديره: لتنذر أم القرى عذاب الله، إن لم يؤمنوا، ﴿لَا﴾ نافية للجنس ﴿رَبِّ﴾: اسمها، و﴿فِيهِ﴾: خبرها، والجملة في محل النصب حال من ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ واختار الزمخشري أن تكون معترضة ﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالانكسار وقوعه في معرض التفصيل ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿وَفَرِيقٌ﴾: مبتدأ، ﴿فِي السَّعِيرِ﴾ خبره، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْغُلَامُونَ مَا هُمْ مِنْ وَلِيِّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿شَاءَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿جعلهم أمة﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان ﴿وَاحِدَةً﴾: صفة أمة، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَكِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿يُدْخِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب، مفعول به، ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾: متعلق بـ ﴿يُدْخِلُ﴾ والجملة الاستدراكية

معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية ﴿يَشَاءُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة صلة لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إدخاله في رحمته ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ ﴿الْوَاوُ﴾: عاطفة ﴿الظَّالِمُونَ﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ نافية، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: معطوف عليه وجملة النفي خبر الظالمون، وجملة الظالمون معطوفة على جملة الاستدراك، ﴿أَرِ﴾ منقطعة تقدر بيل الإضرابية، وبهمزة الاستفهام الإنكاري ﴿أَتَّخِذُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْ دُونِهِ﴾: في محل المفعول الثاني و﴿أُولَئِكَ﴾ مفعول ﴿أَتَّخِذُوا﴾ الأول، والجملة الفعلية مستأنفة. منقطعة عما قبلها ﴿فَاللَّهُ﴾: الفاء: عاطفة ما بعدها على ما قبلها، أو الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت إنكار ولي سواء تعالى، وأردت بيان ما هو الولي حقاً، فأقول لك ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿أَلَوْلِيُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية، أو مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى﴾: خبره، والجملة معطوفة على ما قبلها ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿وَمَا اخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٧).

﴿وَمَا﴾: ﴿الْوَاوُ﴾ استئنافية. ﴿مَا﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿اخْلَقْتُمْ﴾ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿مَا﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿اخْلَقْتُمْ﴾، ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الشرطية، أو من الضمير في فيه ﴿فَحُكْمُهُ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَا﴾ الشرطية وجوباً ﴿حُكْمُهُ﴾: مبتدأ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: خبره؛ أي: راجع إلى الله، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿مَا﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَا﴾ الشرطية مستأنفة ﴿ذَلِكُمُ﴾ مبتدأ ﴿اللَّهُ﴾: خبره ﴿رَبِّي﴾ خبر ثان ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَوَكَّلْتُ﴾، وجملة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: في محل الرفع خبر ثالث ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ ﴿أُنِيبُ﴾،

وجملة ﴿أَنْتَبُ﴾: خبر رابع.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: بالرفع خبر خامس لـ ﴿ذَلِكَ﴾، وقرئ بالجبر، قال أبو البقاء: هو بدل من الهاء في ﴿عَلَيْهِ﴾ وقال الزمخشري: نعت لقوله: ﴿فَعَكَّمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، فتكون جملة ﴿لَكُمْ﴾: معترضة بين الموصوف وصفته، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿اللَّهُ﴾، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به على أنه مفعول ثانٍ له، إن كان بمعنى التصيير، ومتعلق به إن كان بمعنى الخلق ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ حال من أزواجاً، لأنه كان صفة لأزواجاً، و﴿أَزْوَاجًا﴾: مفعول أول لـ ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى التصيير، ومفعول به إن كان بمعنى الخلق، والجملة الفعلية خبر سادس لـ ﴿ذَلِكَ﴾. ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾: حال من أزواجاً المذكور بعده، و﴿أَزْوَاجًا﴾ معطوف على أزواجاً الأول، ﴿يَذَرُوكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَذَرُوكُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل جعل، أو في محل الرفع خبر سابع ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: فعل ماضٍ ناقص، والكاف زائدة، ﴿مِثْلُهُ﴾ خبر ليس مقدم على اسمها، ﴿شَيْءٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل جعل، أو خبر ثامن، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الْوَاوُ﴾: استئنافية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ خبران له، والجملة مستأنفة، أو حال، ﴿لَهُ﴾ خبر مقدم، ﴿مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿السَّمَوَاتِ﴾، والجملة خبر تاسع، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة خبر عاشر ﴿لِمَنْ﴾: متعلق بـ ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَاءُ﴾: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿وَيَقْدِرُ﴾: معطوف على ﴿يَبْسُطُ﴾، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾، و﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ﴾

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ
اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ .

﴿شَرَعَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهُ﴾، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به،
﴿مَنْ الدِّينِ﴾: حال من المفعول الآتي، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل نصب
مفعول شرع، وجملة شرع مستأنفة، مسوقة لتفصيل ما أجمله أولاً، ولك أن
تجعله الخبر الحادي عشر، ﴿وَصَّى﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على
﴿اللَّهُ﴾، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿وَصَّى﴾، ﴿نُوحًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿وَصَّى﴾: صلة
لـ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿وَالَّذِي﴾: معطوف على ﴿مَا﴾ وجملة ﴿أَوْحَيْنَا﴾ صلة له،
والعائد محذوف تقديره: والذي أوحيناه، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَوْحَيْنَا﴾، ﴿وَمَا﴾:
معطوف على ﴿مَا﴾ الأولى أيضاً، ﴿وَصَّيْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿بِهِ﴾: متعلق به
﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ مفعول به، ﴿وَمُوسَى وَعِيسَى﴾: معطوفان على إبراهيم، والجملة الفعلية
صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿أَنْ﴾ تفسيرية بمعنى أي، لأنها سبقت بما فيه معنى
القول دون حروفه، وهو ﴿وَصَّى﴾، ويجوز أن تكون مصدرية مؤولة، مع ما
بعدها بمصدر، في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو أن أقيموا أو في
محل نصب بدلاً من الموصول، وهو ما، و﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾: فعل أمر وفاعل
ومفعول به، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَا﴾: ناهية ﴿تَتَفَرَّقُوا﴾: فعل مضارع
مجزوم بلا الناهية، و﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على ﴿أَقِيمُوا﴾،
﴿كَبُرَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في
محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، وجملة ﴿تَدْعُوهُمْ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾
﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تَدْعُوهُمْ﴾، و﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَجْتَبِي﴾: خبره،
والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَجْتَبِي﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في
محل نصب، مفعول به، وجملة ﴿يَشَاءُ﴾: صلة له، ﴿وَيَهْدِي﴾: معطوف على
﴿يَجْتَبِي﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿يَهْدِي﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل نصب
مفعول به، وجملة ﴿يُنِيبُ﴾: صلته.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْإِلْمُ بَقِيًا بَيْنَهُمْ﴾ .

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿مَا﴾ نافية، ﴿تَفَرَّقُوا﴾ فعل وفاعل والجملة

مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ متعلق بـ ﴿تَفَرَّقُوا﴾، ﴿مَا﴾ مصدرية، ﴿جَاءَهُمُ الْيَمُّ﴾ فعل ومفعول به وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، والتقدير: من بعد مجيء العلم إياهم. والاستثناء من أعم الأحوال؛ أي: ما تفرقوا في حال من الأحوال إلا في حال مجيء العلم إياهم، ﴿بَقِيًّا﴾ مفعول لأجله أو منصوب على الحال بتأويله بمشتق؛ أي: باغين، ﴿بَيْنَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿بَقِيًّا﴾؛ أي: لم يكن تفرقهم لقصور في البيان والحجج ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٍ فَلِلَّذَلِكَ فَادَعٍ وَاسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تُلَيِّغْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

﴿وَلَوْلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود ﴿كَلِمَةٌ﴾ مبتدأ، محذوف الخبر وجوباً، وجملة ﴿سَبَقَتْ﴾ صفة للكلمة، ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿سَبَقَتْ﴾، ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ متعلق بـ ﴿سَبَقَتْ﴾ أيضاً، ﴿مُّسَمًّى﴾ صفة لـ ﴿أَجَلٍ﴾، ﴿لَفُضِيَ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿قضي﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف اعتباري في محل الرفع، نائب فاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة، ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿أُورِثُوا﴾: فعل ماضٍ ونائب فاعل، ﴿الْكُتُبَ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أُورِثُوا﴾، ﴿لَفِي﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿فِي شَكٍّ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مِنْهُ﴾: صفة أولى لـ ﴿شَكٍّ﴾، ﴿مِرْيَبٍ﴾: صفة ثانية له، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿لولا﴾. ﴿فَلِلَّذَلِكَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصح من عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما شرعنا لكم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: لذلك فادع ﴿لِلَّذَلِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ادع﴾، واللام: فيه بمعنى إلى ﴿فَادَعٍ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والفاء: الثانية تأكيد للأولى، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا

المقدرة ﴿وَأَسْتَقِمَّ﴾: معطوف على ادع، ﴿كَمَا﴾: الكاف نعت لمصدر محذوف، و﴿مَا﴾: موصولة. ﴿أَمَرْتُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة ل﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: واستقم استقامة، كالأستقامة التي أمرت بها، من قبل، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَا﴾: ناهية، ﴿نَتَّعْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بلا ناهية، ﴿أَهْوَأَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿استقم﴾.

﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

﴿وَقُلْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على قوله ﴿فَادْعُ﴾، ﴿ءَامَنْتُ﴾: فعل وفاعل ﴿بِمَا﴾: متعلق ب﴿ءَامَنْتُ﴾، والجملة في محل نصب مقول مقول ﴿قُلْ﴾، وجملة ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أنزله الله، ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾: حال من العائد المحذوف ﴿وَأُمِرْتُ﴾: فعل ماض ونائب فاعل معطوف على ﴿ءَامَنْتُ﴾، ﴿لِأَعْدِلَ﴾ اللام: لام الصيرورة ﴿أعدل﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الصيرورة، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنا ﴿بَيْنَكُمْ﴾: متعلق به، والتقدير: وأمرت للعدل بينكم؛ أي: بالعدل بينكم ﴿اللَّهُ رَبُّنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿وَرَبُّكُمْ﴾: معطوف على ربنا ﴿لَنَا﴾: خبر مقدم ﴿أَعْمَلْنَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾: مبتدأ وخبر معطوف على ما قبله ﴿لَا﴾: نافية للجنس ﴿حُجَّةٌ﴾: اسمها، ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف، هو خبر ﴿لَا﴾ والجملة في محل نصب، مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾ معطوف على ﴿بَيْنَنَا﴾. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَجْمَعُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿بَيْنَنَا﴾ ظرف متعلق ب﴿يَجْمَعُ﴾ ﴿وَالَيْهِ﴾: خبر مقدم، ﴿الْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل للنصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُجَادُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِشُهُمْ دَاخِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ

غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ .

﴿وَالَّذِينَ﴾ : ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿الذين﴾ : مبتدأ أول، وجملة ﴿يُحَاجُّونَ﴾ صلة ﴿الذين﴾، ﴿فِي اللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يُحَاجُّونَ﴾، وهو على حذف مضاف؛ أي: في دين الله ﴿مِنْ بَعْدٍ﴾ : متعلق بـ﴿يُحَاجُّونَ﴾، أو حال من الجلالة، و﴿مَا﴾ مصدرية ﴿أَسْتَجِيبَ﴾ : فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿لَمْ﴾ : جار ومجرور في محل الرفع، نائب فاعل لـ﴿أَسْتَجِيبَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، ومجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد الاستجابة له. ﴿جُتُّهُمْ﴾ : مبتدأ ثانٍ ﴿دَاحِضَةٌ﴾ : خبره ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ : ظرف متعلق بداحضة. والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾ ﴿الواو﴾ : عاطفة ﴿عليهم﴾ : خبر مقدم. ﴿غَضَبٌ﴾ : مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: حجتهم داحضة على كونها خبراً للمبتدأ الأول، ﴿وَلَهُمْ﴾ : خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾ : مبتدأ مؤخر ﴿شَدِيدٌ﴾ : صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿اللَّهُ﴾ : مبتدأ ﴿الَّذِي﴾ : خبره، والجملة مستأنفة، ﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ : فعل وفاعل مستتر ومفعول به. والجملة صلة الموصول، ﴿بِالْحَقِّ﴾ : متعلق بـ﴿أَنْزَلَ﴾، أو حال من فاعله، أو من الكتاب، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ : معطوف على الكتاب ﴿وَمَا﴾ : ﴿الواو﴾ : عاطفة. أو استئنافية ﴿مَا﴾ : اسم استفهام في محل الرفع، مبتدأ ﴿يُدْرِيكَ﴾ : فعل مضارع ومفعول أول. وفاعله ضمير يعود على ما. والجملة خبر المبتدأ، والجملة معطوفة أو مستأنفة، ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ : ناصب واسمه وخبره. وجملة ﴿لَعَلَّ﴾ في محل النصب، مفعول ثانٍ لـ﴿يُدْرِي﴾؛ لأنها عاقت عن العمل في لفظه بالترجي، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: لعل مجيء الساعة قريب.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارَضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ .

﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ : فعل مضارع ﴿بِهَا﴾ : متعلق به، ﴿الَّذِينَ﴾ : فاعل، والجملة

مستأنفة. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾: صلة الموصول. ﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿ءَامِنُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مُشْفِقُونَ﴾: خبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿مُشْفِقُونَ﴾، ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مُشْفِقُونَ﴾، ﴿أَنَّهَا الْحَقُّ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها، سادة مسد مفعولي ﴿يَعْلَمُونَ﴾، ﴿آلَا﴾: أداة استفتاح، ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يُعَارِضُونَ﴾: صلة الموصول. ﴿فِي السَّاعَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُعَارِضُونَ﴾، ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿فِي ضَلَالٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة لـ﴿ضَلَالٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ قرأ ابن كثير: ﴿يُوحَىٰ﴾ بالبناء للمجهول. وفيه إعلال بالقلب، أصله: يوحى، قلبت الياء ألفا، لتحركها بعد فتح، وحذفت منه همزة أفعل في صورة ابتداء المضارع بهمزة المتكلم، فرارا من توالي الأمثال، وفي غيرها، حملا عليها، كما هو مقرر في محله.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾: مضارع كاد من باب خاف، بمعنى قرب، فيه إعلال بالنقل والتسكين، والقلب أصله: تكود بوزن تفعل مضارع كود بكسر العين، يكود بفتحها، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الكاف فسكنت، لكنها أبدلت ألفا لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: أي يتشققن، وأصل الفطر: الشق طولاً؛ أي يتشققن من عظمة الله تعالى، وخشيته وإجلاله، كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاَهُ خَشِيْعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. ﴿يَسْتَحُونَ﴾: أي ينزهون الله تعالى عما لا يليق به. ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ والأولياء الشركاء والأنداد. ﴿حَفِظْتُ﴾: أي: رقيب على أحوالهم وأعمالهم. ﴿يُوكِّلُ﴾: أي: بموكول إليك أمورهم حتى تؤاخذهم بها، ولا وكل إليك هدايتهم، وإنما عليك البلاغ فحسب.

﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾: أي: لتخوف أهل مكة بعذاب الله، إن أصروا على الكفر: والعرب تسمي أصل كل شيء بالأم. كأم النحل، وهو يعسوبها، سميت مكة بأم القرى، تشريفاً لها. وإجلالا لاشتمالها على الكعبة المشرفة، شرفنا الله

سبحانه، وجميع المسلمين بجوارها. ﴿فِي السَّعِيرِ﴾؛ أي: في النار، سميت بالسعير لالتهابها واتقادها بهم. ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾؛ أي: في الدنيا. ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: جماعة متفقة مهتدين أو ضالين. ﴿فَاللَّهُ هُوَ أَلْوَنُ﴾؛ أي: المعين، الناصر لمن آمن به. ﴿أُنْيَبُ﴾ مضارع أناب الرباعي، وأصله: أنوب بوزن يؤكرم، حذفت الهمزة الثانية لتوالي الأمثال، فصار أنوب بوزن أكرم، نقلت حركة الواو إلى النون، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد. ففيه إعلال بالنقل والتسكين، والقلب والحذف.

﴿يَذَرُوكُمْ﴾؛ أي: يكثركم أيها الناس، والأنعام، من الذرء وهو البث، قال في «القاموس»: ذراً كجعل خلق، والشيء كثره، ومنه الذرية، مثلثة لنسل الثقلين، وقال شارحه في «التاج»: وقد يطلق على الآباء والأصول أيضاً، قال تعالى: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُونِ﴾، والجمع ذراري كسراري. ﴿لَهُ﴾ جمع مقلاد، وفيه إعلال بالقلب حيث قلبت ألفه ياء، لوقوعها بعد كسرة، عند بناء اللفظ على صيغة منتهى الجموع، وتقدم البسط فيه في سورة الزمر، فجدد به عهداً، قال الجواليقي في كتابه «المعرب»: المقلد: المفتاح، فارسي معرب لغة في الأقليد، والجمع مقاليد، فالمقاليد المفاتيح، وهي كناية عن الخزائن، وقدرته عليها وحفظه لها، وفيه مزيد دلالة على الاختصاص؛ لأن الخزائن لا يدخلها، ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها. ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾؛ أي: سن لكم ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ التوصية وكذا الوصية التقديم إلى الغير بما يعمل به مقترباً بوعظه. ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾؛ أي: حافظوا عليه، ولا تخلوا بشيء من مقوماته، والمراد بالدين: دين الإسلام، وهو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله واليوم الآخر، وسائر ما يكون به العبد مؤمناً، كما مرّ ﴿وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾؛ أي: ولا تختلفوا فيه، فتأتوا ببعض وتركوا بعضاً. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: عظم عليهم وشق. ﴿يَجْتَنِي إِلَيْهِ﴾؛ أي: يصطفي ويجتلب إليه، والاجتباء افتعال من الجباية وهي الجمع، قال الراغب: يقال: جبيت الماء في الحوض؛ أي: جمعته فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَجْتَنِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء، قال تعالى: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي لتحصل له أنواع النعم بلا سعي منه. ﴿لَقَدْ شَرِكْ مَنَّهُ مُرِيبٌ﴾ الشك اعتدال النقيضين عند الإنسان

وتساويهما، مريب؛ أي: موقع في القلق والاضطراب من الريبة، والريبة قلق النفس واضطرابها، وفي «القاموس»: أراب الأمر، صار ذا ريب.

﴿وَأَسْتَقِمَّ﴾ أصله: استقوم بوزن استفعل نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿وَلَا تَلْبَعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: أهوايهم من الهوى، أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أصله: يحاججون بوزن يفاعلون، أدغمت الجيم الأولى في الثانية. ﴿أَسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: استجوب بوزن استفعل، نقلت حركة الواو إلى الجيم، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ. ﴿دَاحِضَةً﴾ باطلة، وفي «المختار»: دحضت حجته بطلت، وبابه خضع، وأدحضها الله، ودحضت رجله زلقت، وبابه قطع، والإدحاض الإزلاق، والدحض بتشديد الدال وسكون الحاء المهملتين، ويفتح الحاء أيضاً، وآخره ضاد معجمة هو الزلق. ﴿وَالْمِزَاجُ﴾ أصله: الموزان مفعال من الوزن، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة، والوزن معرفة قدر الشيء بآلة. ﴿وَمَا يَذْرِيكَ﴾ من الإدراء بمعنى الإعلام؛ أي: أي شيء يجعلك دارياً؛ أي: عالماً بحال الساعة. ﴿قَرِيبٌ﴾؛ أي: شيء قريب، أو قريب مجيئها، وإلا فالفعيل بمعنى الفاعل لا يستوي فيه المذكر والمؤنث عند سيبويه. فكان الظاهر فيه أن يقال: قريبة لكونه مسنداً إلى ضمير الساعة، إلا أنه قد ذكر لكونه صفة جارية على غير من هي له.

فائدة: فإن قلت: متى يستوي المذكر والمؤنث؟

قلت: يستوي المذكر والمؤنث في خمسة أوزان:

الأول: فاعول بفتح الفاء، بمعنى، فاعل كرجل صبور بمعنى صابر، وامرأة صبور بمعنى صابرة، ولو كان فاعول بمعنى مفعول، لحقته التاء الفاصلة جوازاً نحو: جمل ركوب وناقة ركوبة.

والثاني: فاعيل بمعنى مفعول، نحو: رجل جريح، وامرأة جريح، بمعنى مجروحة، فإن كان فاعيل بمعنى فاعل، لحقته التاء الفاصلة، نحو: امرأة رحيمة وظريفة.

والثالث: مفعال بكسر الميم كمنحار، يقال: رجل منحار، وامرأة منحار، أي: كثير النحر، وشذ ميقانة من اليقين، وهو عدم التردد، يقال: رجل ميقان لا يسمع شيئاً إلا أيقنه، وامرأة ميقانة.

والرابع: مفعيل بكسر الميم، كمعطير من العطر، وشذ امرأة مسكينة، لخروجه عن القاعدة، ومع ذلك فإنه محمول على فقيرة، وسمع امرأة مسكين على القياس، حكاه سيبويه.

والخامس: مفعل بكسر الميم وفتح العين كمغشم، وهو الذي لا ينتهي عما يريده ويهواه من شجاعته، ومدعس من الدعس، وهو الطعن.

﴿يُمَارُونَ﴾ أصله: يماريون استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الراء، لمناسبة الواو، قال الراغب: المرية التردد في الأمر، وهو أخص من الشك، والمماراة: المحاجة فيما فيه مرية، انتهى. ويحتمل أن يكون من مريت الناقة، إذا مسحت ضرعها بشدة الحلب، فيكون تفسيره بيجادلون حملاً له على الاستعارة التبعية، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه في قوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ حيث استعمل المضارع في حقيقته ومجازه، فهو مستعمل في المستقبل بالنظر لما ينزل عليه من القرآن، إذ ذاك، وفي الماضي بالنظر لما أنزل بالفعل، وبالنظر لما أنزل على الرسل السابقين.

ومنها: جمع المؤكدات مع صيغة المبالغة في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهي ﴿أَلَا﴾ و﴿إِنَّ﴾ وضمير الفصل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَنُنَزِّلَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾؛ أي: لتنذر أهل مكة؛ لأن الإنذار لأهل القرية لا لها.

ومنها: الاحتباك في هذه الآية، حيث حذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر، والتقدير: لتنذر أم القرى العذاب، وتنذر الناس يوم الجمع؛ أي: عذابه.
ومنها: الطباق بين ﴿الْجَنَّةِ﴾ و﴿السَّعِيرِ﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ﴾ و﴿يَقْدِرُ﴾.

ومنها: مخالفة مقتضى الظاهر في قوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لأن مقتضى الظاهر أن يقال: ولكن يدخل من يشاء في رحمته، ويدخل من يشاء في غضبه، ولكنه عدل عن ذلك إلى ذكر الظالمين، تسجيلاً عليهم باسم الظلم، ومبالغة في الوعيد.

ومنها: الإتيان بجملته معرفة الطرفين في قوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ لغرض إفادة حصر الولاية في الله سبحانه وتعالى.

ومنها: إيثار صيغة الماضي في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وصيغة المضارع في قوله: ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ لكون التوكل أمراً واحداً مستمراً، فيناسبه الماضي، وكون الإنابة متعددة، متجددة، بحسب تجدد موادها، فيناسبها المضارع، وفيهما أيضاً تقديم المعمول على عامله، لإفادة الحصر.

ومنها: زيادة الكاف في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لتأكيد نفي المثلية.
ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأن المقاليد المفاتيح. وهو كناية عن الخزائن؛ لأن فيه مزيد دلالة على الاختصاص، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها، إلا من بيده مفاتيحها.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى نون العظمة في قوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه إليه، وهو السر في تقديمه على ما بعده، مع تقدمه عليه زماناً.

ومنها: التعبير بالأصل في الموصولات، وهو الذي للتعظيم.
ومنها: توجيه الخطاب إليه ﷺ بطريق التلوين، للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَأَسْتَقِيمُ﴾؛ لأنه كناية عن الثبات والدوام على الدعوة.

ومنها: المجازاة معهم في قوله: ﴿مَجْنُومٌ دَاحِضَةٌ﴾ لأنه لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجازاة معهم على زعمهم الباطل.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ عَصَبٌ﴾ دلالة على عظم الغضب عليهم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَالْمِيزَانُ﴾ حيث استعار الميزان العرفي للشرع، الذي يوزن به الحقوق الواجبة الأداء، سواء كان من حقوق الله، أو من حقوق العباد، بجامع العدل والتسوية في كل، ويحتمل أن يكون المراد بالميزان: العدل والتسوية؛ أي: أنزل العدل في الكتب الإلهية، فيكون تسمية العدل بالميزان، تسمية المسمى باسم آله، فإن الميزان آلة للعدل.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ حيث ذكر الاستعجال أولاً، وحذف الإشفاق، وذكر الإشفاق ثانياً وحذف الاستعجال؛ لأن التقدير: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها. فلا يشفقون منها، والذين آمنوا مشفقون فلا يستعجلون بها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ إذا قلنا إنه مأخوذ من مريت الناقة، وفسرناه بيجادلون، حيث شبه المجادلة بمماراة الحالب للضرع، لاستخراج ما فيه من اللبن، من حيث إن كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه، بكلام فيه شدة اهـ «روح البيان».

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ففيه وصف الشيء بوصف صاحبه؛ لأن البعد في الحقيقة للضال؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق فوصف به فعله.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا :

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١) مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ
الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ
(٢) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ
لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ
وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ
ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٤) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَشْكُرُ
عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزَدَ لَمْ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٥) أَمْ
يَقُولُونَ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَبَشِّرِ الْفَاسِقَ بِمَا كُنتَ تَعْمَلُ
عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ (٦) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ
(٧) وَتَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَبَرِّدُومٍ مِنَ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٨)
﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾
(٩) وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (١٠) وَمِنْ
عَآيِنِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَآئِبَةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (١١) وَمَا
أَصْبَحْكُمْ مِنْ مِّصْبَعِهِ فِيمَا كَسَبَتْ آيَاتِكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (١٢) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٣) وَمِنْ عَآيِنِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (١٤) إِنْ يَشَأِ
يُسْكِنِ الْوَيْحَ فَيُظِلِّلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٥) أَوْ يُوقِنَهُمْ بِمَا
كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (١٦) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي عَآيِنِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍ (١٧) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ
فَمَنَعَ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (١٨) وَالَّذِينَ يَخْتَنِبُونَ كَبِيرَ
الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (١٩) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ
بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٢٠) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٢١) .

المناسبة

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما

قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر^(١) فيما سبق، أنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على الدلائل الموصلة إلى السعادة، وأن المتفرقين في الدين، استوجبوا شديد العذاب، لكنه أخره إلى يوم معلوم.. أرشد هنا إلى أن ذلك من لطف الله بعباده، ولو شاء لجعلهم في عماية من أمرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، ولو شاء لعجل لهم العذاب. ثم بين أن من يعمل للآخرة يرجو ثوابها.. يضاعف له فيها الجزاء إلى سبع مئة ضعف، ومن يعمل للدنيا وجلب لذاتها.. يؤته ما يريد، وليس له في الآخرة نصيب من نعيمها، ثم أعقب هذا، بذكر ما وسوست به الشياطين للمشركين، وزينت لهم به، من الشرك بالله وإنكار البعث، إلى نحو ذلك. ثم بين أنهم كانوا يستحقون العذاب العاجل على ذلك، لكنه أجله لما سبق في علمه، من أنظارهم إلى يوم معلوم، ثم ذكر مآل كل من الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، فالأولون خائفون، وجلون من جزاء ما عملوا، والآخرين مترفون منعمون.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في الآيات السالفة، أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون بالنعيم في روضات الجنات، وأنه يعطيهم من فضله ما فيه قرة أعينهم، رحمة من لدنه.. ذكر هنا أن ذلك كائن لهم لا محالة، ببشارة منه لهم، ثم أعقب هذا، بأن أمر رسوله بأن يقول لهم: إنه لا يسألهم على هذا البلاغ والنصح أجراً، وإنما يطلب منهم التقرب إلى الله وحسن طاعته، ثم رد عليهم قولهم: أن القرآن مفترى، بأنه لا يفترى الكذب على الله إلا من كان مختوماً على قلبه، ومن سنن الله تعالى إبطال الباطل ونصرة الحق، فلو كان محمد ﷺ كذاباً مفترياً، لفضحه وكشف باطله، ولكن أيده بالنصر والقوة، ثم نذبهم إلى التوبة مما نسبوه إلى رسوله من افتراءه القرآن، ثم وعد المؤمنين بأنه يجيب دعاءهم إذا هم دعوه ويزيدهم من نعمه، وأوعد الكافرين بشديد العقاب، كفاء ما اجترحوا من الشرور والآثام.

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين فيما سلف، أنه يجيب دعاء المؤمنين إذا هم أنابوا إليه وأخبتوا.. ذكر هنا أنه لا يعطيهم كل ما يطلبون من الأرزاق، بل ينزلها بقدر بحسب ما يعلم من مصلحتهم، فإن كثرة الرزق تجعل الناس يتجبرون ويتكبرون، والله هو الخبير بما يصلح حالهم من فقر وغنى.

قال خباب بن الارت: فينا نزلت هذه الآية، نظرنا إلى أموال بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع، فتمنيناها، ثم أعقب هذا بأنهم إذا احتاجوا إلى الرزق، لا يمنعه منهم، وهو المتولي أمورهم بإحسانه، المحمود على ما يوصل للخلق من صنوف الرحمة، ثم أقام الأدلة على ألوهيته بخلقه للسموات والأرض وما فيهما من الحيوان، ثم جمعهم للحساب يوم القيامة، ثم ذكر أن ما يصيب الإنسان من نكبات الدنيا، من الأمراض والأسقام والفقر والغنى، فبكسب الإنسان واختياره، كما دلت على صدق ذلك التجارب، ثم أعقب ذلك، بآية أخرى على ألوهيته، وهي جريان السفن في البحار، فتارة يجعل الريح ساكنة، فتظل السفن على سطحها، وأخرى تعصف الرياح فتفرقها، أو تنجو بحسب تقديره تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر^(١) دلائل توحيده، وعظيم قدرته وسلطانه، بخلق السموات والأرض وجري السفن ماخرات في البحار.. أردف ذلك بالتنفير من الدنيا وزخرفها؛ لأن المانع من النظر في الأدلة، إنما هو الرغبة فيها، طلباً للرياسة والجاه، فإذا صغرت الدنيا في عين المرء، لم يلتفت إليها، وانتفع بالأدلة ووجه النظر إلى ملكوت السموات والأرض، ثم أبان أن ما عند الله خير لمن آمن به، وتوكل عليه واجتنب كبائر الذنوب والفواحش، وكان متقادراً له، مطيعاً لأوامره، تاركاً لنواهيه وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يبرم أمراً إلا بعد

(١) المراغي.

مشورة، وانتصر لنفسه ممن ظلمه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية^(١): ما أخرجه الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: لو جمعنا لرسول الله ﷺ مالا، فأنزل الله سبحانه ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فقال بعضهم: إنما قال هذا، ليقاتل عن أهل بيته وينصرهم، فأنزل الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ فعرض لهم التوبة إلى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وأخرج أحمد بسنده عن طاووس قال: سأل رجل ابن عباس، عن معنى قول الله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فقال سعيد بن جبیر: قربي محمد ﷺ، قال ابن عباس: عجلت، إن رسول الله ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله ﷺ فيهم قرابة، فنزلت: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ أي: إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الحاكم وصححه عن علي، قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة، وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا، وأخرج الطبراني عن عمرو بن حريث مثله، وعمرو بن حريث، مختلف في صحبته كما في «الإصابة».

التفسير وأوجه القراءة

﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَطِيفٌ﴾؛ أي: بر بليغ البر ﴿بِعِبَادِهِ﴾ يفيض عليهم^(٢) من فنون ألطافه، ما لا يكاد يناله أيدي الأفكار والظنون، وقولنا: من فنون ألطافه يؤخذ ذلك من صيغة لطيف، فإنها للمبالغة، وتنكيره أيضاً، وقولنا: ما لا يكاد، إلخ، مأخذه مادة الكلمة، فإن اللطف إيصال النفع إلى العبد على

(٢) روح البيان.

(١) لباب النقول.

وجه فيه دقة: وقال مقاتل: لطيف بالبار والفاجر، حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم، وقال القرطبي: لطيف بهم في العرض والمحاسبة، وقيل^(١): كثير الإحسان بهم بالحياة والعقل ودفع أكثر البليات عنهم، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق، وتأخير العذاب عمن يستحقون العذاب.

والمعنى^(٢): أنه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم، ومن جملة ذلك، الرزق الذي يعيشون به في الدنيا، وهو معنى قوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم أن يرزقه كيفما يشاء، فيوسع على هذا، ويضيق على هذا، فيخص كلا من عباده، الذين عمهم جنس لطفه، بنوع من البر على ما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم البالغة، فلا مخالفة بين عموم الجنس وخصوص النوع، يعني: أن المخصوص بمن يشاء هو نوع البر وصفه، وذلك لا ينافي عموم جنس بره بجميع عباده، على ما أفادته إضافة العباد إلى ضميره تعالى، حتى يلزم التناقض بين الكلامين، فالله تعالى يبرهم جميعاً، لا بمعنى أن جميع أنواع البر، وأصنافه يصل إلى كل أحد فإنه مخالف الحكمة الإلهية، إذ لا يبقى الفرق حينئذ بين الأعلى والأدنى، بل يصل بره إليهم على سبيل التوزيع، بأن يخص أحداً بنعمة وآخر بآخرى، فيرجع بذلك كل واحد منهم إلى الآخر، فيما عنده من النعمة، فينتظم به أحوالهم، ويتم أسباب معاشهم، وصلاح دنياهم وعمارتها، فيؤدي ذلك إلى فراغهم لاكتساب سعادة الآخرة، وقال بعضهم: معناه: يرزق من يشاء بغير حساب، إذ الآيات القرآنية يفسر بعضها بعضاً.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْقَوِيُّ﴾؛ أي: العظيم القوة الباهرة، والقدرة البالغة وهو يناسب عموم لطفه للعباد، قيل: والقوة في الأصل: صلابة البنية وشدتها المضادة للضعف، ولما كانت محالاً في حق الله تعالى، حملت على القدرة، لكونها مسببة من القوة.

قلت: ولا حاجة إلى هذا التأويل؛ لأن القوة صفة ثابتة لله تعالى، أثرها

(٢) روح البيان.

(١) المراح.

عدم الضعف في أفعاله، والقدرة صفة ثابتة لله تعالى، أثرها عدم العجز عن إيجاد أي ممكن كان وإعدامه ﴿الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي يغلب كل شيء، ولا يغلبه شيء، وهو يلائم تخصيص من يشاء بما شاء.

والمعنى^(١): أنه تعالى بر بعباده، يرسل إليهم أعظم المنافع، ويدفع عنهم أكبر البلاء، فيرزق البر والفاجر، لا ينسى أحداً منهم، ويوسع الرزق على من يشاء منهم، ويقتره على من يشاء، ليمتحن الغني بالفقير، والفقير بالغني، وليحتاج بعض إلى بعض، كما قال: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، ثم ذكر ما هو كالعلة لذلك، فقال: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: وهو القادر على ما يشاء، العزيز الذي لا يقدر أحد أن يمنعه عن شيء مما يريد.

وبعد أن أبان أن الرزق ليس إلا في يده، أتبعه بما يزهد في التكالب على طلب رزق البدن، ويرغب في الجد في طلب رزق الروح، والسعي في رفع منزلتها عند ربها ليرضى عنها، فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ ويقصد بعمله الصالح ﴿حَرثَ الْآخِرَةِ﴾ وثوابها، والحرث في الأصل^(٢): إلقاء البذر في الأرض، ويطلق على الزرع الحاصل منه، ويطلق على ثمرات الأعمال، ونتائجها بطريق الاستعارة، المبنية على تشبيهها بالغلال، الحاصلة من البذور، المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور، من حيث إنها فائدة تحصل بعمل الدنيا، ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة.

والمعنى: من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ﴾ وثوابه؛ أي: نضاعف له ثوابه، ونعط له بالعمل الواحد عشر حسنة إلى سبع مئة فما فوقها، وقيل: نزد له في توفيقه، وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات له. وقيل: نزد له في قوته ونشاطه، أو نزد له على ما قصده من حرث الآخرة، بالبسط له في الدنيا.

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

ولم يقل في حقه^(١): وله في الدنيا نصيب، مع أن الرزق المقسوم له، يصل إليه لا محالة، للاستهانة بذلك، والإشعار بأنه في جنب ثواب الآخرة ليس بشيء، ولذلك قال سليمان عليه السلام: لتسيحة خير من ملك سليمان.

فإن قيل: ظاهر اللفظ يدل على أن من صلى لأجل طلب الثواب، أو لأجل دفع العقاب، فإنه تصح صلاته، وأجمعوا على أنها لا تصح؛ لأن الرغبة في الإيمان والطاعة لا تنفع، إلا إذا كانت تلك الرغبة فيه، رغبة فيه لكونه إيماناً وطاعة، وأما الرغبة فيه لطلب الثواب، وللخوف من العقاب فغير مفيد، لأنه يكون عليلًا مريضاً.

والجواب: أن الحرث لا يتأتى إلا بإلقاء البذر الصحيح في الأرض، والبذر الصحيح الجامع للخيرات، والسعادات، ليس إلا عبودية الله تعالى، فلا يكون العمل أخروياً إلا بأن يطلب فيه رضى الله تعالى.

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ ويقصد بأعماله الصالحة ﴿حَرَثَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: ثوابها ومتاعها وزخارفها وطيباتها، والمراد: الكافر أو المنافق، حيث كانوا مع المؤمنين في المغازي وغرضهم الغنيمة، ودخل فيه أصحاب الأغراض الفاسدة جميعاً. ﴿تُؤْتِيهِ﴾؛ أي: نعطة شيئاً كائناً ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الدنيا حسبما قسمنا له أولاً، لا ما يريده ويبتغيه، وقوله: منها متعلق بكائناً المحذوف، الواقع صفة للمفعول الثاني، ويجوز أن تكون كلمة من للتبعيض؛ أي: بعضها، ومآل المعنى واحد، دلت الآية على أن طالب الدنيا لا ينال مراده من الدنيا.

وفي الحديث: «من كانت نيته الآخرة، جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتها من الدنيا إلا ما كتب الله له».

﴿وَمَا لَكُ﴾؛ أي: لمريد الدنيا ﴿فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾؛ لأنه لم يعمل للآخرة، فلا نصيب له فيها. و﴿مِنْ﴾: مزيدة للاستغراق؛ أي: ما له نصيب وحظ في الآخرة،

(١) روح البيان.

إذ كانت همته مقصورة على الدنيا، ولكل امرئ ما نوى، فيكون محروماً من ثواب الآخرة بالكلية، وقرأ الجمهور^(١): ﴿زَادَ﴾ و﴿تَوَاتَرَا﴾ بالنون فيهما، وابن مقسم والزعفراني ومحبوب والمنقري، كلاهما عن أبي عمرو بالياء فيهما، وقرأ سلام: ﴿نَوَتْهُ مِنْهَا﴾ بضم الهاء، وهي لغة الحجاز، ذكره في «البحر المحيط». وقال الإمام الراغب: إن الإنسان في دنياه حارث، وعمله حرثه، ودنياه محرثه، ووقت الموت وقت حصاده، والآخرة بيدره، ولا يحصد إلا ما زرعه، ولا يكيل إلا ما حصده.

حكي: أن رجلاً ببلخ، أمر عبده أن يزرع حنطة، فزرع شعيراً، فرآه وقت الحصاد وسأله، فقال العبد: زرعت شعيراً على ظن أن ينبت حنطة، فقال مولاه: يا أحمق، هل رأيت أحداً زرع شعيراً فحصد حنطة، فقال العبد: فكيف تعصي أنت، وترجو رحمته، وتغتر بالأمانى، ولا تعمل العمل الصالح.

وكما أن في البيدر مكيالاً، وموازين وأمناء وحفاظاً وشهوداً، كذلك في الآخرة مثل ذلك، وكما أن للبيدر تدرية وتمييزاً بين النقاوة والحطام، كذلك في الآخرة تمييزٌ بين الحسنى والآثام، فمن عمل لآخرته بورك له في كيله ووزنه، وجعل له منه زاداً لا بد، ومن عمل لدنياه خاب سعيه وبطل عمله، فأعمال الدنيا كشجرة الخلاف، بل كالدقلي والحنظل في الربيع، يرى غض الأوراق، حتى إذا جاء حين الحصاد لم ينل طائلاً، وإذا حضر مجتناه في البيدر، لم يفد نائلاً. ومثل أعمال الآخرة كشجرة الكرم والنخل المستقبح المنظر في الشتاء، فإذا حان وقت القطف والاجتناء أفادتكم زاداً، وادخرت عدةً وعتاداً.

ولما كانت زهرات الدنيا رائقة الظاهر، خبيثة الباطن، نهى الله تعالى عن الاغترار بها، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٢٣) فالقدر قدر، وإن كان في ظرف من الذهب، فالعاقل لا يتناوله.

وحاصل معنى الآية^(٢): من كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الآخرة، نوفقه

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

لصالح الأعمال، ونجزه بالحسنة عشر أمثالها، إلى ما شاء الله تعالى، ومن كان سعيه موجهاً إلى شؤون الدنيا وطلب طيباتها واكتساب لذاتها، وليس له هم في أعمال الآخرة، نؤته منها ما قسمناه له، وليس له في ثواب الآخرة حظ، فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، قال قتادة: إن الله يعطي على نية الآخرة، ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا. وقال ابن عباس: من يؤثر دنياه على آخرته.. لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار، ولم يزد بذلك من الدنيا شيئاً، إلا رزقاً فرغ منه وقسم له.

وأخرج أحمد والحاكم وصححه، وابن مردويه وابن حبان عن أبي بن كعب: أن رسول الله ﷺ قال: «بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا.. لم يكن له في الآخرة من نصيب».

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ الآية، ثم قال: «يقول الله لابن آدم: تفرغ لعبادتي، أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك». وعن علي كرم الله وجهه قال: الحرث: حرثان، فحرث الدنيا المال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾ (٥٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿٥٩﴾.

ولما بين القسطاس الأقوم في أعمال الآخرة وأعمال الدنيا.. أردفه بالتنبيه إلى ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أم^(١) منقطعة، مقدرة ببل التي للإضراب الانتقالي من قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾، والهمزة التي للتقرير والتوبيخ، وشركاؤهم شياطينهم من الإنس والجن، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ للمشركين من قريش، وإضافة الشركاء إلى ضميرهم في قولنا:

(١) روح البيان.

شركاؤهم على حقيقتها.

والمعنى: بل ألهم شركاء من الشياطين؛ أي: نظراء يشاركونهم في الكفر والعصيان، ويعاونونهم عليه بالتزيين والإغراء ﴿سَرَعُوا﴾ وسنوا ﴿لَهُمْ﴾ بالتسويل والتزيين ﴿مِنَ الَّذِينَ مَا لَكُمْ بِيَاذَنُ﴾ ويأمر ﴿بِإِلَهِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، كالشرك وإنكار البعث، والعمل للدنيا، وسائر مخالفات الشريعة، وموافقات الطبيعة؛ لأنهم لا يعلمون غيرها، وتعالى الله عن الإذن في مثل هذا والأمر به، والتعبير عنه بالدين للمشاكلة؛ لأنه ذكر في مقابلة دين الله، أو للتهكم، وقيل: شركاءهم أوثانهم، فالهمزة للإنكار، فإن الجماد الذي لا يعقل شيئاً، كيف يصح أن يشرع ديناً، والحال أن الله تعالى، لم يشرع لهم ذلك الدين الباطل، وإضافتها إليهم حيثئذ؛ لأنهم الذين جعلوها شركاء لله، وإسناد الشرع إليها، مع كونها بمعزل عن الفاعلية، إسناد مجازي، من إسناد الفعل إلى السبب؛ لأنها سبب ضلالتهم وافتنانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنَّا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.

والمعنى^(١): أي هم ما اتبعوا، ما شرع الله من الدين القويم، بل اتبعوا ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، فحرموا عليهم ما حرموا من البحيرة، والسائبة والوصيلة، وحلّلوا لهم أكل الميتة والدم والقمار، إلى نحو أولئك، من الضلالات والجهالات، التي كانوا قد اخترعوها في الجاهلية.

وقد ثبت في «الصحيح»، أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لُحَيّ بن قمعّة يجر قصبة أمعائه في النار؛ لأنه أول من سيّب السوائب، وحمل قريشاً على عبادة الأصنام، وكان أحد ملوك خزاعة»، وقصارى ذلك: أن الشيطان زين لهم الشرك والمعاصي والشرائع المضلة وإنكار البعث والعمل للدنيا.

ثم بين أنه رحمة بعباده، آخر عذاب المشركين ليوم معلوم، ولم يعجله لهم، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾؛ أي: القضاء السابق بتأخير العذاب عنهم، أو العدة لهم، بأن الفصل يكون يوم القيامة، حيث قال: ﴿بِئْسَ الْسَاعَةُ

(١) المراغي.

﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ والفصل: القضاء بين الحق والباطل، كما في «القاموس»، ويوم الفصل هو اليوم الذي فيه يبين الحق من الباطل، ويفصل بين الناس بالحكم، كما في «المفردات»: ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، فعوجلوا بالعقوبة. والضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ راجع إلى المؤمنين والمشركون، أو إلى المشركين وشركائهم.

والمعنى: أي ولولا القضاء السابق منه تعالى، بتأخير العذاب إلى يوم القيامة، لعوجلوا بالعذاب في الدنيا.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم، وهم المشركون والمكذبون ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة؛ أي: نوع من العذاب متفاوت ألمه، وأقام المظهر مقام المضمّر، تسجيلاً عليهم بالظلم، ودلالة على أن العذاب الأليم، الذي لا يكتنه كنهه، إنما يلحقهم بسبب ظلمهم، وانهماكهم فيه.

والمعنى: أي وإن الظالمين أنفسهم، بشرع ما لم يأذن به الله، مما ابتدعه من التحليل، والتحرير، لهم عذاب شديد الإيلام في جهنم، وبشس المصير، وقرأ الجمهور^(١): وإن الظالمين بكسر الهمزة على الاستئناف، والإخبار بما ينالهم في الدنيا، من القتل والأسر والنهب، وفي الآخرة من النار، وقرأ الأعرج ومسلم بن جندب: ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الهمزة، عطفًا على كلمة الفصل، فهو في موضع رفع؛ أي: ولولا كلمة الفصل وكون الظالمين لهم عذاب أليم في الآخرة، لقضي بينهم في الدنيا، وفصل بين المتعاطفين بجواب ﴿لَوْلَا﴾، كما فصل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

ثم ذكر أحوال أهل العقاب، وأهل الثواب يوم القيامة، مبتدئاً بالأولين، فقال: ﴿تَكْرَى﴾ وتبصر يا محمد، أو يا من يصلح للرؤية ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: المشركين يوم القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين ﴿وَمِمَّا كَسَبُوا﴾؛ أي: لأجل ما كسبوا واقترفوا في الدنيا من الشرك والمعاصي؛ أي^(٢): مشفقين إشفاقاً ناشئاً من

(٢) روح البيان.

(١) البحر المحيط.

السيئات، التي عملوها في الدنيا ومن أجلها، فكلمة من للتعليل، وليست صلة مشفقين، حتى يحتاج إلى تقدير المضاف، مع أنه أيضاً معنى صحيح؛ لأنه أبلغ وأدخل في الوعيد ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾؛ أي: والحال أن وبال ما كسبوه، وجزاءه، لا حق بهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا والجملة حال من ضمير مشفقين، أو اعتراض. قال سعدي المفتي: يعني ينعكس الحال في الآخرة، فالآمنون في الدنيا يشفقون في الآخرة، والمشفقون في الدنيا يأمنون في الآخرة؛ أي: ترى الظالمين خائفين، وجلين أشد الخوف والوجل، لأجل ما كسبوا في الدنيا من السيئات، والحال أن جزاءه واقع بهم، نازل عليهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا، وذكر الآخرين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: استعملوا تكاليف الشرع لقمع الطبع، وكسر الهوى، وتزكية النفس وتصفية القلب وتحلية الروح، مستقرون ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾؛ أي: في أطيب بقاع الجنات وأنزهها، كما أنها في الدنيا أحسن أمكتها.

قال في «حواشي الكشف»: الروضة اسم لكل موضع فيه ماء وعشب، وفي «كشف الأسرار»: هي الأماكن المتسعة، المونقة ذات الرياحين. والزهر، انتهى. وفي الحديث: ثلاث يجلون البصر، النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن. قال ابن عباس: رضي الله عنه: والإثم عند النوم، قال الراغب: قوله: ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ إشارة إلى ما أعد لهم في العقبى من حيث الظاهر، وقيل: إشارة إلى ما أهلهم له من العلوم والأخلاق التي من تخصص بها طاب قلبه؛ أي: والذين آمنوا بالله، وأطاعوه فيما أمر به ونهى عنه، لهم في الآخرة روضات الجنات، متمتعين بمحاسنها ولذاتها.

ثم بين ما يكون لهم من النعيم، في تلك الروضات، فقال: ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم ﴿مَا يَشَاءُونَ﴾ مبتدأ مؤخر؛ أي: ما يشتهونه من فنون المستلذات من مآكل ومشارب، ومناظر مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، حاصل لهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ على أن عند ربهم ظرف للاستقرار العامل في ﴿لَهُمْ﴾، وقيل: ظرف ليشاؤون على أن يكون عبارة عن كونهم عند الله.

وفي الآية^(١): احتباك، حيث أثبت الإشفاق أولاً، دليلاً على حذف الأمن ثانياً، وأثبت الجنات ثانياً، دليلاً على حذف النيران أولاً، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

والإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما ذكر للمؤمنين، وهو مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾؛ أي: ذاك المذكور من أجر المؤمنين، هو الفضل العظيم، والامن الجسيم، الذي يصغر دونه ما لغيرهم من الدنيا، أو تحقر عنده الدنيا بحذفها من أولها إلى آخرها. وهذا في حق الأمة، وأما النبي ﷺ فمخصوص بالفضل العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: الفضل الكبير، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿الَّذِي﴾؛ أي: ذلك الفضل المذكور هو الثواب الذي ﴿يُنَيِّرُ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى به ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: يبشرهم به على لسان النبي ﷺ، فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول، لأنهم لا يجوزون حذف المفعول الجار والمجرور، إلا على التدريج، بخلاف مثل: السمن منوان بدرهم؛ أي: منه؛ أي^(٢): ذلك الذي أخبرتكم بأني أعددت في الآخرة من النعيم، والكرامة، لمن آمن بالله ورسوله وعمل صالح الأعمال. هي البشرى التي أبشركم بها في الدنيا، ليتبين لكم أنها حق، وأنها كائنة لا محالة.

والخلاصة: أن هؤلاء الجامعين بين الإيمان والعمل، بما أمر الله به، وترك ما نهى عنه، هم المبشرون بتلك البشارة.

يقول الفقير: حكمة تخصيص الروضة، وتعميم المشيئة، أن أكثر بلاد العرب خالية عن الأنهار الجارية والروضات، وأنهم لا يجدون كل المشتريات، فيشوقهم بذلك ليكونوا على أهبة وتدارك، ولا يقيسوا الآخرة على الدنيا، فإن الدنيا محل البلاء والآفات، والآخرة دار النعيم والضيافات، وتدارك كل ما فات، فمن أحب مولاه اجتهد في طريق رضاه.

(٢) المراغي.

(١) روح البيان.

قال شقيق البلخي رحمه الله تعالى: رأيت في طريق مكة مقعداً، يزحف على الأرض، فقلت له: من أين أقبلت؟ قال: من سمرقند، قال: قلت: وكم لك في الطريق؟ فذكر أعواماً تزيد على العشرة، فرفعت طرفي انظر إليه متعجباً، فقال لي: يا شقيق، ما لك تنظر إليّ، فقلت: متعجباً من ضعف مهجتك، وبعد سفرتك، فقال لي: يا شقيق، أما بعد سفرتي فالشوق يقربها، وأما ضعف مهجتي فمولأها يحملها، يا شقيق، أتعجب من عبد ضعيف يحمله المولى اللطيف، فمن وصل إليه بشارة الله بفضله وجوده.. هان عليه بذل وجوده.

قرأ الجمهور^(١): ﴿يَبْشُرُ﴾: بتشديد الشين من بشر المضاعف، وعبد الله بن يعمر، وابن أبي إسحاق والجحدري والأعمش وطلحة، في رواية: والكسائي وحمزة ﴿ببشر﴾ ثلاثياً، وقرأ حميد بن قيس ومجاهد: ﴿يبشر﴾ بضم الياء وتخفيف الشين من أبشر الرباعي، وهو معدى بالهمزة، من بشر، اللزوم المكسور الشين، وأما بشر بفتحها فمتعد، وبشر بالتشديد للتكثير لا للتعدية؛ لأن المتعدي إلى واحد، وهو مخفف لا يعدى بالتضعيف إليه، فالتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية.

وبعد أن ذكر سبحانه، ما أخبر به نبيه ﷺ من هذه الأحكام، التي اشتمل عليها كتابه، أمره أن يخبرهم: بأنه لا يطلب منهم سبب هذا التبليغ أجراً، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقريش قومك ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة ﴿أَجْراً﴾؛ أي: جعلاً ولا نفعاً، كما لا يطلب الأنبياء من قبلي أجراً على تبليغهم الرسالة ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ المودة^(٢) مودة الرسول ﷺ، والقربى مصدر، كالزلفى بمعنى القرابة، التي هي بمعنى الرحم. و﴿فِي﴾ للسببية، أو بمعنى اللام، متعلقة بالمودة، ومودته كناية عن ترك أذيته، والجري على موجب قربته سمي عليه السلام المودة أجراً، واستثنائها منه تشبيهاً لها به، والاستثناء من قبيل قول من قال:

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُؤْلٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
 وذلك لأنه لا يجوز من النبي ﷺ أن يطلب الأجر، أياً كان على تبليغ
 الرسالة؛ لأن الأنبياء لم يطلبوه، وهو أولى بذلك؛ لأنه أفضل، ولأنه صرح بنفيه
 في قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، ولأن التبليغ واجب عليه، لقوله
 تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق
 به، ولأن متاع الدنيا أخس الأشياء، فكيف يطلب في مقابلة تبليغ الوحي الإلهي
 الذي هو أعز الأشياء؛ لأن العلم جوهر ثمين، والدنيا خزف مهين، ولأن طلب
 الأجر يوهم التهمة، وذلك ينافي القطع بصحة النبوة. وقرأ الجمهور ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾
 وقرأ زيد بن علي ﴿إِلَّا مودة﴾.

فمعنى الآية^(١): قل لا أسألكم على التبليغ أجراً أصلاً، إلا أن تودوني
 لأجل قرابتي منكم وبسببها، وتكفوا عني الأذى، ولا تعادوني إن كان ذلك أجراً
 يختص بي، لكنه ليس بأجر؛ لأنه لم يكن بطن من بطونكم يا قريش، إلا وبينني
 وبينها قرابة فإذا كانت قرابتي قرابتكم، فصلتي، ودفع الأذى عني لازم لكم في
 الشرع والعادة والمروءة، سواء كان مني التبليغ أو لا، وقد كنتم تتفاخرون بصلة
 الرحم، ودفع الأذى عن الأقارب، فما لكم تؤذونني والحال ما ذكر.

ويجوز أن يراد بالقربى: أهل قرابته ﷺ على تقدير المضاف وبالمودة مودة
 أقربائه، وترك أذيتهم، فكلمة ﴿في﴾ على هذا للظرفية، والظرف حال من المودة،
 والمعنى: إلا أن تودوا أهل قرابتي، مودةً ثابتة، متمكنة فيهم. وقد اختلف في
 هذه الآية اختلافاً كثيراً، يرجع إليه في المطولات، وأحسن ما قرأناه في صدها،
 ما ذكره مجاهد وقتادة.

وخلاصته: أنكم قومي، وأحق من أجنبي وأطاعتي، فإذا قد أبيتم ذلك،
 فاحفظوا حق القربى وصلوا رحمي، ولا تؤذوني.

وفي «الخازن»: فإن قلت^(٢): طلب الأجر على تبليغ الرسالة والوحي، لا

(٢) الخازن.

(١) روح البيان.

يجوز، لقوله في قصة نوح عليه السلام وغيره من الأنبياء: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩).

قلت: لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على تبليغ الرسالة، بقي الجواب عن قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فالجواب عنه من وجهين:

الأول: معناه لا أطلب منكم إلا هذا، وهذا في الحقيقة ليس بأجر، نظير قوله: (وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ)، البيت، معناه: إذا كان هذا عيبهم، فليس فيهم عيب بل هو مدح فيهم؛ ولأن المودة بين المسلمين أمر واجب، وإذا كان كذلك في حق جميع المسلمين، كان في أهل بيت النبي ﷺ أولى. فقوله: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فالمودة في القربى ليست أجراً في الحقيقة؛ لأن قرابته قرابتهم، فكانت مودتهم وصلتهم لازمة لهم، فثبت أن لا أجر البتة.

والوجه الثاني: أن هذا الاستثناء منقطع، وتم الكلام عند قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ثم ابتداء فقال: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: لكن أذكركم المودة في قرابتي، الذين هم قرابتكم، فلا تؤذوهم.

واختلف أهل العلم في قرابته ﷺ. فقيل: علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم، وقيل: أهل بيته من تحرم عليهم الصدقة من أقاربه، وهم بنو هاشم، وبنو المطلب، الذين لم يفرقوا في الجاهلية، ولا في الإسلام.

روى مسلم عن زيد بن أرقم، أن رسول الله ﷺ قال: «إني تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله تعالى، واستمسكوا به»، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، فقال له حصين: من أهل بيته يا زيد، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرمت عليه الصدقة بعده، قال: ومن هم قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، انتهى.

﴿وَمَنْ يَقْرَفْ﴾ ويكتسب ﴿حَسَنَةً﴾؛ أي حسنة^(١) كانت سيما مودة قربي رسول الله ﷺ، وعن السدي: أنها المودة في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، ومودته فيهم، والظاهر العموم في أي حسنة كانت إلا أنها تناول المودة تناولاً أولاً أولاً لذكرها عقب ذكر المودة في القربى؛ أي: ومن يكتسب حسنة واحدة، ولو مثقال ذرة ﴿نَزِدْ لَكُمْ﴾؛ أي: لذلك العامل ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في جزاء تلك الحسنة ﴿حُسْنًا﴾؛ أي: فضلاً وزيادة على قدر ما يستحقه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، فما فوق، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿نَزِدْ لَكُمْ﴾ بالنون، وقرأ زيد بن علي وعبد الوارث عن أبي عمرو وأحمد بن جبير عن الكسائي: ﴿يزد﴾ بالياء؛ أي: يزد الله. وقرأ الجمهور: ﴿حُسْنًا﴾: بالتنوين، وعبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿حسنى﴾ بغير تنوين، على وزن رجعى وبشرى، وزيادة حسنهما مضاعفة أجزاها.

والمعنى^(٣): أي ومن يعمل عملاً فيه طاعة الله ورسوله، نزد له فيه أجراً وثواباً، فنجعل له مكان الحسنة عشرة أمثالها، إلى سبع مئة ضعف إلى ما فوق ذلك، فضلاً منا ورحمة. ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾؛ أي: كثير الشكر للمطيعين بتوفيقه الثواب، والتفضل عليه بالزيادة، فالشكر^(٤) من الله مَجَازٌ عن هذا المعنى، لأن معناه الحقيقي، وهو فعل ينيء عن تعظيم المنعم، لكونه منعماً لا يتصور من الله سبحانه، لامتناع أن ينعم عليه أحد، حتى يقابل بالشكر، شبهت الإثابة والتفضل بالشكر، من حيث إن كل واحد منهما يتضمن الاعتماد بفعل الغير، وإكراماً لأجله؛ أي: إنه تعالى يغفر الكثير من

(٣) المراغي.

(١) النسفي.

(٤) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر. قال قتادة: غفور للذنوب، شكور للحسنات.

ثم أنكر عليهم نسبة افتراء القرآن إلى محمد ﷺ، ووبخهم على مقالهم، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم منقطعة، بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي من قوله: أم لهم شركاء إلخ، وبهمزة الاستفهام الإنكاري التوبيخي؛ أي: بل أقول كفار مكة ﴿أَفَتَرَى﴾ محمد واخترق ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه ﴿كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة وتلاوة القرآن؛ أي^(١): أيقع في قلوبهم ويجري على ألسنتهم، أن ينسبوا مثله ﷺ إلى الافتراء على الله، وهو أقبح أنواع الفرية وأفحشها، وهذا المقال منهم أفظع من الشرك الذي جعلوه شرعاً لهم، فإنهم قد جعلوا الحق الأبلج، الذي يعاضده الدليل، ويؤيده البرهان، افتراءً على الله، واختلاقاً للكذب عليه، وفي ذلك أتم دلالة على بعده ﷺ من الافتراء.

وخلاصة ذلك: أنهم قالوا: إن هذا الذي يتلوه علينا من القرآن، ما هو إلا اختلاق من قبل نفسه، وليس بوحي من عند ربه، كما يدعي.

ثم زاد في استبعاد الافتراء من مثله ﷺ، والإنكار له، على أتم وجه، فقال: ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى خذلانك ﴿يَخْتَرِعْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ لتجتريء بالافتراء عليه، فإنه لا يفعل مثل هذا إلا من كان في مثل حالهم، قد ختم الله على قلبه، وأعمى بصيرته.

والخلاصة: أنه إن يشأ يجعلك منهم، لأنهم هم المفترون الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله.

وفي «التأويلات النجمية»: يعني أنك إن افتريته ختم الله على قلبك، ولكنك لم تكذب على ربك، فلم يختم على قلبك، وما أجمل هذا التعريض بأنهم مفترون، وأنهم في نسبة الافتراء إليه مفترون أيضاً، وشبيهه بالآية قول أمين نسب

(١) المراغي.

إلى الخيانة: لعل الله خذلني لعل الله أعمى بصيرتي، لا يريد بمقاله إثبات الخذلان وعمى القلب، بل يريد استبعاد الخيانة من مثله، وأن من نسبه إلى ذلك فقد ركب شططاً وأتى أمراً إذاً، وقال قولاً نكراً.

ثم أكد استبعاد الافتراء منه وزاده إيضاحاً، فقال: ﴿وَمَعَ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ استئناف مقرر لنفي الافتراء غير معطوف على ﴿يَحْتَرِّمُ﴾ كما ينبىء عنه إظهار الاسم الجليل، وصيغة المضارع.

فائدة^(١): وكتب ﴿يمح﴾ في المصحف بحاء مرسلة، كما كتبوا، (ويدع الإنسان)، و(يدع الداع) و(سندع الزبانية)، مما ذهبوا فيه إلى الحذف، والاختصار نظراً إلى اللفظ، وحملًا للموقف على الوصل. يعني: أن سقوط الواو لفظاً لالتقاء الساكنين، حال الوصل، وخطأً أيضاً، حملًا للخط على اللفظ؛ أي: على أنه خلاف القياس، وليس سقوطها منه، لكونه مجزوماً بالعطف على ما قبله، لاستحالة المعنى؛ لأنه تعالى يمحو الباطل مطلقاً لا معلقاً بالشرط.

والمعنى: كيف يكون منه الافتراء على الله، وقد جرت عادته تعالى، أن يمحو الباطل ويمحق الشرك، ويثبت الحق والإسلام والتوحيد بكلماته؛ أي: بقضائه أو بوحيه. أو بما أنزله من القرآن. وينشره بين الناس، وها هو ذا يزداد ما أوتيته محمد ﷺ كل يوم قوة وانتشاراً، فلو كان مفترياً كما تدعون، لكشف افتراءه ومحقه، وقذف بالحق على باطله فدمغه.

وقد يكون المعنى: أن هذه عدة من الله لرسوله بالنصر، ويكون المراد يمحو الله باطلهم وما بهتوك به. ويثبت الحق الذي أنت عليه بقضائه، الذي لا مرد له فيكون هذا كلاماً معترضاً بين ما قبله وما بعده، مؤكداً لما سبق من الكلام، من كونهم مبطلين في نسبة الافتراء إلى من هو أصدق الناس حديثاً.

﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: عالم بما في قلب العباد؛ أي: بما تضره القلوب، فيجري عليها أحكامها اللائقة بها، من المحو

(١) روح البيان.

والإثبات. ولم يقل^(١): ذوات الصدور لإرادة الجنس، وذات هنا تأنيث ذي، بمعنى صاحب، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه؛ أي: عليم بالمضمرات صاحبة الصدور، وهي الخواطر القائمة بالقلب، من الدواعي والصوارف الموجودة فيه، وجعلت صاحبة للصدور بملازمتها، وحلولها فيها، كما يقال للبن: ذو الإناء ولولد المرأة وهو جنين ذو بطنها، وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى يتصرف في عباده بما يشاء، من إبعاد قريب، وإدناء بعيد.

والمعنى: أي فيعلم ما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر، وتجري الأمور بحسب علمه الواسع، المحيط بكل شيء.

ثم امتن على عباده بقبول توبتهم، إذا هم تابوا ورجعوا إليه فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ من الذنوب ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ بالتجاوز عما فرط منهم في الزمن الماضي، من الذنوب، واقتروا فيه من السيئات؛ لأنه إن لم يقبل كان إغراء بالمعاصي، وعدى القبول بعن؛ لتضمنه معنى التجاوز، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي عامة للمؤمن والكافر والولي والعدو، ومن تاب منهم، قبل الله توبته.

فصل في ذكر التوبة وحكمها

قال العلماء^(٢): التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي.. فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً، فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة، وإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته، وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي،

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

فشروطها أربعة: هذه الثلاثة.

والشرط الرابع: أن يبرأ من حق صاحبها، فهذه شروط التوبة الصحيحة. وقيل: التوبة الانتقال عن المعاصي نيةً وفعلاً، والإقبال على الطاعات نيةً وفعلاً، وقال سهل بن عبد الله التستري: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة.

وقد ورد في الحث على التوبة كثير من الأحاديث في «الصحيحين» وغيرهما.

فمن ذلك: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه، في اليوم أكثر من سبعين مرة» أخرجه البخاري.

ومنها: ما روي عن الأغر بن بشار المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة»، أخرجه مسلم.

ومنها: ما روي عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الله أفرح بتوبة عبده المؤمن، من رجل نزل في أرض دوية، مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه، فنام نومة فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته فطلبها، حتى إذا اشتد الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكان الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه. فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» متفق عليه، الدوية الفلاة والمفازة.

ومنها: ما روي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة» متفق عليه.

ومنها: لمسلم عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده، حين يتوب إليه، من أحدكم، كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه. وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتي شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته،

فبينما هو كذلك، إذ هو بها قائمة عنده، فاخذ بخطامها ثم قال من شدة فرحه: اللهم أنت عبادي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

ومنها: ما رُوي عن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل بالمغرب باباً، عرضه مسيرة سبعين عاماً، للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله، وذلك قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أُمَّتِكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا لِمِثْنًا...﴾ الآية، أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

ومنها: ما رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل، يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»، أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب.

ومنها: ما رُوي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار. ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». أخرجه مسلم.

وروى جابر رضي الله عنه أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر، فلما فرغ من صلاته، قال له علي رضي الله عنه: إن سرعة اللسان بالاستغفار، توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلى التوبة، فقال يا أمير المؤمنين: ما التوبة، قال: التوبة اسم يقع على ستة معان، على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم. وإذاقة النفس مرارة الطاعة، كما أذقتها حلاوة المعصية، وإذابتها في الطاعة، كما ربيتها في المعصية. والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

﴿وَعَفُّوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ في المستقبل؛ أي: يعفو عن صغائرها في المستقبل، بمحض فضله، وإن لم يتوبوا؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. وقيل: يعفو عن السيئات صغائرها وكبائرها، غير الشرك لمن يشاء بمحض فضله ورحمته. وفي «التأويلات النجمية»: ويعفو عن كثير من الذنوب، التي لا يطلع العبد عليها، فيتوب عنها، وأيضاً يعفو عن كثير من الذنوب، قبل التوبة، ليصير العبد به قابلاً للتوبة، وإلا لما تاب ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ كائناتاً ما كان من خير أو شر، فيجازي

بالثواب أو بالعقاب، أو يتجاوز بالعفو بحسب ما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم والمصالح. وفي «التأويلات النجمية»: ويعلم ما تفعلون من السيئات والحسنات، مما لا تعلمون أنها من السيئات والحسنات، فبتلك الحسنات يعفو عن السيئات، وفي هذا حث على لزوم الحذر منه تعالى، والإخلاص له وإمحاء التوبة.

وقرأ الجمهور^(١): ﴿مَا يَقْعُلُونَ﴾ بياء الغيبة، وقرأ عبد الله وعلقمة وحمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿مَا تَفْعُلُونَ﴾ بقاء الخطاب، واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأن هذا الفعل وقع بين خبرين.

والموصول في قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في موضع نصب على المفعولية، والفاعل ضمير يعود على الله سبحانه؛ أي: يستجيب الله سبحانه، للذين آمنوا دعاءهم ويعطيهم ما طلبوه منه. يقال: استجاب وأجاب بمعنى وقيل: المعنى: يقبل الله عبادة الذين آمنوا، وعملوا الصالحات؛ أي: يقبل عبادة المؤمنين المخلصين، ويثيبهم على طاعاتهم، يعني: يعطيهم الثواب في الآخرة. والإثابة^(٢) معنى مجازي للإجابة؛ لأن الطاعة لما شبهت بالدعاء، باعتبار ما يترتب عليها من الثواب، كانت الإثابة عليها، بمنزلة إجابة الدعاء، فعبر بها عنها، وقيل: إن الموصول في محل رفع على الفاعلية؛ أي: يجيب الذين آمنوا ربهم إذا دعاهم إلى طاعته، كقوله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾، والأول أولى باعتبار السياق ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ الله سبحانه على ما طلبوه، أو على ما يستحقونه من الثواب ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وكرمه وجوده ما يشاء تفضلاً وكرماً منه، وهو معطوف على ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ على الوجه الأول أعني: نصب الموصول، وعلى الوجه الثاني، أعني: رفع الموصول يكون قوله. ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ معطوفاً على مقدر تقديره: ويستجيبون لله تعالى بالطاعة، ويزيدهم على ما استحقوه من الثواب تفضلاً منه، وقيل: معنى ويزيدهم من فضله: يشفعهم في إخوانهم.

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

والمعنى^(١): أي ويجيب الذين آمنوا إذا دعوه، ويزيدهم من فضله على ما طلبوه بالدعاء.

وبعد أن ذكر ما أعدّه للمؤمنين من الثواب، أردف بما أعدّه للكافرين من العذاب فقال: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: وجيع مؤلم بدل ما للمؤمنين من الثواب والفضل المزيد، فالمؤمنون استجاب لهم دعاءهم وزادهم من فضله، وهؤلاء الكفرة لا يستجيب لهم دعاء ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾؛ أي: لجمعهم، ووسعه عليهم ﴿لَبَغَوْا﴾؛ أي: جميعهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لطغوا وعصوا وأفسدوا فيها، لأن الغنى مبطرة مأسرة؛ أي: داع إلى البطر والأشر، أو لظلم بعضهم بعضاً، وقيل: المعنى: لو جعلهم سواء في الرزق لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بغيهم في الأرض، طلبهم منزلة بعد منزلة ومركباً بعد مركب. وملبساً بعد ملابس، وقال بعضهم: لو أن الله تعالى رزق العباد من غير كسب، لتفرغوا للفساد في الأرض، ولكن شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد، ونعم ما قيل:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاعَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِمَرْءٍ أَيْ مَفْسَدَةٌ
أي: داعية إلى الفساد. ومعنى الفراغ: عدم الشغل، ولزوم البغي على بسط الرزق على الغالب، وإلا فقد يكون الفقير مستكبراً وظالماً، يعني: أن البغي مع الفقر أقل؛ لأن الفقر مؤد إلى الانكسار والتواضع غالباً، ومع الغنى أكثر وأغلب؛ لأن الغنى مؤد إلى البغي غالباً، فلو عم البسط كل واحد من العباد، لغلب البغي، وانقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن.

وذكروا في كون بسط الرزق موجباً للطغيان وجوهاً^(٢):

الأول: أن الله لو سوى في الرزق بين الكل. امتنع كون البعض محتاجاً إلى البعض، وذلك يوجب خراب العالم وتعطيل المصالح.

(٢) الفتوحات.

(١) المراغي.

ثانيها: أن هذه الآية مختصة بالعرب، فإنهم كلما اتسع رزقهم، ووجدوا من ماء المطر ما يرويههم، ومن الكلاً والعشب ما يشبعهم، قدموا على النهب والغارة.

ثالثها: أن الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنى والقدرة.. عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية، وهو التكبر وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه.. انكسر وعاد إلى التواضع والطاعة، وكفى بحال قارون عبرة.

قال علماؤنا^(١): أفعال الرب سبحانه لا تخلو عن مصالح، وإن لم يجب على الله الاستصلاح، فقد يعلم من حال عبده، أنه لو بسط عليه الرزق.. قاده ذلك إلى الفساد، فيزوي عنه الدنيا مصلحة له، فليس ضيق الرزق هواناً، ولا سعة الرزق فضيلة، وقد أعطى قوماً مع علمه بأنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلاف ما فعل، لكانوا أقرب من الصلاح، وبالجمله فالأمر مفوض إلى مشيئته تعالى، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح، في كل فعل من أفعاله تعالى.

وروى أنس عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى، قال: «إن من عبادي المؤمنين، من يسألني الباب من العبادة، وإني عليم أني لو أعطيته إياه لدخله العجب فأفسده، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه، إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده الفقر، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده الغنى، وإني لأدبر عبادي لعلمي بقلوبهم، فإني عليم خبير»، ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين، الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني برحمتك.

﴿وَلَكِنْ يُزِيلُ﴾ سبحانه وتعالى من الرزق لعباده ﴿يَقْدِرُ﴾؛ أي: بتقدير أزلي ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن ينزله مما تقتضيه مشيئته، وهو مفعول ينزل ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِعِبَادِهِ﴾؛ أي: بأحوال عباده ﴿خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾؛ أي: محيط بخفايا أمورهم، وجلالها، فيقدر لكل واحد منهم في كل وقت من أوقاتهم، ما يليق بشأنهم،

(١) الفتوحات.

فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية، ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم^(١): ﴿يُنْزَلُ﴾ بتشديد الزاي. وابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف.

والمعنى^(٢): أي ولو أعطى عباده من الرزق فوق حاجتهم، لحملهم ذلك على البغي والطغيان، وطلب ما ليس لهم طلبه؛ لأن الغنى مبطرة مأسرة، وكفى بحال قارون وفرعون، عبرة لمن اعتبر، ولكن يرزقهم ما فيه صلاحهم، وهو أعلم بحالهم، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، بحسب ما يعلم من المصلحة في ذلك.

والخلاصة: أنه تعالى خير بما يصلح عباده، من توسيع الرزق، وتضييقه، فيقدر لكل واحد منهم ما يصلحه. فيبسط ويقبض ويعطي ويمنع، ولو أغناهم جميعاً لبغوا. ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا، فنظام العالم لا يستقر إلا على هذا الوضع القائم، الجامع بين الأمرين، فخوف الأغنياء يَزَعُهُم عن الظلم، وخوف الفقراء من الأغنياء، يدعوهم إلى التعاون معهم ليفوزوا بمبتغاهم، ويزعهم عن البغي، وقال قتادة: كان يقال: خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك.

وبعد أن بين أنه لا يعطي عباده ما زاد على حاجتهم؛ لأنه يعلم أن الزيادة تضرهم في دينهم، ذكر أنهم لو احتاجوا إلى الغيث، فهو لا يمنعه عنهم، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله: ﴿الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ والمطر من السماء على الأرض، فيغيثهم به من الجذب، ولذلك خص بالنافع منه. فإن المطر قد يضر. وقد لا يكون في وقته. قال الراغب: الغيث يقال في المطر. والغوث في النصرة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: يئسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضاً، لتذكير كمال النعمة. فإن حصول النعمة بعد اليأس والبلية، أوجب لكمال الفرح. فيكون أدعى إلى الشكر. وقرأ الجمهور: ﴿قَنَطُوا﴾ بفتح النون، وقرأ الأعمش وابن وثاب بكسرهما. ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: يبسط بركات الغيث ومنافعه وما

(٢) المراغي.

(١) المراح.

يحصل به من الخصب في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان، وفي «فتح الرحمن»: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾: وهي الشمس، وذاك تعديد نعمة غير الأولى. وذلك أن المطر إذا جاء بعد القنوط حسن موقعه، فإذا دام ستم، وتجيء الشمس بعده عظمة الوقع ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْوَلِيُّ﴾؛ أي: السيد المالك، الذي يتولى عبادته بالإحسان ونشر الرحمة ﴿الْحَكِيمُ﴾؛ أي: المستحق للحمد على ذلك وغيره، لا غيره.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾؛ أي: متولى المطر، ومتصرفه، يرسله مرة بعد مرة ﴿الْحَكِيمُ﴾؛ أي: الأهل لأن يحمد على صنعه. إذ لا قبح فيه؛ لأنه بالحكمة. ودل الغيث على الاحتياج، وعند الاحتياج تتقوى العزيمة، والله تعالى يجيب دعوة المضطر. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر رضي الله عنه: اشتد القحط وقط الناس. فقال: مطروا إذن، ثم قرأ هذه الآية.

والمعنى: أي وهو الذي ينزل المطر من السماء، فيغيثهم به من بعد يأسهم من نزوله حين حاجتهم إليه، وينشر بركات الغيث، ومنافعه، وما يحصل به من الخصب، وهو الذي يتولى عبادته بإحسانه، ويحمد على ما يوصله إليهم من رحمته.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن تحت العرش بحراً، ينزل منه أرزاق الحيوانات، يوحى الله سبحانه إليه. فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء، حتى ينتهي إلى سماء الدنيا ويوحى إلى السماء أن غربليه. فتغربله فليس من قطرة تقطر إلا ومعها ملك يضعها موضعها، ولا ينزل من السماء قطرة إلا بكيل معلوم، ووزن معلوم، إلا ما كان من يوم الطوفان من ماء، فإنه نزل بغير كيل ولا وزن.

وروي: أن الملائكة يعرفون عدد المطر، ومقداره في كل عام؛ لأنه لا يختلف فيه البلاد، وفي الحديث: «ما من سنة بأمر من أخرى، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي، حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفياقي والبحار».

ثم أقام الأدلة على ألوهيته فقال: ﴿وَمَنْ ءَايَاتِهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي:

ومن دلائل قدرته تعالى، الموجبة لتوحيده، وصدق ما وعد به من البعث ﴿خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خلقهما على هذه الكيفية العجيبة والصنعة الغريبة، فإنهما بذاتهما وصفاتهما يدلان على شؤونه العظيمة، والإضافة^(١) في ﴿خَلَقُ السَّمَوَاتِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: السموات المخلوقة، والأرض المخلوقة ﴿وَمَا بَثَّ﴾ وفرق ونشر ﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في السموات والأرض، معطوف على السموات؛ أي: وفي خلق ما بث فيهما، أو على الخلق؛ أي: في خلق السموات والأرض، وفي ما بث فيهما ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾؛ أي: من حي. فهو من إطلاق المسبب، وهو الدبيب وإرادة السبب، وهو الحياة. فتكون الدابة بمعنى الحي، فتتناول الملائكة، فإن الملائكة ذووا حركات طيارون في السماء، وإن كانوا لا يمشون في الأرض.

وفي «الخازن»: فإن قلت: كيف^(٢) يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة؟

قلت: الدبيب في اللغة: المشي الخفيف على الأرض، فيحتمل أن يكون للملائكة مشي مع الطيران، فيوصفون بالدبيب، كما يوصف به الإنسان. وقيل: يحتمل أن الله تعالى خلق في السموات أنواعاً من الحيوانات، يدبون دبيب الإنسان، وقيل: يحتمل أنه من إطلاق المثنى على المفرد، فيعود الضمير في ﴿فِيهِمَا﴾ إلى الأرض فقط، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الدُّوَابُّ وَالْمَرْءَاتُ﴾ ﴿٢٢﴾ وإنما يخرجان من أحدهما وهو الملح.

يقول الفقير: إن للملائكة أحوالاً شتى، وصوراً مختلفة، لا يقتضي موطنهم الحصر، في شيء من المشي والطيران، فطيرانهم إشارة إلى قوتهم في قطع المسافة، وإن كان ذلك لا ينافي أن يكون لهم أجنحة ظاهرة، فلهم أجنحة يطيرون بها. ولهم أرجل يمشون بها. والله أعلم.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾؛ أي: على جمع الأجسام وحشرهم بعد البعث للمحاسبة ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾؛ أي: في أي وقت شاء جمعهم ﴿يَذِيرُ﴾؛ أي:

(٢) الخازن.

(١) روح البيان.

قادر متمكن منه. وقوله: ﴿هُوَ﴾^(١) مبتدأ. و﴿قَدِيرٌ﴾ خبره. و﴿عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ متعلق بقدير، وإذا مجردة عن معنى الشرط، متعلقة بجمعهم لا بقدير، لفساد المعنى. فإن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته، و﴿إِذَا﴾ عند كونها بمعنى الوقت، مجردة عن الشرط كما تدخل على الماضي تدخل على المضارع، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝﴾.

والمعنى^(٢): أي ومن دلائل عظمته وقدرته وسلطانه القاهر، خلق السموات والأرض، وما نشر فيهما من دابة، تدب وتتحرك، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوان على اختلاف أشكالهم وألوانهم، وهو يجمعهم يوم القيامة، فيجمع الأولين والآخرين، وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ثم يحكم بينهم بحكمه العدل، وهو اللطيف الخبير. وقصارى ذلك: أنه قدير على جمع ما بث فيهما من دابة، إذا شاء جمعه، كما لم يتعذر خلقه وتفريقه.

ثم ذكر سبحانه دستوراً للناس في أعمالهم، إذا تأملوه.. أقلعوا عما يرتكبونه من الآثام، فقال: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ﴾؛ أي^(٣): والذي وصل إليكم أيها الناس ﴿مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ أي مصيبة كانت، من الآلام والأسقام والقحط والخوف، حتى خدش العود وعثرة القدم واختلاج العرق وغير ذلك، في البدن، أو في المال، أو في الأهل والعيال، ويدخل فيه الحدود على المعاصي، كما أنه يدخل في قوله: ﴿وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ما لم يجعل له حد ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: فهو واقع بكم بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، فإن ذكر الأيدي لكون أكثر الأعمال، مما يزاول بها، فكل نكد لاحق إنما هو بسبب ذنب سابق، أقله التقصير.

وفي الحديث: «لا يرد القدر إلا بالدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن

(٣) روح البيان.

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وقوله: لا يرد القدر إلخ، لأن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لدفع البلاء، وجلب الرحمة، كما أن الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، وقال الضحاك: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب، وأي معصية أقبح من نسيان القرآن، وتلا الآية.

وقرأ نافع وابن عامر^(١): ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ بغير فاء، وقرأ الباقر بالفاء. و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ هي الشرطية، ولهذا دخلت الفاء في جوابها، على قراءة الجمهور، ولا يجوز حذفها عند سيبويه والجمهور، وجوز الأخفش الحذف كما في قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُتْرُونَ﴾، وقول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرُهَا وَالشَّرَّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللَّهِ مِثْلَانِ
وقيل: هي الموصولة، فيكون الحذف والإثبات جائزين، والأول أولى، وقال الزجاج: إثبات الفاء أجود، لأن الفاء مجازاة جواب الشرط، ومن حذف الفاء، فعلى أن ﴿مَا﴾ في معنى الذي، وقال بعضهم: ﴿مَا﴾ موصول مبتدأ، دخلت الفاء في خبره، لتضمنه معنى الشرط.

والمعنى: والذي أصابكم، فواقع بما كسبت أيديكم، قال الحسن: المصيبة هنا: الحدود على المعاصي، والأولى الحمل على العموم، كما يفيد وقوع النكرة في سياق النفي، ودخول من الاستغراقية عليها.

﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ من الذنوب التي يفعلها العباد، فلا يعاقب عليها، ولولا عفوّه وتجاوزّه ما ترك على ظهرها من دابة، وهذا من تنمة قوله: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

والمعنى^(٢): أي وما يحل بكم أيها الناس، من المصائب في الدنيا، فإنما تصابون به عقوبة لكم، على ما اجترحتم من الآثام، واقترفت من الشرور والمعاصي، ويعفو لكم عن كثير من جرائمكم، فلا يعاقبكم بها، وقد ثبتت الأدلة

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

الصحيحة، أن جميع ما يصاب به الإنسان في الدنيا. يؤجر عليه، أو يكفر عنه من ذنوبه، وقيل: هذه الآية مختصة بالكافرين، على معنى أن ما يصابون به، بسبب ذنوبهم، من غير أن يكون ذلك مكفراً عنهم لذنوب، ولا محصلاً لثواب، ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم، فلا يعاجلهم في الدنيا، بل يمهلهم إلى الدار الآخرة، والأولى حمل الآية على العموم، والعفو يصدق على تأخير العقوبة، كما يصدق على محو الذنب ورفع الخطاب به.

فإن الله سبحانه^(١) جعل للذنوب أسباباً، لها نتائجها ومسبباتها، فشارب الخمر، يصاب بكثير من الأمراض الجسمية، والعقلية في الدنيا، وهي أثر من آثار ما اجترح من الذنوب، والتاجر غير الأمين، أو الكذاب، تصاب تجارته بالكساد، ويشهر بين الناس بالخيانة، فيحجمون عن معاملته، والحكام المرتشون، الظلمة، الذين يجمعون أموالهم بالسحت، يصابون بالفقر والعدم، ويصبحون مثلاً بين الناس، وإن لم يصبهم الفقر. . يصب أولادهم، فيصبحوا بحال يرثى لها، ويصيروا أحاديث الخاصة والعامة، والأمم الظالمة، التي لا تناصر بين أفرادها، بل بينها التقاطع، ويبتز بعض أفرادها أموال بعض آخر، تصاب بالمهانة بعد العظمة، والذلة بعد العزة، وما الأمثال في ذلك بعزيزة.

وقد تقدم أن قلنا في غير موضع: إن عقاب الأفراد في الدنيا ليس بالمطرد، إذ كثيراً ما نرى سكيراً عريداً، لا يصاب بأذى مما يفعل، ونرى تاجراً يخون الأمانة، ولا يصاب بكساد في تجارته، وحينئذ يكون عقاب كل منهما مؤجلاً ليوم الحساب، إن شاء ربك عاقب، وإن شاء عفا بعد التوبة، عما فرط منهما من الذنوب، والآثام.

وأما عقاب الأمم على ما تجترح من السيئات، فهو محقق في الدنيا، ولدينا عظة التاريخ في القديم والحديث، فما من أمة تركت أوامر دينها، وخالفت نوااميس العمران، إلا زالت وصارت كأمس الدابر، وأصبحت عبرة للباقيين. ومثلاً

(١) المراغي.

لِلْآخِرِينَ ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِا مِنْ دَابَّةٍ﴾. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها، حتى الشوكة يشاكها».

ولما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». وروى الترمذي، وجماعة عن علي - كرم الله وجهه - قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله، حدثنا بها رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ قال ﷺ: «وسأفسرها لك يا علي، ما أصابكم من مرض، أو عقوبة، أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يعود بعد عفوه»، والآثار في هذا الباب كثيرة.

وقال الواحدي: وهذه أرجى آية في كتاب الله، لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين، صنف كفره عنهم بالمصائب، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، فهذه سنة الله مع المؤمنين، وأما الكافر فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة انتهى.

والخلاصة: أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب، ويعفو عن كثير من الذنوب.

ولما كان من يعاقب بدون الموت، ربما ظن أنه عاجز فائت، قال: ﴿وَمَا أَنْتُمْ﴾ أيها الناس، أجمعون عربكم وعجمكم ﴿بِمُعْجِرَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بفائتين عليه تعالى. هرباً في الأرض. ولا في السماء، لو كنتم فيها، لو أراد محققكم بالكلية، يعني: لو أراد الله سبحانه، ابتلاءكم وعقوبتكم.. فلا تفوتونه حيثما كنتم، ولا تسبقونه، ولا تقدرُونَ أن تمنعوه من تعذيبكم، بل ما قضاه عليكم من المصائب واقع عليكم، نازل بكم ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أيها الناس، عند الاجتماع. فكيف عند الانفراد ﴿مَنْ ذُوْنُ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء عظمة وكبراً وعزة ﴿مِنْ وَلِيِّ﴾ يوالي أموركم بالاستقلال، فيحميكم مما قضاه الله

من المصائب ﴿وَلَا نَصِيرَ﴾ يدفعها عنكم، أو يمنعكم من عذاب الله، في الدنيا والآخرة.

والمعنى^(١): أي وما لكم من دون الله ولي يليكم، بالدفاع عنكم، إذا أراد عقوبتكم على معصيتكم، ولا لكم نصير ينصركم، إذا هو عاقبكم فينتصر لكم، فاحذروا معاصيه، واتقوا مخالفة أوامره، فإنه لا دافع لعقوبته إذا أحلها بعبد من عباده.

ثم ذكر سبحانه، آية أخرى من آياته العظيمة، الدالة على توحيده، وصدق ما وعد به، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾؛ أي: ومن دلائل قدرته وباهر حكمته وعظيم سلطانه ﴿الْجَوَارِ﴾؛ أي: السفن الجارية ﴿فِي الْبَحْرِ﴾؛ أي: في الماء الكثير العميق؛ أي: تسخير البحر، لتجري فيه الفلك بأمره، حالة كون تلك الجواري ﴿كَالْأَغْلَافِ﴾ في عظمها وارتفاعها؛ أي: كالجبال الشاهقة، والمدن العالية.

أي^(٢): ومن دلائل قدرته تعالى، السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف، شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تشخص بالأجسام الثقيلة الكثيفة. ومع ذلك جعل تعالى، للماء قوة يحملها بها، ويمنع من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيورها، فإذا أراد أن ترسو، أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها، والجواري جمع جارية، وأصله: السفن الجواري، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه، وحسن ذلك قوله: ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ فدل ذلك على أنها صفة للسفن. وإلا فهي صفة غير مختصة. فكان القياس أن لا يحذف الموصوف، ولا يقام مقامه. ويمكن أن يقال: إنها صفة غالبية، كالأبطح فجاز أن تلي العوامل، بغير ذكر الموصوف، وقرئ ﴿الجواري﴾ بالياء ودونها، وسمع من العرب الإعراب في الراء. و﴿فِي الْبَحْرِ﴾ متعلق بالجواري، و﴿كَالْأَغْلَافِ﴾ في موضع الحال، والأعلام: الجبال، ومنه قول الخنساء:

(٢) البحر المحيط.

(١) المراغي.

وَأَنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمْ الْهُدَاهُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ
قال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم. وقال مجاهد: الأعلام
القصور، واحدها علم.

﴿إِنْ يَشَأْ﴾ الله سبحانه وتعالى. وهو شرط، جوابه قوله: ﴿يُسْكِنُ الرِّيحَ﴾
التي تجريها ﴿فَيُظْلِلْنَ﴾؛ أي: فيصرن^(١) تلك السفن من ظل، بمعنى صار، أي:
يصرن تلك السفن، بعد ما كانت جوارى بريح طيبة ﴿رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾؛ أي:
ثابت على ظهر البحر. غير جاريات ولا متحركات أصلاً.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿يَشَأْ﴾ بالهمزة، وقرأ ورش عن نافع بلا همزة، وقرأ
جمهور السبعة: ﴿الرِّيحَ﴾: بالإفراد، وقرأ نافع ﴿الرياح﴾ بالجمع، وقرأ
الجمهور: ﴿فَيُظْلِلْنَ﴾: بفتح اللام الأولى، وقرأ قتادة بكسرهما، وهي لغة قليلة،
والقياس الفتح لأن الماضي بكسر العين، فالكسر في المضارع شاذ.

والمعنى: إن يشأ الله، الذي قد أجرى هذه السفن في البحر، أن لا تجري
فيه، أسكن الريح التي تجري بها، فتثبت في موضع واحد، وتقف على ظهر
الماء، لا تتقدم ولا تتأخر.

ثم أتى بجملة معترضة بين ما مضى وما سيأتي فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي
ذكر من أمر السفن، اللاتي يجرين تارة، ويركدن تارة أخرى، على حسب مشيئة
الله تعالى ﴿لَا يَكْتِفِي﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في العدد، دالة على ما ذكر من
شؤونه ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: لكل من كان كثير الصبر على احتمال البلايا في
طاعة الله تعالى ﴿شَكُورٍ﴾؛ أي: كثير الشكر على نعمائه، باستعمال كل عضو من
الأعضاء، فيما خلق له، قال قطرب: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي
شكر، وإذا ابتلي صبر، قال عون بن عبد الله:

فَكَمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ غَيْرُ شَاكِرٍ وَكَمْ مِنْ مُبْتَلَى غَيْرُ صَابِرٍ

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني والبحر المحيط.

ويجوز أن يكون^(١) مجموع صبار، شكور كناية عن الآتي بجميع ما كلف من الأفعال والتروك، فالمعنى: لكل مؤمن كامل في خصائل الإيمان، وثمراتها ترجع كلها إلى الصبر والشكر، فإن الإيمان نصفه صبر عن المعاصي، ونصفه شكر، وهو الإتيان بالواجبات.

والمعنى: أي إن في جري هذه الجواري في البحر، بقدرته تعالى، لحجة بينة على قدرته على ما يشاء، لكل ذي صبر على طاعته، شكور لنعمه وأياديه عنده، والمؤمن إذا كان في ضراء كان من الصابرين، وإذا كان في السراء كان من الشاكرين.

وقوله: ﴿أَوْ يُؤَيِّقَ﴾ معطوف على ﴿يُسْكِنَ﴾؛ أي: يُهلكهن الله تعالى بالغرق، والمراد: أهلهن بما كسبوا من الذنوب، وقيل: بما أشركوا. والأول أولى، فإنه يهلك في البحر المشرك وغير المشرك، يقال: أوبقه إذا أهلكه كما في «القاموس».

والمعنى: إن يشأ يسكن الريح، فيركدن على ظهره، أو يرسلها بشدة، فيغرقهن بعدله، وإيقاع الإيقاع عليهن، مع أنه حال أهلن للمبالغة والتهويل، يعني: أن المراد إهلاك أهلها بسبب ما كسبوا من الذنوب الموجبة للهلاك.

قال سعدي المفتي^(٢): والظاهر أنه لا مانع من إبقاء الكلام على حقيقته فالآية مثل قوله: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا خَافُكُمْ بِهَا﴾ أي: يوبق سفائنهم بشؤم ما كسبوا ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ فلا يوبق أموالهم، انتهى. وإجراء حكمه على العفو، في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ لما أن المعنى: أو يرسلها فيوبق ناساً، وينجي آخرين، بطريق العفو.

وقرأ الأعمش^(٣): ﴿ويعفو﴾ بالواو، وعن أهل المدينة ﴿ويعفو﴾ بنصب

(٣) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الواو، وقرأ الجمهور: ﴿وَيَعْفُ﴾: مجزوماً، عطفاً على ﴿يُؤَيِّقُهُنَّ﴾، فأما قراءة الأعمش، فإنه أخبر تعالى، أنه يعفو عن كثير؛ أي: لا يؤاخذ بجميع ما اكتسب الإنسان، فهو كلام مستأنف، وأما النصب، فيأضمار أن بعد الواو، كالنصب بعد الفاء في قراءة من قرأ ﴿يُحَاسِبُكُمْ بِهٖ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ﴾، وبعد ﴿الواو﴾ في قول الشاعر:

فَإِنْ يَهْلِكُ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكُ رَيْبُ النَّاسِ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ
وَتَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذَنَابِ عَيْشٍ أَجَبَ الظَّهْرَ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ
رُوي بنصب (ونأخذ) ورفع وجزمه، وفي هذه القراءة يكون العطف على مصدر متوهم؛ أي: يقع إيباق، وعفو عن كثير، وأما الجزم فإنه داخل في حكم جواب الشرط. إذ هو معطوف عليه. وهو راجع في المعنى إلى قراءة النصب، لكن هذا عطف فعل على فعل، وفي النصب عطف مصدر مقدر على مصدر متوهم.

والمعنى^(١): أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف، فيغرق السفن بذنوب راكبيها، ولكنه يعفو عن كثير من ذنوبهم، ولو أخذهم بجميع ما يجترحون منها، لأهلك كل من ركب البحر.

والخلاصة: أنه لو شاء أسكن الريح. فوقفت السفن رواكد على ظهر البحر، ولو شاء لأرسلها عاتية قوية، فأخرتها عن سيرها، وصرفتھا ذات اليمين، وذات الشمال، أبقة لا تسير على طريق، ولا تصل إلى مقصد حتى تغرق، ولكن من رحمته ولطفه يرسلها بقدر الحاجة، ليتنفع بها الملاحون لقضاء أوطارهم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ بالرفع. مستأنف على أنه جملة فعلية، ويكون الموصول فاعلاً. أو على أنه جملة اسمية، فيكون خبراً لمبتدأ محذوف، يعود على الله، ويكون الموصول مفعولاً؛ أي: وهو سبحانه يعلم الذين يجادلون إلخ. وهذه قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ، وبالنصب معطوف على تعليل مقدر

(١) المراغي.

للإغراق؛ أي: يغرقهم لينتقم منهم، ويعلم الذين يجادلون ﴿فَإِنَّا إِنَّا﴾ بالكذب ويسعون في دفعها ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ حَيٍّ﴾؛ أي: من مهرب من عذاب الله، وجملة النفي سدت مسد مفعولي يعلم، والنفي معلق عن العمل، وبالجزم عطفاً على المجزوم قبله على معنى: وإن يشأ يجمع بين أمور ثلاثة: إهلاك قوم، ونجاة قوم، وتحذير آخرين؛ لأن قوله: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ إلخ يتضمن تحذيرهم من عقاب الله تعالى. وعلى هذه القراءة، فلا يوقف على كثير، بخلاف القراءتين الأوليين، فالوقف عليه تام. أما القراءة الأولى، أعني^(١): قراءة الرفع، فقرأ بها الأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وزيد بن علي، وأما الثانية أعني: قراءة النصب، فقرأ بها الجمهور، وأما القراءة الثالثة فشاذاً.

والمعنى^(٢): أي وليعلم الذين ينازعون في آياتنا على جهة التكذيب، لها أنه لا مخلص لهم، ولا مهرب إذا وقفت السفن، أو إذا عصفت الرياح، فيكون ذلك سبباً لاعترافهم، بأن الإله النافع الضار، ليس إلا الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة: فكما لا مخلص لهم إذا وقفت، أو عصفت الرياح؛ كذا لا مهرب لهم من عذابه بعد البعث، فلا بد من الاعتراف بأن الضار والنافع ليس إلا الله، وأن كل أمر حدث فإنما هو بتأثيره.

ولما ذكر سبحانه دلائل التوحيد.. ذكر التنفير عن الدنيا، فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ﴾؛ أي: أعطيتم أيها الناس ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مما ترغبون فيه، وتنافسون به، من الغنى، والسعة في الرزق، والمال، والبنين ﴿فَتَتَّعِ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: فهو متاعها ومنفعتها، تتمتعون وتتفنون به مدة حياتكم القليلة، فيزول ويفنى؛ والله در القائل:

إِنَّمَا الدُّنْيَا فَنَاءٌ لِّسَ الدُّنْيَا ثُبُوتُ
إِنَّمَا الدُّنْيَا كَبَيْتٍ نَسَجَتْهُ الْعَنَكُبُوتُ
وفي هذا، تحقير لشأن هذه الحياة، وزينتها، وما فيها من النعيم الزائل،

(٢) المراغي.

(١) البحر المحيط.

﴿فَمَا﴾^(١) موصولة، متضمنة لمعنى الشرط، من حيث إن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع به في الحياة الدنيا، ولذا دخلت الفاء في جوابها، وقدر المبتدأ لأن الجواب لا يكون إلا جملة. يعني: أن سببته مقصود فيها الإعلام لتضمنها الترغيب في الشكر، بخلاف الثانية أعني: قوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ إلخ، فإن المقصود فيها، بيان حال أن ما عند الله، سبب للخيرية والدوام، وقيل: إن ﴿مَا﴾ شرطية، على أنها مفعول ثانٍ لـ ﴿أُوتِيتُمْ﴾ بمعنى أعطيتهم، والأول هو ضمير المخاطبين، قائم مقام الفاعل، ومن شيء يبان لها، لما فيها من الإبهام.

ثم رغبهم في ثواب الآخرة، وما عند الله من النعيم المقيم فقال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتاً، لخلوص نفعه من المكدرات ﴿وَأَبْقَى﴾ زماناً، حيث لا يزول ولا يفنى، بخلاف ما في الدنيا، أي: وما عند الله تعالى من ثواب الطاعات والجزاء عليها، والنعيم المقيم خير من زهرة الدنيا؛ لأنه باق سرمدي، وما في الدنيا زائل فان، والعقل قاص بترجيح الباقي على الفاني، وفيه إشارة إلى أن الراحة في الدنيا لا تصفو، ومن الشوائب لا تخلو، وإن اتفق لبعضهم منها في الأحايين، فإنها سريعة الزوال وشيكة الارتحال، وما عند الله من الثواب الموعود، خير وأبقى من هذا القليل الموجود، بل ما عند الله من الألفاظ الخفية والمقامات العلية، والمواهب السنية خير وأبقى مما في الدنيا والآخرة.

ثم بين سبحانه، أنه لا يكون خيراً إلا لمن اتصف بصفات:

١ - ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تنازع فيه كل من خير، وأبقى؛ أي: ما عند الله تعالى خير، للذين صدقوا وحدانية الله، وآمنوا برسوله، وعملوا على ما يوجه الإيمان.

٢ - ﴿و﴾ خير للذين ﴿على ربهم يتوكلون﴾؛ أي وخير للذين على من رباهم بإحسانه يعتمدون، وإليه يفوضون أمورهم. ولا يلتفتون إلى غيره في مهام أمورهم. رُوي: أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق

(١) روح البيان.

بماله . فلامه المسلمون ، وخطأه الكافرون .

٣ - ﴿و﴾ خير لـ ﴿الذين يجتنبون﴾ و﴿يبتعدون﴾ ﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ وعظائم الذنب ، كالقذف والشرب والسرقة والغيبة والنميمة ﴿و﴾ يبتعدون ﴿الفواحش﴾ التي ينكرها الشرع والعقل والطبع السليم ، من قول أو فعل ، اختص بصيغة الفحش ، وهي فوق الكبائر ، كالزنا واللواط ، والموصول في محل الجر ، معطوف^(١) على الذين آمنوا عطف الصفة على الصفة ؛ لأن الذات واحدة ، والعطف إنما هو بين الصفات ، والكبائر : جمع كبيرة ، وهي ما أوجب الله عليه الحد في الدنيا . والعذاب في الآخرة ، كالقذف والشرب والسرقة . والفواحش : جمع فاحشة ، بمعنى قبيحة مفرطة في القبح ، وهي ما اختص من الكبائر بصفة الفحش ، فكأنها فوقها كالشرك ، والقتل والزنا واللواط وعقوق الوالدين ، فيكون عطف الفواحش على الكبائر ، من عطف البعض على الكل ، إيذاناً بكمال شناعته ، وقيل : هما واحد ، والعطف لتغاير الوصفين ، وقرأ الجمهور ﴿كَبَائِرَ﴾ بالجمع هنا وفي النجم ، وقرأ حمزة والكسائي : ﴿كبير الإثم﴾ بالإفراد ، وهو يفيد مفاد الكبائر ، لأن الإضافة للجنس كاللام .

و﴿إذا﴾ في قوله :

٤ - ﴿وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ظرفية مجردة عن معنى الشرط ، متعلقة بيغفرون ، و﴿ما﴾ زائدة ، و﴿هم﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿يَغْفِرُونَ﴾ : خبره ، والجملة الاسمية هي المعطوفة على الصلة ، وهي ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ عطف اسمية على فعلية ، والتقدير : والذين يجتنبون كبائر الإثم وهم يغفرون ، لا أنها شرطية ، والاسمية جوابها لخلوها عن الفاء الرابطة . والغضب : ثوران دم القلب إرادة الانتقام ، ولذلك قال عليه السلام : «اتقوا الغضب فإنه جمرة توقد في قلب ابن آدم . ألم تر إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه» . والمغفرة هنا بمعنى العفو والتجاوز والحلم وكظم الغيظ ، والمعنى والذين هم ، يعفون ويتجاوزون ويحلمون ويكظمون الغيظ ،

(١) روح البيان .

وقت غضبهم على أحد، ويتجرعون كاسات الغضب النفسانية، بأفواه القلوب الروحانية الربانية ويسكنون صورة الصفة الشيطانية، وفيه دلالة على أنهم الأخصاء بالمغفرة حال الغضب لعزة منالها، لا يزيل الغضب أخلاقهم، كسائر الناس، وذلك لأن تقديم الفاعل المعنوي، أو التقديم مطلقاً يفيد الاختصاص.

والخلاصة: أي^(١) وإذا ما غضبوا كظموا غيظهم، إذ من سجايهم الصنف والعفو، وليس من طباعهم الانتقام، وقد ثبت في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ، ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله.

وقوله:

٥ - ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾، أي: أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من توحيده. والبراءة من عبادة كل ما يعبد من دونه، معطوف^(٢) على الموصول الأول عطف خاص على عام، لمزيد التشريف، وذلك لأن الاستجابة داخلية في الإيمان، قيل: نزلت الآية في الأنصار، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان، فاستجابوا له من صميم القلب، ولا يلزم منه أن تكون الآية مدنية، فإن كثيراً منهم أسلموا بمكة قبل الهجرة، وفيه إشارة إلى أن الاستجابة للرسول استجابة للمرسل.

وقوله:

٦ - ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة؛ أي: أدوها لمواقبتها بشروطها وأركانها وهيئاتها، معطوف على استجابوا، فهو من أوصاف الأنصار أيضاً، وخص الصلاة من بين أركان الدين، كالزكاة والصوم والحج لما لها من الخطر في صفاء النفوس، وتزكية القلوب، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولأنه^(٣) ما بين العبد والإيمان إلا إقامة الصلاة كما أنه ما بينه وبين الكفر إلا ترك الصلاة، فإذا أقام الصلاة فقد آمن، وأقام الدين، كما أنه إذا تركها فقد كفر وهدم الدين، وفي

(٣) روح البيان.

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

الحديث: «أول ما يحاسب العبد يوم القيامة بصلاته، فإن صلحت أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر».

وقوله:

٧ - ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرَىٰ يَتَنَبَّهُمْ﴾ معطوف على الصلة. أعني: استجابوا عطف اسمية على فعلية. وشورى مصدر. كالتفتيا بمعنى التشاور؛ أي: وأمرهم ذو تشاور بينهم لا ينفردون برأي، حتى يتشاوروا ويجمعوا عليه.

قال سعدي المفتي: فإن قلت: لا حاجة إلى إضمار المضاف لظهور صحة: وشأنهم تشاور بينهم.

قلت: المصدر المضاف من صيغ العموم، فيكون المعنى: جميع أمورهم تشاور، ولا صحة له إلا أن يقصد المبالغة في كثرة ملابتهم به، وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله: ذو شورى لبيان حاصل المعنى انتهى.

وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حزبهام أمر اجتمعوا وتشاوروا، وذلك من فرط تدبرهم وتفقههم في الأمور، وفي «عين المعاني»: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرَىٰ يَتَنَبَّهُمْ﴾ حين^(١) سمعوا بظهوره ﷺ، فاجتمع رأيهم في دار أبي أيوب، على الإيمان به والنصر له، وقيل: لها العموم؛ أي: لا يستبدون برأيهم فيما لا وحي فيه من أمر الدين، بل يشاورون الفقهاء، وقيل: في كل ما يعرض من الأمور، انتهى.

وقال علي رضي الله عنه: نعم الموازنة المشاورة، ويئس الاستعداد الاستعداد قال حكيم: اجعل شرك إلى واحد، ومشورتك إلى ألف، وقيل: من بدأ بالاستشارة وثني بالاستشارة لتحقيق أن لا يضل رأيه، وقال الإسكندر: لا يستحقر الرأي الجزيل من الرجل الحقيق، فإن الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها، يقال: أعقل الرجال لا يستغني عن مشاورة أولي الألباب، وأفره الدواب لا يستغني عن السوط، وأورع النساء لا يستغني عن الزوج.

وعن الحسن^(٢): ما تشاور قوم؛ إلا هدوا لأرشد أمرهم. وقال ابن

(١) عين المعاني.

(٢) المراغي.

العربي: الشورى ألفة للجماعة، وصقال للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هدوا، ولأمر ما أصبحت الحكومات في العصر الحاضر، لا تبت في مهام الأمور، إلا إذا عرضت على مجالس الشورى - البرلمان، مجلس الشيوخ، والنواب - وكأني بك قد سمعت قول بشار بن برد في فوائد الشورى:

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ بِرَأْيِ لَيْبٍ أَوْ مَشُورَةِ حَازِمٍ
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاةً فَرِيشُ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ
وَمَا خَيْرُ كَفِّ أَمْسِكَ الْغِلُّ أَخْتَهَا وَمَا خَيْرُ كَفِّ لَمْ تُؤَيِّدْ بِقَائِمِ

وقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الكثير من الأمور، ولم يكن يشاورهم في الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله تعالى. أما الصحابة فكانوا يتشاورون فيها، ويستنبطونها من الكتاب والسنة، وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة، فإن النبي ﷺ لم ينص عليها حتى انتهى أمرهم إلى أبي بكر، وتشاوروا في قتال من ارتدوا، بعد وفاة رسول الله ﷺ، فاستقر رأي أبي بكر على القتال، وقد كان فيه الخير للإسلام والمسلمين، وشاور عمر رضي الله عنه الهرمزان حين وفد. ونحو الآية قوله: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

وقوله:

٨ - ﴿وَالَّذِينَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في سبيل الخير، ويتصدقون منه على المحاويج، معطوف على الصلة أيضاً، ولالتفات إلى إنفاق الكافر، فإنه لم يستجب لربه بالإيمان والطاعة، فخيرته محبط بكفره.

ولعل^(١) فصله عن قرينه بذكر المشاورة، لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات، كما في «الإرشاد». قال سعدي المفتي: ثم إن إدخال هذه الجملة يعني: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ بين خصال الإيمان، لعله لمزيد الاهتمام بشأن المشاورة، للمبادرة إلى التنبيه على أن استجابتهم للإيمان كانت عن بصيرة، ورأي سديد، انتهى.

(١) روح البيان.

ثم ذكر سبحانه وتعالى، الطائفة التي تنتصر ممن ظلمها، فقال:

٩ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾؛ أي: وصل إليهم الظلم ﴿يَنْصَرُونَ﴾؛ أي: ينتقمون ممن ظلمهم معطوف على الموصول الأول.

والمعنى: إذا وصل إليهم الظلم، والتعدي من ظالم متعد، ينتقمون ويقتصون ممن بغى عليهم، على الوجه الذي جعله الله، ورخصه لهم، لا يتجاوزون ذلك الحد المعين، وهو رعاية المماثلة، وأما غيرهم فليسوا كذلك، فهذا هو معنى التخصيص هنا، وقد ذكر^(١) سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح، كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح؛ لأن التذلل لمن بغى، ليس من صفات من جعل الله له العزة، حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالانتصار عند البغي فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة. وقال في «الروح»: وهذا وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم، بسائر أمهات الفضائل، من الدين واليقظ، والحلم والسخاء. وذلك لأن البغي إنما يصيبهم من أهل الشوكة والغلبة، فإذا انتقموا منهم على الحد المشروع، كراهة التذلل، باجترأ الفساق عليهم، وردعاً للجاني عن الجراءة على الضعفاء، فقد ثبت شجاعتهم وصلابتهم في دين الله، وكان النخعي رحمه الله تعالى، إذا قرأ هذه الآية يقول: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فتجترأ عليهم السفهاء. قال الشاعر:

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ
هَذَا عَلَى الْحَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمْتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَرْتِي لَهُ أَحَدُ
أي: لا يصبر على ظلم يراد في حقه، إلا الأذلان هما في غاية الذل، وهما الحمار المربوط على الذل، بقطعة حبل بالية، والوتد الذي يدق ويشق رأسه، فلا يرحم له أحد. ولفظ البيت خبر، والمعنى: نهى عن الصبر على الظلم، وتحذير وتنفير للسامعين عنه.

واعلم^(٢): أن المؤمنين فريقان:

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

أ - فريق يعفو اتباعاً، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُوتُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) وقوله: ﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (١٦٦).

ب - فريق يتنصر ممن ظلمه، وهو المذكور في هذه الآية.

والخلاصة: أن العفو ضربان:

١ - ضرب يكون فيه العفو سبباً لتسكين الفتنة، وتهذئة النفوس، ومنع استفحال الشر، وهذا محمود، وحث عليه الآيات الكريمة، التي ذكرت آنفاً.

٢ - ضرب يكون فيه العفو سبباً لجراءة الظالم، وتماديه في غيه، وهذا مذموم، وعليه تحمل الآية، التي نحن بصدد تفسيرها، فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه محمود، والانتصار من المخاصم المصر على جرمه، والتمادي في غيه محمود، وإلى هذا أشار المتنبئ:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
فَوَضِعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرُّ كَوْضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

الإعراب

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ بَرُّقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩٩) مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ
حَرَّتِ الْآخِرَةَ نَزَدَ لَهُ فِي حَرِّهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتِ الدُّنْيَا تُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
مِنْ نَصِيبٍ (١٦٦).

﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿لَطِيفٌ﴾: خبر. ﴿بِعِبَادِهِ﴾: متعلق: بـ ﴿لَطِيفٌ﴾ والجمله مستأنفة، وجمله ﴿بَرُّقُ﴾: خبر ثان. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل نصب، مفعول به لـ ﴿بَرُّقُ﴾، وجمله ﴿يَشَاءُ﴾: صلتها، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿هو القوي﴾: مبتدأ وخبر ﴿الْعَزِيزُ﴾ خبر ثان، والجمله معطوفة على الجمله التي قبلها ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جمله الشرط، أو الجواب أو هما، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾، وجمله ﴿يُرِيدُ﴾: خبرها،

﴿حَرَتْ الْآخِرَةَ﴾: مفعول يريد. ﴿نَزِدَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه جواب الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿نَزِدَ﴾، ﴿فِي حَرْفٍ﴾: متعلق بـ﴿نَزِدَ﴾ أيضاً، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية، مستأنفة، مسوقة لبيان الفرق بين عملي العاملين، ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الِوَاوِ﴾: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، ﴿كَانَ﴾: فعل شرط لها. وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿حَرَتْ الدُّنْيَا﴾: مفعول ﴿يُرِيدُ﴾، ﴿تَوْتِيَهُ﴾ جواب الشرط ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ﴿تَوْتِيَهُ﴾، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة من الأولى، ﴿وَمَا لَهُ﴾ ﴿الِوَاوِ﴾: عاطفة، أو حالية ﴿مَا﴾: نافية، أو حجازية عند من يجيز تقدم خبرها على اسمها، ﴿لَهُ﴾ خبر مقدم، ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ حال، ﴿مِنْ﴾ حرف جر زائد، ﴿نَصِيبٍ﴾ مبتدأ مؤخر، أو اسم ﴿مَا﴾ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة من الشرطية، أو حال من ضمير المفعول في ﴿تَوْتِيَهُ﴾، أي: نوته منها حال كونه عادم النصيب في الآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتْنُ يَنْبَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التوبيخي. ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿شُرَكَاءُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿شَرَعُوا﴾ صفة لـ﴿شُرَكَاءُ﴾، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ﴿شَرَعُوا﴾، ﴿مِنَ الدِّينِ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الموصولة، المذكورة بعده، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل نصب، مفعول ﴿شَرَعُوا﴾، وجملة ﴿لَمْ يَأْذَنْ﴾ صلة لما الموصولة ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿يَأْذَنْ﴾، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ فاعل، ﴿وَلَوْلَا﴾: ﴿الِوَاوِ﴾: عاطفة ﴿لَوْلَا﴾: حرف امتناع لوجود، و﴿كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف وجوباً والجملة الاسمية شرط لـ﴿لَوْلَا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَفُتْنُ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَوْلَا﴾، ﴿قَضَى﴾ فعل ماضٍ مغير الصيغة، ﴿يَنْبَهُمْ﴾ ظرف في محل الرفع، نائب فاعل لقضي، وجملة ﴿قَضَى﴾ جواب ﴿لَوْلَا﴾، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب شرط غير جازم، وجملة ﴿لَوْلَا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿الِوَاوِ﴾: استثنائية، ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾: ناصب

واسمه ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة لـ ﴿عَذَابٌ﴾، وجملة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

﴿تَرَى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على أي مخاطب، ﴿الظَّالِمِينَ﴾: مفعول به؛ لأن رأى بصرية، والجملة مستأنفة. ﴿مُشْفِقِينَ﴾: حال من الظالمين، ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ ﴿مُشْفِقِينَ﴾، وجملة ﴿كَسَبُوا﴾: صلة لـ ﴿مِمَّا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: مما كسبوه، ﴿وَهُمْ وَاقِعٌ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو واقع﴾: مبتدأ وخبر ﴿بِهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿وَاقِعٌ﴾، والجملة حال من العائد المحذوف، ﴿وَالَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الذين﴾، مبتدأ، ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿مَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، وجملة ﴿يَشَاءُونَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بالاستقرار العامل في لهم، ﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿الْفَضْلُ﴾ خبر ﴿الْكَبِيرُ﴾ صفة لـ ﴿الْفَضْلُ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِضْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿الَّذِي﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿عِبَادَهُ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يبشر الله به عباده، ﴿الَّذِينَ﴾: صفة للعباد، ﴿ءَامَنُوا﴾ صلة الموصول،

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: معطوف على ﴿ءَامِنُوا﴾، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿أَسْأَلُكُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول أول، ﴿عَلَيْهِ﴾: حال من ﴿أَجْرًا﴾. و﴿أَجْرًا﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل نصب مقول لـ﴿قُلْ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿الْمُودَّةَ﴾: منصوب على الاستثناء، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً؛ أي: لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي، ويجوز أن يكون منقطعاً؛ أي: لا أسألكم أجراً مالياً، ولكني أسألكم أن تودوا أهل قرابتي، الذين هم قرابتكم، ﴿فِي الْقُرْنِ﴾: متعلق بـ﴿الْمُودَّةَ﴾، أو حال منها، ﴿وَمَنْ﴾: ﴿الْوَاوِ﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما، ﴿يَقْتَرِفُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿حَسَنَةً﴾: مفعول به، ﴿تَزِدُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿لَمْ﴾: متعلق بـ﴿تَزِدُ﴾، ﴿فِيهَا﴾: حال من ﴿حُسْنًا﴾، و﴿حُسْنًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿عَفُورٌ شَكُورٌ﴾: خبران له، وجملة إن مستأنفة. مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَبَدَعَ اللَّهُ أَبْطِلَ وَيُحْيِ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا لِلصُّدُورِ ﴿١٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التقريرية. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَفَنَرَى﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، يعود على محمد ﷺ. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب، مقول القول. ﴿إِنْ يَشَأِ﴾: الفاء: استثنائية. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَشَأِ اللَّهُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿يَخْتِمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿إِنْ﴾

على كونه جواب الشرط. ﴿عَلَىٰ قَلِيلٍ﴾: متعلق بـ﴿يَخْتَرُ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَيَسَّخِرُ اللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يَمَحُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو المحذوفة لفظاً، لالتقاء الساكنين، المحذوفة خطأ، تبعاً للفظ، منع من ظهورها الثقل، ولفظ الجلالة فاعل، والجملة مستأنفة غير داخلية في جواب الشرط؛ لأنه تعالى يمحو الباطل مطلقاً. ﴿الْبَاطِلُ﴾: مفعول به، ﴿وَيُحْيِي الْحَيَّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿وَيَسَّخِرُ اللَّهُ الْبَاطِلُ﴾. ﴿يَكَلِّمُنِي﴾: متعلق بـ﴿يَحِقُّ﴾. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبره. ﴿يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبره، ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، صلة الموصول، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان قبول التوبة. ﴿عَنِ عِبَادِهِ﴾: متعلق بـ﴿يَقْبَلُ﴾. ﴿وَيَرْفَعُوا﴾: معطوف على يقبل، ﴿عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾: متعلق به. ﴿وَيَرْفَعُهُمْ﴾: معطوف على ﴿يَقْبَلُ﴾ أيضاً، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل نصب مفعول به، وجملة ﴿تَفْعَلُونَ﴾: صلة الموصول.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ



﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يَسْتَجِيبُ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَقْبَلُ﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله. ﴿الَّذِينَ﴾: في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: ويستجيب للذين آمنوا دعاءهم، فحذف الجار، كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا﴾؛ أي: كالوا لهم، وأجاز «السمين» أن يكون اسم الموصول فاعلاً، والجملة مستأنفة، والسين والتاء زائدتان؛ أي: يجيبون ربهم إذا دعاهم إلى طاعته، ويجوز أن يكون الموصول مفعولاً به، بعد أن تقرر زيادة السين والتاء؛ أي: يجيب الله الذين آمنوا، والأول أقوم، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾ صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، معطوف على ﴿يَسْتَجِيبُ﴾، ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾: متعلق بـ﴿يزيدهم﴾، ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾: مبتدأ، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ

مؤخر، ﴿شَكِيدٌ﴾: صفة لـ ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية خبر لـ ﴿الكافرون﴾، وجملة ﴿الكافرون﴾ مستأنفة.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٧) وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٨).

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لِعِبَادِهِ﴾: متعلق ببسط، ﴿لَبَغَوْا﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿بَغَوْا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾: الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَكِنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل، ﴿يُنْزِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿بِقَدْرِ﴾: حال من ﴿ما﴾ الموصولة، المذكورة بعده. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل نصب، مفعول ﴿يُنْزِلُ﴾، وجملة ﴿يَشَاءُ﴾ صلته. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، ﴿بِعِبَادِهِ﴾: متعلق بـ ﴿خَبِيرٌ﴾، و﴿خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾: خبران لـ ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾: فعل وفاعل مستتر. ومفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿مِنْ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُنْزِلُ﴾. ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿قَنَطُوا﴾: فعل وفاعل، صلة ما المصدرية، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر، مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من بعد قنوطهم، ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو الولي﴾: مبتدأ وخبر، ﴿الْحَمِيدُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية في محل نصب، حال من فاعل ﴿ينشر﴾ و﴿يُنْزِلُ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٩).

﴿وَمِنْ﴾: ﴿الواو﴾: استثنائية. ﴿من آياته﴾: خبر مقدم. ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان بعض الأدلة على توحيده وقدرته تعالى. ﴿وَمَا﴾: في محل رفع، معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، أو في محل جر، معطوف على ﴿السَّمَوَاتِ﴾، وهذا الأخير أرجح، لسلامته من التقدير، إذ لا بد من تقدير مضاف على الأول؛ أي: خلق ما بث، و﴿بَثَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾، ﴿فِيهِمَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة ل﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: وما بثه فيهما، ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾: حال من العائد المحذوف. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾ حالية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَى جَمْعِهِمْ﴾: متعلق ب﴿قَدِيرٌ﴾، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق ب﴿جَمْعِهِمْ﴾، وجملة ﴿يَشَاءُ﴾: في محل جر بإضافة الظرف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿بَثَّ﴾.

﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ٢٥ ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ٢٦.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استثنائية، ﴿مَا﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿أَصْبَحْكُمْ﴾: فعل ومفعول به، في محل الجزم ب﴿مَا﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. وفاعل ضمير مستتر فيه يعود على ﴿مَا﴾، ﴿مِنْ مُصِيكَةٍ﴾: حال من فاعل ﴿أَصْبَحْكُمْ﴾، ﴿فِيمَا﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَا﴾ الشرطية وجوباً، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بواجب الحذف، لوقوعه خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: فذلك كائن بما كسبت أيديكم، والجملة الاسمية في محل الجزم ب﴿مَا﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَا﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، ﴿أَيْدِيكُمْ﴾: فاعل، والجملة صلة ل﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: فيما كسبته أيديكم، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ موصولة، والفاء: داخلة في الخبر، تشبيهاً للموصول بالشرط. ﴿وَيَعْفُوا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿يعفوا﴾: فعل مضارع،

وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾، ﴿عَنْ كَثِيرٍ﴾: متعلق بـ﴿يعفو﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ما﴾ الشرطية، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية. ﴿أَنْتُمْ﴾: اسمها، ﴿بِمُعْجِزَيْنِ﴾: الباء زائدة، معجزين خبر لـ﴿ما﴾، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿بِمُعْجِزَيْنِ﴾. أو حال من الضمير المستكن في ﴿معجزين﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾: نافية، أو حجازية ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: حال من ﴿وَلِيِّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾، ﴿يُنْزِلُ﴾: زائدة، ﴿وَلِيِّ﴾ مبتدأ مؤخر، أو اسم ما مؤخر، ﴿وَلَا نَصِيرَ﴾: معطوف عليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿ما﴾ الأولى.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) **﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾** (٣٣).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿من آياته﴾: خبر مقدم، ﴿الْجَوَارِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً وخطاً. أو خطأ فقط، ﴿فِي الْبَحْرِ﴾: حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، أو متعلق بالجواري، ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾: حال ثانية على الوجه الأول، وعلى الوجه الثاني هي حال من الضمير في ﴿الْجَوَارِ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿يَشَأْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾، مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿يُسْكِنِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾، مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونه جواب شرط لها، ﴿الرِّيحَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾: الفاء عاطفة، ﴿يَظْلَلْنَ﴾: فعل مضارع ناقص، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية، لكونه معطوفاً على ﴿يُسْكِنِ﴾، مبني على السكون، لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة في محل الرفع اسمها؛ لأنه من ظل الناقصة. ﴿رَوَاكِدَ﴾: خبرها. ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾: متعلق بـ﴿رَوَاكِدَ﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف نصب، ﴿فِي ذَلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَآيَاتٍ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿آيات﴾: اسمها مؤخر. ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، صفة ﴿لَآيَاتٍ﴾، ﴿شَكُورٍ﴾: صفة

﴿صَبَّارٌ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ مستأنفة.

﴿أَوْ يُؤَيِّقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٢٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ (٢٥).

﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿يُؤَيِّقَهُنَّ﴾: فعل مضارع، معطوف على ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾؛ أي: يفرقهن بعصف الريح عليهن، قال الزمخشري: فإن قلت: علام عطف يؤيقهن، قلت: على ﴿يُسْكِنِ﴾؛ لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح، فيركدن على ظهره، أو يعصفها فيفرقن بعصفها، أو بطروء خلل على أجهزتها، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿يُؤَيِّقَهُنَّ﴾، و﴿مَا﴾ إما موصولة أو مصدرية، والباء للسببية؛ أي: بسبب ما كسبوه من الذنوب، أو بسبب كسبهم، وجملة ﴿كَسَبُوا﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: بما كسبوه، أو صلة لـ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿وَيَعْفُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُسْكِنِ﴾ أيضاً، مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة ﴿عَنْ كَثِيرٍ﴾: متعلق بـ﴿يعف﴾، والمعنى: أو إن يشأ يهلك ناساً، وينج ناساً، على طريق العفو عنهم. ﴿وَيَعْلَمَ﴾: ﴿الْوَاوُ﴾ عاطفة. ﴿يعلم﴾: فعل مضارع، معطوف على تعليل مقدر تقديره: يفرقهم لينتقم منهم ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ وللمعطوف حكم المعطوف عليه، تبعه بالنصب، ﴿الَّذِينَ﴾: فاعل. ﴿يُجَادِلُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿فِي ءَايَاتِنَا﴾: متعلق بـ﴿يُجَادِلُونَ﴾، وقرئ ﴿يعلم﴾: بالرفع على الاستثناف، على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: وهو سبحانه يعلم الذين، ويكون الموصول مفعولاً به، والفاعل ضمير يعود على المبتدأ المحذوف، وتكون الجملة اسمية، أو على أن الفاعل هو الموصول، وتكون الجملة فعلية، وقرئ بالجزم عطفاً على الجواب السابق، كأنه قال: وإن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم، ونجاة آخرين، وتحذير آخرين. ﴿مَا﴾: نافية أو حجازية. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿نَجِيصٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أو اسم ما مؤخر. وجملة النفي، سدت مسد مفعولي يعلم المعلقة بالنفي عن العمل.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ

﴿فَمَا﴾: الفاء: استثنائية، ﴿مَا﴾: اسم شرط جازم، في محل نصب، مفعول ثانٍ مقدم لـ ﴿أُوتِيتُمْ﴾. ﴿أُوتِيتُمْ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعل، في محل الجزم بـ ﴿مَا﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، والمفعول الأول، هو ضمير المخاطبين، ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان لـ ﴿مَا﴾، متعلق بمحذوف حال من ﴿مَا﴾، ﴿فَتَنَعَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط ﴿مَتَاعٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: فهو متاع الحياة الدنيا. ﴿الْحَيَوَاتِ﴾: مضاف إليه. ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة لـ ﴿الْحَيَوَاتِ﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿مَا﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَا﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ، ﴿وَأَبْقَى﴾: معطوف على ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿مَا﴾ الشرطية، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَبْقَى﴾ أو بـ ﴿خَيْرٌ﴾ على الخلاف المذكور في محله، ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَعَلَى﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿على ربهم﴾ متعلق بـ ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، و﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾ على كونه صلة الموصول.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ .

﴿وَالَّذِينَ﴾: في محل الجر معطوف على ﴿لِلَّذِينَ﴾، وجملة ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾: صلة الموصول. و﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾: مفعول به، ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾: معطوف على ﴿كَبِيرَ﴾. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿يَغْفِرُونَ﴾، ﴿مَا﴾: زائدة، ﴿غَضِبُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَغْفِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ على كونها صلة الموصول، عطف اسمية على فعلية، والتقدير: والذين يجتنبون كبائر الإثم، وهم غافرون وقت

غضبهم، ﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوف على الموصرين الأول، وجملة ﴿أَسْتَجَابُوا﴾ صلة له.
 ﴿لِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿أَسْتَجَابُوا﴾، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على
 ﴿أَسْتَجَابُوا﴾، ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أمرهم﴾: مبتدأ، ﴿شُورَى﴾: خبر.
 ﴿يَنْهَهُمْ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿شُورَى﴾؛ لأنه مصدر. كالرجعى والبشرى، أو صفة
 لـ ﴿شُورَى﴾، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿أَسْتَجَابُوا﴾، ﴿وَمِمَّا﴾
 ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مِمَّا﴾ متعلق بـ ﴿يُنْفِقُونَ﴾، ﴿رَزَقْنَهُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول،
 صلة لـ ﴿مِمَّا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما رزقناهموه ﴿يُنْفِقُونَ﴾: فعل
 وفاعل، معطوف على ﴿أَسْتَجَابُوا﴾، ﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول
 أيضاً. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق
 بـ ﴿يَنْتَصِرُونَ﴾، ﴿أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر،
 مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَنْتَصِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية
 صلة الموصول، والتقدير: والذين هم منتصرون وقت إصابة البغي إياهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ قال أبو علي رحمه الله: معنى اللطيف هو الذي ينشر
 من عباده المناقب، ويستر عليهم المثالب، وعلى هذا قول النبي ﷺ: «يا من
 أظهر الجميل وستر القبيح». وقيل: هو الذي يقبل القليل، ويبدل الجزيل، وقيل:
 هو الذي يجبر الكسير وييسر العسير، وقيل: هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا
 يرجى إلا فضله، وقيل: هو الذي يعين على الخدمة، ويكثر المدحة، وقيل: هو
 الذي لا يعاجل من عصاه، ولا يخيب من رجاءه، وقيل: هو الذي لا يرد سائله،
 ولا يؤيس آمله، وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو، وقيل: هو الذي يرحم من لا
 يرحم نفسه، وقد ذكرنا هذه المعاني في «الكتاب الأسنى»، في شرح أسماء الله
 الحسنى، عند اسمه اللطيف، والله الحمد، اهـ. وقيل: هو العالم بخفيات
 الأمور، وقيل: هو معطي الإحسان في صورة الامتحان. كإعطاء يوسف الصديق،
 الملك في صورة الابتلاء برقه، لأنه من اللطف، وهو إيصال النفع على وجه فيه
 دقة، كما ذكرناه في كتابنا: «هدية الأذكياء في شرح طيبة الأسماء».

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ من القوة، والقوة في الأصل: صلابة البنية وشدتها المضادة للضعف، وهي محالة على الله سبحانه وتعالى، فهي في حقه تعالى بمعنى القدرة، لكونها مسببة عن القوة، فمعنى القوي: هو ذو القدرة التامة، التي يوجد بها كل شيء من الكائنات، ويعدمه على طبق مراده، كما ذكرناه في كتابنا المذكور.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض، ويطلق على الزرع الحاصل منه، ويستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها، بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلal، الحاصلة من البذور، المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور، اهـ «أبو السعود». من حيث إنها فائدة تحصل بعمل الدنيا.

﴿نَزِدْ لَهُ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين، أصله: نزيد فعل مضارع جزم لوقوعه جواب الشرط. فلما سكن آخره التقى ساكنان، فحذفت الياء بعد نقل حركتها إلى الزاي، فصار وزنه نفل. ﴿تُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ وزنه نفعه لحذف لامه، لمناسبة جزم الفعل، الواقع جواباً للشرط.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾؛ أي: في الكفر، وهم الشياطين. ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾؛ أي: زينوا لهم. ﴿مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدينا فحسب. ﴿كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ هي القضاء، والحكم السابق منه بالنظرة إلى يوم القيامة. ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ جمع روضة، والروضة: مستنقع الماء والخضرة، وروضات الجنات أطيب بقاعها وأنزهها. ﴿يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ والبشارة الإخبار بحصول ما يسر في المستقبل. ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ المودة: مودة الرسول ﷺ. والقربى: مصدر، كالزلفى بمعنى القرابة التي هي بمعنى الرحم.

﴿وَمَنْ يَفْقَرَفْ حَسَنَةً﴾ قال الراغب: أصل القرف والاقتراف: قشر اللحاء عن الشجرة والجليدة عن الجذع، وما يؤخذ منه قرف، واستعير الاقتراف للاكتساب حسناً كان أو سوئاً، وفي الإساءة أكثر استعمالاً، ولهذا يقال: الاعتراف يزيل الاعتراف. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ والفرق بين الافتراء والكذب: أن الافتراء هو افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه.

﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ وزنه يفع، حذفت منه الواو في رسم المصحف لغير داع، ولا يصح عطفه على ﴿يَمَحُ﴾؛ لأن الباطل ممحوظ لا محالة، فالمشيئة تتعلق بمحوظه لا محالة، ولهذا الحذف نظائر في المصحف، كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ الإسراء، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ تُكْذِرُ الْقَمَرُ﴾ وقوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ﴾ العلق. وقوله: ﴿وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التحريم.

قوله: ﴿لَبَغَوْا﴾ أصله: لبغيوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان، فحذفت الألف. ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ﴾ أصله: أصوبكم بوزن أفعول، نقلت حركة الواو إلى الصاد، ثم قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال. ﴿مُصِيبَكُمْ﴾ أصله: مصوبة بوزن مفعلة، نقلت حركة الواو إلى الصاد، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مد.

﴿وَيَقْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أصله: يعفوا، بوزن يفعل، سكنت ﴿الواو﴾ لوقوعها متطرفة إثر ضمة. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال أهل اللغة: أعجزته: أي: صيرته عاجزاً، وأعجزته فيه سبقتة. ﴿الْمَوَارِ﴾ السفن، وهي بحذف الياء في الخط؛ لأنها من ياءات الزوائد، وبإثباتها وحذفها في اللفظ في كل من الوصل والوقف، وقد قرئ بها جميعها. قال أبو حيان: جمع جارية، وهي صفة جرت مجرى الأسماء، فوليت العوامل.

وقال الشهاب الحلبي: فإن قلت: الصفة متى لم تكن خاصة بموصوفها، امتنع حذف الموصوف، فلا تقول: مررت بماش؛ لأن المشي عام، وتقول: مررت بمهندس وكاتب، والجري ليس من الصفات الخاصة بالموصوف، وهو السفن، فلا يجوز حذفه.

والجواب: أن محل الامتناع إذا لم تجر الصفة مجرى الجوامد، بأن تغلب عليها الاسمية، كالأبطح والأبرق، وإلا جاز حذف الموصوف، وعلى هذا فقول: ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَاقِ﴾ حالان، انتهى. وإلى هذا يشير صنيع الجلال، حيث فسر الجوار بالسفن فقط، ولم يفسرها بالسفن الجارية، ففيه إشارة إلى أن المراد

بالجوارى ذات السفن، لا مع وصف الجري. ﴿كَالْأَعْلَافِ﴾ جمع عَلَم بفتحتين، كسبب وأسباب، وهو الجبل، وكل مرتفع. قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر: وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ ﴿فَيَظْلَنَ﴾ من ظل، بمعنى صار. ﴿رَوَاكِدَ﴾؛ أي: ثوابت لا تجري، يقال: ركبت السفينة إذا سكنت وثبتت، وركد الماء ركوداً من باب قعد، وسكن، والشمس إذا قامت مقام الظهيرة، وكل ثابت في مكان فهو راكد، وركد الميزان استوى، وركد القوم هدؤوا، والمراكد: المواضع التي يركد فيها الإنسان وغيره اهـ «قرطبي». ﴿يُؤَيِّقُهُنَّ﴾ يهلكهنّ يقال: وبق يبق مثل: وعد يعد، ووبق يبق من باب تعب يتعب وبقاً، بسكون الباء ووبق يوبق وبقاً، بفتح الباء ووبوقاً وموبقاً، واستوبق هلك، فهو وبق، وأوبقه إيباقاً، أهلكه وذلله وحبسه. ﴿مَحِيصٍ﴾ أصله: محيص بوزن مفعّل، اسم مكان، نقلت حركة الياء إلى الحاء، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد.

﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ والإثم الذنب، والكبائر جمع كبيرة، والهمزة فيه مبدلة من الياء الموجودة في المفرد، لوقوعها حرف مد ثالثاً، زائداً في اسم مؤنث ﴿وَالْفَوَاحِشُ﴾ جمع فاحشة، وهي القبيحة، أو المفردة في القبح، قال في «القاموس»: الفاحشة الزنا، وما يشتد قبحه من الذنوب، فيكون عطف الفواحش على الكبائر من عطف البعض على الكل، إيداناً بكمال شناعته، وقيل: هما واحد، والعطف لتغاير الوصفين، كأنه قيل: يجتنبون المعاصي، وهي عظيمة عند الله تعالى في الوزن، وقبيحة في العقل والشرع.

﴿وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ والغضب: ثوران دم القلب إرادة الانتقام، والمغفرة هنا بمعنى: العفو والتجاوز والحلم وكظم الغيظ.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ مصدر كالفتيا، بمعنى التشاور، وأصله: من الشور: وهو الإخراج، سميت المشاورة به، لأن كل واحد من المتشاورين في الأمر، يستخرج من صاحبه ما عنده.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع:

فمنها: الاكتفاء في قوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: ويحرم من يشاء.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿حَرَّتِ الْأَخْرَقَ﴾ حيث شبه ما يعملُه العامل من العمل الصالح بالحرث، الذي هو إلقاء البذر في الأرض، أو الزرع الحاصل منه، ثم حذف المشبه، وهو العمل الصالح، وأبقى المشبه به، وهو الحرث، للدلالة على نتائج الأعمال وثمراتها، وشبه بالزرع، من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا، ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة.

ومنها: الطباق بين ﴿حَرَّتِ الْأَخْرَقَ﴾ و﴿حَرَّتِ الدُّنْيَا﴾.

ومنها: المشاكلة أو التهكم في قوله: ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ﴾؛ لأن ذكر الدين للمشاكلة؛ لأنه في مقابلة دين الله تعالى، أو للتهكم بهم.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿شَرَعُوا﴾ حيث أسند التشريع إلى الشركاء التي هي الأصنام، مع كونها بمعزل عن الفاعلية، فهو من قبيل إسناد الفعل إلى السبب؛ لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تسجيلاً عليهم بالظلم، ودلالة على أن العذاب الأليم، الذي لا يكتفه كنهه، إنما يلحقهم بسبب ظلمهم وإنهماكهم فيه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ أي: إلا المحبة لأهل قرابتي حيث أطلق الحال، وهو القرابة، وأراد المحل، وهو أهلها فقد جعلوا مكاناً ومقرراً لها.

ومنها: الطباق بين ﴿يَمْحُ﴾ و﴿يَحِقُ﴾ وبين ﴿أَلْحَقَ﴾ و﴿أَبْطَلَ﴾ في قوله

تعالى: ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتٍ﴾.

ومنها: الجنس المغاير في قوله: ﴿وَيُحْيِي الْحَقَّ﴾.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ حيث أثبت الإشفاق في الظالمين، أولاً: دليلاً على حذف الأمن، ثانياً: في الذين آمنوا، وأثبت الجنات ثانياً في الذين آمنوا، دليلاً على حذف النيران أولاً في الظالمين.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية، في قوله: ﴿وَمَنْ يَفْرَقْ حَسَنَةً﴾؛ لأن الاقتراف حقيقة في قشر اللحاء عن الشجرة، والجليدة عن الجذع، فاستعير للاكتساب مطلقاً، حسناً كان أو سوءاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في شكور، من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ حيث شبهت الإثابة والتفضل بالشكر، الذي هو فعل ينبيء عن تعظيم المنعم لكونه منعماً، لامتناع أن ينعم عليه تعالى أحد حتى يقابل بالشكر؛ أي: شبهت الإثابة بالشكر، من حيث إن كل واحد منهما يتضمن الاعتداد بفعل الغير، وإكراماً لأجله، فاستعير اسم المشبه به الذي هو الشكر، للمشبه الذي هو الإثابة، ثم اشتق من الشكر، بمعنى الإثابة شكور، بمعنى: مثيب على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ﴾ دلالة على الاستمرار.

ومنها: صحة التفسير، في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْفِتْنَةَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ وهو أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى، لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه، لكونه مجملاً يحتاج إلى بيان المراد منه، وقد يكون بيانه بعد الجار والمجرور، كما في هذه الآية، وقد جاءت صحة التفسير فيها مؤذنة بمجيء الرجاء بعد اليأس، والفرج بعد الشدة، والمسرة بعد الحزن، ليكون ذلك أحلى موقعاً في القلوب.

ومنها: عطف العام على الخاص، في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ فالغيث خاص، والرحمة عام.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية، في قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: يثيبهم على أعمالهم؛ لأن الإجابة مجاز عن الإثابة؛ لأن الطاعة لما شبهت بدعاء ما يترتب عليها من الثواب، كانت الإثابة عليها بمنزلة إجابة الدعاء، فعبر بها عنها.

ومنها: إطلاق اسم المسبب، وهو الدابة على السبب، في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ فإن الدبيب مجاز أريد به سببه، وهو الحياة، فتكون الدابة بمعنى الحي، فتتناول الملائكة أيضاً كما مر. وقيل: إنه من نسبة الشيء إلى الكل مراداً به البعض؛ لأن الدابة إنما تكون في الأرض، والمراد بضمير الثنية: الأرض فقط، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الدُّوَابُّ وَالْأَرْجَافُ ۖ﴾ وإنما يخرجان من البحر الملح لا العذب.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل، في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَٰقِ ۖ﴾؛ أي: كالجبال في الضخامة والعظم.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: عظيم الصبر كبير الشكر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا :

﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ يَنْتَظِرُوا سَيْئَةً يَنْتَظِرُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أُولِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَلٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَحَّ بِهَا وَإِنْ نَضَبْنَاهُمْ سَيْئَةً يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَنْهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذِّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْسَاءً وَبَجَعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِنْ أَمْرًا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ .

المناسبة

قوله تعالى : ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ يَنْتَظِرُوا سَيْئَةً يَنْتَظِرُهَا...﴾ الآيات ، مناسبة هذه الآيات لما قبلها : أن الله سبحانه لما^(١) مدح فيما سلف الذين ينتصرون لأنفسهم ، ممن بغى عليهم . . أردف ذلك بما يدل على أن ذلك الانتصار ، مقيد بالمثل ؛ لأن النقصان حيف ، والزيادة ظلم ، والتساوي هو العدل الذي قامت به السموات والأرض ، ثم

(١) المراغي .

ندب إلى العفو والإغضاء من الزلات، ثم ذكر أنه لا مؤاخذه على من ينتصر لنفسه، وإنما المؤاخذه على من يظلم الناس، ويبغي في الأرض بغير الحق، وأن الصبر وغفران السيئة مما حث عليه الدين، وأجزل ثواب فاعله.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ يَهْدِيهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله لما ذكر أن الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، لهم عذاب أليم على ما اجترحوا من البغي، والعدوان بغير الحق.. أردف ذلك ببيان أن من أضله فلا هادي له، وأن الكافرين حين يرون العذاب يوم القيامة، يطلبون الرجوع إلى الدنيا، وأنهم يعرضون على النار، وهم خاشعون أذلاء، ينظرون من طرف خفي، وأن الذين آمنوا يقولون: إن الكافرين لفي خسران مبين، فقد أضاعوا النفس والأهل، ولا يجدون لهم، ناصراً يخلصهم مما هم فيه من العذاب.

قوله تعالى: ﴿أَسْجِدُوا لِلرَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر ما سيكون يوم القيامة، من الأهوال وعظائم الأمور، حذر من هذا اليوم. فبين أن الكافرين لا يجدون حينئذ ملجأ يقيهم من عذاب الله تعالى، ولا ينكرون ما اقترفوه؛ لأنه مكتوب في صحائف أعمالهم. ثم أرشد رسوله إلى أنهم إن عرضوا عن دعوتك، فلا تأبه بهم، ولا تهتم بشأنهم. ثم أعقب هذا بذكر طبيعة الإنسان، وأنه يفرح حين النعمة، ويجحد نعم ربه حين الشدة، ثم قسم هبته لعباده في النسل أربعة أقسام: فمنهم من وهب الإناث، ومنهم من وهب الذكران، ومنهم من أعطي الصنفين ومنهم العقيم الذي لا نسل له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما^(١) ذكر تقسيم النعم الجسمانية التي يهبها لعباده.. أردفها تقسيم النعم الروحية، وأن الناس محجوبون عن

(١) المراغي.

ربهم؛ لأنهم في عالم المادة، وهو منزه عنها، ولكن من رق حجابهِ وخلصت نفسه، وأصبح في مقدوره أن يتصل بالملأ الأعلى.. يستطيع أن يكلم ربه على أحد أوجه ثلاثة:

١ - أن يحس بمعان تلقى في قلبه، أو يرى رؤياً منامية، كرؤيا الخليل إبراهيم عليه السلام ذبح ولده.

٢ - أن يسمع كلاماً من وراء حجاب، كما سمع موسى عليه السلام، من غير أن يبصر من يكلمه، فهو قد سمع كلاماً، ولم ير المتكلم.

٣ - أن يرسل إليه ملكاً، فيوحى ذلك الملك ما يشاء إلى النبي ﷺ، ثم ذكر أنه كما أوحى إلى الأنبياء قبله، أوحى إليه القرآن، وما كان قبله يعلم ما القرآن، وما الشرائع التي بها هداية البشر، وصلاحتهم في الدارين.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾؛ أي: جنابة ﴿سَيِّئَةٍ﴾؛ أي: جنابة ﴿مِثْلَهَا﴾؛ أي: مماثلة للأولى في الكم والكيف، بيان لوجه كون الانتصار من الخصال الحميدة، مع كونه في نفسه إساءة إلى الغير، بالإشارة إلى أن البادىء هو الذي فعله لنفسه، فإن الأفعال مستتبعة لأجزيتها حتماً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه تنبيه على حرمة التعدي.

والمعنى: أي وجزاء سيئة المسيء، عقوبته بما شرعه الله من عقوبة مماثلة لجرمه. وإطلاق^(١) السيئة على الثانية، مع أنها جزاء مشروع مأذون فيه، وكل مأذون حسن لا سيء، لأنها تسوء من نزلت به، كما في آية أخرى: ﴿وَلَنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ﴾، يريد ما يسؤهم من المصائب والبلايا، أو للمشاكلة، لتشابههما في الصورة. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ عَاقِبَتَهُنَّ فَعَاقِبُوا﴾ وعلى هذا فالسيئة مقابل الحسنة، بخلافها في الوجه الأول.

(١) روح البيان.

والخلاصة: أنه يجب، إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة، قال الحسن: إذا قال: لعنك الله، أو أخزأك الله، فلك أن تقول: أخزأك الله، أو لعنك الله، وإذا شتمك فلك أن تشتمه بما شتم ما لم يكن فيه حد، كلفظ الزنا، أو كلمة لا تصلح، فلا تجري المقابلة في الكذب والبهتان، قال في «التنوير»: لو قال لآخر: يا زاني، فقال له الآخر: لا بل أنت الزاني، حدا بخلاف ما لو قال له: مثلاً يا خبيث، فقال: أنت، تكافئا، ولو لم يجب، بل رفع الأمر إلى القاضي ليؤدبه جاز، وظاهر الآية العموم. وقال مقاتل والشافعي وأبو حنيفة وسفيان: إن هذا خاص بالمجروح، ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره.

وفي الآية حث على العفو؛ لأن الانتصار إنما يحمّد إذا حصلت المماثلة في الجزاء، وتقديرها عسر شاق، وربما صار المظلوم حين استيفاء القصاص ظالماً.

ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسِّنَةِ فَلَا تُجْزَى إِلَّا بِمِثْلِهَا﴾.

وقد أمر ﷺ برد الشتم على الشاتم، أخرج النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علي زينب وعندي رسول الله ﷺ، فأقبلت علي تسبني، فردعها النبي ﷺ، فلم تنه، فقال لي: «سببها»، فسببتها حتى جف ريقها في فمها، ووجه رسول الله ﷺ يتهلل سروراً. وكان هذا بمنزلة التعزيز منه لزينب، بلسان عائشة، لما أن لها حقاً في الرد، وقد رأى فيه المصلحة.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قال من شيء فعلى البادى حتى يعتدي المظلوم»، ثم قرأ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾.

وقصارى ذلك^(١): أن كل جناية على النفس، أو المال، تقابل بمثلها

(١) المراغي.

قصاصاً؛ لأن إهدارها يوجب فتح باب الشرور والمفاسد، إذ في طبع الإنسان الظلم والبغي والعدوان، فإذا لم يزدجر عنه تمادى فيه ولم يتركه، والزيادة على قدر الذنب ظلم، والشرائع تنزه عن ذلك، ومن ثم شرع الله القصاص، وندب إلى الفضل، وهو العفو، فقال: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾.

وعن بعض الفقهاء في هذه الآية^(١): وقد قيل: إنه الشافعي رحمه الله تعالى: أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه، مثل ما خانه من غير علمه، واستشهد على ذلك بقول النبي ﷺ لهند، زوجة أبي سفيان: «خذي من ماله ما يكفيك وولدي»، فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه، كذا ذكره القرطبي في «تفسيره».

وجاء تنمة لهذه الآية، قوله: ﴿فَمَن عَفَا﴾ عن المسيء إليه جنايته؛ أي: ترك القصاص وسامح له ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما بينه وبين من يعاديه، بالعفو والإغضاء عما صدر منه، قال في «الحواشي السعدية»: الفاء للإفصاح؛ أي: إذا كان الواجب في الجزاء رعاية المماثلة من غير زيادة، وهي عسرة جداً، وأردتم بيان ما هو الأولى، فأقول: الأولى العفو، والإصلاح، إذا كان قابلاً للإصلاح بأن لم يصر على البغي. وفي الحديث: «ما زاد الله العبد بالعفو إلا عزاً».

﴿فَأَجْرٌ﴾؛ أي: فأجر عفوهِ وإصلاحه حق واجب ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، بطريق وعده المحتوم، فيجزيه أعظم الجزاء، وهذه عدة منبئة عن عظمة شأن الموعود، وخروجه عن الحد المعهود، وفي إبهام^(٢) الأجر وجعله حقاً على العظيم الكريم جل شأنه، زيادة في الترغيب في العفو والحث عليه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، أمر الله منادياً ينادي: ألا، ليقيم من كان له على الله أجر، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا وذلك قوله: ﴿فَمَن عَفَا...﴾ الآية».

ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته، التي هي سبب الفوز والنجاة،

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

فقال: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: المتجاوزين الحد في الانتقام، وفي هذا تصريح، بما تضمنه سالف الكلام، من حسن رعاية طريق المماثلة، وأنها قلما تخلو عن الاعتداد والتجاوز عن الواجب، ولا سيما حال الحرد والتهاب الحمية، وحينئذ، يدخل المنتقمون في زمرة من لا يحبهم الله سبحانه وتعالى.

وفي «الروح»: قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: البادئين بالسيئة، والمتعدين في الانتقام، وهو استئناف تعليل، متعلق بقوله: ﴿وَحَزَّوْا﴾ إلخ. وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ إلخ، اعتراض يعني: إنما شرعت المجازاة وشرطت المساواة؛ لأنه لا يحب الظالمين.

واللام في قوله: ﴿وَلَمَنْ أَتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾: لام^(١) الابتداء، وجعلها الحوفي وابن عطية للقسم، وليس بجيد إذا جعلنا ﴿مَنْ﴾ شرطية، و﴿مَنْ﴾ شرطية لدخول الفاء في جوابها، وهو قوله: (فأولئك)، أو موصولة، ودخلت الفاء لشبه الموصول بالشرط، وقوله: بعد ظلمه من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: بعد ما ظلم. وقرئ به، وتذكير الضميرين باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾.

والمعنى: ولمن انتقم، واقتصر بعد ظلم الظالم إياه، يعني: في الحقوق المالية ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المنتصرون. فهو إشارة إلى ﴿مَنْ﴾ والجمع باعتبار المعنى. ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب والمعائب. والسبيل: الطريق الذي فيه سهولة، والآية دفع لما تضمنه السياق، من إشعار سد باب الانتصار.

والمعنى: ولمن انتصر ممن ظلمه بعد ظلمه إياه، فأولئك المنتصرون، لا سبيل للمنتصر منهم أن يوجهوا إليهم عقوبة ولا أذى، لأنهم انتصروا منهم بحق، ومن أخذ حقه ممن وجب له عليه، ولم يتعد ولم يظلم، فلا سبيل لأحد عليه بالمعاقبة، أو المعاقبة.

ولما نفى سبحانه وتعالى السبيل على من انتصر بعد ظلمه.. بين من عليه

(١) روح البيان.

السييل، فقال: ﴿إِنَّمَا السَّيْلُ﴾ بالمعاقبة والمواخظة ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾؛ أي: يبتدئونهم بالإضرار، أو يعتدون في الانتقام ﴿وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يعملون في الأرض البغي والعدوان والإفساد بقتل الأنفس، وأخذ الأموال ﴿يَغْيِرُ الْحَقُّ﴾؛ أي: بلا حق يكون لهم في ذلك، كذا قال الأكثر، وقال مقاتل: بغيتهم عملهم بالمعاصي، وقيل: يتكبرون ويتجبرون ويتطاولون على الناس، وقيل: ظلم الناس صدهم عن سبيل الله، وبغيتهم: أخذ أموالهم، وقتل أنفسهم بلا حق يكون لهم في ذلك، قيل^(١): ويظلمون الناس، أي: يضعون الأشياء في غير مواضعها، من القتل وأخذ الأموال، والأذى باليد واللسان، والبغي بغير الحق، فهو نوع من أنواع الظلم، خصه بالذكر تنبيهاً على شدته، وسوء حال صاحبه.

والمعنى: أي إنما الحرج والإثم على الذين يبتدئون الناس بالظلم، أو يزيدون في الانتقام ويتجاوزون ما حد لهم، أو يتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الظلم، والبغي بغير الحق ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم بسبب بغيتهم وظلمهم.

ثم رغب سبحانه وتعالى في الصبر والعفو، فقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على الأذى، معطوف على قوله: ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾. وجملة قوله: ﴿إِنَّمَا السَّيْلُ﴾ إلخ. اعتراض، اهـ «سمين». واللام فيه للابتداء، و﴿من﴾ موصولة مبتدأ ﴿وَعَفَرَ﴾؛ أي: عفا لمن ظلمه ولم ينتصر، وفوض أمره إلى الله تعالى، وكرره اهتماماً بالصبر، ترغيباً فيه، والصبر هنا: هو الإصلاح المتقدم. فأعيد هنا، وعبر عنه بالصبر؛ لأنه من شأن أولي العزم، وأشار إلى أن العفو المحمود ما نشأ عن التحمل لا عن العجز، اهـ «شهاب».

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور من الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾؛ أي: من معزومات الأمور ومهماتها وواجباتها؛ أي: من الأمور التي يجب عزم العبد عليها بإيجابها على نفسه، وتصميم قلبه عليها. لكونه من الأمور المحموده عند

(١) البحر المحيط.

الله سبحانه وتعالى، فإن الصبر والعفو مندوب إليه، وقد ينعكس الأمر في بعض الأحوال، ويكون ترك العفو مندوباً إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي، وقطع مادة الأذى.

وحكي: أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن، رحمه الله تعالى، فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام، فتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ فإن قلت: قاله هنا بلام التأكيد، وقاله في ﴿لَقَمْنَنَ﴾ بدونها، فما الفرق بين الموضعين.

قلت: لأن الصبر على مكروه حدث بظلم، كقتل ولد أشد من الصبر على مكروه حدث بلا ظلم، كموت ولد، كما أن العزم على الأول أوكد منه على الثاني، وما هنا من القبيل الأول، فكان أنسب بالتوكيد وما في ﴿لَقَمْنَنَ﴾ من القبيل الثاني، فكان أنسب بعدمه اهـ «كرخي».

والمعنى: أي ولمن صبر عن الانتصار بغير انتقام ولا شكوى، وستر السيئة، فقد فعل ما يشكر عليه ويستحق به الأجر وجزيل الثواب، ورُوي أنه ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة، فيفضي عنها إلا أعزه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة، يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة».

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يخلق فيه الضلالة من الهوى، أو بتركه على ما كان عليه من ظلم الناس ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَارٍ﴾ يلي أمره، وناصر ينصره ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أي: من بعد خذلانه تعالى إياه. وظاهر الآية: العموم، وقيل: هي خاصة بمن أعرض عن النبي ﷺ، ولم يعمل بما دعاه إليه، من الإيمان بالله والعمل بما شرعه، والأول أولى.

والمعنى: أي أنه ما شاء الله كان، ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن، فمن

هداه الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له.

والخلاصة: أن من خذله الله لسوء استعداده، وتدسيته نفسه، باجتراح الآثام والمعاصي، فليس له من ولي يهديه إلى سبيل الرشاد، ويوصله إلى طريق الفوز والفلاح.

ثم ذكر تمني الكافرين الرجوع إلى الدنيا، فقال: ﴿وَرَرَى﴾ أيها المخاطب؛ لأن الخطاب^(١) لكل من يتأتى منه الرؤية البصرية ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: المشركين المكذبين بالبعث ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾؛ أي: حين يرون العذاب يوم القيامة، وينظرونه، وصيغة الماضي، للدلالة على التحقق، حال كونهم ﴿يَقُولُونَ﴾ فالجمله في موضع الحال من ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ لأن الرؤية هنا بصرية ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾؛ أي: طريق، فالمرد: مصدر ميمي بمعنى الرد، وهل للاستفهام المضمن معنى التمني ﴿وَوَرَرْتَهُمْ﴾؛ أي: تبصر الظالمين أيها الرائي حال كونهم ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على النار المدلول عليها بالعذاب، حال كونهم ﴿خَشِعِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يُعْرَضُونَ﴾. و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَلْذَلِّ﴾ للتعليل متعلقة بـ﴿خَشِعِينَ﴾. وقرأ طلحة: ﴿مِنْ أَلْذَلِّ﴾ بكسر الذال^(٢). والجمهور: بالضم؛ أي: يعرضون عليها خاضعين حقيرين، بسبب ما لحقهم من الذل والهوان، ويصح تعلقها بنظرون، ويوقف على خاشعين، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾؛ أي: ضعيف. لابتداء الغاية.

والمعنى: حال كونهم يبتدئ نظره إلى النار، من تحريك لأجفانهم ضعيف، يعني: يسارقون النظر إلى النار، خوفاً منها، وذلة في أنفسهم، كالمقتول ينظر إلى السيف، فلا يقدر أن يملأ عينيه منه، وهكذا الناظر إلى المكاره، لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها، ويملاً عينيه منها، كما يفعل في نظره إلى المحاب، وقيل: هل المراد بالطرف: العين، أو المصدر، قلنا: كلاهما يناسب المقام، وقال الكلبي: ينظرون بأبصار قلوبهم، ولا ينظرون بأبصار ظواهرهم؛ لأنهم

(٢) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

يسحبون على وجوههم، أو لأنهم يحشرون عمياً، فينظرون كنظر الأعمى إذا خاف حساً، يقول الفقير: لا حاجة إلى حمل الآية على ما ذكر من الوجهين؛ لأن لهم يوم القيامة أحوالاً شتى، بحسب المواطن، فكل من النظر والسحب والحشر أعمى، ثابت صحيح. وقال يونس^(١): **إِنْ ﴿مِنْ﴾ فِي ﴿مِنْ طَرْفٍ﴾** بمعنى الباء؛ أي: ينظرون بطرف ضعيف من الذل والخوف، وبه قال الأخفش.

وفي الآية: إشارة إلى أن النفوس التي لم تقبل الصلاح بالعلاج في الدنيا، تتمنى الرجوع إلى الدنيا يوم القيامة، لتقبل الصلاح، بعلاج الرياضات الشرعية، وتخشع، إذ لم تخشع في الدنيا من القهار، فلا تنفعها ندامة، ولا تسمع منها دعوة، ولها نظر من طرف خفي، من خجالة المؤمنين، إذ يعيرونها بما ذكروها، فلم تسمع وهي نفوس الظالمين.

وحاصل المعنى^(٢): أي وترى الكافرين بالله، حين يعاينون العذاب يوم القيامة، يتمنون الرجعة إلى الدنيا، ويقولون: هل من رجعة لنا إليها، وتراهم أيضاً في ذلك اليوم، يعرضون على النار وهم خاشعون أذلاء؛ لأنهم عرفوا ذنوبهم وانكشف لهم عظمة من عصوه يسارقون النظر إليها خوفاً منها، وحذراً من الوقوع فيها، كما ينظر من قدم للقتل إلى السيف، فلا يقدر أن يملأ عينيه منه، وإنما ينظر ببعضها.

ولما وصف حال الكفار، حكى ما يقوله المؤمنون فيهم، فقال: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾** وجاهدوا في الله تعالى حق جهاده، وربحوا على ربهم، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق **﴿إِنَّ الْخُسْرَيْنِ﴾**؛ أي: المتصفين بحقيقة الخسران، وهو انتقاص رأس المال، وينسب إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، ويستعمل ذلك في القنيات الخارجية، كالمال والجاه في الدنيا، وهو الأكثر. وفي القنيات النفسية، كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهو الذي جعله الله سبحانه الخسران، وكل خسران ذكره الله في القرآن

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

الكريم، فهو على هذا المعنى الأخير، دون الخسران المتعلق بالقنيات الدنيوية، والتجارات البشرية، وخبر ﴿إِنْ﴾ قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ﴾؛ أي: إن الكاملين في الخسران، هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس والأهلين ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ والظرف إما متعلق بـ ﴿خَسِرُوا﴾ فيكون القول في الدنيا، أو متعلق بـ ﴿قال﴾؛ أي: يقولون لهم حين يرونهم على تلك الحالة، وعبر بالماضي، إشعاراً بتحقيقه، كما مر آنفاً، أما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا في النار معذبين بها، وأما خسرانهم لأهلهم، فلأنهم إن كانوا معهم في النار. فلا ينتفعون بهم، وإن كانوا في الجنة، فقد حيل بينهم وبينهم، وقيل: خسران الأهل، أنهم لو آمنوا، لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين.

وفي «التأويلات النجمية»: إن الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم، بإبطال استعدادهم، إذ صرفوه في طلب الدنيا وزخارفها والالتذاذ بها، وخسروا أهلهم، إذ لم يقوا أنفسهم وأهلهم ناراً، بقبول الإيمان، وأداء الشرائع ﴿آلَا﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: المشركين الذين كانوا في جهنم، شهوات النفس جثياً في الدنيا ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ في الآخرة؛ أي: دائم لا ينقطع إلى الأبد، وهذا إما من تمام كلام المؤمنين، أو من كلام الله سبحانه تصديقاً لهم.

والمعنى: أي ويقول المؤمنون يوم القيامة: إن المغبونين غبناً لا غبن بعده، هم الذين خسروا أنفسهم، فأدخلوا في النار، وحرموا نعيم الأبد، وفرق بينهم وبين أحبائهم وأصحابهم وذوي قراباتهم.

ثم صدقهم ربهم فيما قالوا، فقال: ألا إن الكافرين لفي عذاب سرمدي، لا مهرب لهم منه ولا خلاص، ثم أيأسهم من الفكاك منه بأي سبيل، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾؛ أي: للظالمين ﴿مِنَ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا؛ أي: لا يجدون لهم أعواناً وأنصاراً ينقذونهم، مما حل بهم من العذاب، فأصنامهم التي كانوا يعبدونها لتشفع لهم، لا تستطيع أن تتقدم إليهم بشفاعه ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾؛ أي: يرد الله إضلاله بأن يشغله بغيره ﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يؤدي سلوكه إلى النجاة؛ أي:

ومن يضلله الله تعالى، لما علم من استعداده للشر والفساد وارتكاب الشرور والآثام، فلا سبيل له إلى الوصول إلى الحق في الدنيا، ولا إلى الجنة في الآخرة.

حكى: أن شيخاً حج مع شاب، فلما أحرم قال: لبيك، فقيل له: لا لبيك، فقال الشاب للشيخ: ألا تسمع هذا الجواب، فقال: كنت أسمع هذا الجواب منذ سبعين سنة، قال: فلأي شيء تتعب، فبكى الشيخ، فقال: فإلى أي باب أتجئ فقيل له: قد قبلناك. فهذا من هداية الله الخاصة، فافهم جيداً.

﴿اَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ إذا دعاكم إلى الإيمان، على لسان نبيه ﷺ: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، أو يوم الموت ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ و﴿يَنْ﴾ إما متعلقة ب﴿يَأْتِيَ﴾؛ أي: من قبل أن يأتي من الله يوم، لا يقدر أحد على رده، ودفعه، أو متعلقة ب﴿مَرَدَّ﴾؛ أي: لا يرده الله، بعد أن حكم به على عباده، ووعدهم به.

والمعنى: أجيئوا داعي الله، وهو رسوله ﷺ وآمنوا به، واتبعوه فيما جاءكم به من عند الله تعالى، من قبل أن يأتي يوم لا يستطيع أحد أن يرده، إذا جاء به الله.

﴿اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ﴾ تلجئون إليه، ولا مفر تفرون إليه؛ أي^(١): ما لكم مخلص ما، من العذاب على ما دل عليه، تأكيد النفي ب﴿من﴾ الاستغرافية ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾؛ أي: إنكار ما لما اقترفتموه؛ لأنه مدون في صحائف أعمالكم، وتشهد عليكم جوارحكم، ولعل المراد: الإنكار المنجي، وإلا فهم يقولون ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وغير ذلك، ولذلك تشهد عليهم أعضاؤهم، أي: ما لكم من إنكار يومئذ، بل تعترفون بذنوبكم. والنكير: اسم مصدر بمعنى الإنكار، وقال مجاهد: ﴿مالكم من نكير﴾؛ أي: ناصر ينصركم، وقيل: النكير بمعنى المنكر، كالأليم بمعنى المؤلم؛ أي: لا تجدون يومئذ منكرًا لما ينزل بكم من العذاب، قاله الكلبي وغيره، والأول أولى.

(١) روح البيان.

والمعنى: أي ليس لكم حصن تحصنون فيه، ولا تستطيعون إنكار ما اجترحتموه من السيئات؛ لأنه قد كتب في صحفكم، وتشهد به ألسنتكم وجوارحكم، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَدَرَ ۝١١ إِنَّكَ رَبُّكَ يَوْمَئِذٍ تَسْتَفْتِي ۝١٢﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها، ولا موكلًا بهم رقيبًا عليهم، تلوين للكلام، وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة، وتوجيه منه إلى الرسول ﷺ؛ أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه، فما أرسلناك رقيبًا ومحاسبًا عليهم، وحافظًا لأعمالهم ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾؛ أي: ما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد فعلت فلا يهمنك إعراضهم، وهذا منسوخ بآية السيف.

والمعنى: أي فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أتيتهم به من الحق، ودعوتهم إليه من الرشد، ولم يستجيبوا لك، وأبوا قبوله منك، فدعهم وشأنهم، فإننا لم نرسلك رقيبًا عليهم، تحفظ أعمالهم وتحصيها، فما عليك إلا أن تبلغهم، ما أرسلناك به إليهم، فإذا أنت بلغت ما أديت ما كلفت به، ونحو الآية ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿فَاتَّمَا عَلَيْكَ أَلْبَلَعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

قال الغزالي رحمه الله تعالى في «شرح الأسماء»: الحفيظ من العباد: من يحفظ جوارحه وقلبه، ويحفظ دينه من سطوة الغضب، وخلاصة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان، فإنه على شفا جرف هار، وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية إلى النار، وقد عرف كلها من لسان الشارع ﷺ، فليسارع العبد إلى دفع الموبقات، وجلب المنجيات بإصلاح النفس، والتخلق بالأخلاق الإلهية، فإن النفس طاغية مؤدية إلى الإفلاس والخسار.

ويعدئ ذكر طبيعة الإنسان، وغريزته في هذه الحياة، فقال: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ إِذَا أَعْطَيْنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً﴾؛ أي: نعمة صادرة من جهتنا، كالصحة والغنى ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ بطراً لأجلها. والمراد بالإنسان: الجنس لا الواحد، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ﴾؛ أي: الإنسان ﴿سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: بلاء وشدة ومرض

وفقر ﴿بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَهُمْ﴾ بسبب ما عملته أنفسهم من كفرانهم، بنعم الله تعالى وعصيانهم فيها، وذكر الأيدي؛ لأن أكثر الأعمال تباشر بها، فجعل كل عمل كالصادر بالأيدي على طريق التغليب. ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ﴾؛ أي: جنسه ﴿كَفُورٌ﴾؛ أي: بليغ الكفر، ينسى النعمة بالكلية، ويذكر البلية ويستعظمها، ولا يتأمل سببها، بل يزعم أنها أصابته بغير استحقاق لها؛ أي: كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه، غير شكور له عليها، وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها من خواص المجرمين، لغلبتهم فيما بين الأفراد، يعني: أنه حكم على الجنس بحال أغلب أفرادها، للملازمة على المجاز العقلي، وتصدير الشرطية الأولى بإذا المفيدة للتحقق مع إسناد الإذاعة إلى نون العظمة، للتنبيه على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع، وأنه مقتضى الذات، كما أن تصدير الثانية بـ﴿إِنْ﴾ وإسناد الإصابة إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم، للإيدان بندرة وقوعها. وأنها بمعزل عن الانتظام في سلك الإرادة، والإظهار في مقام الإضمار للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم، كما سيأتي جميع ذلك في مبحث البلاغة.

والمعنى: أي وإنا إذا أغنيا ابن آدم، فأعطيناه من لدنا سعة في الرزق، أو في الصحة، أو في الأمن سر بما آتيناه، وإن أصابته فاقة، أو مرض بما أسلف من معصية ربه، جحد نعمتنا، وأيس من الخير، والإنسان من طبعه الجحد والكفران بالنعم حين الشدة.

والخلاصة: أن الإنسان إن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن ابتلي بمحنة يئس وقنط.

واعلم: أن نعمة الله تعالى، وإن كانت في الدنيا عظيمة، إلا أنها بالنسبة إلى سعادات الآخرة، كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سمي الإنعام بها إذاعة فالإنسان إذا حصل له هذا القدر الحقير في الدنيا فرح به، ووقع في العجب والكبر، وظن أنه فاز بكل المنى، ودخل في قصر السعادات، ولذا ضعف اعتقاده في سعادات الآخرة، وإلا لاختار الباقي على الفاني؛ لأن الفاني كالخزف مع أنه قليل، والباقي كالذهب مع أنه كثير.

ثم ذكر سبحانه سعة ملكه ونفاذ تصرفه، فقال: ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا غيره ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: له التصرف فيهما بما يريد، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع؛ أي: يختص به سبحانه ملك العالم كله، لا يقدر أن يملكه أحد سواه، فله التصرف فيه، وقسمة النعمة والبلية على أهله، وليس عليهم إلا الشكر في النعمة، والصبر في البلية، والرضى والتسليم للأحكام الأزلية.

والمعنى: أي إنه تعالى خالق السموات والأرض، ومالكهما، والمتصرف فيهما، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ مما يعلمونه، ومما لا يعلمونه على أي صورة شاء ﴿يَهَبُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِمَن يَشَاءُ إِنثًا﴾ لا ذكور معهن مثل ما وهب لشعيب ولوط عليهما السلام، والهبة: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض، والوهاب هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه يعطي كلاً على قدر استحقاقه ولا يريد عوضاً، والجملة بدل من يخلق بدل البعض، وإنما قدم الإناث على الذكور مع شرفهم؛ لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لتطيب قلوب آبائهن، إذ في التقديم تشريف لهن، وإيناس بهن، ولذلك جعلن من مواهب الله تعالى مع ذكر اللام الانتفاعية أو لرعاية الترتيب الواقع أولاً في الهبة بنوع الإنسان، فإنه تعالى وهب لآدم أولاً زوجته حواء عليهما السلام، بأن ولدها منه، وخلقها من قصيراه، وهي أسفل الأضلاع، أو آخر ضلع في الجنب، كما في «القاموس».

قال في «الكواشي»: ويجوز أنهن قدمن توبيخاً لمن كان يثدهن، ونكرن إيماء إلى ضعفهن ليرحمهن، فيحسن إليهن. وقال في «الشرعة وشرحه»: ويزداد فرحاً بالبنات، مخالفة لأهل الجاهلية، فإنهم يكرهونها، بحيث يدفنونها في التراب في حال حياتها، وفي الحديث: «من بركة المرأة تبكيها بالبنات»؛ أي: يكون أول ولدها بنتاً، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا﴾ الآية، حيث بدأ بالإناث ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ لا إناث معهم، كما وهب إبراهيم عليه السلام، من غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد، ومجال اعتراض.

وعرف الذكور للمحافظة على الفواصل، أو لجبر التأخير، يعني: أن الله تعالى آخر الذكور، مع أنهم أحقاء بالتقديم، فتدارك تأخيرهم بتعريفهم؛ لأن في التعريف العهدي تنويهاً وتشهيراً، كأنه قيل: ويهب لمن يشاء الفرسان، الأعلام، الذين لا يخفون عليكم. وفي الحديث: «إن أولادكم هبة الله لكم، يهب لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء الذكور، وأموالهم لكم إن احتجتم إليها».

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾؛ أي: يقرن بين الإناث والذكور، فيجعلهم ﴿ذَكَرًا وَإُنْثَى﴾ فيصير أولاده ذكراً وإناثاً، فيهبهما جميعاً لمن يشاء، بأن يولد له الذكور والإناث، مثل ما وهب لنبينا محمد ﷺ، إذ كان له من البنين ثلاثة على الصحيح، قاسم، وعبد الله، وإبراهيم. ومن البنات أربع: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة رضي الله عنهن. قال مجاهد: معنى يزوجهن: هو أن تلد المرأة غلاماً، ثم تلد جارية. ثم تلد غلاماً، ثم تلد جارية، وقال محمد بن الحنفية: هو أن تلد توأماً، غلاماً وجارية ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لا يولد له ذكر ولا أنثى، ﴿فَمَنْ﴾ عبارة عن الرجل والمرأة. فلا يلد ولا تلد. والعقيم: الذي لا يولد له، يقال: رجل عقيم؛ أي: لا يولد له، وامرأة عقيم؛ أي: لا تلد، كما في عيسى ويحيى عليهما السلام، فإنهما ليس لهما أولاد، أما عيسى فلم يتزوج، وإن كان يتزوج حين نزوله في آخر الزمان، ويكون له البنات كما قيل: وأما يحيى فقد تزوج، ولكن لم يقرب لكونه عزيمة في شريعته، وبعضهم لم يكن له أولاد، وإن حصل له قربان النساء.

ومعنى الآية: ^(١) أي يخلق ما يشاء، فيرزق من يشاء البنات فحسب، ويرزق من يشاء البنين فحسب، ويعطي من يشاء الزوجين الذكر والأنثى، ويجعل من يشاء لا نسل له، وفي هذا إيماء إلى أن الملك ملكه من غير منازع ولا مشارك، يتصرف فيه كيف يشاء، ويخلق ما يشاء، فليس لأحد أن يعترض عليه، أو يدبر بحسب هواه، وتصرفه لا يكون إلا على أكمل وجه وأتم نظام، وقد قيل: ليس في الإمكان أبدع مما كان ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق كل نوع من هذه

(١) المراغي.

الأنواع ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يريد أن يخلق، فيفعل ما يفعل بحكمة وعلم.

وفي «فتح الرحمن»: فإن قلت^(١): لم قدم الإناث مع أن جهتهن التأخير، ولم عرف الذكور دونهن؟

قلت: لأن الآية سبقت لبيان عظمة ملكه ومشيتته، وأنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاء عبده، كما قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ ولما كان الإناث مما لا يختاره العباد، قدمهن في الذكر، لبيان نفوذ إرادته ومشيتته وانفراده بالأمر، ونكرهن وعرف الذكور لانحطاط رتبتهن، لئلا يظن أن التقديم كان لأحقيتهن به ثم أعطى كل جنس حقه من التقديم والتأخير، ليعلم أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن، بل لمقتضى آخر فقال: ﴿أَوْ يُرْجِيهِمْ دُرَّكَانًا وَلِنَشَاءَ﴾ كما قال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾.

وقال أبو حيان: ولما^(٢) ذكر الهبة في الإناث، والهبة في الذكور، اكتفى عن ذكرها في قوله: ﴿أَوْ يُرْجِيهِمْ دُرَّكَانًا وَلِنَشَاءَ﴾، ولما كان العقيم ليس بمحمود قال: ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾، وهو قسيم لمن يولد له، وتغيير العاطف في الثالث؛ لأنه قسيم المشترك بين القسمين، ولم يحتج إليه في الرابع لإفصاحه، بأنه قسيم المشترك بين الأقسام الثلاثة، ذكره «البيضاوي»، ولما كان الخنثى مما يحزن بوجوده لم يذكره سبحانه وتعالى، قالوا: وكانت الخلقة مستمرة ذكراً وأنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخنثى، فسئل فارض العرب ومعرها، عامر بن الظرب عن ميراثه، فلم يدر ما يقوله وأرجأهم، فلما جن عليه الليل، جعل يتقلب وتذهب به الأفكار، وأنكرت خادمتها حاله، فسألتها، فقال: بهرت لأمر لا أدري ما أقول فيه، فقالت له: ما هو، فقال شخص له ذكر وفرج، كيف يكون حاله في الميراث، قالت له الأمة: ورثه من حيث يبول، فعقلها وأصبح، فعرضها عليهم فرضوا بها، وجاء الإسلام على ذلك، وقضى بذلك علي كرم الله وجهه.

﴿وَمَا كَانَ لِإِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: وما صح لفرد من أفراد البشر يا محمد ﴿أَنْ

(٢) البحر المحيط.

(١) فتح الرحمن.

يُكَلِّمُهُ اللَّهُ ﴿سُبْحَانَهُ بَوَجه من الوجوه، إلا بإحدى طرق ثلاث:

١ - ﴿إِلَّا وَحِيًّا﴾ استثناء من أعم الأحوال؛ أي: ما كان له أن يكلمه الله في حال من الأحوال، إلا حالة كونه وحياً وإلهاماً، وإلقاء من الله تعالى في روعه وقلبه، كما أوحى إلى أم موسى، وإلى إبراهيم في ذبح ولده، وكما روى ابن حبان في «صحيحه»، أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفث في روعي، إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب».

٢ - ﴿أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾؛ أي: أو إلا حالة كونه من وراء حجاب، بأن يسمعه كلامه جهره، من غير أن يبصر السامع من يكلمه، فهو تمثيل له بحال الملك المحتجب، الذي يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب، يسمع صوته، ولا يرى شخصه، وإلا فالله تعالى منزّه عن الاستتار بالحجاب، الذي هو من خواص الأجسام، فالحجاب يرجع إلى المستمع، لا إلى الله تعالى المتكلم، وذلك كما كلم الله تعالى موسى في طوى والطور، ولذا سمي كليماً؛ لأنه سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى، من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق.

٣ - ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾؛ أي: أو إلا حالة كونه بأن يرسل رسولاً؛ أي: ملكاً من الملائكة، إما جبرئيل أو غيره ﴿فَيُوحِي﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿يَاذِينَهُ﴾؛ أي: بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ الله سبحانه أن يوحى إليه من أمر أو نهى، كما كان جبريل ينزل على النبي ﷺ وعلى غيره من الأنبياء، وهذا هو الذي بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في عامة الأوقات من الكلام، فيكون إشارة إلى التكلم بواسطة الملك.

رُوي: أن النبي ﷺ قال: «من الأنبياء من يسمع الصوت، فيكون بذلك نبياً، ومنهم من ينفث في أذنه وقلبه، فيكون بذلك نبياً، وإن جبرئيل يأتيني فيكلمني، كما يكلم أحدكم صاحبه».

وروى البخاري في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن

هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول»، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي، في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد يسيل عرقاً.

قال الزجاج: المعنى أن كلام الله للبشر، إما أن يكون بإلهام يلهمهم، أو يكلمهم من وراء حجاب، كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم، وتقدير الكلام: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى وحيّاً، أو يكلمه من وراء حجاب، كما كلم موسى، أو يرسل رسولاً. وقرأ الجمهور: ﴿حِجَابٌ﴾: مفرداً. وابن أبي عبلة ﴿حَجَباً﴾: جمعاً. وقرأ الجمهور بنصب ﴿أَوْ يُرْسَلُ﴾، وينصب ﴿فَيُوحَى﴾ على تقدير أن، وتكون أن وما دخلت عليه معطوفين على وحيّاً، ووحياً في محل الحال والتقدير: إلا موحياً، أو مرسلّاً، ولا يصح عطف ﴿أَوْ يُرْسَلُ﴾ على ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ﴾؛ لأنه يصير التقدير: وما كان لبشر أن يرسل رسولاً، وهو فاسد لفظاً ومعنى. وقرأ نافع وأهل المدينة ﴿أَوْ يرسلُ رسولاَ فيوحي﴾. بالرفع فيهما، على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أو هو يرسل. وجملة قوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ﴾؛ أي: متعال عن صفات المخلوقين؛ لا يأتي جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته، فيكلمه تارة بواسطة، وتارة بغير واسطة، إما إلهاماً، وإما خطاباً من وراء حجاب تعليل لما قبلها.

قال المفسرون: فلما قالت اليهود للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنظر إليه، إن كنت نبياً كما كلمه موسى، نزل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ والكاف صفة لمصدر محذوف. والروح^(١): هو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان، حيث يحييها حياة طيبة؛ أي: يحصل لها به ما هو مثل الحياة،

(١) روح البيان.

وهو العلم النافع، المزيل للجهل الذي هو كالموت. وقال الراغب: سمي القرآن روحاً لكونه سبباً للحياة الأخروية، الموصوفة في قوله: ﴿وَلَا تَدْرِي لَئِنْ لَمُتْ لَآتِيَنَّكَ رُوحٌ بِأَمْرٍ نَسُوهُ﴾؛ أي: روحاً ناشئاً، ومبتدأ من أمرنا، والمعنى: وإيحاء مثل إيحائنا إلى سائر رسلنا، أوحينا إليك روحاً وقرآناً ناشئاً بأمرنا وإرادتنا، ونازلاً من عندنا رحمةً وحياةً لعبادنا.

وقيل: الروح هو جبرائيل عليه السلام، والمعنى: أوحينا إليك جبرائيل بأمرنا وإرادتنا، كما أوحيناه إلى سائر رسلنا، فإن قلت: كيف علم الرسول ﷺ في أول الأمر، أن الذي تجلى له جبرائيل، وأن الذي سمعه كلام الله تعالى؟

قلت: خلق الله تعالى له علماً ضرورياً، علم به ذلك، والعلم الضروري يوجب الإيمان الحقيقي، ويتولد من ذلك اليقين، فإن الخشية على قدر المعرفة.

ثم ذكر سبحانه صفة رسوله، قبل أن يوحى إليه، فقال: ﴿مَا كُنْتُ بِمَدْرِي﴾ وتعلم قبل النبوة في أربعين سنة. وجملة ﴿مَا كُنْتُ﴾ حال من كاف ﴿إِنَّكَ﴾ كما في تفسير «الكواشي» ﴿مَا أَلْكَتُبُ﴾ والقرآن، أي: أي شيء هو.

والمعنى: ما تدري جواب هذا الاستفهام، والكلام على حذف مضاف؛ لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وذلك أدخل في الإعجاز، وأدل على صحة نبوته، والاستفهام معلق للفعل عن العمل، وما بعده ساد مسد المفعولين ﴿وَلَا﴾ تدري ما ﴿أَلْإِيمَنُ﴾ بتفاصيل ما في تضاعيف القرآن، من الأمور التي لا تهتدي إليها العقول، لا الإيمان بما يستقل به العقل والنظر، فإن درايته ﷺ له مما لا ريب فيه قطعاً، فإن أهل العلم اتفقوا على أن الرسل عليهم السلام، كانوا مؤمنين قبل الوحي، معصومين من الكبائر، ومن الصغائر الموجبة، لنفرة الناس عنهم، قبل البعثة وبعدها، فضلاً عن الكفر، وهو مراد من قال: لا يعرف القرآن قبل الوحي، ولا شرائع الإيمان ومعالمه، وقيل: المراد بالإيمان: الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتوحيد، وهي لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحي لا بالعقل.

قال ابن قتيبة: لم تزل العرب على بقايا من دين إسماعيل، من الحج

والختان والنكاح، وإيقاع الطلاق، والغسل من الجنابة، وتحريم ذوات المحارم بالقربابة والمصاهرة، وكان رسول الله ﷺ على ما كانوا عليه في مثل هذه الشرائع، وكان يوحد، ويبغض اللات والعزى، ويحج ويعتمر، ويتبع شريعة إبراهيم عليه السلام، ويتعبد بها حتى جاءه الوحي، وجاءته الرسالة.

والمعنى: أي^(١) ما كنت قبل الأربعين، وأنت بين ظهري قومك، تعرف ما القرآن، ولا تفاصيل الشرائع، ومعالمها على النهج الذي أوحينا به إليك، وقيل: معنى الآية: ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: الروح الذي أوحينا إليك، والجعل بمعنى التصيير، لا بمعنى الخلق، وحقيقته أنزلناه؛ أي: ولكن جعلنا الروح والقرآن الذي أوحيناه إليك ﴿تُورَا﴾ وضياء، ودليلاً على التوحيد ﴿تَهْدِي﴾ ونرشد ﴿بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيق، وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدَى﴾ بهذا النور، وترشد من نشاء هدايته ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وطريق قويم الذي هو الإسلام، وسائر الشرائع والأحكام، وقوله^(٢): ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى﴾ تقرير لهدايته تعالى، وبيان لكيفيتها ومفعول ﴿لَتَهْدَى﴾ محذوف ثقة بغاية الظهور، كما قدرناه.

والمعنى: أي ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً عظيماً، نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا، ونرشده إلى الدين الحق، وإنك لتهدي بذلك النور، من نشاء هدايته إلى الحق القويم. ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ الآية.

وقرأ الجمهور^(٣) ﴿لَتَهْدَى﴾ مبنياً للفاعل مضارع هدى، وقرأ ابن حوشب: مبنياً للمفعول، إجابة سؤاله ﷺ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. وقرأ ابن السميعة: بضم التاء وكسر الدال، من أهدى الرباعي، وعن الجحدري مثلها، ومثل قراءة

(٣) البحر المحيط.

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

حوشب، وفي قراءة أبي ﴿وإنك لتدعو﴾.

ثم بين الصراط المستقيم بقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ بدل من الصراط الأول، وفي إضافة الصراط إلى الاسم الشريف، من التعظيم له، والتفحيم لشأنه ما لا يخفى ووصف الجلالة بقوله: ﴿الَّذِي لَمْ يَمَلِكْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً لتقرير استقامته، وتأکید وجوب سلوكه، فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى، خلقاً وملكاً وتصرفاً، مما يوجب ذلك أتم إيجاب.

وقال بعضهم^(١): معنى الآية: دعونا يا محمد أقواماً في الأزل، فأجابوا، فأنت تهديهم إلينا وتدلهم علينا، وإنما كان عليه السلام هادياً؛ لأنه نور كالقرآن، ولمناسبة نوره مع نور الإيمان والقرآن قيل: كان خلقه القرآن.

وحاصل المعنى: أي هذا الطريق، هو الطريق الذي شرعه الله، مالك السموات والأرض والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه.

﴿آلَا﴾ كلمة تذكرة لتبصرة، أو تنبيه لحجة ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾؛ أي: ترجع أمور ما فيهما قاطبةً بارتفاع الوسائط والتعلقات، يعني: يوم القيامة، فيحمل لفظ تصير على الاستقبال؛ أي: انتبهوا وتذكروا أن أمور الخلائق يوم القيامة تصير إلى الله، لا إلى غيره، فيضع كلاً منهم في موضعه الذي يستحقه من نعيم أو جحيم، وفي هذا وعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم ووعد للظالمين، وفيه وعد بالبعث المستلزم للمجازاة. وقال في «بحر العلوم»: إلى الله سبحانه، تصير أمور الخلائق كلها، في الدنيا والآخرة، فلا يدبرها إلا هو، حيث لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره.

وعن سهل بن أبي الجعد: احترق مصحف، فلم يبق إلا قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ وغرق مصحف، فانمحي كل شيء إلا ذلك، كذا في «عين المعاني» للسجاوندي انتهى «قرطبي».

(١) روح البيان.

الإعراب

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤١)
وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤٢).

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جزاء سيئة﴾: مبتدأ، ﴿سَيِّئَةٌ﴾: خبر،
﴿مِثْلُهَا﴾: صفة لـ ﴿سَيِّئَةٍ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ﴾، أو
مستأنفة، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾: الفاء: فاء الإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب
شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن جزاء سيئة سيئة مثلها، وأردت بيان أجر من
عفا وأصلح.. فأقول لك: ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ،
والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما كما مر مراراً، ﴿عَفَا﴾: فعل ماض
في محل الجزم فعل شرط، ﴿وَأَصْلَحَ﴾: معطوف عليه، ﴿فَأَجْرُهُ﴾: الفاء: رابطة
الجواب وجوباً، ﴿أَجْرُهُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل
الجزم جواب الشرط، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا
المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَلَمَنِ﴾:
﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع
مبتدأ، ﴿انْتَصَرَ﴾ فعل ماض في محل الجزم فعل شرط، ﴿بَعْدَ﴾: ظرف متعلق
بـ ﴿انْتَصَرَ﴾. ﴿ظُلْمِهِ﴾ مضاف إليه للظرف، وهو مضاف إلى الهاء، من إضافة
المصدر إلى مفعوله، وتؤيده قراءة من قرأ: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا ظَلَمَ﴾ بالبناء للمفعول،
﴿فَأُولَئِكَ﴾ الفاء: رابطة، ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: خبر مقدم،
﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾: مبتدأ مؤخر. و﴿مَنْ﴾: زائدة، والجملة خبر عن اسم الإشارة،
وجملة الإشارة في محل جزم جواب الشرط، وجملة الشرط وجوابه خبر لـ ﴿مَنْ﴾
الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾ (٤٣) وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٤).

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿السَّبِيلُ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ

النَّاسَ: صلة الموصول، والجملة الاسمية مستأنفة معترضة، ﴿وَيَبْعُونَ﴾: معطوف على ﴿يَطْلُبُونَ﴾، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿يَبْعُونَ﴾، ﴿يَغْيِرُ الْحَقَّ﴾: حال من فاعل ﴿يَبْعُونَ﴾؛ أي: حال كونهم غير محققين، ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿أَلَيْسَ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة خبر لاسم الإشارة. وجملة اسم الإشارة مستأنفة، أو حال من الموصول، ﴿وَلَكِنْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. كما مر نظيره، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول مبتدأ، ﴿صَبَرَ﴾ صلته ﴿وَعَفَرَ﴾: معطوف عليه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمَنْ عَزِمَ الْأُمُورَ﴾: اللام: مؤكدة للأولى. ﴿مَنْ عَزِمَ الْأُمُورَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ في محل الرفع خبر لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة، وفي الرابط قولان:

أحدهما: هو اسم الإشارة إذا أريد به المبتدأ، ويكون حينئذٍ على حذف مضاف، تقديره: إن صبر ذلك لمن عزم الأمور.

الثاني: أنه ضمير محذوف، تقديره: لمن عزم الأمور منه أو له، وجملة قوله: ﴿وَلَكِنْ صَبَرَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿وَلَكِنْ أَتَصَبَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾، وجملة قوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ...﴾ إلخ، معترضة، وجوز الحوفي وغيره أن تكون ﴿مَنْ﴾: شرطية، و﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾: جوابها على حذف الفاء، على حد حذفها في البيت المشهور:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرْهَا

وعلى جعل اللام للقسم، فإن ذلك جواب القسم المقدر، وحذف جواب الشرط للدلالة عليه، وتقدر الفاء الرابطة للجواب.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ۚ﴾ وترتّبهم يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ. .

﴿وَمَنْ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم، في محل نصب مفعول مقدم، ﴿يُضْلِلُ﴾: فعل شرط مجزوم بـ﴿مَنْ﴾. ﴿اللَّهُ﴾: فاعل، ﴿فَمَا﴾ الفاء رابطة. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم. ﴿مَنْ وَلِيٍّ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مَنْ﴾ زائدة، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: صفة لـ﴿وَلِيٍّ﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية. وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على الجمل التي قبلها، أو مستأنفة، ﴿وَتَرَى﴾

﴿الواو﴾: استثنائية. ﴿ترى﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على أي مخاطب، ﴿الظَّالِمِينَ﴾ مفعول به، لأن رأى هنا بصرية. ﴿لَمَّا﴾ ظرف بمعنى حين، متعلق بـ ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به. والجملة مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من ﴿الظَّالِمِينَ﴾، ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام واستخبار مع الدهشة ﴿إِلَىٰ مَرَّةٍ﴾: خبر مقدم، ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مَنْ﴾ زائدة. والجملة الاستفهامية مقول القول لـ ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿وَوَرَّهَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿ترى الظالمين﴾، ﴿يُعْرَضُونَ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق بـ ﴿يُعْرَضُونَ﴾ وجملة ﴿يُعْرَضُونَ﴾ حال من مفعول ﴿تراهم﴾، حال أولى، أو حال من واو ﴿يُعْرَضُونَ﴾، ﴿خَشِيعِينَ﴾ حال ثانية. ﴿مِنْ أَلَدٍّ﴾ متعلق بـ ﴿خَشِيعِينَ﴾، وجملة ﴿يَنْظُرُونَ﴾ حال ثالثة، أو من مرفوع ﴿يُعْرَضُونَ﴾، ﴿مِنْ طَرَفٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَنْظُرُونَ﴾، ﴿خَفِيَ﴾ صفة ﴿طَرَفٍ﴾. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استثنائية. ﴿قال الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿الَّذِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل نصب مقول ﴿قال﴾، ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول، ﴿وَأَهْلِيَهُمْ﴾: معطوف على ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾، منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: ظرف، متعلق بـ ﴿خَسِرُوا﴾، ويصح أن يتعلق بـ ﴿قال﴾ كما مر. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح وتنبيه، ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي عَذَابٍ﴾: خبره، ﴿مُقِيمٍ﴾ صفة ﴿عَذَابٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، إن قلنا من كلام الله سبحانه، تصديقا لكلامهم، أو مقول لـ ﴿قال﴾ إن قلنا من تمام كلامهم.

﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

﴿٤٦﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص.

﴿لَهُمْ﴾: خبرها مقدم. ﴿مِنْ أَوْلِيَّاءَ﴾: اسمها مؤخر، و﴿مَنْ﴾ زائدة، وجملة ﴿يَنْصُرُونَهُمْ﴾ صفة لـ ﴿أَوْلِيَّاءَ﴾، ﴿مِنْ دُوبِ اللَّهِ﴾: حال من ﴿أَوْلِيَّاءَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل نصب، مفعول مقدم، ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَمَا﴾ الفاء: رابطة، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿سَبِيلَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على ما قبلها.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَسْنَاهُمْ إِيَّانًا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِجْنًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿اسْتَجِيبُوا﴾: فعل وفاعل، بمعنى ﴿أجيبوا﴾. مبني على حذف النون، ﴿لِرَبِّكُمْ﴾ متعلق به، ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ متعلق به أيضاً؛ أي: أجيبوه بالتوحيد والعبادة. ﴿أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من قبل إتيان يوم. ﴿لَا﴾: نافية للجنس، ﴿مَرَدَّ﴾: اسمها، ﴿لَهُمْ﴾: خبرها، ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿مَرَدَّ﴾؛ لأنه مصدر ميمي، وأجاز بعضهم تعلقه بـ ﴿يَأْتِيَ﴾؛ أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يتاح لأحد رده. وجملة ﴿لَا﴾: في محل الرفع صفة لـ ﴿يَوْمٌ﴾، ﴿مَا لَكُمْ﴾ ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿مِنْ مَلَجٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مَنْ﴾: زائدة. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف متعلق، بمحذوف حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، أو من ضمير المخاطبين، والجملة مستأنفة، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿مِنْ نَكِيرٍ﴾: مبتدأ، و﴿مِنْ﴾ زائدة، والجملة معطوفة على التي قبلها. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾: الفاء: استثنائية، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿أَعْرَضُوا﴾: فعل ماض وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿فَمَا﴾ الفاء: رابطة الجواب وجوباً، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾: فعل

وفاعل ومفعول به، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿حَفِظْتُ﴾، و﴿حَفِظْتُ﴾ حال من مفعول ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، والجملة في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية مستأنفة، والأولى أن يكون جواب الشرط محذوفاً، والفاء عاطفة على الجواب المحذوف، المقدر بما يناسب المقام؛ أي: فلا تبتئس ولا تحاول اقتسارهم. ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿عَلَيْكَ﴾: خبر مقدم، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَلْبَلَعُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، ﴿وَأَنَا﴾ ﴿الْوَاوُ﴾: عاطفة، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، متعلق بالجواب الآتي، ﴿أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿مِنَّا﴾: حال من ﴿رَحْمَةً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول ثان، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَرِحَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿الْإِنْسَانَ﴾. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ ﴿فَرِحَ﴾، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية. ﴿وَأَنْ﴾: ﴿الْوَاوُ﴾: عاطفة، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط، ﴿نُصِيبُهُمْ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، مجزوم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿سَيِّئَةً﴾ فاعل، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿نُصِيبُهُمْ﴾، و﴿مَا﴾ موصولة، وجملة ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ﴾ صلة، والعائد محذوف؛ أي: قدمته. وعبر بالأيدي؛ لأن أكثر الأعمال تزاوُل بها كما مر. ﴿فَإِنْ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية، أو علة للجواب المقدر، والتقدير: وإن تصبهم سيئة نسوا النعمة فوراً؛ لأن الإنسان كثير كفران النعمة، ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنْ﴾ في محل الجزم جواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٩١ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُمْ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ۝٩٢﴾.

﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة

الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان سعة ملكه، ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر. و﴿مَا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَشَاءُ﴾: صلة ل﴿مَا﴾ الموصولة، وجملة ﴿يَخْلُقُ﴾: في محل نصب حال من الجلالة، ﴿يَهْبُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله تعالى، ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ متعلق ب﴿يَهْبُ﴾، ﴿إِنشَاءً﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَهْبُ﴾: بدل من جملة ﴿يَخْلُقُ﴾: بدل مفصل من مجمل، وجملة ﴿وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾: معطوفة على ما قبلها، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، ﴿ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً﴾ مفعول به ثان، بدليل ما بعده، على تضمينه معنى التصيير؛ أي: يجعل أولاده ذكوراً وإناثاً. واختار أبو البقاء والخطيب إعراب ﴿ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً﴾ حالين. ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول أول، و﴿عَقِيماً﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً﴾، ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ناصب واسمه وخبره، ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ثان له، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَا﴾: نافية ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لِنَبِيٍّ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَكْلِمَهُ اللَّهُ﴾: فعل مضارع، ومفعول وفاعل منصوب ب﴿أَنْ﴾ المصدرية، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع مدخولها، في تأويل مصدر، مرفوع على كونه اسماً ل﴿كَانَ﴾، والتقدير: وما كان تكليم الله سبحانه، إنساناً كائناً له، في حال من الأحوال، إلا في حالة كونه وحياً، إلخ. وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. مسوقة لبيان كيفية تكليم الله لعباده، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال، ﴿وَحِيًّا﴾: مصدر واقع موقع الحال؛ أي: موحياً، أو مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير: إلا أن يوحى إليه وحياً ﴿أَوْ﴾ حرف عطف، ﴿مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾: متعلق بمقدر، معطوف على المقدر العامل في وحياً؛ أي: أو إلا أن يكلمه الله من وراء حجاب، أو مسمعاً من وراء حجاب، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿يُرْسِلَ﴾: فعل مضارع، منصوب بأن

مضمرة جوازاً بعد أو، العاطفة على اسم خالص، أعني: وحياً، كما قال ابن مالك:

وَإِنْ عَلَى اسْمٍ خَالِصٍ فِعْلٌ عُطِفَ تَنْصِبُهُ إِنْ ثَابِتاً أَوْ مُنْحَذَفَ
 وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿رَسُولاً﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع
 أن المضمرة، في تأويل مصدر، معطوف على وحياً تقديره: وما كان لبشر أن
 يكلمه الله إلا وحياً، أو إرسال رسول، فكأنه قال إلا موحياً، أو مرسلأ رسولأ،
 أو إلا أن يوحى، أو ﴿يُرْسِلَ﴾ ﴿رَسُولاً﴾، ﴿فَيُوحِي﴾: الفاء: عاطفة، ﴿يُوحِي﴾:
 فعل مضارع، معطوف على يرسل، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَسُولاً﴾،
 ﴿يَاذُنِهِ﴾: متعلق بـ﴿يُوحِي﴾، ﴿مَا﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَشَاءُ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾
 الموصولة ﴿إِنَّهُمْ عَلَى﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان له، وجملة
 ﴿إِنْ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ
 جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ صِرَاطَ اللَّهِ
 الَّذِي لَمْ يَلَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استثنائية، والكاف صفة لمصدر محذوف؛ أي:
 إحياء مثل إحيائنا إلى غيرك، ﴿أَوْحَيْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَوْحَيْنَا﴾،
 ﴿رُوحاً﴾: مفعول به. ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾: نعت لـ﴿رُوحاً﴾. وقيل: حال، و﴿مَنْ﴾
 تبعيضية؛ أي: حال كون هذا الروح، وهو القرآن بعض ما نوحى إليك؛ لأن
 الموحى إليه لا ينحصر في القرآن، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿مَا﴾: نافية.
 ﴿كُنْتَ﴾ فعل ناقص واسمه، والجملة حال من كاف إليك، ﴿مَا﴾: استفهامية
 معلقة لـ﴿تَدْرِي﴾ عن العمل، في محل رفع مبتدأ، و﴿الْكِتَابُ﴾: خبر، والجملة
 الاسمية في محل نصب، سدت مسد مفعولي ﴿تَدْرِي﴾، ﴿وَلَا الْإِيمَنُ﴾: عطف
 على ﴿الْكِتَابُ﴾. ﴿وَلَكِنْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، أو عاطفة، ﴿لَكِنْ﴾ حرف استدراك
 مهمل، ﴿جَعَلْنَاهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿نُوراً﴾: مفعول ثان، والجملة
 الفعلية في محل نصب، حال من ﴿الْكِتَابُ﴾، أو معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾،

﴿تَهْدِي﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿تَهْدِي﴾. ﴿مَنْ﴾: مفعول به، وجملة ﴿نَشَأَ﴾: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ حال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أو من عائده المحذوف، وجملة ﴿تَهْدِي﴾ في محل نصب، صفة لـ﴿تُورَا﴾. ﴿وَإِنَّكَ﴾ ﴿الْوَاو﴾ استثنائية ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَتَهْدِي﴾ اللام: حرف ابتداء، وجملة ﴿تهدي﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ متعلق بـ﴿تهدي﴾. ﴿تُسْقِيهِ﴾ صفة لـ﴿صِرَاطٍ﴾: ﴿صِرَاطُ اللَّهِ﴾ بدل من ﴿صِرَاطٍ﴾ الأول، بدل معرفة من نكرة ﴿الَّذِي﴾: نعت للجلالة، ﴿لَمْ﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾، والجملة الاسمية صلة الذي ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح، ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿نَصِيرُ﴾. ﴿الْأُمُورِ﴾: فاعل. والمراد بهذا المضارع الديمومة، كقولك: زيد يعطي ويمنع؛ أي: من شأنه ذلك، وليس المراد حقيقة المستقبل؛ لأن الأمور منوطة به تعالى كل وقت.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَجَزَّوْا سَيِّئًا﴾ والسيئة: فعيلة من السوء، وهو القبيح. ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ﴾ أي: سعي في نصر نفسه بجهد. ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾؛ أي: من عقاب وعتاب، والسبيل في الأصل: الطريق الذي فيه سهولة. ﴿لَمَنِ عَزِيَ الْأُمُورُ﴾؛ أي: لمن الأمور المشكورة عند الله تعالى، والأفعال التي نذب إليها عباده، ولم يرخص بالتهاون فيها من العزم، والعزم: عقد القلب على إمضاء الأمر. والعزيمة: الرأي الجذ كما في «المفردات» ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾؛ أي: أجيئوا، فالسين والتاء فيه زائدتان.

﴿لَا مَرَّةً لَمْ﴾؛ أي: لا يرده بعد ما حكم به. أصله: مردد بوزن مفعول بفتح العين، نقلت حركة الدال الأولى إلى الراء، فسكنت فأدغمت في الدال الثانية. ﴿مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ قيل المراد به: العضو، وهو العين، وقيل المراد به: المصدر، يقال: طرفت عينه تطرف طرفاً؛ أي: ينظرون نظراً خفياً. وفي «المصباح»: طرف البصر طرفاً، من باب ضرب تحرك، وطرف العين نظرها، ويطلق على الواحد وغيره، لأنه مصدر اهـ، وفي «المختار»: وطرف بصره من باب ضرب، إذا أطبق

أحد جفنيه على الآخر، والمرة منه طرفة، يقال: أسرع من طرفة العين ﴿خَفِيٌّ﴾ أصله: خفي بوزن فعيل، أدغمت ياء فعيل في لام الكلمة ﴿إِنَّ الْكَاتِبِينَ﴾ من الخسران، وهو انتقاص رأس المال، وينسب إلى الإنسان، فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، كما سبق. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ قال ابن الملك في «شرح المشارق»: الأهل يفسر بالأزواج والأولاد. وبالعبيد والإماء، وبالأقارب، وبالأصحاب، وبالمجموع. ﴿مَنْ مَلَجًا﴾؛ أي: ملاذ تلجؤون إليه، ومهرب ومفر تفرون إليه، وفي «المصباح»: لجأ إلى الحصن وغيره، لجأ من بابي نفع وتعب، والتجأ إليه اعتصم به، فالحصن ملجأ بفتح الميم والجيم، وألجأته إليه ولجأته بالهمزة والتضعيف، اضطررته إليه وأكرهته، اهـ. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملك بالضم: الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه، وفي «المصباح»: وملك على الناس أمرهم ملكاً، من باب ضرب، إذا تولى السلطنة، فهو ملك، والاسم الملك بضم الميم اهـ.

﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ قال الراغب: كفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها. وأعظم الكفر: جحودهم الوحداية والنبوة، فمعنى كفور: نساء للنعمة، ذكّار للبلية. ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ والهبه: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض، وفي «المختار»: وهب له شيئاً يهبه وهباً، بوزن وضع يضع وضعاً، وهباً أيضاً بفتح الهاء، وهبة بكسر الهاء، والاسم الموهب والموهبة بكسر الهاء فيهما، والاتهاب: قبول الهبة، والاستيهاب: سؤال الهبة اهـ. فأصل يهب: يوهب؛ لأنه حذفت فاؤه فوزنه يعل. ﴿إِنْتَأَى﴾ جمع أنثى خلاف الذكر. ﴿الذُّكُورُ﴾ جمع ذكر، وهو ضد الأنثى، والخنثى: إنسان له ذكر وفرج، وأول ظهوره في الجاهلية الأولى، زمن عامر بن الظرب ملك العرب، كما سبق. ﴿ذُكْرَانَا﴾ جمع ذكر أيضاً. ﴿عَقِيمًا﴾ وفي «المصباح»: العقيم الذي لا يولد له، يطلق على الذكر والأنثى، وفي «القاموس» العقم بالضم: هرمة تقع في الرحم، فلا تقبل الولد، يقال: عقت كفرح ونصر وكرم عقماً وعقماً، ويضم، وعقمها الله تعقيماً وأعقمها، ورحم عقيمة وامرأة معقومة، وامرأة عقيم، والجمع عقائم وعقم، ورجل عقيم كأمير لا يولد له، والجمع عقماء وعقام، اهـ. وفي «الروح»: وأصل العقم:

اليس المانع من قبول الأثر، والعقيم من النساء التي لا تقبل ماء الفحل، فالعقم كما يقع صفة للمرأة، يقع صفة للرجل، بأن يكون في مائه ما يمنع العلوق من الأعذار. ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ قال الراغب: ومعنى الوحي: الإشارة السريعة، يقال: أمر وحي؛ أي: سريع، ثم اختص في عرف اللغة بالأمر الإلهي الملقى إلى الأنبياء، وفي «المصباح»: الوحي: الإشارة، والرسالة، والكتابة، وكل ما ألقته إلى غيرك ليعلمه وحي كيف كان، قاله ابن فارس، وهو مصدر وحي إليه يحي من باب وعى، وأوحى إليه بالألف مثله، وجمعه وحي، أصله: وحي بوزن فعول، مثل: فلوس، وبعض العرب تقول: وحيته إليه، وحيته له، وأوحيت إليه وله، ثم غلب استعمال الوحي فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله تعالى، ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف، اهـ.

﴿إِنِّي صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ والصراط من السبيل مالا التواء فيه؛ أي: لا اعوجاج بل يكون على سبيل القصد. ﴿تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أصله: تصير بوزن تفعل نقلت حركة الياء إلى الصاد، فسكنت الياء إثر كسرة فصارت حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع:

فمنها: جناس المزوجة اللفظي في قوله: ﴿وَحَزَوْنَا سَيِّئَةً سَيِّئَةً﴾؛ لأن إطلاق السيئة على الثانية، مع أنها جزاء وقصاص مشروع مأذون فيه، وكل مأذون حسن لا سيء لقصد المزوجة، ويعبر عنها بعضهم بالمشاكلة، ومثله قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فسمى جزاء الاعتداء اعتداء، مع أنه مأذون فيه، ليكون في نظم الكلام مزوجة؛ أي: مشاكلة.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ للدلالة على تحقق وقوعه؛ لأن مقتضى الظاهر أن يقال: لما يرون العذاب لاستقباله.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ اهتماماً بشأن الصبر وترغيباً فيه، والصبر هنا: هو الإصلاح المتقدم فأعيد هنا، وعبر عنه بالصبر؛ لأنه من شأن أولي العزم، وأشار إلى أن العفو المحمود ما نشأ عن التحمل، لا عن العجز، اهـ «شهاب».

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ لأن مقتضى الظاهر: أن يقال: ألا إنهم في عذاب مقيم، تسجيلاً عليهم باسم الظلم.

ومنها: تلوين للكلام، وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة، وتوجيه له إلى الرسول ﷺ في قوله: ﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾؛ أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه، فما أرسلناك رقيباً.

ومنها: تصدير الشرطية الأولى بإذا المفيدة للتحقيق، مع إسناد الإذاعة إلى نون العظمة في قوله: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِّهَا﴾ للتنبيه على أن إيصال النعمة أمر محقق الوجود كثير الوقوع، وأنه مقتضى الذات، كما أن تصدير الشرطية الثانية في قوله: ﴿وَلِإِن نُّصَبِّهُمُ سَيِّئَةً يَمَا فَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بـ﴿إِن﴾ المفيدة للشك، مع إسناد الإصابة إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم، للإيذان بندرة وقوعها، وأنها بمعزل عن الانتظام في سلك الإرادة بالذات.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمَر في قوله: ﴿فَإِن الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم، وفيه أيضاً المجاز العقلي، حيث أسند هذه الخصلة إلى الجنس والكل، مع كونها من صفات المجرمين فقط، نظراً لغلبتهم فيما بين الأفراد، يعني: أنه حكم على الجنس بحال أغلب أفرادها، لعلاقة الملابس.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ بُرُوجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا﴾.

ومنها: الطباق بين الذكور والإناث.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ لأنه حقيقة فيما يحيي به الروح، فاستعير للقرآن بجامع حصول الحياة بكل منهما، وإن كانت مختلفة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَا إِلِيمَنُ﴾؛ لأنه كناية عن الأحكام المشروعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع^(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) كان الفراغ من تفسير هذه السورة الكريمة، في تاريخ: ١٤١٤/١١/٢٥ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، في عصر يوم الجمعة، بعد صلاته، قبيل الغروب، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، تسليماً كثيراً.

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

- ١ - إنزال الوحي على رسوله ﷺ.
- ٢ - اختلاف الأديان ضروري للبشر.
- ٣ - أصول الشرائع واحدة لدى جميع الرسل.
- ٤ - اختلاف المختلفين في الأديان بغى وعدوان منهم.
- ٥ - إنكار نبوة محمد ﷺ، بعد أن قامت الأدلة على صدقه.
- ٦ - استعجال المشركين لمجيء الساعة، وإشفاق المؤمنين منها.
- ٧ - من يعمل للدنيا يؤث منها، وما له حظ في الآخرة، ومن يعمل للآخرة، يوفقه الله للخير.
- ٨ - ينزل الله الرزق بقدر، بحسب ما يرى من المصلحة.
- ٩ - من الأدلة على وجود الخالق خلق السموات والأرض، وجرى السفن في البحار.
- ١٠ - متاع الآخرة خير وأبقى من متاع الدنيا.
- ١١ - جزاء السيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله سبحانه.
- ١٢ - تمنى المشركين يوم القيامة العودة إلى الدنيا، حين يرون العذاب.
- ١٣ - نظر المشركين إلى النار بطرف خفي، إذا عرضوا عليها خاشعين من الذل.
- ١٤ - ليس على الرسول إلا البلاغ.
- ١٥ - يهب الله سبحانه لمن يشاء الإناث، ولمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراً وإنثاً، ويجعل من يشاء عقيماً.
- ١٦ - أقسام الوحي إلى البشر.

١٧ - الرسول ﷺ قبل الوحي ، ما كان يدري شيئاً من الشرائع .

١٨ - هدايته إلى صراط مستقيم .

والله أعلم

* * *

سورة الزخرف

سورة الزخرف: قال القرطبي: هي مكية بالإجماع، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة حم الزخرف بمكة، قال مقاتل: إلا قوله: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ يعني: فإنها نزلت بالمدينة.

وآياتها^(١): تسع وثمانون آية، وكلماتها: ثمان مئة وثلاث وثلاثون كلمة. وحروفها: ثلاثة آلاف وأربع مئة حرف.

التسمية: سميت سورة الزخرف، لما فيها من التمثيل الرائع، لمتاع الدنيا الزائل، ويريقها الخادع، بالزخرف اللامع الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. ولهذا يعطيها الله تعالى للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله تعالى إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

وجه مناسبتها لما قبلها^(٢): أن مفتتح هذه يشاكل مختتم تلك.

والحاصل: أن مناسبة هذه السورة لما قبلها من آل حم من وجهين.

الأول: تشابه مطلع هذه السورة مع مطلع وخاتمة السورة المتقدمة، في وصف القرآن الكريم، وبيان مصدره، وهو الوحي الإلهي.

الثاني: التشابه في إيراد الأدلة، القاطعة على وجود الله عز وجل ووحدانيته، ووصف أحوال الآخرة ومخاوفها، وأحوال النار التي تعرض لها الكفار، ومقارنته بنعيم الجنة، وإعداده للمؤمنين المتقين، انتهى من «التفسير المنير».

(٢) المراغي.

(١) الخازن.

فضلها: روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الزخرف، كان ممن يقال لهم يوم القيامة: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ولكن فيه مقال.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم^(١): سورة الزخرف جميعها محكم غير آيتين:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضِبُوا وَيَلْعَبُوا﴾ (الآية ٨٣) نسخت بآية السيف.

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ (الآية ٨٩) نسخت أيضاً بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

(١) الناسخ والمنسوخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ وَإِنَّمَا فِي أَمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا عَلَى حَكِيمٍ ٤ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ١١ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢ لَيْسَتُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَحَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقِرِّينَ ١٣ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ ١٤ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ١٥ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوْ مَن يُنْسَوْنَ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَأْذَنُ ١٩ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠ أَمْ آتَيْتُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِنُونَ ٢١ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ٢٢ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ٢٣ قُلْ أُولَئِكَ حِشْكُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِنْهُمْ وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ٢٤ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ٢٥ .

المناسبة

قد تقدم آنفاً بيان المناسبة بين السورتين، بأن هذه بدئت بذكر الكتاب المبين، الذي فيه بيان الصراط المستقيم، الذي ختمت به السورة السابقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ١٠٠﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن المشركين منهمكون في كفرهم، وإعراضهم عما جاء به القرآن، من توحيد الله تعالى والبعث.. أبان هنا أن أفعالهم تخالف أقوالهم، فإن سألتهم عن الخالق لهذا الكون، من سمائه وأرضه ليقولن الله، وهم مع اعترافهم به يعبدون الأصنام والأوثان، ثم ذكر سبحانه وتعالى جليل أوصافه، فأرشد إلى أنه هو الذي جعل الأرض فراشاً، وجعل فيها طرقاً لتتهدوا بها في سيركم، ونزل من السماء ماء بقدر الحاجة، يكفي زرع النبات وسقي الحيوان، وخلق أصناف المخلوقات، من حيوان ونبات، وسخر لكم السفن والدواب لتركبوها، وتشكروا الله على ما آتاكم، وتقولوا لولا لطف الله بنا ما كنا لذلك بمطيقين، وإنا يوم القيامة إلى ربنا راجعون، فيجازي كل نفس بما كسبت إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِمِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ١٠١﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنهم يعترفون بالألوهية، وأنه خالق السموات والأرض.. أردف هذا ببيان أنهم متناقضون مكابرون، فهم مع اعترافهم لله بخلق السموات والأرض، يصفونه بصفات المخلوقين، المنافية لكونه خالقاً لهما، إذ جعلوا الملائكة بنات له، ولا غرو، فالإنسان من طبعه الكفران، وجحود الحق، ومن عجيب أمرهم أنهم أعطوه أخس صنفي الأولاد، وما لو بشر به أحدهم اسودَّ وجهاً وامتلأ غيظاً، ومن يتربى في الزينة، وهو لا يكاد يبين حين الجدل، فلا يظهر حجة، ولا يؤيد رأياً، واختاروا لأنفسهم الذكران، ثم أعقبه بالنعي عليهم في جعلهم الملائكة إناثاً، وزاد في الإنكار عليهم ببيان أن مثل هذا الحكم لا يكون إلا عن مشاهدة، فهل هم شهدوا ذلك، ثم توعدهم على هذه المقالة، وأنه يوم القيامة يجازيهم بها.

ثم حكي عنهم شبهة أخرى، قالوا لو شاء الله أن لا نعبد الملائكة ما عبدناها، لكنه شاء عبادتها، لأنها هي المتحققة فعلاً، فتكون حسنة، ويمتنع

النهي عنها، ثم رد مقالهم بأن المشيئة إنما هي ترجيح بعض الأشياء على بعض، ولا دخل لها في حسن أو قبح، وبعد أن أبطل استدلالهم العقلي.. نفى أن يكون لهم دليل نقلي على صحة ما يدعون، ثم أبان أن ما فعلوه إنما هو بمحض التقليد عن الآباء، دون حجة ولا برهان، وهم ليسوا ببدع في ذلك، فكثير من الأمم قبلهم، قالوا مثل مقالهم، مع أن الرسل بينوا لهم الطريق السوي، فكفروا به واتبعوا سنن من قبلهم حذو القذة بالقذة، فكان عاقبة أمرهم أن حل بهم نكالنا، كما يشاهدون ويرون من آثارهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا...﴾ الآيات، سبب نزولها^(١): ما أخرجه ابن المنذر عن قتادة قال: قال ناس من المنافقين: إن الله صاهر الجن فخرجت من بينهم الملائكة، فنزل فيهم: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا...﴾ الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حَدَّثَ ①﴾ يحتمل^(٢) كونه اسماً للقرآن؛ أي: هذا القرآن يسمى بـ﴿حَدَّثَ﴾، أو اسماً للسورة؛ أي: هذه السورة تسمى بـ﴿حَدَّثَ﴾، وقيل: ﴿حَدَّثَ﴾ إشارة إلى الاسمين الجليلين من أسمائه تعالى، وهما: الحنان والمنة.

فالحنان: هو الذي يقبل على من أعرض عنه. وفي «القاموس»: الحنان كشداد، اسم لله تعالى ومعناه: الرحيم انتهى.

والمنة: هو الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال، كما في «القاموس»: المنان من أسماء الله تعالى، المعطي ابتداء، انتهى. وقد جعل في داخل الكعبة ثلاث أسطوانات. الأولى: أسطوانة الحنان. والثانية: أسطوانة المنان، والثالثة: أسطوانة الديان، وإنما أضيفت إلى الله تعالى تعظيماً لها، كما قيل: بيت الله،

(١) لباب القول.

(٢) روح البيان بتصرف.

وناقة الله، فأشار بهذه الأسماء الثلاثة، حيث جعلت في داخل الكعبة، المشار بها إلى الذات الأحدية، إلى أن مقتضى الذات هو الرحمة، والعطاء في الدنيا، والمجازاة والمكافأة في الآخرة، وبرحمته أنزل القرآن، كما قال مقسماً به: ﴿وَالْكَتَبِ﴾ بالجر على أنه مقسم به، إما ابتداء أو عطفاً على ﴿حَدِّ ①﴾ على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القسم، على أن مدار العطف المغايرة في العنوان، ومناط تكرير القسم المبالغة في تأكيد مضمون الجملة القسمية، ومعنى إقسام الله بالأشياء: استشهاده بما فيها من الدلالة على المقسم عليه، اهـ «بيضاوي». ﴿الْمُيْنِ﴾؛ أي: البين لمن أنزل عليهم، لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم، فيكون من أبان بمعنى بان؛ أي: ظهر، أو المبين لطريق الهدى من طرق الضلالة، الموضح لكل ما يحتاج إليه في أبواب الديانة، فيكون من أبان بمعنى أظهر وأوضح.

وقال سهل: بين فيه الهدى من الضلالة، والخير من الشر، وبين سعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، وقال بعضهم^(١): المراد بالكتاب: الخط والكتابة، يقال: كتبه كتباً وكتاباً خطه، أقسم به تعظيماً لنعمته فيه، إذ فيه كثرة المنافع، فإن العلوم إنما تكاملت بسبب الخط والكتابة، فالمتقدم إذا استنبط علماً وأثبته في كتاب، وجاء المتأخر وزاد عليه، تكاثرت به الفوائد، يقول الفقير: لعل السبب في حمل الآية على هذا المعنى الغير الظاهر، لزوم اتحاد المقسم به والمقسم عليه، على تقدير حملها على القرآن، وليس بذلك، كما سيأتي، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: أقسمت لك بالكتاب المبين، إنا صيرنا ذلك الكتاب ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بإنزاله بلغة العرب ولسانها، ولم نصيره أعجمياً بإنزاله بلغة العجم، مع كونه كلامنا وصفتنا قائمة بذاتنا، عرية عن كسوة العربية، منزهة عنها وعن توابعها ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لكي تفهموا القرآن العربي، وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق، والمعنى الفائق، ولتقفوا على ما تضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حق النعمة في ذلك، وتنقطع أعداركم بالكلية،

(١) روح البيان.

إذ لو أنزلناه بغير لغة العرب ما فهمتموه، فلعل هنا مستعارة لمعنى كي، وهو التعليل، وسببية ما قبلها لما بعدها، لكون حقيقة الترجي والتوقع ممتنعة في حقه تعالى. لكونها مختصة بمن لا يعلم عواقب الأمور.

وحاصل معناها: الدلالة على أن الملايسة بالأول لأجل إرادة الثاني، من شبه الإرادة بالترجي، فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في موضع النصب على المفعول له، وإنما سمي ﴿قُرْآنًا﴾؛ لأنه جعل بعض سوره مقروناً بآخر.

فإن قلت: إن قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يدل على أن القرآن مجعول، والمجعول مخلوق، وقد قال ﷺ: «القرآن كلام الله غير مخلوق».

قلت: المراد بالجعل هنا: تصيير الشيء على حالة دون حالة، وقال بعضهم: أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآنًا عربيًّا، فالقسم والمقسم عليه من بدائع الأقسام لكونهما من واحد، فالمقسم به ذات القرآن العظيم، والمقسم عليه وصفه، وهو جعله قرآنًا عربيًّا، فتغايرا، فكأنه قيل: والقرآن إنه ليس بمجرد كلام مفترى على الله وأساطير، بل هو الذي تولينا إنزاله على لغة العرب، فهذا هو المراد بكونه جواباً لا مجرد كونه عربيًّا، إذ لا يشك فيه.

وإنما جعله مقسماً به إشارة إلى أنه ليس عنده شيء أعظم قدراً، وأرفع منزلة منه حتى يقسم به، فإن المحب لا يؤثر على محبوبه شيئاً، فأقسم به، ليكون قسمه في غاية الوكادة، وكذا لا أهم من وصفه فيقسم عليه.

والمعنى^(١): أي أقسمت بالكتاب المبين، لطريق الهدى والرشاد، الموضح لما يحتاج إليه البشر في دنياهم ودينهم، ليفوزوا بالسعادة على أننا جعلناه قرآنًا عربيًّا، إذ كنتم أيها المنذرون به عرباً لتعقلوا ما فيه من عبر ومواعظ، ولتتدبروا معانيه، ولم ينزله بلسان العجم حتى لا تقولوا: نحن عرب، وهذا كلام أعجمي لا نفقه شيئاً مما فيه.

ثم بين شرفه في الملأ الأعلى تعظيماً له، وليطيعه أهل الأرض، فقال:

(١) المراغي بتصرف.

﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: وإن ذلك الكتاب يعني: القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ وهو خبر أول لـ ﴿إِنْ﴾، والجملة معطوفة على جواب القسم، وسمي^(١) اللوح المحفوظ أم الكتاب؛ لأنه أصل الكتب السماوية، فإن جميعها مثبتة فيه على ما هي عليه عند الأنبياء، ومأخوذة مستنسخة منه. وقوله: ﴿لَدَيْنَا﴾ بدل من الجار والمجرور قبله، أو حال من الضمير المستكن فيه.

والمعنى: وإن هذا القرآن مثبت في اللوح المحفوظ، ومحفوظ لدينا، أو حال كونه محفوظاً لدينا عن تبديل وتغيير. وقوله: ﴿لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ خبران آخران لـ ﴿إِنْ﴾ أيضاً؛ أي: وإن هذا الكتاب لعلّي؛ أي: لرفيع القدر من بين الكتب السماوية شريف حكيم؛ أي: ذو حكمة بالغة، أو محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض، أو محكم لا يتطرق إليه نسخ بكتاب آخر، ولا تبديل.

والمعنى^(٢): أي وإن هذا الكتاب في علمه الأزلي رفيع الشأن، لاشتماله على الأسرار والحكم التي فيها سعادة البشر، وهدايتهم إلى سبيل الحق، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَقَرَأَازُ كَرِيمٌ﴾ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ بضم الهمزة، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي بكسرها، وعزاها ابن عطية يوسف بن عمرو إلى العراق غفلة منه، وقال ابن جريج: المراد بقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾: أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية، وقال قتادة: أخبر عن منزلته وشرفه وفضله؛ أي: إن كذبتكم به يا أهل مكة، فإنه عندنا شريف رفيع، محكم من الباطل، انتهى.

وبعد ما بين سبحانه علو شأن القرآن العظيم، وحقق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه، ويؤمنوا به، ويعملوا بموجبه، عقب ذلك بإنكار أن يكون بخلافه، فقال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ﴾ والهمزة^(٣) فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على مقدر

(٣) روح البيان.

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

يقتضيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المقدر، والتقدير؛ أي: أنهملكم يا أهل مكة إهمالاً، فتنحي عنكم الذكر والقرآن، ونبعده عنكم، ونمسك عن إنزاله لكم.

والمعنى: أنمسك عن إنزال ما لم ينزل منه، ونرفع ونزيل ما نزل منه، ونترك عنكم الأمر والنهي والوعد والوعيد، مأخوذ من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض؛ أي: طردها عنه. والمراد بالغرائب: البعران الأجانب؛ لأن الإبل إذا وردت الماء ودخلت فيها ناقة غريبة من غيرها ذبت وطردت عن الحوض، وقوله: ﴿صَفْحًا﴾ مفعول لأجله؛ أي: أفنضرب عنكم الذكر ونرفعه صفحاً وإعراضاً عنكم، أو حال من فاعل نضرب، أي: نضرب عنكم الذكر صافحين؛ أي: معرضين عنكم، أو مصدر معنوي لنضرب، فإن تنحية الذكر عنهم إعراض؛ أي: أفنعرض عنكم بترك إنزال الذكر صفحاً وإعراضاً لأجل ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾؛ أي: منهمكين في الإسراف، مجاوزين الحد في المعاصي، مصرين عليها على معنى: أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة، وتبقوا في العذاب الخالد، لكننا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين ﷺ، وإنزال الكتاب المبين. قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن عاد بعائدته ورحمته، فكرره عليهم عشرين سنة، أو ما شاء الله سبحانه. وقرأ^(١) نافع وحمزة والكسائي ﴿إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ بكسر الهمزة على أنها الشرطية. والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه، وقد تشكل هذه القراءة بأن إسرافهم كان متحققاً. فكيف دخلت عليه إن الشرطية التي لا تدخل إلا على غير المتحقق، أو على المتحقق الذي انبهم زمانه. وقرأ الجمهور ﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ بفتح الهمزة؛ أي: من أجل أن كنتم، واختار أبو عبيد قراءة الفتح لما ذكر. وقرأ زيد بن علي ﴿إِذْ كُنْتُمْ﴾ بالذال مكان النون.

والمعنى^(٢): أي أنترك إنذاركم وتذكيركم بالقرآن لانهماكم في الكفر والإعراض عن أوامره ونواهيه، كلا لا نفعل ذلك رحمةً بكم، وقد كانت حالكم

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

تدعو إلى تخليتكم، وما تريدون حتى تموتوا على الضلال، أراد أنه تعالى من رحمته ولطفه بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي من قدر له الهداية، وتقوم الحجة على من كتب له الشقاوة.

ثم قال مسلماً رسوله ﷺ على تكذيب قومه، آمراً له بالصبر، مهدداً للمشركين، منذراً لهم بشديد العقاب: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝﴾ ﴿كَمْ﴾ خبرية^(١) بمعنى عدد كثير في موضع النصب، على أنه مفعول مقدم لأرسلنا، و﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾ تمييز و﴿فِي الْأَوَّلِينَ﴾ متعلق ب﴿أَرْسَلْنَا﴾، أو بمحذوف مجرور على أنه صفة لنبي.

والمعنى: كثيراً من الأنبياء أرسلنا في الأمم الأولين والقرون الماضية. ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ﴾ ضمير يأتيهم إلى الأولين، وهو حكاية حال ماضية مستمرة، كما سيأتي؛ لأن ﴿مَا﴾ إنما تدخل على مضارع في معنى الحال، أو على ماض قريب منها؛ أي: وما أتى وجاء أولئك الأولين نبي من الأنبياء والمرسلين ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي إلا كانوا يستهزؤون بذلك النبي ويكذبونه؛ أي: إلا كانوا مستمرين على التكذيب. يعني: أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق، هو التكذيب والاستهزاء، كما استهزأ قومك بك، فلا ينبغي لك أن تتأذى من قومك بسبب تكذبيهم واستهزائهم إياك؛ لأن المصيبة إذا عمت خفت ﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ واستأصلنا بسبب تكذبيهم أنبياءهم قوماً ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾؛ أي: أشد بطشاً وأخذاً وصولة، من هؤلاء القوم المسرفين. وهم قريش؛ أي: أهلكنا قوماً أشد قوة وجلداً، وأكثر عدداً وعدداً، من هؤلاء القوم الذين كذبوك، بسبب تكذبيهم أنبياءهم، و﴿بَطْشًا﴾ تمييز، وهو الظاهر، أو حال من فاعل ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: باطشين. والبطش: تناول الشيء بصولة، والأخذ بشدة، كما سيأتي في مبحث المفردات. وهذا وعد له ﷺ ووعد لهم بمثل ما جرى على الأولين، ووصفهم بأشدية البطش؛ لإثبات حكمهم لهؤلاء المشركين بطريق

(١) روح البيان.

الأولية.

والمعنى: أي^(١) وكثيراً ما أرسلنا في الأمم الغابرة رسلاً قبلك، كما أرسلناك إلى قومك قريش، وكلما أتى نبي أمته يدعوهم إلى الهدى وطريق الحق، استهزؤوا به، وسخروا منه، كما يفعل قومك بك، فقومك ليسوا ببدع في الأمم، ولا أنت ببدع في الرسل، فلا تأس على ما تجد منهم، ولا يشقن ذلك عليك، فهم قد سلكوا سبيل من قبلهم، واحتذوا حذوهم، ونهجوا نهجهم حذو القذة بالقذة، وكن كما كان أولو العزم من الرسل، واصبر كما صبروا على ما أودوا في سبيل الله.

ثم ذكر عقبي تكذيبهم واستهزائهم برسله، تسلياً لرسوله وتحذيراً لهم، فقال: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾؛ أي: فأهلكنا المكذبين بالرسل، ولم يقدرُوا على دفع بأسنا إذ أتاهم، وقد كانوا أشد بطشاً من قومك، وأشد قوة، فأحرى بهؤلاء أن لا يعجزونا، ونحو الآية: قوله: ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ الآية. ﴿وَمَضَى﴾؛ أي: سلف، وسبق في القرآن غير مرة ﴿مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ذكر صفتهم وبيان قصتهم وخبرهم وشديد عقوبتهم، التي حقها أن تسير مسير المثل، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم.

وفي هذا كما مر، تهديد شديد؛ لأنه يتضمن أن الأولين أهلكوا بتكذيب الرسل، وهؤلاء إن استمروا على تكذيبك والكفر بما جئت به، هلكوا مثلهم، وفي الآية^(٢) إشارة إلى كمال ظلومية نفس الإنسان وجهوليته، وكمال حلم الله سبحانه وكرمه، وفضل ربوبيته، بأنهم وإن بالغوا في إظهار أوصافهم الذميمة، وأخلاقهم اللثيمة، بالاستهزاء من الأنبياء والمرسلين، والاستخفاف بهم إلى أن كذبوهم، وسعوا في قتلهم من أهل الأولين والآخرين، وكذلك يفعل أهل كل زمان مع ورثة الأنبياء، من العلماء العاملين الناصحين لهم، والداعين إلى الله،

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

والهادين لهم، فالله تعالى لم يقطع عنهم مراحم فضله وكرمه، وكان يبعث إليهم الأنبياء، وينزل عليهم الكتب، ويدعوهم إلى جنابه، وينعم عليهم بعفوه وغفرانه، ومن غاية إفضاله وإحسانه تأديباً وترهيباً بعباده، أهلك بعض المتمردين المتمادين في الباطل، ليعتبر المتأخرون من المتقدمين.

والخلاصة: أي وقد مضت سنتنا في المكذبين لرسلمهم من قبلكم، ورأيتم ما حل بهم، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم، ونحو الآية: قوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ﴾ (١٥)، وقوله: ﴿سُئِلَ اللَّهُ أَلَيْ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَةٍ﴾.

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن سألت يا محمد هؤلاء الكفار من قومك ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: من خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية ﴿لَيَقُولَنَّ﴾؛ أي: ليقولن هؤلاء المشركون من قومك اعترافاً بالصانع، وإقراراً بربوبيته ﴿خَلَقَهُنَّ﴾؛ أي: خلق هذه الأجرام المذكورة، وأوجدها الخالق ﴿الْعَزِيزُ﴾ في حكمه وملكه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال خلقه، وذلك أسوأ لحالهم وأشد لعقوبتهم؛ لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله، وجعلوه شريكاً له، بل عمدوا إلى ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر من المخلوقات، وهي الأصنام، فجعلوها شركاء لله سبحانه.

قال في «الإرشاد»: ليسندن خلقها، وينسبته إلى من هذا شأنه في الحقيقة، وفي نفس الأمر، لا أنهم يعبرون عنه بهذا العنوان، وقد جوز أن يكون ذلك عين عبارتهم. وفي «فتح الرحمن»: ومقتضى جواب قريش أن يقولوا: خلقهن الله، فلما ذكر الله تعالى المعنى، جاءت العبارة عن الله بالعزیز العليم، ليكون ذلك توطئة لما عدده بعد من أوصافه التي ابتدأ الإخبار بها، وقطعها عن الكلام الذي حكي معناه عن قريش، وهو قوله: الذي... إلخ.

والمعنى^(١): أي ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين من قومك: من

(١) المراغي.

خلق السموات والأرض؟ لأجابوك بقولهم: خلقهن العزيز في سلطانه، وانتقامه، من أعدائه، العليم بهن، وما فيهن، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

والخلاصة: أنهم يعترفون بأنه لا خالق لهما سواه، وهم مع هذا، يعبدون معه تعالى غيره من الأصنام والأوثان.

ثم وصف سبحانه نفسه، بما يدل على عظيم نعمته على عباده، وكمال قدرته في مخلوقاته، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وصير ﴿لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: فراشاً وبساطاً، وهذا كلام مستأنف غير متصل بما قبله، ولو كان متصلاً بما قبله من جملة مقول الكفار.. لقالوا: الذي جعل لنا الأرض مهذاً. وقرأ^(١) الجمهور: ﴿مَهْدًا﴾. وقرأ الكوفيون ﴿مهذا﴾. والمهد والمهاد: المكان الممهد الموطأ، لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾؛ أي: بسطها لكم تستقرون فيها، وفي «بحر العلوم» جعل الأرض مسكناً لكم تقعدون عليها، وتنامون، وتتقلبون كما يتقلب أحدكم على فراشه ومهاده. وفي «الخازن»: معناها: جعلها واقفة ساكنة يمكن الانتفاع بها، ولما كان المهد موضع راحة الصبي، شبهها به، وسمى الأرض مهذاً لكثرة ما فيها من الراحة للخلق، انتهى. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿سُبُلًا﴾؛ أي: طرقاً تسلكونها في أسفاركم، إلى حيث تريدون، لقضاء حوائج الدين والدنيا، وقيل: معاش تعيشون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها، وتصلون إلى مقاصدكم ومنافعكم، أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي.

والمعنى^(٢): والعزيز العليم هو الإله الذي مهد لكم الأرض، وجعلها لكم وطاءً تطؤونها بأقدامكم. وتمشون عليها بأرجلكم، وجعل لكم فيها طرقاً تتقلبون فيها من بلد إلى آخر، ومن إقليم إلى إقليم لمعاشكم ومتاجرهم وابتغاء رزقكم.

والخلاصة: أن الخلق كلهم يتربون على الأرض، وهي موضع راحتهم كما يربي الصبي على مهده.

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ أي: وهو الإله الذي نزل من السماء ماء ﴿يَقْدِرُ﴾؛ أي: بمقدار ووزن ينفع العباد والبلاد ولا يضرهم؛ أي: ينزله بقدر الحاجة، وحسبما تقتضيه المصلحة، ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زروعكم، ويهدم منازلكم، ويهلككم بالغرق كما في الطوفان، ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة، وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة، والتقتير أخرى.

وهذه^(١) عادة الله سبحانه في عامة الأوقات، وقد ينزل بحسب الحكمة ما يحصل به السيول فيضرهم، وذلك في عشرين أو ثلاثين سنة مرة ابتلاء منه لعباده، وأخذاً لهم بما اقترفوا كما جرب ذلك ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ﴾؛ أي: فأحيينا بذلك الماء ﴿بَلَدَةً مَيِّتًا﴾؛ أي: أرضاً مقفرة من النبات والنماء، خالية منه بالكلية، والإنشار: إحياء الميت، شبه زوال النماء عنها بزوال الحياة عن البدن، وتذكير ميتاً، لأن البلدة في معنى البلد، أو المكان، أو الفضاء. وقال سعدي المفتي: لا يبعد، والله تعالى أعلم أن يكون تأنيث البلدة، وتذكير الميت إشارة إلى بلوغ ضعف حاله الغاية. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره كما سيأتي في مبحث البلاغة، وميتاً مخففاً من الميت مشدداً، قرأ الجمهور^(٢): ﴿ميتاً﴾ بالتخفيف. وقرأ عيسى وأبو جعفر بالتشديد.

﴿كَذَلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الإحياء الذي هو في الحقيقة إخراج النبات من الأرض ﴿تُخْرِجُونَ﴾ من قبوركم، وتبعثون أحياء، فإن من قدر على هذا قدر على ذلك، فتشبيه إحيائهم بإحياء البلدة الميت، كما يدل على قدرة الله تعالى وحكمته مطلقاً، فكذلك يدل على قدرته على القيامة والبعث. وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى، وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث لتقويم سند الاستدلال، وتوضيح منهج القياس.

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

وقرأ الجمهور^(١): ﴿تَخْرُجُونَ﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وعبد الله بن جبير المصباح وعيسى وابن عامر والأخوان حمزة والكسائي: ﴿تَخْرُجُونَ﴾ مبنياً للفاعل.

والمعنى: أي^(٢) وهو الإله الذي ينزل من السماء ماء بقدر الحاجة، فلا يجعله كثيراً حتى لا يكون عذاباً، كالطوفان الذي أنزل على قوم نوح، ولا قليلاً لا يكفي النبات والزرع، لئلا تهلكوا جوعاً، فتحي به الأقاليم التي كانت خالية من النبات والشجر، وكما أحيينا الأرض بعد موتها بالماء نحْيِكم ونخرجكم من قبوركم أحياء ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أي: خلق أصناف المخلوقات بأسرها، كما قال: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يشذ شيء منها عن إيجاده واختراعه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الأزواج: الضروب والأنواع، كالحلو والحامض، والأبيض والأسود. والذكر والأنثى، وقيل: كل ما سوى الله فهو زوج كفوق وتحت، ويمين وشمال، وقدام وخلف، وماض ومستقبل، وذات وصفات، وأرض وسماء، وبر وبحر، وشمس وقمر، وليل ونهار، وصيف وشتاء، وجنة ونار إلى غير ذلك مما لا يحصى، وكونها أزواجاً يدل على أنها ممكنة الوجود، وأن محدثها فرد منزّه عن المقابل والمعارض ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ﴾؛ أي: من السفن الجارية في البحر ﴿وَالْأَنْفَكِرِ﴾؛ أي: من الإبل والدواب، أعني: الخيل والبغال والحمير ﴿مَا تَرَكُّبُونَ﴾؛ أي: ما تركبونه في البحر والبر على تغليب إحدى اعتباري الفعل لقوته على الآخر، فإن ركب يعدى إلى الأنعام بنفسه، يقال: ركبت الدابة وإلى الفلك بواسطة حرف الجر، يقال: ركبت في الفلك، وتقديم البيان على المبين للمحافظة على الفاصلة النونية. وتقديم الفلك على الأنعام، لأن الفلك أدل دليل على القدرة الباهرة، والحكمة البالغة.

والمعنى: أي وهو الإله الذي خلق سائر الأصناف، مما تنبت الأرض من

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

نبات، وأشجار، وثمار، وأزاهير، ومن الحيوان على اختلاف أجناسها وألوانها ولغاتهما، وجعل لكم من السفن ما تركبونه في البحار، إلى حيث تقصدون لمعاشكم ومتاجرکم، ومن الأنعام ما تركبونه في البر، كالإبل والخيول والبغال والحمير، ومما سيجد من وسائل المواصلات، وطرق النقلة براً وبحراً، كما جاء في سورة النحل، من قوله تعالى: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨) من الباخرة، والطائرة، والسيارة إلى غير ذلك. ﴿لِئَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾؛ أي: لتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفلك والأنعام، والظهور للأنعام حقيقة لا للفلك، فدل على تغليب الأنعام على الفلك، وإيراد لفظ ظهور بصيغة الجمع، مع أن ما أضيف إليه مفرد، نظراً للمعنى؛ لأن مرجع الضمير جمع في المعنى، وإن كان مفرداً في اللفظ ﴿ثُمَّ تَذَكُّرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةً رَبِّكُمْ﴾ عليكم ﴿إِذَا أَسْتَوَيْتُمْ﴾ وارتفعتم ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على ظهر ما تركبونه. والمراد: الذكر بالقلوب؛ لأنه هو الأصل، وله الاعتبار، فقد ورد «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم، بل إلى قلوبكم ونياتكم»، وبه يظهر وجه إثارة تذكروا على تحمدوا.

والمعنى: ثم تذكروا نعمة ربكم بقلوبكم إذا استعليتكم عليه، معترفين بها مستعظمين لها، ثم تحمدوا عليها بالستكم ﴿وَنَقُولُوا﴾ متعجبين من ذلك ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ﴾ وذل ﴿لَنَا هَذَا﴾ المركوب، وقرأ علي بن أبي طالب ﴿سبحان من سخر لنا هذا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا لَكُمْ﴾؛ أي: لهذا المركوب ﴿مُقَرَّنِينَ﴾؛ أي: مطيقين بتذليلها، وقرء ﴿مقترنين﴾ اسم فاعل من اقترن، يعني: ليس عندنا من القوة والطاقة، أن نقرن هذه الدابة والفلك، وأن نضبطها، فسبحان من سخر لنا هذا بقدرته وحكمته، وهذا من^(١) تمام ذكر نعمته تعالى، إذ بدون اعتراف المنعم عليه، بالعجز عن تحصيل النعمة، لا يعرف قدرها، ولا حق المنعم بها ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ ومالك أمرنا، لا إلى غيره ﴿لَمُقَلَّبُونَ﴾؛ أي: راجعون بالموت، فيجازي كل نفس بما عملت، فاستعدوا لهذا اليوم، ولا تغفلوا عن ذكره في حلکم وترحالکم

(١) روح البيان.

يوم ظعنكم وإقامتكم، وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة، وفيه إقرار بالرجوع إلى الله بالبعث، لأن الراكب في مظنة الهلاك بالغرق إذا ركب الفلك، وبعثور الدابة، إذ ركوبها أمر فيه خطر، ولا تؤمن السلامة فيه.

وجاء في الحديث: أنه ﷺ كان إذا وضع رجله في الركاب قال: «بسم الله»، فإذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله على كل حال، سبحان الذي سخر لنا هذا» إلى قوله: «لمنقلبون»، وكبر ثلاثاً، وهلل ثلاثاً.

وقالوا: إذا ركب في السفينة، أو الباحرة، أو الطائرة، أو السيارة قال ﴿يَسْمِ اللَّهَ يَجْرِئَهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتَاتٌ يَمِينُهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٧). ويقال عند النزول منها: «اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً، وأنت خير المنزلين»، كما يدل عليه قصة ركوب نوح عليه السلام السفينة، ونزوله منها.

ومعنى الآية^(١): أي لكي تستووا، على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام، ثم تذكروا نعمة ربكم، الذي أنعم بها عليكم، فتعظموه وتمجدوه، وتقولوا تنزيهاً له عما يصفه المشركون: سبحان الذي سخر لنا هذا الذي ركبناه، وما كنا لولا تسخيريه وتذليله بمطيقين ذلك، فالأنعام مع قوتها ذلها للإنسان، ينتفع بها حيث شاء وكيفما أراد، ولولا ذلك ما استطاع الانتفاع بها، ولقد أشار إلى نحومن هذا العباس بن مرداس، فقال في وصف الجمل:

وَتَضْرِبُهُ الْوَلِيدَةُ بِالْهَرَاوِيْ فَلََا غَيْرُ لَدَيْهِ وَلَا نَكِيرُ
واعلم: أنه سبحانه وتعالى، عين لنا ذكراً خاصاً حين ركوب السفينة، وهو قوله: ﴿يَسْمِ اللَّهَ يَجْرِئَهَا وَمُرْسَهَا﴾، وذكر آخر حين ركوب الأنعام، وهو قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾، وذكر ثالثاً حين دخول المنازل، وهو قوله: ﴿رَبِّ أَنْزَلْنِي مَنَازِلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

(١) المراغي.

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر ركب راحلته، ثم كبر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمُؤْمِرِينَ﴾. قال القرطبي: علمنا^(١) سبحانه وتعالى ما نقول، إذا ركبنا الدواب، وعرفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن، فكم من راكب دابة عثرت به، أو شملت، أو تقحمت^(٢) أو طاح عن ظهرها، فهلك، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق.

فلما كان الركوب مباشرة أمر محظور، واتصلاً بسبب من أسباب التلف، أمر أن لا ينسى عند اتصاله به موته، وأنه هالك لا محالة، فمُنْقَلَب إلى الله عز وجل، غير منفلت من قضائه، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه، حتى يكون مستعداً للقاء الله والحذر من أن يكون ركوبه ذلك، من أسباب موته في علم الله، وهو غافل عنه، انتهى.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار، الذين تقدم ذكرهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا﴾؛ أي: وجعل بعض مشركي العرب ﴿لَهُمْ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ ومخلوقاته، والمراد بالعباد: الملائكة، وهو حال من ﴿جُزْءاً﴾؛ أي بنات وإنثاء، والجاعلون^(٣) هم قبائل من العرب قالوا: إن الله صاهر الجن فولدت له الملائكة وقال بعضهم: الآية ردٌّ على بني مليح حيث قالوا: الملائكة بنات الله ومليح بالحاء المهملة مصغراً كزبير حي من خزاعة كما في «القاموس» والجعل هنا بمعنى الحكم بالشيء والاعتقاد به قال في «القاموس»: الجزء البعض، وأجزأت الأم ولدت الإناث.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾؛ أي: إناثاً انتهى. وإنما عبر عن الولد بالجزء لأنه بعض أبيه وجزء منه كما قال ﷺ: «إن فاطمة مني»؛ أي: قطعة مني وقال

(١) القرطبي.

(٢) يقال: تقحمت الفرس براكبه إذا ألغاه على وجهه.

(٣) روح البيان.

أيضاً: «فاطمة بضعة مني» والبضعة القطعة والجزء عند أهل العربية البنات، يقال: قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات ومنه قول الشاعر:

إذا أجزأت حرة يوماً فلا عجب قد تجزىء الحرة المذكر أحياناً

وقد جعل صاحب «الكشاف» تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير وصرح بأنه مكذوب على العرب. ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد، وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ وقيل: المراد بالجزء هنا: الملائكة، فإنهم جعلوهم أولاد الله سبحانه وتعالى، قاله مجاهد والحسن.

ومعنى الآية^(١): واعتقد المشركون، وحكموا، وأثبتوا له تعالى ولداً حال كون ذلك الولد من الملائكة الذين هم عباده، فقالوا: الملائكة بنات الله بعد اعترافهم بألستهم، واعتقادهم أن خالق السموات والأرض هو الله، فكيف يكون له ولد، والولادة من صفات الأجسام، وهو خالق الأجسام كلها، ففيه تعجيب من جهلهم، وتنبية على قلة عقولهم حيث وصفوه بصفات المخلوقين، وإشارة إلى أن الولد لا يكون عبد أبيه، والملائكة عباد الله فكيف تكون البنات عباداً، وقيل: الجزء ههنا بمعنى النصيب، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾؛ أي: نصيب.

ومعنى الآية: معنى قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ وذلك أنهم جعلوا البنات لله والبنين لأنفسهم كما سيأتي.

والحاصل^(٢): أن مقالتهن هذه، أعني قولهن: إن الملائكة بنات الله، تقتضي الكفر من وجهين:

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الأول: كون الخالق جسماً محدثاً، لمشابهة الولد له، فلا يكون إلهاً ولا خالقاً.

والثاني: الاستخفاف به، إذ جعلوا له أضعف نوعي الإنسان وأخسهما.

ثم أكد كفرهم بقوله: ﴿إِنَّكَ الْإِنْسَانُ﴾؛ أي: إن الكافر، يعني: قائل ذلك ﴿لَكُفُورٌ﴾؛ أي: لجحود بنعم ربه التي أنعمها عليه ﴿مُئِينٌ﴾؛ أي: ظاهر كفره لمن تأمل حاله وتدبر أمره، لأن نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصل الكفران كله، ولذلك يقولون ما يقولون سبحانه وتعالى عما يصفون.

ثم زاد في الإنكار عليهم والتعجب من حالهم، فقال: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَن تَخْلُقُوا بَنَاتٍ﴾ وأم^(١) منقطعة، مقدرة ببل الإضرابية، وبالهمزة، على أنها للإنكار والتوبيخ، والتعجب من شأنهم، وتنكير بنات لتربية الحقارة، كما أن تعريف البنين في قوله: ﴿وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ لتربية الفخامة، وقدم البنات لكون المنكر عليهم نسبتهم إلى الله تعالى، فكان ذكرهن أهم بالنظر إلى مقصود المقام، والالتفات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ، والإصفاء: الإيثار.

والمعنى^(٢): بل أأتخذ من خلقه البنات، التي هي أخس الصنفين، واختار لكم البنين، الذين هم أفضلهما على معنى: هبوا أنكم اجتراءتم على إضافة جنس الولد إليه سبحانه وتعالى، مع ظهور استحالته وامتناعه، أما كان لكم شيء من العقل، ونبذة من الحياء، حتى اجتراءتم على ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه، بخير الصنفين وأعلاهما، وترك لنفسه شرهما وأدناها، فإن الإناث كانت أبغض الأولاد عندهم، ولذا وأدوهن، ولو اتخذ لنفسه البنات، وأعطى البنين لعباده، لزم أن يكون حال العبد أكمل، وأفضل من حال الله، ويدفعه بديهية العقل، فما أنتم إلا حمقى جهلاء، ونحو الآية قوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ ﴿١١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿١٢﴾ جائرة.

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم والإنكار عليهم، فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ﴾؛ أي: أخبر أحد المشركين الذين جعلوا الملائكة بنات الله، كبنى مليم ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾؛ أي: بولادة ما جعله شبهاً للرحمن، والالتفات هنا إلى الغيبة للإيدان باقتضاء ذكر قبائحهم، أن يعرض عنهم ويحكي لغيرهم تعجباً منها، وضرب هنا بمعنى جعل، المتعدي إلى مفعولين، حذف الأول منهما، لا بمعنى بين، ومثلاً بمعنى شبيه، لا بمعنى القصة العجيبة، كما في قولهم: ضرب له المثل بكذا.

والمعنى: وإذا أخبر أحد المشركين بولادة ما جعله مثلاً للرحمن، وشبيهاً له تعالى، إذ الولد لا بد أن يجانس الوالد ويمثله ﴿ظَلَّ﴾ من الظلول بمعنى الصيرورة؛ أي: صار ﴿وَجْهُهُ مُسَوِّدًا﴾؛ أي: شديد السواد من سوء ما بشر به، ولذا قيل: من رأى في المنام أن وجهه أسود، ولدت له بنت، ويحتمل أن يكون اسوداد الوجه عبارة عن الكراهة، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: حزين؛ أي: والحال أنه مملوء من الكرب والكآبة، يقال: رجل كظيم ومكظوم؛ أي: مكروب كما في «القاموس».

وقرىء^(١): ﴿مسود ومسواد﴾ بالرفع، واسم ظل حينئذ إما ضمير يعود على أحد، وجملة ﴿وجهه مسود﴾ من المبتدأ والخبر خبرها، وإما وجهه فمسود، خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو مسود، فتقع هذه الجملة موقع خبر ظل.

والمعنى^(٢): أي وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين، بما جعله مشابهاً للرحمن، وهو الأثنى.. أنف من ذلك، واغتم، وعلته الكآبة من سوء ما بشر به، فصار وجهه متغيراً، وأضحى ممتلئاً غيظاً، شديد الحزن، كثير الكرب، فكيف تأنفون أنتم من البنات، وتنسبونها إلى الله سبحانه وتعالى.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾

(١) المراح والبيضاوي.

(٢) التفسير المنير.

﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سُوءِ مَا يُبَشِّرُ بِهِ﴾ الآية وروي^(١): أن بعض العرب وضعت امرأته أنثى، فهجر البيت الذي ولدت فيه، فقالت:

مَا لِأَبِي حَمْرَةَ لَا يَأْتِينَا يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضَبَانِ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَنِينَ لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا شِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا

يقول الفقير: هذه^(٢) صفة المشركين، فإنهم جاهلون بالله، غافلون عن خفي لطفه، تحت جلي قهره، وأما الموحدون فحالهم الاستبشار، بما ورد عن الله أيا كان، إذ لا يفرقون بين أحد من رسله، كما أن الكريم لا يغلق بابه على أحد من الضيفان، والفاني عما سوى الله تعالى ليس له مطلب، وإنما مطلبه ما أراد الله تعالى.

ثم كرر الإنكار وأكدته، فقال: ﴿أَوْ مَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحَلِيَّةِ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري الاستقباحي داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿مَنْ﴾ واقعة على الأنثى، والتنشئة: التربية، والحلية ما يتحلى به الإنسان ويتزين، والتقدير^(٣): أيجترئون ويبلغون الغاية في إساءة الأدب ويجعلون لله تعالى الأنثى التي تنشأ وتربى وتكبر في الحلية والزينة لنقصها، إذ لو كملت في نفسها، لما تكملت بالزينة، وهي أيضاً ناقصة العقل، لا تقدر على إقامة الحجة عند الخصام كما قال ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: ذلك المنشأ في «الحلية» ذكر الضمير باعتبار لفظ من؛ أي: وهو مع ما ذكر من نقص ذاتها ﴿فِي الْخِصَامِ﴾؛ أي: مع من يخاصمه ويجادله؛ أي: في الجدل الذي لا يكاد يخلو الإنسان منه في العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾؛ أي: غير قادر على تقرير دعواه، وإقامة حجته، كما يقدر الرجل عليه، لنقصان عقله وضعف رأيه، وربما يتكلم عليه، وهو يريد أن يتكلم له، وهذا بحسب الغالب، وإلا فمن الإناث من هو أهل الفصاحة، والفاضلات على الرجال.

(٣) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

(١) المراغي.

قال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر رضي الله عنه حتى مضى، وكلام عمر رضي الله عنه حتى مضى، وكلام عثمان رضي الله عنه حتى مضى، وكلام علي رضي الله عنه حتى مضى، لا والله، ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله عنها وقال معاوية رضي الله عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة، ما أغلقت باباً، فأرادت فتحه، إلا فتحته، ولا فتحت باباً، فأرادت إغلاقه إلا أغلقت، ويدل عليه قوله ﷺ في حقها: «إنها ابنة أبي بكر» إشعاراً بحسن فهمها، وفصاحة منطقتها.

والمعنى^(١): أي أو قد جعلوا لله الأنثى التي تتربى في الزينة، وإذا خوصمت لا تقدر على إقامة حجة، ولا تقرير دعوى، لنقصان عقلها وضعف رأيها، وما كان ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك.

وفي قوله ﴿يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ إيماً^(٢) إلى ما فيهن من الدعة والراحة ورخاوة الخلق، بضعف المقاومة الجسمية واللسانية، كما أن فيه دلالة على أن النشوء في الزينة، ونعومة العيش من المعاييب والمذام للرجال، وهو من محاسن ربات الحجال، فعليهم أن يجتنبوا ذلك، ويأنفوا منه، ويربؤوا بأنفسهم عنه، قال شاعرهم:

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الدِّيُولِ
ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: اخشوشنوا في الطعام، واخشوشنوا في اللباس، وتمعددوا؛ أي: تزيوا بزي معد في تقشفهم، وفي الآية، دلالة على أن التحلي بالذهب والحريير مباح للنساء، وأنه حرام على الرجال؛ لأنه تعالى جعل ذلك عنواناً على الضعف والنقصان، وإنما زينة الرجال الصبر على طاعة الله تعالى، والتزين بزينة التقوى.

وفيها إشارة^(٣) إلى أن المرء المتزين كالمرأة، فالعاقل يكتفي بما يدفع الحر والبرد، ويجتهد في تزيين الباطن، فإنه المنظر الإلهي، ولو كانت للنساء عقول

(٣) روح البيان.

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

راجعة، لما ملن إلى التزين بالذهب والفضة والحلي والحلل.

وقرأ الجمهور^(١): ﴿يَنْشَأُ﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: بفتح الياء وإسكان النون. وقرأ الجحدري في رواية مبنياً للمفعول مخففاً. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي والحسن ومجاهد والجحدري في رواية والأخوان - حمزة والكسائي - وحفص والمفضل وأبان وابن مقسم وهارون، عن أبي عمرو وخلف: بضم الياء، وفتح النون، وتشديد الشين، مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن في رواية ﴿يَنْشَأُ﴾ على وزن يفاعل، مبنياً للمفعول، والمنشأة بمعنى: الإنشاء. كالمعالة بمعنى الإعلاء، واختار قراءة الجمهور أبو حاتم، واختار أبو عبيد قراءة ابن عباس، قال الهروي الفعل على القراءة الأولى لازم، وعلى الثانية متعد ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ﴾؛ أي: سموا الملائكة ﴿الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْتَاءٌ﴾ وحكموا لهم بذلك، وهذا بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر، وتقريع لهم بذلك، وهو جعلهم أكمل العباد، وأكرمهم على الله، أنقصهم رأياً وأخسهم صنفاً، وفيه رد لقولهم: الملائكة بنات الله، وفي قولهم هذا كفر من ثلاثة أوجه:

١ - أنهم نسبوا إلى الله الولد.

٢ - أنهم أعطوه أخس النصيبين.

٣ - أنهم استخفوا بالملائكة بجعلهم إناثاً، وقرأ الجمهور: ﴿إِنْتَاءٌ﴾، وقرأ زيد بن علي ﴿أُنْثَاءٌ﴾: جمع الجمع.

وقرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والابنان - ابن كثير وابن عامر - ونافع: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ بالنون ظرفاً، وهو أدل على رفع المنزلة، وقرب المكانة، لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وقرأ عبد الله وابن عباس وابن جبير وعلقمة وباقي السبعة: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ جمع عبد لقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وقرأ الأعمش ﴿عِبَادَ الرَّحْمَنِ﴾ جمعاً، وبالنصب

(١) البحر المحيط.

حكاهما ابن خالويه، قال: وهي في مصحف ابن مسعود كذلك، والنصب على إضمار فعل، أي: الذين هم خلقوا عباد الرحمن، وأنشؤوا عباد الرحمن إنائاً، وقرأ أبي: ﴿عبد الرحمن﴾ مفرداً، ومعناه الجمع؛ لأنه اسم جنس.

وقد رد الله سبحانه وتعالى مقالهم، فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ والهمزة للاستفهام الإنكاري، وهو من الشهود^(١) بمعنى الحضور، لا من الشهادة؛ أي: أحضروا خلق الله تعالى إياهم، فشاهدوهم إنائاً حتى يحكموا بأنوثتهم، فإن ذلك إنما يعلم بالمشاهدة، وهو تجهيل لهم وتهكم بهم، فإنهم إنما سمعوه من آبائهم، وهم أيضاً كذابون جاهلون، وفيه تخطئة للمنجمين، وأهل الحكمة المموهة في كثير من الأمور، فإنهم بعقولهم القاصرة حكموا على الغيب.

قال العماد الكاتب: أجمع المنجمون في سنة اثنتين وثمانين، وخمس مئة في جميع البلاد، على خراب العالم في شعبان، عند اجتماع الكواكب الستة، في الميزان، بطوفان الريح، وخوفوا بذلك ملوك الأعاجم والروم، فشرعوا في حفر مغارات، ونقلوا إليها الأزواد، والماء، وتهيؤوا، فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون، بمثل ريح عاد، ونحن جلوس عند السلطان، والشموع تتوقد فلا تتحرك، ولم نر ليلة في ركودها مثلها.

ونحو الآية قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكَةَ إِنْنَا وَهُمْ شَهِدُونَ﴾ وفي هذا تجهيل لهم، ورمي لهم بالسفه والحمق، وقرأ الجمهور^(٢): ﴿أَشْهَدُوا﴾: بهمزة الاستفهام، داخله على شهدوا، ماضياً مبنياً للفاعل؛ أي: أحضروا خلقهم، وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي تطلب أن تؤدي، وقرأ نافع بهمزة استفهام، داخله على أشهدوا رباعياً، مبنياً للمفعول ﴿أشهدوا﴾: بلا مد بين الهمزتين، ورؤي عنه بمدة بينهما، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد، وفي رواية أبي عمرو، ونافع بتسهيل الثانية بلا مد، وقرأ جماعة كذلك بمد بينهما، وعن علي والمفضل عن عاصم، تحقيقهما بلا مد، وقرأ الزهري وناس

(٢) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

﴿أشهدوا﴾ بغير استفهام مبنياً للمفعول رباعياً، فقليل: المعنى على الاستفهام، حذفت الهمزة لدلالة المعنى عليها.

وقيل: سألهم الرسول ﷺ: «ما يدريكم أنهم إناث»، فقالوا: سمعنا ذلك من آبائنا، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا، فقال الله تعالى: ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها في الآخرة؛ أي: ستكتب شهادتهم هذه، التي شهدوا بها في الدنيا، أي: يكتب الملك ما شهدوا به على الملائكة، في ديوان أعمالهم، ويسألون عنها يوم القيامة، ليأتوا ببرهان على صحتها، ولن يجدوا لذلك سبيلاً.

وقال سعدي المفتي^(١): السين في ﴿سَتَكْتُبُ﴾ للتأكيد، ويحتمل أن تكون للاستعطاف إلى التوبة، قبل كتابة ما قالوه، وفي الحديث: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يساره، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة، قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح الله أو يستغفره». وفي هذا دليل على أن القول بغير برهان منكر، وأن التقليد لا يغني عن الحق شيئاً، ثم في الآية إشارة إلى أن الله تعالى أمهل عباده، ولم يأخذهم بغتة في الدنيا، ليرى العباد أن العفو والإحسان، أحب إليه من الأخذ والانتقام، وليتوبوا من الكفر والمعاصي.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿سَتَكْتُبُ﴾ بالتاء من فوق، مبنياً للمفعول، ﴿شَهَادَتَهُمْ﴾ بالرفع مفرداً، وقرأ الزبير كذا، إلا أنه بالياء، وقرأ الحسن كذلك إلا أنه بالتاء، وجمع شهادتهم، وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وأبو جعفر وأبو حيوة وابن أبي عبة والجحدري والأعرج ﴿سنكتب﴾ بالنون مبنياً للفاعل. ﴿شهادتهم﴾: على الأفراد، وقرأت فرقة ﴿سيكتب﴾ بالياء مبنياً للفاعل؛ أي: الله ﴿شهادتهم﴾ بالنصب.

ثم حكى الله سبحانه وتعالى عنهم، فناً آخر من فنون كفرهم بالله، جاؤوا به

(٢) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

للاستهزاء والسخرية، فقال: ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: وقال^(١) المشركون العابدون للملائكة: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ﴾ عدم عبادتنا للملائكة مشيئة ارتضاء ﴿مَا عَبَدْتَهُمْ﴾؛ أي: ما عبدنا الملائكة، أرادوا بذلك أن ما فعلوه حق مرضي عنده تعالى، وأنهم إنما يفعلونه بمشيئة الله تعالى، لا الاعتذار من ارتكاب ما ارتكبه، بأنه بمشيئة الله إياه منهم، مع اعترافهم بقبحه، ومبنى كلامهم الباطل على مقدمتين:

إحدهما: أن عبادتهم لهم بمشيئة الله تعالى.

والثانية: أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى، ولقد أخطؤوا في الثانية. حيث جهلوا أن المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائناً ما كان، من غير اعتبار الرضى والسخط في شيء من الطرفين.

والمعنى^(٢): أي وقال عباد الملائكة: لو أراد الله تعالى عدم عبادتنا للملائكة ما عبدناهم، فإنه قادر على أن يحول بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صورة الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك، وهو قد أقرنا عليه، فنحن لا نؤاخذ بذلك، إذ هو وفق مشيئته تعالى، ويريدون بذلك القول أن الله راض بعبادتهم للأصنام، وهو احتجاج بالقدر، وكلمة حق يراد بها باطل، لأن المشيئة لا تستلزم الأمر إذ هي بترجيح بعض الممكنات على بعض بحسب...؟ والله يأمر بالخير والإيمان ونحن لا نعلم مشيئته أو إرادته إلا بعد وقوع الفعل منا، وقد جمعوا في هذا القول أفانين من الكفر وضروباً من الترهات والأباطيل ذكره ابن كثير ومنها:

١ - أنهم جعلوا لله ولداً، تقدس سبحانه وتعالى عن ذلك.

٢ - دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، إذ جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

٣ - عبادتهم لهم بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بالرأي

(٢) المراغي.

(١) روح البيان.

والهوى وتقليد الأسلاف وتخبط الجاهلية.

٤ - احتجاجهم بتقدير الله ذلك، وقد جهلوا في هذا جهلاً كبيراً، فإنه تعالى أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ أن بعث الرسل وأنزل الكتب، يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ . وقال عز وجل: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٥٥﴾﴾ . ونحو الآية: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ .

ثم رد الله سبحانه عليهم مقالهم، وبين جهلهم بقوله: ﴿مَا لَهُمْ﴾ ؛ أي: ما لهؤلاء المشركين ﴿بِذَلِكَ﴾ ؛ أي^(١): بصحة ما قالوا، واحتجوا به من كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء، لا بمطلق المشيئة، فإن ذلك أمر محقق، ينطق به ما لا يحصى من الآيات الكريمة ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ويقين يستند إلى دليل وبرهان ما ﴿إِنْ هُمْ﴾ ؛ أي: ما هم ﴿إِلَّا بِخُرُوصٍ﴾ ؛ أي: يكذبون، فإن الخرص: الكذب، وكل قول بالظن والتخمين سواء طابق الواقع أو لا ؛ أي: ما هم إلا كاذبون فيما قالوا، متمحلون تمحلاً باطلاً، متقولون على الله ما لم يقله، فإن الله يأمر بالحق والإيمان والخير، ولا يرضى لعباده الكفر والفحشاء، والآية دليل على جهلهم الفاضح وكذبهم وافتراءهم الباطل، وقاله هنا بلفظ ﴿يَخْرُصُونَ﴾، وفي الجائية بلفظ ﴿يُظُنُّونَ﴾ ؛ لأن ما هنا متصل بقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية ؛ أي: قالوا: الملائكة بنات الله، وأن الله سبحانه قد شاء منا عبادتنا إياهم، وهذا كذب، فناسبه ﴿يَخْرُصُونَ﴾، وما هناك متصل بخلطهم الصدق بالكذب، فإن قولهم: نموت ونحيا صدق، وكذبوا في إنكارهم البعث، وقولهم: وما يهلكنا إلا الدهر، فناسبه ﴿يُظُنُّونَ﴾ ؛ أي: يشكون فيما يقولون، اهـ «كرخي».

(١) روح البيان.

يقول الفقير: إسناد المشيئة إلى الله إيمان وتوحيد، إن صدر من المؤمن، وإلا فكفر وشرك؛ لأنه من العناد والعصية والجهل بحقيقة الأمر فلا يعتبر.

وبعد أن بين بطلان قولهم بالعقل، أتبعه ببطلانه بالنقل، فقال: ﴿أَتَبَيَّنْتُمْ﴾ أم منقطعة، تقدر ببل الإضرابية وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أعطيناهم ﴿كِتَابًا﴾ ينطق بصحة ما يدعونه من عبادة غير الله، وكون الملائكة بناته ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾؛ أي: من قبل القرآن، أو من قبل الرسول ﷺ أو من قبل ادعائهم هذه الدعوى ﴿فَهُمْ بِهِ﴾؛ أي: بذلك الكتاب المعطى لهم ﴿مُسْتَسْكُونَ﴾؛ أي: متمسكون آخذون عاملون به، وعليه معولون.

والمعنى^(١): أي بل أعطيناهم كتاباً من قبل هذا القرآن ينطق بصحة ما يدعون مكتوباً فيه اعبدوا غير الله فهم بذلك الكتاب متمسكون وعليه معولون؛ أي: وليس الأمر كذلك.

والخلاصة: أنه لا كتاب لهم، ولما بين أنهم لا حجة لهم على ذلك من عقل ولا نقل.. ذكر أن الحامل لهم على ما جنحوا إليه إنما هو التقليد، فقال: ﴿بَلْ قَالُوا﴾؛ أي: بل لا حجة لهم يتمسكون بها، لا من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث السمع إلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾؛ أي: على دين وطريقة ساروا عليها في عبادتهم الأصنام فقلدناهم ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ ورأيهم؛ أي: على دينهم وطريقتهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾؛ أي: سائرون سالكون، و﴿مهتدون﴾ خبر ﴿إننا﴾ والظرف صلة له، قدم عليه للاختصاص واستعمل بعلى لتضمنه معنى الثبوت؛ أي: ثابتون مستمرين على طريقتهم، وهذا اعتراف صريح منهم بأنه ليس لهم مستند ولا حجة.

والمعنى: أي ليس لهم مستند على ما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، وقد قالوا: إنهم أرجح منا أحلاماً وأصح أفهاماً ونحن سائرون على طريقتهم وسالكون نهجهم ولم نأت بشيء من عند أنفسنا ولم نغلط في الاتباع

(١) المراغي.

واقْتفاء الآثار، كما قال قيس بن الخطيم:

كُنَّا عَلَى أُمَّةٍ أَبَائِنَا وَيَقْتَدِي بِالْأَوَّلِ الْآخِرُ
والخلاصة: أنهم اعترفوا بأن لا مستند لهم من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث النقل، وإنما يستندون إلى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم.

وقرأ الجمهور^(١): ﴿أُمَّةٌ﴾ بضم الهمزة أي على دين. وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والجحدري بكسر الهمزة وهي الطريقة الحسنة، لغة في الأمة بالضم، قاله الجوهري. وقرأ ابن عباس ﴿أُمَّةٌ﴾ بفتح الهمزة؛ أي: على قصد وحال، والخلاف في الحرف الثاني كهو في الأول.

ثم بين سبحانه، أن مقال هؤلاء قد سبقهم إلى مثله أشباههم، ونظراؤهم من الأمم السالفة، المكذبة للرسول، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾؛ أي^(٢): والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة، وتشبههم بذيل التقليد، فهو خبر لمبتدأ محذوف، كما قدرنا، وما بعده مستأنف ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾؛ أي: من نبي منذر قومه من عذاب الله ﴿إِلَّا قَالَ مُتَرَفُّوهُاءُ﴾؛ أي: متنعموها وأغنياؤها وجبابرتها ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿عَلَىٰ أَثَرٍ﴾؛ أي: على طريقة ودين ﴿وَلِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ وطريقتهم ﴿مُقْتَدُونَ﴾؛ أي: متبعون وقوله: ﴿مَا أَرْسَلْنَا﴾ كلام مستأنف دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم، ليس لأسلافهم أيضاً سند غيره، وخص^(٣) المترفين بتلك المقالة، للإيذان بأن التنعيم وحب الطالة، هو الذي صرفهم عن النظر إلى التقليد، يقال: أترفته النعمة أطغته، والمراد بالمترفين: الأغنياء والرؤساء، الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش في الدنيا، وأشغلتهم عن نعيم الآخرة، ويدخل فيهم كل من يتمادى في الشهوات، ويتبالغ في النفرة من لوازم الدين، من الشرائع والأحكام، ويحتمل كون كذلك صفةً لمصدر محذوف مع فعله، والمعنى عليه؛ أي^(٤): ومثل هذا

(٣) روح البيان.

(١) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

(٢) روح البيان.

المقال الشنيع، المتناهي في الشناعة، قالت الأمم السالفة لأخوانك الأنبياء، فلم نرسل قبلك في قرية رسولاً، إلا قال رؤساؤها وكبراؤها لرسولهم المرسل، للإنذار من عذاب الله، إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين، وإنا على منهاجهم سائرون، نفعل مثل ما فعلوا، ونعبد ما كانوا يعبدون، فقومك أيها الرسول، ليسوا ببدع في الأمم، فهم قد سلكوا نهج من قبلهم، من أهل الشرك، في جواباتهم، بما أجابوك به، واحتجاجهم بما احتجوا به، لمقامهم على دينهم الباطل.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَصَّوْنَ بِهِمْ وَلَوْ هُمْ فِئَةٌ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَلَا نَبِيٌّ مِّنكُمْ﴾. وثانياً: ﴿مُتَقَدِّمُونَ﴾؛ لأن الأول وقع في محاجتهم النبي ﷺ، وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين، وأنهم مهتدون كأبائهم، فناسبه ذكر ﴿مُتَقَدِّمُونَ﴾ والثاني، وقع حكاية عن قوم، ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء، فناسبه ذكر ﴿مُتَقَدِّمُونَ﴾، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك، ضلال قديم.

ثم ذكر تعالى جواب الرسل لأقوامهم عن التقليد، فقال: ﴿قَالَ﴾ كل نذير من أولئك المنذرين لأممهم، عند تعللهم بتقليد آبائهم ﴿أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف. والواو: عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أتقتدون بأبائكم ولو جئتمكم ﴿بِأَهْدَى﴾؛ أي: بدين أهدى وأرشد ﴿وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾؛ أي: من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء وإنما عبر عنها بذلك، مجارة معهم على مسلك الإنصاف؛ أي: قال لهم رسولهم: أتتبعون آباءكم، وتسرون على طريقتهم، ولو جئتمكم من عند ربكم بدين أهدى إلى طريق الحق، وأدل على سبيل الرشاد، مما وجدتم عليه آباءكم من الدين والملة.

وتلخيص ذلك: أتتبعون آباءكم وتقلدونهم، ولو جئتمكم بدين أهدى من دين آبائكم، وقرأ ابن عامر وحفص: ﴿قال أولو جئتمكم﴾ بصيغة الماضي، وقرأ الجمهور ﴿قل﴾ بصيغة الأمر؛ أي: قل يا محمد لقومك: أتتبعون آباءكم ولو جئتمكم بدين أهدى من الدين، الذي وجدتم عليه آباءكم. وهذا تجهيل لهم، حيث

يقلدون ولا ينظرون في الدلائل، وقرأ الجمهور^(١): ﴿جِئْتُكُمْ﴾: بناء المتكلم، وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مقسم والزعفراني وأبو شيخ الهتائي وخالد ﴿جئناكم﴾: بنون المتكلمين، وقيل: إن كلا القراءتين حكاية لما جرى بين الأنبياء وقومهم، كأنه قال لكل نبي قل بدليل قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾؛ أي: قال كل أمة لنذيرها، مجيبين إجابة تئيس من اتباعهم له على كل حال، ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾، وإن كان أهدى مما كنا فيه؛ أي: ثابتون على دين آبائنا، لا نفك عنه، ولو جئنا بما هو أهدى منه، فكأنهم يقولون: إنهم لو علموا صحة ما جئتهم به، ما انقادوا لك لسوء قصدهم، ومكابرتهم للحق وأهله، وحينئذ لم يبق لهم عذر، ومن ثم قال: ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من هؤلاء المكذبين لرسلم الجاحدين بربهم بالاستئصال، وذلك الانتقام مثل ما أوقعه بقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، من الأمم المكذبة لرسلمها، أو بالقحط والقتل والسبي، كما في هذه الأمة ﴿فَأَنْظُرْ﴾ أيها الرسول ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ من الأمم المذكورة؛ أي: كيف كان عاقبة أمرهم ومآله، حين كذبوا بآياتنا، ألم نهلكهم ونجعلهم عبرة لغيرهم، فأنت لا تكثر بتكذيب قومك، فإن الله ينتقم منهم باسم المنتقم، القاهر القابض، كما انتقم من أولئك الأمم المكذبة لرسلمها.

وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، وإرشاد له إلى عدم الاكتراث بتكذيب قومه له، ووعيد وتهديد لهم.

وحاصل معنى الآية^(٢): أي قالوا: لا نعمل برسالتك، ولا سمع لك، ولا طاعة، وإنا كافرون جاحدون بما أرسلتم به، ومستمرون ثابتون على دين الآباء والأسلاف، والمراد: أنهم لو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به أيها الرسول، لما انقادوا لذلك، لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله، وقوله: ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ﴾ يعني: بكل ما أرسل به الرسل، فالخطاب للنبي ﷺ، ولفظه لفظ الجمع؛ لأن

(١) البحر المحيط.

(٢) التفسير المنير.

تكذيبه تكذيب لمن سواه، وما بعد الإصرار على الكفر، إلا النعمة والإهلاك، فقال تعالى: ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ إلخ؛ أي: فانتقمنا من الأمم المكذبة للرسول، بأنواع من العذاب كعذاب قوم نوح وعاد وثمود، فانظر أيها المخاطب كيف كان مصير أمر المكذبين من تلك الأمم، كيف بادوا وهلكوا، وإن آثارهم موجودة عبرة للناظر المعبر، وهذا وعيد وتهديد لأهل مكة، وسلوة للرسول ﷺ، وإرشاد له، إلى عدم الاكتراث بشأن قومه من رسالته.

الإعراب

﴿حَمَّ ①﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّمْ فِي أَزْ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلُّ حَكِيمٌ ④ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ⑤﴾.

﴿حَمَّ ①﴾: تقدم القول فيه معنى وإعراباً، فلا عود ولا إعادة، ﴿وَالْكِتَابِ ②﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿الكتاب﴾: مقسم به، مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم، محذوف وجوباً، وجملة القسم مسانفة، أو معطوفة على القسم قبله، إن قلنا إن ﴿حَمَّ﴾ قسم أيضاً، ﴿الْمُبِينِ ③﴾: صفة لـ ﴿الكتاب﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿جَعَلْنَاهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿قُرْآنًا﴾: مفعول ثان، ﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة ﴿قُرْآنًا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَعَلَّكُمْ ④﴾: ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل، مستعارة لكي التعليلية، والكاف: اسمها، وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾: جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، أو مجرورة بلام التعليل، المقدرة المتعلقة بـ ﴿جَعَلْنَاهُ﴾، ﴿وَإِنَّمْ ⑤﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي أَزْ الْكِتَابِ﴾: متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنْ﴾؛ أي: مثبت ﴿فِي أَزْ الْكِتَابِ﴾، ﴿لَدَيْنَا﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال، من ﴿أَزْ الْكِتَابِ﴾ أو بدل من الجار والمجرور قبله؛ أي: محفوظ لدينا، ﴿لَعَلُّ ⑥﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿علي﴾: خبر ثان لـ ﴿إِنْ﴾، ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثالث لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنْ﴾ الأولى، على كونها جواباً

ثانياً للقسم، واعترض بعضهم على هذا الإعراب؛ لأن فيه تقديم الخبر غير المقرون باللام على المقرون بها، وقال أبو البقاء: ﴿فِي أُرِّ الْكِتَابِ﴾ يتعلق بـ﴿عَلَيَّ﴾، واللام: لا تمنع من ذلك، و﴿لَدَيْنَا﴾ بدل من الجار والمجرور، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿الكتاب﴾، ﴿أَوْ مِنْ أُمِّ﴾، ولا يجوز أن يكون واحد من الطرفين خبراً لـ﴿إِنْ﴾ الخبر قد لزم أن يكون ﴿عَلَيَّ﴾: من أجل اللام، ولكن يجوز أن يكون كل واحد منهما صفة للخبر، فصارت حالاً يتقدمها، انتهى.

﴿أَفَنَضْرِبُ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخل على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنهم لكم فنضرب عنكم الذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿نَضْرِبُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَنْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿نَضْرِبُ﴾، ﴿الذِّكْرُ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿صَفْحًا﴾ مفعول مطلق معنوي لنضرب، أو حال من فاعل نضرب؛ أي: صافحين، ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿كُنْتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه في محل النصب بأن المصدرية، ﴿قَوْمًا﴾ خبرها، ﴿مُسْرِفِينَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر، مجررو بلام التعليل المقدرة، والتقدير: أفنضرب عنكم الذكر لأجل كونكم قوماً مسرفين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نَضْرِبُ﴾، وقرئ بكسر الهمزة، فهي حينئذ شرطية، جوابها محذوف، تقديره: إن كنتم قوماً مسرفين، نضرب عنكم الذكر، وجملة الشرط مستأنفة.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ ① وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ② فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ③ .

﴿وَكَمْ﴾ ﴿الواو﴾: استثنائية، ﴿كم﴾: خبرية، بمعنى عدد كثير، في محل نصب مفعول مقدم لـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وجوباً، مبني على السكون لشبهها بالحرف شيئاً معنوياً، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾: تمييز لـ﴿كم﴾ الخبرية، ﴿فِي الْأَوَّلِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَأْتِيهِمْ﴾: فعل مضارع، ومفعول به، ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿نَبِيٍّ﴾: فاعل

﴿يَأْتِيهِمْ﴾، والجمله معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، من أعم الأحوال، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وجمله ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾: خبر ﴿كَانُوا﴾، وجمله ﴿كَانَ﴾ في محل النصب على الحال، من أعم الأحوال؛ أي: وما يأتيهم من نبي في حال من الأحوال، إلا حال كونهم مستهزئين به. ﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ الفاء: حرف عطف وتفریع، ﴿أَهْلَكْنَا﴾ فعل وفاعل، ﴿أَشَدَّ﴾: مفعول به، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَشَدَّ﴾، ﴿بَطْشًا﴾ تمييز منصوب باسم التفضيل، والجمله الفعلية معطوفة على جملة قوله: وما يأتيهم من نبي، مفرعة على استهزائهم، ﴿وَمَضَىٰ مِثْلُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَضَىٰ مِثْلُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَهْلَكْنَا﴾. ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ مضاف إليه.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝١٦﴾
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٧﴾.

﴿وَلَيْنَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطنه للقسم، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل ماضٍ وفاعل ومفعول أول، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، وجمله ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: خبره، والجمله الاستفهامية في محل النصب، مفعول ثاني لـ﴿سَأَلْتَهُم﴾ المعاقة عن العمل بالاستفهام. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب القسم، مؤكدة الأولى؛ لأنه المتقدم كما هي القاعدة، ﴿يقولن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون للتوكيد، ولو كان مجزوماً في جواب الشرط لكان الحذف للجازم، ولكنه لا يجوز للقاعدة، والجمله الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجمله القسم مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ يقولوا: خلقهن العزيز العليم، وجمله الشرط معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين القسم وجوابه، ﴿خَلَقَهُنَّ﴾: فعل ومفعول، ﴿الْعَزِيزُ﴾: فاعل، ﴿الْعَلِيمُ﴾: صفة لـ﴿الْعَزِيزُ﴾، وكرر الفعل للتأكيد، والجمله الفعلية في محل النصب، مقول ليقولن، ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول في محل الرفع،

صفة ثانية لـ ﴿الْعَزِيزُ﴾، أو بدل منه، أو خبر لمبتدأ محذوف، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى خلق، وإن كان بمعنى صير فيكون متعلقاً، بمحذوف حال من مهذاً، ﴿الْأَرْضُ﴾: مفعول به أول و﴿مَهْذَا﴾ مفعول ثانٍ، أو حال، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾، أو في موضع المفعول الثاني، ﴿فِيهَا﴾ حال من ﴿سُبُلًا﴾، و﴿سُبُلًا﴾ مفعول به، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾
وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَالَّذِي﴾: معطوف على الموصول الأول، وجملة ﴿نَزَّلَ﴾: صلته، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾: متعلق بـ ﴿نَزَّلَ﴾، ﴿مَاءً﴾: مفعول به، ﴿يَقْدِرُ﴾: متعلق بـ ﴿نَزَّلَ﴾ أيضاً، أو صفة لـ ﴿مَاءً﴾، ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿أَنْشَرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿نَزَّلَ﴾، وفيه التفات، وسيأتي سره في مبحث البلاغة. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ ﴿أَنْشَرْنَا﴾، ﴿بَلْدَةً﴾ مفعول به، ﴿مَيِّتًا﴾: صفة ﴿بَلْدَةً﴾. ﴿كَذَلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿تُخْرَجُونَ﴾: فعل ونائب فاعل؛ أي: تخرجون من قبوركم بالبعث، إخراجاً. مثل إخراج النبات من الأرض، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَالَّذِي﴾: معطوف أيضاً على الموصول الأول. ﴿خَلَقَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ﴿الْأَزْوَاجَ﴾: مفعول به، ﴿كُلَّهَا﴾: توكيد لـ ﴿الْأَزْوَاجَ﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾: معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، داخل في حيز الصلة، ﴿لَكُمْ﴾: في محل المفعول الثاني لـ ﴿جعل﴾، ﴿مِنَ الْفَلَكَ﴾ حال من ﴿مَا﴾ الموصولة المذكورة بعده، ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ معطوف على ﴿الْفَلَكَ﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، وجملة ﴿تَرْكَبُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما تركبونه.

﴿لِئَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لِئَسْتَوُوا﴾: اللام: لام كي، ﴿تستووا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن المضمرة جوازاً، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لاستوائكم على ظهوره، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جعل﴾. ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ متعلقان به ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿تَذَكُّرُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تستووا﴾، ﴿نِعْمَةً رَبِّكُمْ﴾: مفعول به، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ﴿تَذَكُّرُوا﴾، ﴿أَسْتَوَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذَا﴾؛ أي: وقت استوائكم عليه. ﴿وَتَقُولُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَذَكُّرُوا﴾، ﴿سُبْحَنَ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً؛ أي: نسبح الذي سخر لنا هذا سبحانه، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿تقولوا﴾، ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول في محل الجر، مضاف إليه، لـ﴿سُبْحَنَ﴾، ﴿سَخَّرَ﴾: فعل وفاعل مستتر صلة الموصول، ﴿لَنَا﴾: متعلق به، ﴿هَذَا﴾: مفعول به، لـ﴿سَخَّرَ﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو حالية، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿لَمْ﴾: متعلق بـ﴿مُقَرَّبِينَ﴾، ﴿مُقَرَّبِينَ﴾: خبر ﴿كُنَّا﴾، وجملة ﴿كُنَّا﴾ في محل النصب، حال من ضمير لنا، ﴿وَلَا﴾: الواو، حالية أيضاً، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿إِلَّا رَبَّنَا﴾: متعلق بـ﴿منقلبون﴾، ﴿لَمُنْقَلِبُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿منقلبون﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع الواو، والجملة الاسمية في محل النصب، حال ثانية من ضمير لنا.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِنَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧).

﴿وَجَعَلُوا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿جعلوا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُ﴾ في محل المفعول الثاني. ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾: حال من ﴿جُزْءًا﴾، و﴿جُزْءًا﴾ مفعول أول لـ﴿جعل﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكُفُورٌ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿كفور﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مُبِينٌ﴾: صفة ﴿كفور﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة، لتعليل ما قبلها، ﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى بل الإضرابية،

وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿أَتَخَذَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، ﴿مِمَّا﴾: جارٍ ومجرور، في موضع المفعول الثاني لـ ﴿أَتَخَذَ﴾، وجملة ﴿يَخْلُقُ﴾. صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿بَنَاتٍ﴾ مفعول أول لـ ﴿أَتَخَذَ﴾، وجملة ﴿أَتَخَذَ﴾ مستأنفة، ﴿وَأَصْفَنَكُمْ﴾ فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿أَتَخَذَ﴾، ﴿بِالْبَنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أَصْفَاكُمْ﴾، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ ﴿الْوَاوِ﴾: استثنائية، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، ﴿يُبَشِّرُ أَحَدَهُمْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿يُبَشِّرُ﴾، ﴿ضَرَبَ﴾: فعل ماضٍ بمعنى ﴿جَعَلَ﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿أَحَدَهُمْ﴾، ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾: جارٍ ومجرور، حال من ﴿مَثَلًا﴾، والمفعول الأول محذوف، تقديره: بما ضربه. ﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثاني لـ ﴿ضَرَبَ﴾، وجملة ﴿ضَرَبَ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد ضمير المفعول المحذوف، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُسَوِّدًا﴾ خبره، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير وجهه؛ لأن المضاف كان جزءاً للمضاف إليه

﴿أَوْمَنَ يُنَشِّئُوا فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝١٩﴾.

﴿أَوْمَنَ يُنَشِّئُوا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري داخل على محذوف، والواو: عاطفة لفعل محذوف على ذلك المحذوف، والتقدير: أيجترؤون على الله، ويبالغون في إساءة الأدب، ويجعلون الله من ينشأ في الحلية، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿يجعلون﴾: فعل وفاعل، ﴿لله﴾: في محل المفعول الثاني، ﴿من﴾: اسم موصول، في محل النصب مفعول أول، لـ ﴿يجعلون﴾ المقدر، ﴿يُنَشِّئُوا﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ الموصولة، ﴿فِي الْحَلِيَّةِ﴾ متعلق بـ ﴿يُنَشِّئُوا﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الْوَاوِ﴾ حالية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿فِي الْخِصَامِ﴾: متعلق بـ ﴿مُبِينٍ﴾ المذكور بعده، ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ خبر المبتدأ، والجملة

الاسمية في محل النصب حال من نائب فاعل ﴿يُنَشُّوْا﴾، ﴿وَجَعَلُوْا الْمَلٰٓئِكَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على قوله: ﴿وَجَعَلُوْا لَّهُمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، ﴿الَّذِيْنَ﴾ صفة لـ ﴿الْمَلٰٓئِكَةَ﴾، ﴿هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿إِنِّشَاءً﴾: مفعول ثان لـ ﴿جَعَلُوْا﴾، ﴿أَشْهَدُوْا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿شهدوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿خَلَقَهُمْ﴾: مفعول ﴿شهدوا﴾، ﴿سَتَكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة مستأنفة أيضاً، ﴿وَيُسْأَلُوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿سَتَكُنُّبُ﴾، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ويسألون شهادتهم في الآخرة.

﴿وَقَالُوْا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ اِنْ هُمْ اِلَّا يَخْرُصُوْنَ ﴿١٥﴾ اَمْ اٰتَيْنٰهُمْ كِتٰبًا مِنْ قَبْلِهٖ فَهُمْ بِهٖ مُّسْتَمْسِكُوْنَ ﴿١٦﴾ بَلْ قَالُوْا اِنَّا وَجَدْنَا اٰبَاءَنَا عَلَىٰ اُمَّةٍ وَاِنَّا عَلٰٓى اٰثَرِهِمْ مُّهْتَدُوْنَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَقَالُوْا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان نوع آخر من أنواع كفرهم، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿شَاءَ الرَّحْمٰنُ﴾: فعل وفاعل، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: عدم عبادتنا الملائكة، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَبَدْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿بِذٰلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿عَلِمَ﴾ المذكور بعده ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿عَلِمَ﴾ مبتدأ مؤخر، ولك أن تجعل ﴿مَا﴾ حجازية، على رأي من يجيز تقديم خبرها على اسمها، والجملة مستأنفة، ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، وجملة ﴿يَخْرُصُوْنَ﴾: خبر المبتدأ؛ أي: ما هم إلا خارصون كاذبون، والجملة مستأنفة، ﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿اٰتَيْنٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿كِتٰبًا﴾: مفعول ثان، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿مِنْ قَبْلِهٖ﴾ متعلق بـ ﴿اٰتَيْنَا﴾، أو صفة لـ ﴿كِتٰبًا﴾، ﴿فَهُمْ﴾ الفاء: حرف عطف وتفریع، ﴿هُمْ﴾:

مبتدأ، ﴿يَوْمَ﴾: متعلق بما بعده، ﴿سُتَمْسِكُونَ﴾ خبر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ءَايَاتُنَّ﴾ مفرعة عليها، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿وَجَدْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿ءَابَاءَنَا﴾: مفعول أول لـ ﴿وَجَدْنَا﴾، ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ في موضع المفعول الثاني، وجملة ﴿وَجَدْنَا﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل نصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿وَلِإِنَّا﴾ ﴿الْوَاوُ﴾: عاطفة، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ أَثَرِهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿مُتَهْتَدُونَ﴾، و﴿مُتَهْتَدُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّا﴾، وجملة ﴿إِنَّا﴾ في محل نصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّا﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ ﴿قَالُوا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ﴿الْوَاوُ﴾: استئنافية، ﴿كذلك﴾: جار ومجرور، خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: والأمر كائن كذلك، والجملة مستأنفة مستقلة جيء بها للتخلص، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان أن التقليد بهم ضلال قديم، ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾: متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أيضاً، أو حال من ﴿نَذِيرٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ زائدة، ﴿نَذِيرٍ﴾: مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء من أعم الأحوال، ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل نصب على الحال؛ أي: وما أرسلنا من نذير في قرية، في حال من الأحوال، إلا حال كون مترفيها قائلين: إنا وجدنا آباءنا إلخ. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ في محل المفعول الثاني لـ ﴿وَجَدْنَا﴾، وجملة ﴿وَجَدْنَا﴾: خبر ﴿إِنَّا﴾، وجملة ﴿إِنَّا﴾ في محل نصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلِإِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ أَثَرِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿مُّقْتَدُونَ﴾، و﴿مُّقْتَدُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّا﴾، وجملة ﴿إِنَّا﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّا﴾ الأولى.

﴿قُلْ أُولُو عِمَتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير مستتر، يعود على الـ ﴿تَذِيرٍ﴾، والجمله مستأنفة، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُمْكُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخله على محذوف، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتقتدون بآبائكم ولو جئتمكم، إلخ، والجمله المحذوفة في محل نصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جِئْتُمْكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِأَهْدَى﴾ متعلق بـ ﴿جِئْتُمْكُمْ﴾، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، تقديره: تقتدون بآبائكم، وجمله ﴿لَوْ﴾ الشرطية معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿وَمَا﴾ متعلق بـ ﴿أَهْدَى﴾. ﴿وَجَدْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾: في موضع المفعول الثاني لـ ﴿وَجَدْتُمْ﴾، ﴿عَابَةً﴾ مفعول أول لـ ﴿وَجَدْتُمْ﴾، وجمله ﴿وَجَدْتُمْ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجمله مستأنفة، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿كَفَرُونَ﴾ المذكور بعده، ﴿أُرْسِلْتُمْ﴾ فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ ﴿أُرْسِلْتُمْ﴾، وجمله ﴿أُرْسِلْتُمْ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿كَفَرُونَ﴾ خبر ﴿إِنْ﴾، وجمله ﴿إِنْ﴾ في محل نصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿فَأَنْتَقَمْنَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿انتقمنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالُوا﴾ مفرع عليه، ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿انتقمنا﴾ ﴿فَأَنْظُرْ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، أو على أي مخاطب، والجمله معطوفة على جملة ﴿انتقمنا﴾، ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل نصب، خبر كان مقدم عليه وجوباً، ﴿كَانَ عَقِبَهُ الْمُكَذِّبِينَ﴾: فعل ناقص واسمه، ومضاف إليه، وجمله ﴿كَانَ﴾ في محل نصب مفعول ﴿انظر﴾ معلق عنها باسم الاستفهام.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حَمَّ﴾ ① هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وعلى خطورة الأحكام المبينة في السورة. ﴿وَالْكِتَابِ﴾ القرآن. ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الموضح لطريق الهدى، المبعد من الضلالات، قال الراغب: قوله: ﴿فِي أُورُ الْكِتَابِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ. والكتاب في الأصل: اسم للصحيفة مع المكتوب فيها. ﴿أَفَنْصَرِبْ﴾ يقال: ضربت عنه، وأضربت عنه؛ أي: تركته،

﴿صَفْحًا﴾ الصفح: الإعراض، يقال: صفح كمنع أعرض وترك، وصفح عنه عفا، وصفح السائل رده، كأصفححه، وسمي العفو صفحاً، لأنه إعراض عن الانتقام من صفحة الوجه؛ لأن من أعرض عنك، فقد أعطاك صفحة وجهه، والمعنى هنا: إعراضاً عنكم، كما مر. ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعل الإنسان. ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ قال الراغب: البطش تناول الشيء بصولة، والأخذ بشدة. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ ومضى فيه إغلال بالقلب، أصله: مضى بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفا فصار مضى. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أصله: يقولونن، حذفت نون علامة الرفع لتوالي الأمثال، والواو لالتقاء الساكنين، فصار يقولن. ﴿مَهْدًا﴾ والمهد والمهاد: المكان الممهّد الموطأ ﴿سُبُلًا﴾ جمع سبيل، وهو من الطريق ما هو معتاد السلوك، وقال الراغب: السبيل: الطريق الذي فيه سهولة. ﴿مَاءً يَّقْدَرُ﴾ أي: بمقدار ما تحتاجون إليه، فلا يكون قليلاً لا ينفع، ولا يكون كثيراً فيؤذي ويضر.

﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أحيينا، وفي «المبصاح»: ونشر الموتى نشوراً. أحياهم ونشرهم الله يتعدى ولا يتعدى، ويتعدى بالهمزة أيضاً، فيقال: أنشرهم الله، ونشرت الأرض نشوراً أيضاً حييت وأنيتت، ويتعدى بالهمزة، فيقال: أنشرتها إذا أحييتها بالماء، والإنشار: الإحياء. ﴿مَّيْتًا﴾ مخفف من الميت بالتشديد؛ أي: خالية عن النماء والنبات بالكلية. ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أصله: تستويون استثقلت الضمة على الياء، فحذفت تخفيفاً، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الواو، لمناسبة واو الجماعة بعدها، فوزنه لتفتعوا؛ لأن نون الرفع حذفت للناصب بعد لام التعليل. ﴿مُفْرِنِينَ﴾ مطيقين، يقال: أقرن الشيء إذا أطاقه. قال الزمخشري: وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به لأن الصعب لا يكون قرينةً للضعيف، وقال الأخفش وأبو عبيدة: ومقرنين ضابطين. وقيل: مماثلين في الأيدي، والقوة من قولهم: هو قرن فلان، إذا كان مثله في القوة، ويقال: فلان مقرر لفلان؛ أي: ضابط له، وأقرنت كذا؛ أي: أطقته، وأقرن له أطاقه وقوي عليه، كأنه صار له قرناً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُّفْرِنِينَ﴾؛ أي: مطيقين. قال في «القاموس»: أقرن للأمر، أطاقه وقوي عليه، كاستقرن،

وعن الأمر ضعف ضد انتهى .

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ والجعل هنا، بمعنى: الحكم بالشيء، والاعتقاد به، يقال: جعلت زيدا أفضل الناس؛ أي: حكمت به ووصفته. وقال في «القاموس»: الجزء البعض، وأجزاء الأم ولدت الإناث، ويفتح، والجمع أجزاء، وبالضم موضع ورمل، وَجْزُهُ كَجَعَلَهُ قَسَمَهُ أجزاء كَجَزَّاهُ بالتضعيف وبالشيء اكتفى، كاجتزأ وتجزأ.

﴿وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَيِّنِ﴾ أصله: أصفوكم من الصفوة قلبت الواو ياء. لوقوعها رابعة، ثم قلبت ألفاً لتحركها بعد فتح، ومعناه: اختار لكم. ﴿ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ﴾؛ أي: جعل ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: مشابهاً بنسبة البنات إليه، لأن الولد يشبه الوالد. ﴿كَطِيمٌ﴾؛ أي: ممتلىء غيظاً وغماً. ﴿يُنَشَّؤُا﴾؛ أي: يربى. ﴿فِي الْحَلِيَّةِ﴾؛ أي: في الزينة، والحلية ما يتحلى به الإنسان ويتزين، والجمع حلي بكسر الحاء وضمها وفتح اللام. ﴿يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: يكذبون. وفي «المصباح»: وخرص الكافر خرصاً، من باب قتل كذب فهو خارص. وفي «القاموس» و«التاج»: الخراص الكذاب. وقال الراغب: الخرص: كل قول مقول عن ظن وتخمين، يقال له: خرص، سواء كان ذلك مطابقاً للشيء، أو مخالفاً له، من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم، ولا غلبة ظن، ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين، كفعل الخارص في خرصه، وكل من قال قولاً على هذا النحو، يسمى كاذباً. وإن كان مطابقاً للقول المخبر به.

﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِنُونَ﴾ يقال: استمسك به إذا اعتصم به. وفي «المفردات»: إمساك الشيء: التعلق به وحفظه، واستمسكت بالشيء، إذا تحررت الإمساك، انتهى. ﴿عَلَى أُمَّةٍ﴾ الأمة: الدين والطريقة التي تؤم؛ أي: تقصد. قال الراغب: الأمة كل جماعة يجمعهم أمر، إما دين واحد أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان الأمر الجامع تسخييراً أو اختياراً. ﴿وَرِئَاءَ أَثَرِهِمْ﴾ وفي «الروح»: الأثر بفتحيتين بقية الشيء. والآثار الأعلام، وسنن النبي ﷺ آثاره، قال الراغب: أثر الشيء حصول ما يدل على وجوده، ومن هذا يقال للطريق المستدل به على

من تقدم آثاره. ﴿مُهْتَدُونَ﴾ جمع مهتد، أصله: مهتديون استثقلت الحركة على الياء، فحذفت فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الدال لمناسبة الواو. ﴿إِلَّا قَالَ مُتِرُوهَا﴾ جمع مترف اسم مفعول. وفي «القاموس»: وترف كفرح، تنعم، وأترفته النعمة أطغته، أو نعمته كترفته تتريفاً، والمترف كمكرم، المتروك، يصنع ما يشاء فلا يمنع، والمتنعم لا يمتنع من تنعمه، انتهى. ﴿مُقْتَدُونَ﴾ جمع مقتد، أصله: مقتديون استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الدال لمناسبة الواو، ومعناه: سالكون طريقته.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع:

فمنها: فن التناسب في قوله: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا الآية، فقد أقسم سبحانه بالقرآن، وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن، بأنه قرآن عربي، مرجو له أن يعقل به العالمون، فكان جواب القسم مصصحاً للقسم، وتم التناسب بين القسم والمقسم به؛ لأنهما من واد واحد.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فِي أُرِّ الْكِتَابِ﴾؛ لأن لفظ الأم حقيقة في الأنثى الوالدة، فاستعار للوح المحفوظ، بجامع الأصالة في كل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنه استعار كلمة ﴿لعل﴾ الموضوع للترجي، والتوقع لمعنى كي، وهو التعليل لكون حقيقة الترجي والتوقع ممتنعة في حقه تعالى، لكونها مختصة بمن لا يعلم عواقب الأمور.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿أَفَنْضَبِرُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ﴾ شبه حال الذكر وتنحيته، بحال غرائب الإبل وذود هاشم، استعمل ما كان مستعملاً في تلك القصة ههنا، بجامع التنحية والإبعاد في كل.

ومنها: حكاية حال ماضية في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّيٍّ﴾؛ لأن ﴿مَا﴾ إنما تدخل على مضارع في معنى الحال، أو على ماض قريب منها.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: كال مهد والفرش، حذفت من الأداة، ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾؛ لأن الإنشار حقيقة في إحياء الميت وبعثه، فاستعاره لإنبات الأرض فاستعير الإنشار بمعنى إحياء الأموات لإنبات الأرض، فاشتق منه أنشرنَا، بمعنى: أنبتنا على طريقة الاستعارة التبعية.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم، حيث عبر بنون العظمة، لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء، والإشعار بعظم خطره.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بَلَدَةٌ مَيَّاتٌ﴾ حيث استعار الميت، الذي هو حقيقة فيمن خرجت روحه، للمكان الخالي من النبات.

ومنها: التعبير عن إخراج النبات بالإنشار، الذي هو إحياء الموتى حيث قال: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ﴾، وعن إحياء الموتى بالإخراج حيث قال: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تفخيماً لشأن الإنبات، وتهويناً لأمر البعث، لتقويم سند الاستدلال، وتوضيح منهاج القياس.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿خَلَقْنَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ فقد حذف الموصوف، وهو الله تعالى، وأقام صفاته مقامه؛ لأن الكلام مجزأ، فبعضه من قولهم، وبعضه من قول الله تعالى، فالذي هو من قولهم: خلقهن، وما بعده، هو من قول الله تعالى، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن الله، بدلالة قوله في آية أخرى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ثم لما قالوا: خلقهن الله، وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات، وأقيمت مقام الموصوف، كأنه كلام واحد، ونظير هذا أن تقول للرجل: من أكرمك من القوم؟ فيقول: أكرمني زيد، فتقول: أنت، واصفاً له، الكريم الجواد المفضل الذي من صفته كذا وكذا.

ومنها: تنكير بنات في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ لتربية الحفارة.

ومنها: تعريف البنين في قوله: ﴿وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ لتربية الفخامة.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ﴾ للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم، ويحكي لغيرهم تعجباً منها.

ومنها: التأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام، مع صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأن فعولاً وفعيلاً من صيغ المبالغة.

ومنها: الأسلوب التهكمي للتوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾.

ومنها: الطباق بين لفظ البنين والبنات.

ومنها: التجهيل لهم والتهكم بهم في قوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ فإنهم إنما سمعوه من آبائهم وهم أيضاً كذابون جاهلون.

ومنها: فن الإلجاء في قوله: ﴿قُلْ أُولَئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِمْ ءَابَاءَكُمْ﴾ وهو أن يبادر المتكلم الخصم، بما يلجئه إلى الاعتراف بحقيقة نفسه، ودخيلة قلبه، فالتعبير في الآية بالتفضيل المقتضي أن ما عليه آباؤهم فيه هداية، لم يكن إلا لإلجائهم إلى الاعتراف بحقيقة نياتهم، التي يضمرونها، كأنه يتنزل معهم إلى أبعد الحدود، ويرخي لهم العنان إلى أقصى الآماد، ليعترفوا بالتالي بمكابرتهم التي لا تجدي معها المناصحة في القول، ولا ينفع في تذليلها الإتيان بالحجة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٧١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٧٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٧٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٧٥﴾ وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تُقَبِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٧٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ بَلَغْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنسُ الْقَرِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَتُحْكَمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٧٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٠﴾ فَإِنَّمَا نَذَرَنَّا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٨١﴾ أَوْ نُزِيلُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٨٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَتَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُّعْبَدُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٨٨﴾ وَقَالُوا بَيِّنَاتُ السَّاحِرِ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٨٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٩٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَتَقَوَّمُ آلِيَّسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٩١﴾ أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٩٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٩٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٩٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٩٦﴾ ۞

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر^(١) في الآية السالفة أن الذي دعا الكفار إلى اعتناق العقائد الزائغة، هو تقليد الآباء والأجداد، وبين أنه طريق باطل ونهج فاسد، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من التقليد. . أردف هذا بأن ذكر لهم أن أشرف آبائهم، وهو إبراهيم عليه السلام، ترك دين الآباء، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعتهم، فيجب عليكم تقليده، وحين عدل عن طريق آبائه، جعل الله دينه باقياً في عقبه إلى يوم القيامة، وأديان آبائه درست وبطلت.

ثم ذكر أن قريشاً وآباءهم مدّ لهم في العمر والنعمة، فاغتروا بذلك واتبعوا الشهوات، وأعرضوا عن توحيد الله تعالى، وشكره على آلائه، حتى جاءهم الرسول منبهاً لهم، مذكراً بالنظر إلى من فطرهم وفطر السموات والأرض، وآتاهم من فضله ما يتمتعون به من زينة هذه الحياة، فكذبوه وقالوا: ساحر كذاب، ثم حكى عنهم، قالوا: هلا نزل هذا القرآن على رجل عظيم الجاه، كثير المال، من إحدى القريتين، مكة والطائف، فرد عليهم مقالهم، بأنه قسم الحظوظ الدنيوية بين عباده، فجعل منهم الغني والفقير، والسيد والمسود، والملوك والسوقة، والأقوياء والضعفاء، ولم يغير أحد ما حكم به في أحوال دنياهم على حقارتها، فكيف يعترضون على حكمه فيما هو أرفع درجةً وأشرف غايةً وأعظم مرتبةً وهو منصب النبوة.

ثم ذكر أن التفاوت في شؤون الدنيا هو الذي يتم به نظام المجتمع، والسير به على النهج القويم، فلولا ما صرف بعضهم بعضاً في حوائجه، ولا تعاونوا في تسهيل وسائل المعيشة، ثم أعقب هذا ببيان أنه لولا أن يرغب الناس في الكفر، إذا رأوا الكفار في سعة من الرزق، لمتعهم بكل وسائل النعيم، فجعل لبيوتهم

(١) المراغي.

أبواباً من فضة وسقفاً وسروراً ومصاعد عليها يظهرون، وزينة في كل شيء، ولكن كل هذا متاع قليل زائل، والآخرة هي الباقية، وهي لمن يتقي الله تعالى، ويجتنب الكفر والمعاصي ولم يفعل ذلك بالمؤمنين، فيوسع عليهم جميعاً ليكون سبب اجتماعهم على الإيمان العقيدة المنبثقة عن الاطمئنان النفسي؛ لأنه لو فعل ذلك لاجتمعوا عليه طلباً للدنيا، وهذا إيمان المنافقين، ومن ثم ضيق الرزق على بعض المسلمين ووسع على بعض، ليكون من يدخله وإنما يدخله للدليل والبرهان، وابتغاء رضوان الله ومثوبته.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾... ﴿٦٦﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما^(١) بين أن المال متاع الدنيا، وهو عرض زائل، ونعيم الآخرة هو النعيم المقيم الدائم، الذي أعدّه الله سبحانه للمتقين. . ذكر هنا أن من فاز بالمال والجاه، صار كالأعشى عن ذكر الله، وصار من جلساء الشياطين، الضالين المضلين، الذين يصدونه عن السبيل القويم، ويظن أنه مهتد، لأنه يتلقى من الشياطين ما يلائم أخلاقه، فيألفه ولا ينكره، ثم ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة، تبرأ الكافر من الشيطان قرينه، وقال له: ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرقين، ثم أعقب هذا ببيان أن اشتراك الكافر مع قرينه الشيطان في العذاب لا يخفف عنه شيئاً منه، لاشتغال كل منهما بنفسه.

ثم ذكر لرسوله أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم، وقلما تجديهم المواعظ، فإذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصم، وإذا أريتهم معجزاتك كانوا كالعمي، وإنما كانوا كذلك لضلالهم المبين، ثم سلى رسوله، وبين له أنه لا بد أن ينتقم منهم، إما حال حياته أو بعد موته، ثم أمره أن يستمسك بما أمره الله به، فيعمل بموجبه، فإنه الصراط المستقيم النافع في الدين والدنيا، وفيه الشرف العظيم له ولقومه، وسوف يسألون عما قاموا به من التكاليف التي أمرهم بها، ثم أرشد إلى أن بغض

(١) المراغي.

الأصنام وبغض عبادتها جاء على لسان كل نبي، فمحمد ﷺ ليس بدعاً من بينهم في الإنكار عليها، حتى يعارض ويغض.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ، لكونه فقيراً عديم المال والجاه.. بين هنا أن موسى بعد أن أورد المعجزات الباهرة، أورد فرعون هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش، فقال: إني غني كثير المال، عظيم الجاه، فلي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري تحتي، وموسى فقير مهين، وليس له بيان ولا لسان، وهذا شبيه بما قاله كفار قريش، وأيضاً فإنه لما قال: ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ ذكر هنا قصة موسى وعيسى عليهما السلام، وهما أكثر الأنبياء أتباعاً، وقد جاءا بالتوحيد، ولم يكن فيما جاءا به، إباحة اتخاذ آلهة من دون الله تعالى.

ثم ذكر سبحانه أن فرعون قال: هلا ألقى إلى موسى مقاليد الملك، فطوق بسوار من ذهب إن كان صادقاً، زعماً منه أن الرياسة من لوازم الرسالة، أو جاء معه جمع من الملائكة يعينونه على من خالفه، وأعقب هذا، بأن ذكر أنه حين دعا قومه إلى تكذيب موسى في دعواه الرسالة، أطاعوه لضلالهم وغوايتهم، ولما لم تجد فيهم المواعظ غضبنا وانتقمنا منهم، وجعلناهم قدوة للكافرين، وضربنا بهم الأمثال للناس ليكونوا عبرة لهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما^(١): ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس: أن العرب قالوا: وإذا كان النبي بشراً، فغير محمد ﷺ أحق بالرسالة، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ﴾ يكون أشرف من محمد ﷺ، يعنون: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿أَهْمَرْ بِقِسْمُونَ

(١) لباب القول.

رَحِمَتْ رَبِّكَ ﴿١﴾ يعني النبوة، فيضعونها حيث شاؤوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية^(١): ما أخرجه ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي: أن قريشاً قالت: قيسوا لكل رجل من أصحاب محمد ﷺ رجلاً يأخذه، فقيضوا لأبي بكر الصديق طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعونني، قال: أَدْعُوكَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى، قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: ربنا، قال: وما العزى؟ قال: بنات الله، قال أبو بكر: فمن أهمهم فسكت طلحة فلم يجبه، فقال طلحة لأصحابه: أجيئوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فأنزل الله سبحانه هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ...﴾ سبب نزولها: ما روي: أنه كان رسول الله ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا غياً، فنزلت الآية ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قريش، وقت قول إبراهيم عليه السلام، بعد الخروج من النار ﴿لَأَيُّهَا﴾ تاريخ الشهير بأزر، وكان ينحت الأصنام ﴿وَقَوْمِهِ﴾ المنكبين على التقليد وعبادة الأصنام، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا قَبُّدُونَ﴾ وتمسك بالبرهان ليسلكوا مسلك الاستدلال، أو ليقتدوا به إن لم يكن لهم بد من التقليد، فإنه أشرف آبائهم، وبراء مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ أي: بريء، كما سيأتي في مبحث التصريف.

والمعنى^(٢): أني بريء من عبادتكم لغير الله، إن كانت ما مصدرية، أو من

(١) التفسير المنير.

(٢) روح البيان.

معبودكم إن كانت موصولة حذف عائدهما ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وخلقني استثناء^(١) منقطع إن كانوا عبدة الأصنام؛ أي: لكن الذي خلقني لا أبرأ منه، أو متصل على أن ما تعم أولي العلم وغيرهم، وأنهم يعبدون الله والأصنام، أو صفة على أن ما موصوفة؛ أي: إني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني، فإن ﴿إِلَّا﴾، بمعنى غير، لا يوصف بها إلا جمع منكور غير محصور، وهو هنا آلهة، كما هو مذهب ابن الحاجب ﴿فَإِنَّهُ﴾؛ أي: فإن الذي فطرني ﴿سَيِّدِينَ﴾؛ أي: سيثبني على الهداية، أو سيهديني إلى ما وراء الذي هداني إليه إلى الآن، ولذا أورد كلمة التسويف هنا، بعد ما قال في الشعراء: فهو يهدين بلا تسويف، والأوجه أن السين للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار؛ أي: دوام الهداية حالاً واستقبالاً، فهو هاديه في المستقبل والحال.

والمعنى: أي واذكر^(٢) أيها الرسول لقومك قريش المنكبين على تقليد الآباء والأجداد في عبادة الأصنام، كيف تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه، حين رآهم عاكفين على عبادة الأصنام، حين قال لهم: إني بريء مما تعبدون إلا من عبادة الله الذي خلقني، وخلق الناس جميعاً، وإنه سيهديني إلى سبيل الرشاد، ويوفقني إلى اتباع الحق؟ وقد جزم بذلك لثقتة بربه ولقوة يقينه. فينبغي لكم يا أهل مكة أن تقتدوا به في ترك تقليد آبائكم الأقربين وترجعوا إلى النظر واتباع الحق.

وقرأ الجمهور^(٣): ﴿بِرَّاءٍ﴾ بفتح الباء وألف وهمزة بعد الراء، وهو مصدر يستوي فيه المفرد والمذكر ومقابلهما، يقال: نحن البراء منك، وهي لغة أهل العالية، وبها قرأ الأعمش. وقرأ الزعفراني والقورحي عن أبي جعفر وابن المناذري عن نافع بضم الباء بزنة طوال، يقال: طويل وطوال وبريء وبراء، وهي لغة نجد وقرأ الأعمش: ﴿إِنِّي﴾ بنون مشددة دون نون الوقاية، والجمهور ﴿إِنِّي﴾ بنونين الأولى مشددة.

(٣) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

فإن قلت: قال هنا: ﴿فَإِنَّهُمْ سَيِّدِينَ﴾ بزيادة سين التسويف، وقال في الشعراء: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) بلا زيادة سين الاستقبال، فما الفرق بين الموضعين.

قلت: زاد السين للتأكيد؛ لأن المقام مقام التبرؤ من عبادة الأصنام، فهو أشد حاجة إلى التأكيد، وما في الشعراء بيان لعداوة الأصنام له، فلا حاجة إلى التأكيد، هكذا ظهر الفرق لي بعد تأمل شديد، والله أعلم بأسرار كتابه.

﴿وَجَعَلَهَا﴾؛ أي^(١): وجعل إبراهيم كلمة التوحيد، التي كان ما تكلم به من قوله: إنني براء إلى سيهدين عبارة عنها، يعني: أن البراءة من كل معبود سوى الله تعالى، توحيد للمعبود بالحق، وقول بلا إله إلا الله ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾؛ أي: دائمة مستمرة جارية ﴿فِي عَقِيهِ﴾ وذريته حيث وصاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، فالقول المذكور بعد الخروج من النار، وهذا الجعل بعد حصول الأولاد الكبار، فلا يزال فيهم نسلاً بعد نسل، من يوحد الله سبحانه، ويدعو إلى توحيد، وتفريده إلى قيام الساعة، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ علة^(٢) للجعل، والضمير للعقب، وإسناد الرجوع إليهم من وصف الكل بحال الأكثر، والترجي راجع إلى إبراهيم عليه السلام؛ أي: جعلها باقية في عقبه وخلفه، رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد منهم.

فائدة: قال بعضهم في سبب تكريم وجه علي بن أبي طالب: بأن يقال: كرم الله وجهه، أنه نقل عن والدته فاطمة بنت أسد بن هاشم: أنها كانت إذا أرادت أن تسجد للصنم، وهو في بطنها، يمنعها من ذلك. وقرأ حميد بن قيس ﴿كَلِمَةً﴾ بكسر الكاف وسكون اللام، وقرأ ﴿فِي عَقْبِهِ﴾ بسكون القاف؛ أي: في ذريته، وقرأ ﴿فِي عَاقِبِهِ﴾؛ أي: من عقبه؛ أي: من خلفه، ذكره في «البحر».

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى: أي^(١) وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، جعلها دائمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى منهم، فلا يزال فيهم من يوحد الله سبحانه إلى يوم القيامة، رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم، كأهل مكة، بدعاء الموحد منهم، فإنهم إذا ذكروا أباهم الأعظم الذي بني لهم البيت، وأورثهم ذلك الفخر، تبعوه في ملته الحنفية، وتأثروا بأبوته إن كانوا يدعون تقليد الآباء. قال قتادة: لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة، وقال ابن العربي^(٢): إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولة بالأحقاب، بدعوتيه المجابتين، إحداهما قوله: ﴿إِنِّي بَجَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَيَنْ دُرِّيَّ قَالَ لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقد قال: إلا من ظلم منهم فلا عهد له. ثانيتهما قوله: ﴿وَأَجْتَنِبِي وَيَئِْ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

وقيل^(٣): الفاعل في جعلها الله سبحانه وتعالى؛ أي: وجعل الله عز وجل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم، وقيل: الضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجع إلى أهل مكة؛ أي: لعل أهل مكة يرجعون إلى دينك الذي هو دين إبراهيم، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: فإنه سيهدين لعلهم يرجعون، وجعلها إلخ، قال السدي: لعلهم يتوبون فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله تعالى.

ثم ذكر سبحانه نعمته على قريش، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم، فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾ إضراب عن محذوف؛ أي: فلم يحصل ما رجاء، بل تمتع وأنعمت منهم هؤلاء المعاصرين لمحمد ﷺ من أهل مكة ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾ بالمد في العمر والبسط في النعمة، فآغثوا بالمهلة وانهمكوا في الشهوات، وشغلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿حَقَّ جَاءَهُمْ﴾؛ أي: جاء هؤلاء المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿الْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾، محمد ﷺ ظاهر الرسالة واضحا بالمعجزات الباهرة، أو مبين التوحيد بالآيات البينات والحجج الواضحات، أو مبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فلم يجيبوه ولم يعملوا بما أنزل عليه، فحتى ليست

(٣) الشوكاني.

(١) التفسير المنير.

(٢) المراغي.

غاية للتمتع، بل لما تسبب عنه من الاغترار المذكور وما يليه.

والمعنى^(١): أي بل تمتعت هؤلاء المشركين، من أهل مكة وآباءهم من ذرية إبراهيم بطول العمر، والسعة في الرزق، وأنعمت عليهم في كفرهم فاغتروا بالمهلة، وأكبوا على الشهوات وطاعة الشيطان، وشغلوا بالتنعم عن كلمة التوحيد، إلى أن جاءهم الحق وهو القرآن العظيم، والرسول المبين، الذي أوضح مبدأ التوحيد بالبراهين الساطعة، وشرع الله وأحكامه بالأدلة القاطعة، وهو محمد ﷺ.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ بقاء المتكلم، وقرأ قتادة والأعمش: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ بقاء الخطاب، ورواها يعقوب عن نافع، قال صاحب «اللوامح»: وهي من مناجاة إبراهيم عليه السلام ربه تعالى، والظاهر: أنه من مناجاة محمد ﷺ؛ أي: قال: يا رب بل تمتعت، وقرأ الأعمش: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ بنون العظمة، وهي تعضد قراءة الجمهور، قال الزمخشري: فإن قلت: فما وجه من قرأ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ بفتح التاء؟

قلت: كأن الله سبحانه وتعالى خاطب نفسه، واعترض على ذاته في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨)، فقال مخاطباً لنفسه: بل تمتعتهم بما تمتعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد، وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم؛ لأنه إذا تمتعهم بزيادة النعم، وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً، فمثاله: أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه، ثم يقبل على نفسه فيقول: أنت السبب في ذلك، بمعرفتك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقييح فعله.

ثم بين سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحق، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾؛ أي: ولما جاء أهل مكة القرآن العظيم، الذي هو الحق من الله، لينبهم عما هم

(٢) البحر المحيط.

(١) التفسير.

فيه من الغفلة، ويرشدتهم إلى التوحيد، ازدادوا كفراً وعتوا، وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق، والاستهانة به حيث ﴿قَالُوا هَذَا﴾ الحق والقرآن ﴿سِحْرٌ﴾ وهو ^(١) إراءة الباطل في صورة الحق؛ أي: هذا القرآن كلام باطل، ليس من عند الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: يكون هذا القرآن من عند الله تعالى ﴿كَافِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون منكرون، فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحققوا رسول الله ﷺ.

والمعنى ^(٢): أي وحينما جاءهم القرآن والرسول المؤيد بالمعجزات دليلاً على صدقه، وصفوا ما جاء به بأنه سحر وأباطيل، وليس بوحي من عند الله تعالى، وقالوا: إنا بما أرسل به جاحدون، مكابرةً وعناداً وحسداً وبنياً، فضموا إلى شركهم وضلالهم تكذيب الحق ورفضه والاستهزاء به، والتصريح بالكفر برسالته وإنكار نبوته.

ثم ذكر فناً آخر من أفانين كفرهم فقال: ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: وقال كفار مكة ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض؛ أي: هلا ﴿نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ إن كان حقاً من عند الله تعالى ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنْ﴾ إحدى ﴿الْقَرْيَتَيْنِ﴾ مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ ذلك الرجل بالمال والجاه، كالوليد بن المغيرة بمكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف، فهو على نهج قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ ۖ﴾؛ أي: من أحدهما، وذلك ^(٣) لأن من للابتداء، وكون الرجل الواحد من القريتين بعيد، فقدر المضاف، ومنهم من لم يقدر مضافاً وقال: أراد على رجل كائن من القريتين كليهما، والمراد به: عروة المذكور؛ لأنه كان يسكن مكة والطائف جميعاً. وكان له في مكة أموال يتجر بها، وكان له في الطائف بساتين وضياع، فكان يتردد إليهما، فصار كأنه من أهلهما، يقول الفقير: هنا وجه خفي، وهو أن النسبة إلى القريتين قد تكون بالمهاجرة من إحداهما إلى الأخرى، كما يقال: المكي، المدني، والمصري، الشامي وذلك بعد الإقامة في إحداهما أربع سنين، صرح

(١) روح البيان.

(٣) روح البيان.

(٢) التفسير المنير.

بذلك أهل أصول الحديث .

ثم إنهم لم يتفوهوا^(١) بهذه الكلمة العظيمة، حسداً على نزوله على الرسول ﷺ، دون من ذكر من عظمائهم، من اعترافهم بقرآنيته، بل استدلالاً على عدمها، بمعنى أنه لو كان قرآناً، لنزل على أحد هذين الرجلين، بناءً على ما زعموا، من أن الرسالة منصب جليل . لا يليق به إلا من له جلالة من حيث المال والجاه، ولم يدروا أن العظيم من عظمه الله، وأعلى قدره في الدارين، لا من عظمه الناس، إذ رب عظيم عندهم حقير عند الله تعالى، وبالعكس، وأن الله يختص برحمته من يشاء، وهو أعلم حيث يجعل رسالته . وفي قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ تعظيم لرسول الله ﷺ، وعظم شأنه وفخم .

والمعنى^(٢): أي وقال كفار قريش وأمثالهم: هلا أنزل هذا القرآن على أحد رجلين عظيمين من مكة أو الطائف، وهما الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف .

وهذا اعتراض منهم على الله، الذي أنزل القرآن على رسوله، فأنكر الله سبحانه عليهم ذلك، وجهلهم، وعجب من حالهم بقوله: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ استفهام إنكار، وتجهيل لهم، وتعجيب من تحكمهم، والمراد بالرحمة: النبوة، أو ما هو أعم، يعني: أبيدهم مفاتيح الرسالة والنبوة، فيضعونها حيث شاؤوا .

ثم بين سبحانه: أنه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا، فقال: ﴿تَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين أهل الأرض ﴿مَعِيشَتَهُمْ﴾؛ أي: أسباب معيشتهم، والمعيشة: ما يعيش به الإنسان ويتغذى به، ويجعله سبباً في قوام بنيته، إذ العيش الحياة المختصة بالحيوان، وهو يعم الحلال والحرام عند أهل السنة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قسمة تقتضيها مشيئتنا، المبنية على الحكم والمصالح، ولم نفوض أمرنا إليهم، علماً منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية، كما دل عليه

(١) روح البيان .

(٢) المراغي .

تقديم المسند إليه، وهو نحن، إذ هو للاختصاص.

والحاصل^(١): نحن قسمنا أرزاقهم فيما بينهم، وهو أدنى من الرسالة، فلم نترك اختيارها إليهم وإلا لضاعوا وهلكوا فما ظنهم في أمر الدين؛ أي: فكيف نفوض اختيار ما هو أفضل وأعظم، وهو الرسالة، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء، بل الحكم لله وحده؟ وإذا كان الله سبحانه، هو الذي قسم بينهم أرزاقهم، ورفع درجات بعضهم على بعض، فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر الرسالة وتفويضها إلى من يشاء من خلقه؟

قال مقاتل: يقول تعالى: أبأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا! وفي قوله^(٢): ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ﴾ تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا، وحث على التوكل على الله تعالى. وقرأ الجمهور: ﴿مَعِيشَتَهُمْ﴾ بالإفراد، وعبد الله والأعمش وابن عباس ومجاهد وابن محيصن وسفيان ﴿معاشهم﴾ على الجمع.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادئ المعاش ﴿دَرَجَاتٍ﴾ نصب^(٣) بنزع الخافض؛ أي: إلى درجات متفاوتة، بحسب القرب والبعد، حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيف وقوي وفقير وغني وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم، أو تمييز محول عن المفعول ﴿لِنَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ أي: خادماً وعاملاً وأجيراً من التسخير، بمعنى: الاستخدام، ولكون المراد هنا الاستخدام دون الهزء؛ لأنه لا يليق التعليل به، أجمع القراء على ضم السين في الرواية المشهورة عنهم، فما كان من التسخير فهو مضموم، وما كان من الهزء فهو مكسور، وقرأ الجمهور^(٤): ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين، وعمر بن ميمون وابن محيصن وابن أبي ليلى وأبو رجاء والوليد بن مسلم، وابن عامر بكسرها، وهو من التسخير بمعنى الاستعباد والاستخدام والاستعمال. ويبعد أن يكون ﴿سُخْرِيًّا﴾ هنا من الهزء، وقد قال بعضهم؛ أي: يهزأ الغني بالفقير، وهذا وإن كان مطابقاً

(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

للمعنى اللغوي، ولكنه بعيد من معنى القرآن، ومناف لما هو مقصود السياق.

والمعنى^(١): فاضلنا بينهم فجعلنا بعضهم أفضل من بعض، في الدنيا بالرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والحلم، ليستخدم بعضهم بعضاً، فيستخدم الغني الفقير والرئيس المرؤوس والقوي الضعيف والحر العبد والعاقل من هو دونه في العقل، والعالم الجاهل، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم، ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجاً إلى البعض لتحصيل المساواة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا ويعطي هذا هذا.

وحاصل معنى الآية^(٢): أي إن هؤلاء المشركين تجاوزوا حدودهم وأقدارهم، فأرادوا أن يجعلوا ما لله لأنفسهم، وليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على من بلغ مرتبة روحانية خاصة، وكان ذا فضائل قدسية، وكمالات خلقية، مستهيناً بالزخارف الدنيوية التي انغمسوا فيها، فهم ليسوا لها بأهل، فضلاً عن أن يهبوها لمن يشاؤون، ونحن الذين قسموا الأرزاق والحظوظ بين العباد، ونفضل بعضهم على بعض درجات في القوة، والضعف والعلم والجهل والشهرة والخمول والغنى والفقر؛ لأننا لو سوينا بينهم في هذه الأحوال لم يتعاونوا فيما بينهم، ولم يتمكنوا من استخدام بعضهم بعضاً، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض، وإلا فسد نظام العالم، وليس المعنى في الاستخدام أو الاستئجار، أو الاستعمال على عمل شيء من الذل والمهانة؛ لأن حقوق العامل مصونة في الإسلام، وعلى صاحب العمل واجبات خلقية ومادية كثيرة، توجب عليه الترفع عن الغبن، والظلم والأذى والإساءة، فإذا عجزوا عن تغيير نظام الدنيا، فكيف يعترضون على حكمنا بتخصيص الرسالة والنبوة في بعض العباد، وقصارى ذلك: أنا قسمنا بينهم أرزاقهم، أفلا يقنعون بقسمتنا في أمر النبوة وتفويضها إلى من نشاء من عبادنا؟

(١) الشوكاني.

(٢) التفسير المنير والمراغي.

ثم علل ما سلف بقوله: ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ﴾ وفضله بالنبوة، وما يتبعها من وحي وكتاب ينزل ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أي: مما يجمع هؤلاء الكفار من حطام الدنيا الدنية الفانية، فالدنيا على شفا جرف هار، ومظاهرها فانية لا قيمة لها، فهو قد أغدقها على الدواب والأنعام، وكثير من جهلة بني آدم، والعظيم من رزق من تلك الرحمة العظيمة، لا مما يجمعون من الدنيء الحقير، يظنون أن العظمة به.

وفيه^(١): إشارة إلى أن الله يعطي الفقير من فقراء البلد، لا يؤبه به ما لا يعطي لعلمائه، وأفاضله من حقائق القرآن، وأسراره، فإن قسمة العلم والمعرفة بيده سبحانه، كقسمة النبوة والرسالة، فما لا يحصل بالدرس قد يحصل بالوهب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. قوله: ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ﴾ ترسم^(٢) هذه التاء مجرورة في الموضعين من هذه السورة، اتباعاً لرسم مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه، وكذا ترسم مجرورة في سورة الأعراف في قوله: ﴿إِنَّ رَحِمْتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وفي سورة الروم في قوله: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَآثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ وفي سورة هود في قوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، وفي سورة مريم في قوله: ﴿ذَكَرْ رَحِمَتِ رَيْكَ﴾، وفي البقرة في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحِمَتَ اللَّهِ﴾، وفيما عدا هذه السبعة المواضع، ترسم مربوطة على صورة الهاء، وأبو عمرو وابن كثير والكسائي يقفون عليها بالهاء كسائر الهاءات الداخلة على الأسماء، كفاطمة وقائمة، وهي لغة قريش، والباقون يقفون عليها بالتاء تغليباً لجانب الرسم، وهي لغة طيء.

ثم بين الله سبحانه وتعالى، حقارة الدنيا وخستها بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهنا لا بد^(٣) من تقدير مضاف، فإن لولا لانتفاء الثاني، لوجود الأول، ولا تحقق لمدلول لولا ظاهراً؛ أي: ولولا كراهة أن يرغب الناس في الكفر، إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم لحبهم الدنيا، وتوهم أن ذلك لفضيلة

(١) روح البيان.

(٣) روح البيان.

(٢) الفتوحات.

في الكفار، ويجتمعوا على الكفر، ويكونوا في الكفر أمة واحدة ﴿لَجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا، وهوانها عندنا ﴿لَمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ﴾ لشر الخلائق وأدناهم منزلة، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾. ﴿إِبْيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال^(١) من ﴿لَمَنْ﴾ أو اللام بمعنى على، وجمع الضمير باعتبار معنى من، كما أن أفراد المستكن في ﴿يَكْفُرُ﴾ باعتبار لفظها، والبيوت جمع بيت، وهو اسم لمبني مسقف، مدخله من جانب واحد، كما سيأتي في مبحث اللغة ﴿سُقْفًا﴾ متخذة ﴿مِنْ فِصَّةٍ﴾ جمع سقف، وهو سماء البيت.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿سُقْفًا﴾ بضميتين، كرهن ورهن، قال أبو عبيدة: ولا ثالث لهما، وقرأ أبو رجاء بضم فسكون وهي لغة تميم، وهي أيضاً جمع سقف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح السين وسكون القاف على الأفراد. وقال الفراء: جمع سقيف كغريف ورغف وكثيب وكُثْب، وقرىء بفتحيتين، كأنه لغة في سقف، وقرىء سقوفاً جمعاً على فعول، نحو: كعب وكعوب، والفضة: جسم ذائب، صابر، منطرق، أبيض رزين، كما سيأتي في مبحث اللغة ﴿وَمَعَارِجَ﴾ معطوف على ﴿سُقْفًا﴾، جمع معرج بفتح الميم وكسرهما، بمعنى: السلم، والمعارج: المصاعد، والسلالم، وقرأ الجمهور: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ جمع معرج، وطلحة ﴿وَمَعَارِجَ﴾ جمع معراج، والمعنى: وجعلنا لهم مصاعد ومراقي من فضة، حذف لدلالة الأول عليه. ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على المعارج ﴿يَظْهَرُونَ﴾؛ أي: يصعدون إلى العلالي والسطوح ﴿وَلِبْيُوتِهِمْ﴾؛ أي: وجعلنا لبيوتهم، ولعل تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير ﴿أَبْوَابًا﴾ جمع باب، وهو مدخل الشيء ومخرجه؛ أي: مداخل ﴿وَسُرُرًا﴾ جمع سرير، وهو الذي يجلس عليه أو ينام فيه؛ أي: وجعلنا لبيوتهم أبواباً وسرراً من فضة ﴿عَلَيْهَا﴾؛ أي: على السرر ﴿يَتَكُونُونَ﴾؛ أي: يعتمدون ويجلسون عليها من الاتكاء، وهو الاعتماد على الشيء والاستناد إليه، وقرأ الجمهور ﴿سُرُرًا﴾ بضم السين. وقرىء بفتحها، وهي لغة لبعض تميم وبعض كلب، وذلك في جمع فعيل المضعف، إذا كان اسماً باتفاق، وصفةً نحو: ثوب

(٢) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

جديد وثياب جدد، باختلاف بين النحاة ذكره في «البحر» ﴿وَزُخْرُفًا﴾ إما معطوف على ﴿سُقْفًا﴾، والزخرف حينئذ بمعنى ما يزين به البيت من أثاث وأمتعة ومواعين كالأواني والمفارش وما يزين به الجدار؛ أي: ولجعلنا لبيوتهم زينة تزوق بها البيوت من الأثاث والمواعين، أو معطوف على محل ﴿مِنْ فَضَّةٍ﴾ فيكون بمعنى الذهب، فيكون أصل الكلام: ولجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة ومن زخرف يعني: بعض السقف من فضة وبعضها من ذهب، فيكون نصبه على هذا بنزع الخافض؛ أي: أبواباً وسرراً من فضة ومن ذهب، فلما حذف الخافض انتصب.

والمعنى^(١): أي ولولا كراهية أن يكون الناس كلهم على ملة الكفر ميلا إلى الدنيا وزخرفها، فلا يبقى في الأرض مؤمن، لأعطينا الكفار ثروات طائلة، وجعلنا سقف بيوتهم وسلالمهم ومصاعدهم التي يرتقون ويصعدون عليها، وأبواب البيوت والسرر التي يتكثون عليها من فضة خالصة وذهب خالص وزينة ونقوش، فاتقة لهوان الدنيا عند الله تعالى.

﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إن نافية، ولما بالتشديد بمعنى إلا؛ أي: وما كل ذلك المذكور من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة إلا شيء يتمتع به في الحياة الدنيا لا دوام له ولا حاصل إلا الندامة والغرامة، وقرىء بتخفيف لما على أن ﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وما صلة، والتقدير: وإن الشأن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ بما فيها من فنون النعم التي يقصر عنها البيان حال كونها مدخرة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ كائنة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي؛ أي: لمن اتقى الشرك والمعاصي، وآمن بالله وحده، وعمل بطاعته، فإنها الباقية التي لا تفتنى ونعيمها الدائم الذي لا يزول.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿لَمَّا﴾ بفتح اللام وتخفيف الميم، وإن: هي المخففة من الثقيلة، واللام: هي الفارقة بين الإيجاب والنفي، و﴿مَا﴾: زائدة، و﴿مَتَّعُ﴾: خبر ﴿كُلُّ﴾، وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وعيسى وعاصم وحمزة ﴿لَمَّا﴾

(٢) البحر المحيط.

(١) التفسير المنير.

بتشديد الميم، و﴿إن﴾: نافية، و﴿لما﴾ بمعنى إلا، كما مر آنفاً. وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة ﴿لما﴾ بكسر اللام، وخرجوه على أن ﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف تقديره: للذي هو متاع الحياة الدنيا، كقوله: تماماً على الذي هو أحسن، وإن في هذا التخريج هي المخففة من الثقيلة، وكل مبتدأ وخبره في المجرور؛ أي: وإنه كل ذلك كائن، أو مستقر للذي هو متاع الحياة الدنيا ذكره في «البحر المحيط». وعبرة «المراغي» في معنى هذه الآية؛ أي: ولولا أن يعتقد كثير من الجهلة، أن إعطاءنا المال للكفار دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر ويرغبوا فيه، إذا رأوا سعة الرزق عندهم لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة، ومساعد من فضة وسرراً من فضة عليها يتكثون، وزينة في كل ما يرتفق به من شؤون الحياة.

ثم بين أن هذه المتعة قصيرة الأمد، سريعة الزوال، فهي متاع الحياة الفانية، فقال: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ﴾ إلخ؛ أي: وما كل ذلك إلا متاع قصير زائل، والآخرة بما فيها من ضروب النعيم التي لا يحيط بها عد ولا إحصاء، أعدها الله لمن اتقى الشرك والمعاصي، وعمل بطاعته، وآثر الآخرة على الدنيا.

وكذلك لو أعطيت هذه النعم والسرر والأبواب المصنوعة من الذهب والفضة للؤمنين، حتى يصير الناس كلهم مبسوطين، لأخلت بالمقصود من الإيمان؛ لأن الترف والنعيم يحجب العقول عن عالم الروحانيات، والرقعي العقلي، فقل من يتخلص من شرك هذه الآفات، فالشهوات والزينة والزخارف للعقول، أشبه بالقاذورات للأجسام، والأجسام القذرة يحوم حولها الذباب، فيلقي فيها بيوضه لتفرخ في القروح والعيون، ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذورات، وهكذا النفوس الضعيفة تعيش فيها النفوس المماثلة لها من عالم الشياطين، وتلقي إليها بذور الفساد، فتزرع فيها وتحصدها النفوس خزيًا وعاراً في الدنيا والآخرة، وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ...﴾ إلخ.

وأخرج الترمذي وابن ماجه والبخاري والطبراني عن سهل بن سعد رضي الله

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء». ومعنى هوان الدنيا على الله، أنه سبحانه، لم يجعلها مقصودةً لنفسها، بل جعلها طريقاً موصلاً إلى ما هو المقصود لنفسه، وأنه لم يجعلها دار إقامة ولا جزاء، وإنما جعلها دار رحلة وبلاء، وأنه ملكها في الغالب الجهلة والكفرة، وحماها الأنبياء والأولياء، وأبغضها وأبغض أهلها، ولم يرض العاقل فيها إلا بالتزود للارتحال عنها.

﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ هذه الآية متصلة بقوله أول السورة: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾، أي: لا نضربه عنكم، بل نواصله لكم، فمن يعش عن ذلك الذكر بالإعراض عنه، إلى تأويل المضلين وأباطيلهم، نقيض له شيطاناً. و﴿يَعْشُ﴾: من عشا يعشو عشاءً إذا تعاشى بلا آفة وتعامى؛ أي: نظر نظر العشا، ولا آفة في بصره، والعشا بالفتح والقصر ظلمة تعرض في العين، كما سيأتي. و﴿من﴾ فيه شرطية؛ أي: ومن يتعام عن القرآن ويعرض ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ سبحانه ﴿نُقِضَ لَهُ﴾؛ أي: نهىء له ﴿شَيْطَانًا﴾ ونسلطه عليه ونضمه إليه ليستولي عليه استيلاء القبيض على البيض، وهو القشر الأعلى اليابس ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: ذلك الشيطان ﴿لَهُ﴾؛ أي: لذلك العاشي والمعرض ﴿قَرَيْنٌ﴾؛ أي: مصاحب وملازم له، لا يفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه، ويزين له العمى على الهدى، والقبيح بدل الحسن، أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يوسوس به إليه، والعشا في العين ضعف البصر، والمراد هنا: عشا البصيرة.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بعبد شراً، قبض له شيطاناً قبل موته بسنة، فلا يرى حسناً إلا قبحه عنده، حتى لا يعمل به، ولا يرى قبيحاً إلا حسنه حتى يعمل به، وينبغي أن يكون هذا الشيطان غير قرينه الجنى الكافر، وإلا فكل أحد له شيطان هو قرينه، كما قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياي، ولكن الله أعاني عليه، فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» أخرجه مسلم بمعناه.

والمعنى: أي ومن يتعام عن ذكر الله، ويعرض عنه، وينهمك في لذات الدنيا وشهواتها. . نسلط عليه شياطين الإنس والجن، يزينون له أن يرتع في الشهوات، ويلغ في اللذات، فلا يألو جهداً في ارتكاب الآثام، والمحرمات على ما جرت به سنتنا الكونية، كما نسلط الذباب على الأجسام القذرة، ونخلق الحيات والعقارب والحشرات في المحالّ العفنة، لتلطف الجو وترحم الناس والحيوان، وهكذا النفوس الموسوسة للضعفاء توقعهم في الذنوب لاستعدادهم لها، فينالون جزاءهم من عقاب الله وعقوبات البشر واحتقارهم لهم إلى ما ينالهم من الأمراض الفتاكة، والأدواء التي لا يجدي فيها علاج، فيكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم، وأنى لهم أن تنفعهم تلك الذكرى، فقد فات الأوان ولا ينفع الندم على فائت.

نَدِمَ الْبُغَاءُ وَلَاتَ سَاعَةٌ مَنَدِمٍ وَالْبَغْيُ مَرَّتُعُ مُبْتَغِيهِ وَخَيْمُ
قال الزجاج: معنى الآية: إن من أعرض عن القرآن، وما فيه من الحكم إلى أباطيل المضلين، يعاقبه الله بشيطان يقضيه له حتى يضلّه، ويلزمه قريباً له، فلا يهتدي مجازاةً له، حين أثر الباطل على الحق المبين اهـ.

وقرأ الجمهور^(١): ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ بضم الشين من عشا يعيشو كدعا يدعو؛ أي: يتعام بلا آفة في بصره، كعرج بفتح الراء، ويتجاهل عن ذكره وهو يعرف الحق، وقيل: يقل نظره في شرع الله، ويغمض جفونه عن النظر في ذكر الله، والذكر هنا يجوز أن يراد به القرآن، ويحتمل أن يكون مصدراً أضيف إلى المفعول؛ أي: يعيش عن أن يذكر الرحمن. وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن سلام البصري: ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ بفتح الشين، يقال: عشي الرجل يعيش عشيّاً، من باب رضي إذا عمي وكان في بصره آفة، كعرج بكسر الراء، وقرأ زيد بن علي ﴿يعشوا﴾ بالواو. قال الزمخشري: على أن ﴿من﴾: موصولة غير متضمنة معنى الشرط، وحق هذا القارئ أن يرفع ﴿تَقِيَصْ﴾ انتهى، ولا يتعين ما قاله، بل يصح أن تكون ﴿من﴾ شرطية، ﴿يعشوا﴾ مجزوم بحذف الحركة تقديراً، وقرأ الجمهور:

(١) البحر المحيط.

﴿نُقِضَ لَهُ﴾ بالنون. وقرأ السلمي وعلي بن زيد وابن أبي إسحاق ويعقوب وعصمة عن عاصم وعن الأعمش وأبو عمرو بخلاف عنه، والعلمي عن أبي بكر ﴿يَقِضُ﴾ بالياء مبنياً للفاعل؛ أي: يقيض الرحمن. وقرأ ابن عباس ﴿يَقِضُ لَهُ﴾ بالبناء للمفعول ﴿شَيْطَانٌ﴾ الرفع؛ أي^(١): ييسر له شيطان ويعد له، وهذا عقاب على الكفر بالختم ﴿وَأَنَّهُمْ﴾؛ أي: وإن الشياطين الذين قِض كل واحد منهم، لكل واحد ممن يعيش ﴿يَصُدُّونَهُمْ﴾؛ أي: ليمنعون قراءهم، فمدار جمع الضميرين اعتبار معنى من، كما أن مدار أفراد الضمائر السابقة اعتبار لفظها ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: عن الطريق المستبين الذي من حقه أن يسبل، وهو الذي يدعو إليه القرآن ﴿وَيَحْسُبُونَ﴾؛ أي: والحال أن العاشين يظنون ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ أي: أن الشياطين ﴿مُهْتَدُونَ﴾؛ أي: إلى السبيل المستقيم؛ أي: يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم، وإلا لما اتبعوهم، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة، أنهم في أنفسهم مهتدون، لأن اعتقاد كون الشياطين مهتدين، مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك، لاتحاد مسلكهما.

والمعنى^(٢): أي وإن هؤلاء الشياطين، الذين يقيضهم الله سبحانه وتعالى لكل من يعيش عن ذكر الرحمن، ليحولن بينهم وبين سبيل الحق، ويوسوسن لهم، أنهم على الجادة، وسواهم على الباطل، فيطيعونهم ويكرهون الإيمان بالله، والعمل بطاعته.

ثم ذكر حال الكافر مع القرين يوم القيامة ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَنَا﴾ حتى ابتدائية داخلية على الجملة الشرطية، ومع هذا غاية لما قبلها، فإن الابتدائية لا تنافيها. والمعنى: يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسبان الباطل، حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة، وقرأ أبو جعفر^(٣) وشيبة وقتادة والزهري والجحدري وأبو بكر والحرميان - نافع وابن كثير - ﴿حتى إذا جآنا﴾ على التثنية؛ أي: العاشي والقرين إعادةً على لفظ ﴿من﴾، والشيطان:

(٣) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

القرين وإن كان من حيث المعنى صالحاً للجمع. وقرأ الأعمش^(١) والأعرج وعيسى وابن محيصن والأخوان - حمزة والكسائي - ﴿جاءنا﴾ على الإفراد، والضمير عائد على لفظ ﴿من﴾، أعاد أولاً على اللفظ، ثم جمع على المعنى، ثم أفرد على اللفظ، ونظير ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكَ رِزْقًا﴾ أفرد أولاً، ثم جمع في قوله: ﴿خَالِينَ﴾، ثم أفرد في قوله: ﴿رِزْقًا﴾.

رُوي: أنهما يجعلان يوم البعث في سلسلة، فلا يفترقان حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار ﴿قَالَ﴾ العاشي الكافر، مخاطباً لشیطانه ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ أي: يا هذا القرين، أتمنى لو كان بيني وبينك في الدنيا بعد كالبعد الذي بين المشرق والمغرب، حتى لا تصدني عن سبيل الله سبحانه، أو تمنى ذلك في الآخرة وهو الظاهر؛ لأنه جواب إذا التي للاستقبال؛ أي: بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق، فغلب المشرق فثناهما، كما قالوا: العمران في أبي بكر وعمر، والقمران في الشمس والقمر، واختار تغليب المشرق على المغرب لمناسبة الشيطان؛ لأنه حيث يطلع قرن الشيطان، كما في الحديث الصحيح. وقال مقاتل: أي مشرقى الشمس، مشرقها في أقصر يوم من السنة، ومشرقها في أطول يوم من السنة، قاله ابن السائب أيضاً، يعني: أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة، من مشرق أقصر يوم في السنة، والأول^(٢) أولى، وبه قال الفراء ﴿فَيَنْسَ الْقَرِينَ﴾؛ أي: الصاحب المقارن لي، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: أنت أيها الشيطان.

والمعنى^(٣): أي يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين، حتى إذا وافى الكافر يوم القيامة إلينا، وعرض عليها، أعرض عن قرينه، الذي وكل به، وتبرأ منه، وقال: ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس القرين، أنت أيها الشيطان؛ لأنك قد أضللتني وأوصلتني إلى هذا العذاب المهين،

(٣) المراغي.

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

والخزي الدائم، والعيش الضنك، والمحل المقض المضجع.

ثم حكى ما سيقال لهم حينئذ، توبيخاً وتأنيباً، فقال: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم، يعني: يوم القيامة، فهو حكاية لما سيقال لهم حينئذ، من جهة الله تعالى، توبيخاً وتقريعاً؛ أي: لن ينفعكم اليوم تمنيتكم لمباعدتهم ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾؛ أي: لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي، وإذ للتعليل، متعلق بالنفي، كما قال سيبويه، إنها بمعنى التعليل، حرف بمنزلة لام العلة ﴿إِنَّكُمْ﴾؛ أي: أنتم وشياطينكم ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ﴾ تعليل لنفي النفع؛ أي: لأن حقكم أن تشركوا أنتم وشياطينكم القراء في العذاب، كما كنتم في الدنيا مشتركين في سببه، ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن عامر، على اختلاف عليه فيها، بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾. وقرأ الجمهور: بفتح همزة ﴿أَنَّ﴾ على أنها وما بعدها في محل رفع على الفاعلية لينفعكم؛ أي: لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب، بمعنى لن يحصل لكم التشفي، بكون قرنائكم معذبين مثلكم، حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم: ﴿رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعَفَيْنَ مِنْكَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَيْدًا﴾، ونظائره: لتشفوا بذلك، قال المفسرون: لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب؛ لأن لكل أحد الكفار والشياطين الحظ الأوفر منه.

وفي الآية^(١): إشارة إلى حال التابع والمتبوع، من أهل الأهواء والبدع، فإن المتبوع منهم، كان شيطان التابع في الإضلال عن طريق السنة، فلما فات الوقت وأدرك المقت، وقعوا في التمني الباطل، قيل:

فَضَّلِ الْيَوْمَ عَلَى الْغَدِ إِنَّ لِلْأَخِيرِ آفَاتٍ
فعلى العاقل تدارك حاله وتفكر مآله، والهرب من الشيطان الأسود والأبيض، قبل أن يهرب هو منه.

ومعنى الآية: أي^(٢) ولن ينفعكم في هذا اليوم اشتراككم في العذاب، أنتم

(٢) المراغي.

(١) روح البيان.

وقرناؤكم، كما كان ينفع في الدنيا الاشتراك في المهام الدنيوية، إذ يتعاونون في تحمل أعبائها، ويتقاسمون شدتها وعناءها، فإن لكل منهم من العذاب ما لا تبلغه طاقته ولا قدرة له على احتماله

وقد يكون المعنى: ولن ينفعكم ذلك من حيث التأسى، فإن المكروب في الدنيا يتأسى ويستروح بوجودان المشارك في البلوى، فيقول أحدهم: لي في البلاء والمصيبة أسوة، فيسكن ذلك من حزنه، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكَرُهُ بِكُلِّ مَغِيبِ شَمْسٍ
فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزَّيْ النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

وقصارى ذلك: أنه لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب، إذ لكل منهم الحظ الأوفر منه، وقد يكون المعنى: ولن ينفعكم اليوم الاعتذار والندم، فأنتم وقرناؤكم مشتركون في العذاب، كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا، ولما وصفهم فيما سلف بالعشى، وصفهم هنا بالعمى والصمم، من قبل أن الإنسان لا اشتغاله بالدنيا يكون كمن حصل بعينه ضعف في البصر، وكلما زاد انهماكه فيها، كان ميله إلى الجسمانيات أشد، وإعراضه عن الروحانيات أكمل، فقال: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام. والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنت تتعب نفسك يا محمد، في دعاء قومك إلى التوحيد، فأنت تسمع الحق الصم؛ أي: الذين تصاموا عن سماعه ﴿أَوْ تَهْدِي﴾ وترشد إلى الحق ﴿الْقَمَى﴾؛ أي: الذين تعاموا عن إبطاره ﴿و﴾ تهدي ﴿من كان في ضلال مبين﴾؛ أي: بين لا يخفى على أحد؛ أي: ومن كان في علم الله، أنه يموت على الضلالة، فهو معطوف على العمى، باعتبار تغاير الوصفين؛ أي: أنت لا تسمعهم؛ أي: لا ينتفعون بسماعك، يشير^(١) إلى أن من سددنا بصيرته، ولبسنا عليه رشده، ومن

(١) روح البیان.

صبينا في مسامع قلبه رصاص الشقاء والحرمان، لا يمكنك يا محمد مع كمال نبوتك هدايته، وإسماعه من غير عنايتنا السابقة، ورعايتنا اللاحقة، وكان ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا غياً وتعامياً عما يشاهدونه من شواهد النبوة، وتصامماً عما يسمعون من بينات القرآن، فنزلت الآية، وهو إنكار تعجيب، من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، بعد تمرنهم على الكفر، واستغراقهم في الضلال، بحيث صار عشاها عمى مقروناً بالصمم، فنزل منزلة من يدعي أنه قادر على ذلك لإصراره على دعائهم قائلاً: أنا أسمع وأهدي، على قصد تقوي الحكم، لا التخصيص، فعجب تعالى منه.

ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار في الضلال المفرط، بحيث لا ارعواء له عنه، لا توهم القصور من قبل الهادي، ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله وحده بالقسر والإلجاء، يعني: لا يقدر على إسماع الصم وهداية العمى، وجعل الكافر مؤمناً إلا الله وحده، لعظم قدرته وإحاطة تعلقها بكل مقدور.

ومعنى الآية: أي أفأنت^(١) تسمع من قد سلبهم الله استماع حججه التي ذكرها في كتابه، أو تهدي إلى طريق الحق، من أعمى قلوبهم عن أبصارها، واستحوذ عليهم الشيطان، فزين لهم طريق الردى.

والخلاصة: أن ذلك ليس إليك إنما ذلك إلى من بيده تصريف القلوب، وتوجيهها إلى حيث شاء، فعليك البلاغ وعلينا الحساب.

وبعد أن أياسه من إيمانهم، سلاه بالانتقام منهم لأجله، إما حال حياته، أو بعد مماته، فقال: ﴿فَإِنَّمَا نَذِيرٌ بِكَ﴾ أصله^(٢): إن ما على أن ﴿إِنْ﴾ للشرط و﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد، بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة؛ أي: فإن قبضناك وأمتناك يا محمد، وأذهبناك من الدنيا، قبل أن نبصرك عذابهم، ونسفي بذلك صدرك، وصدر المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من هؤلاء المشركين ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة ﴿أَوْ نُرِيَّتَكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ﴾ أو إن أردنا أن

(٢) روح البيان.

(١) المراغي.

نريك العذاب الذي وعدناهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقَدِّرُونَ﴾ لا يفوتونا، لأنهم تحت قهرنا وقدرتنا. وفي الآية تسلية النبي ﷺ، بأنه تعالى ينتقم من أعدائه ومنكره، إما في حال حياته، وإما بعد مماته، وإنه قادر على انتقامهم بواسطته كما كان في يوم بدر، أو بغير واسطة، كما كان في زمن أبي بكر - رضي الله عنه وغيره. وقرئ ﴿نرينك﴾ بالنون الخفيفة.

ومعنى الآية^(١): أي فإن نذهب بك أيها الرسول من بين أظهر المشركين، بموت أو غيره، فإننا منهم منتقمون، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم، المكذبة لرسولها، أو نرينك الذي وعدناك من الظفر بهم، وعلائك عليهم، فإننا عليهم مقتدرون، فنظهرك عليهم، ونخزيهم بيديك، وأيدي المؤمنين، وفي التعبير بالوعد، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، إشارة إلى أن ذلك سيقع حتماً، وهكذا كان، فإنه لم يقبض رسوله ﷺ حتى أقر عينيه من أعدائه، وحكمه في نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم، قاله السدي، واختاره ابن جرير.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يستمسك بما أوحى به إليه، فيعمل به، فقال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ يا محمد ﴿بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾؛ أي: تمسك بالقرآن الذي أنزل عليك بمراعاة أحكامه، وإن كذب به من كذب، سواء عجلنا لك الموعد، أو أخرناه إلى يوم الآخرة ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: طريق سوي لا عوج له، وهو طريق التوحيد ودين الإسلام، والجملة تعليل لقوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾.

وفي «التأويلات النجمية»: فاعتصم بالقرآن، فإنه جبل الله المتين، بأن تتخلق بخلقه وتدور معه حيث يدور، وقف حيث ما أمرت، وثق ببرك فإنك على صراط مستقيم، تصل به إلى حضرة جلالنا ﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: وإن هذا القرآن الذي أوحى إليك ﴿لَذِكْرٌ﴾؛ أي: لشرف عظيم ﴿لَكَ﴾ خصوصاً ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾؛ أي: لأمتك عموماً كما قال عليه السلام: «إن لكل شيء شرفاً يباهى به، وإن أمتي تباهى وشرفها القرآن»

(١) المراغي.

فالمراد بالقوم^(١): الأمة، كما قال مجاهد، وقال بعضهم: ولقومك من قريش حيث يقال: إن هذا الكتاب العظيم، أنزله الله على رجل من هؤلاء، قال في «الكواشي»: أولاهم بذلك الشرف الأقرب، فالأقرب منه ﷺ، كقريش، ثم بني هاشم، وبني المطلب. قال ابن عطاء: شرف لك بانتسابك إلينا، وشرف لقومك بانتسابهم إليك؛ أي: لأن الانتساب إلى العظيم عظم، وإلى الشريف شرف.

ثم جمع الله النبي ﷺ مع قومه فقال: ﴿وَسَوْفَ تُنْقَلُونَ﴾ يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه، وعن تعظيمكم وشرككم على أن رزقتموه، وخصصتم به من بين العالمين. وقال القرطبي والصحيح: أنه شرف لمن عمل به كان من قريش، أو من غيرهم، انتهى.

ومعنى الآية^(٢): أي فخذ يا محمد بهذا القرآن، المنزل على قلبك، فإنه هو الحق المفضي إلى الصراط المستقيم، والموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم، وإنه لشرف عظيم لك، ولقومك؛ لأنه نزل بلغتهم على رجل منهم، فهم أفهم الناس به، فينبغي أن يكونوا أسبق الناس إلى العمل به، وسوف تسألون يوم القيامة عن حقه، وأداء شكر النعمة فيه.

أخرج الطبراني وابن مردويه عن عدي بن حاتم قال: كنت قاعداً عند النبي ﷺ فقال: «ألا إن الله تعالى، علم ما في قلبي من حبي لقومي، فبشرني فيهم»، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الآية، فجعل الذكر والشرف لقومي، إلى أن قال: «فالحمد لله الذي جعل الصديق من قومي، والشهيد من قومي، وإن الله قلب العباد ظهراً وبطناً، فكان خير العرب قريش، وهي الشجرة المباركة». ثم قال عدي: ما رأيت رسول الله ﷺ ذكرت عنده قريش بخير، إلا سره، حتى يتبين ذلك السرور في وجهه للناس كلهم اهـ.

ونظير الآية، قوله في سورة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

أي: شرفكم، فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم، وصاروا عيالاً عليهم، حتى يقفوا على معانيه من أمر ونهي، وأنباء وقصص، وحكمة وأدب.

وروى الترمذي عن معاوية - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم فيه أحد، إلا أكبه الله تعالى على وجهه، ما أقاموا الدين». وفي الآية، إيماء إلى أن الذكر الجميل، والثناء الحسن، أمر مرغوب فيه، ولولا ذلك ما امتن الله على نبيه محمد ﷺ به، ولما طلبه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ وقال ابن دريد:

إِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ كُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى
وقال المتنبي:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمُرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُّوْهُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ
وخلاصة ما سلف: أن القرآن نزل بلغة العرب، وقد وعد الله بنشر هذا الدين، وأنباء العرب هم العارفون بهذه اللغة، فهم الملزمون بنشرها، ونشر هذا الدين للأمم الأخرى، فمتى قصروا في ذلك، أذلهم الله تعالى في الدنيا، وأدخلهم النار في الآخرة، فعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب، ويعلموا أنهم هم المعلمون للأمم، فينشروا هذا القرآن، ويكتبوا المصاحف باللغة العربية، ويضعوا على هوامشها تفاسير بلغات مختلفة، كالإنجليزية والألمانية والروسية والأرومية، تعرّف الأمم كلها هذا الدين، معرفة حقّة خالية من الخرافات، التي ألصقتها به المبتدعون ويعود سيرته الأولى، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم وبخ مشركي قريش، بأن ما هم عليه من عبادة الأوثان والأصنام، لم يأت في شريعة من الشرائع فقال: ﴿وَسَلِّ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ في محل النصب على أنه مفعول ﴿إِسْأَلْ﴾، وهو على حذف المضاف. لاستحالة السؤال من الرسل حقيقة، والمعنى: وإسأل أمم من أرسلنا ﴿بَيْنَ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ وعلماء دينهم.

وفائدة هذا المجاز: التنبيه على أن المسؤول عنه، عين ما نطقت به السنة الرسل، لا ما يقوله أممهم وعلمائهم من تلقاء أنفسهم ﴿أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ أي: هل حكمنا بعبادة الأوثان، وهل جاءت في ملة من مللهم، والمراد به: الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه، حتى يكذب ويعادى له، فإنه أقوى ما حملهم على التكذيب والمخالفة.

قال ابن الشيخ: السؤال يكون لرفع الالتباس، ولم يكن رسول الله يشك في ذلك، وإنما الخطاب له والمراد غيره، قالت عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية، قال ﷺ: «ما أنا بالذي أشك، وما أنا بالذي أسأس».

والمعنى^(١): أي واسأل أمم من أرسلنا من قبلك من الرسل، هل حكمنا بعبادة غير الله؟ وهل جاء ذاك في ملة من الملل، أو المراد بهذا الاستشهاد بإجماع المسلمين على التوحيد، والتنبيه على أن محمداً ﷺ ليس ببدع من بين الرسل في الأمر، حتى يكذب ويعادى له؟

وقصارى ذلك: أن الرسل جميعاً دعوا إلى ما دعا إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام، ونحو الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. وجعل الزمخشري السؤال في الآية مجازاً على النظر في أديانهم، والفحص عن مللهم، على أنه نظير قولهم: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك.

وللآية وجه آخر^(٢)، بحملها على ظاهرها من غير تقدير مضاف، وهو ما روى أنه ﷺ، لما أسري به إلى المسجد الأقصى، حشر إليه الأنبياء، والمرسلون من قبورهم، ومثلوا له، فأذن جبرائيل، ثم أقام، وقال: يا محمد تقدم فصل بإخوانك الأنبياء والمرسلين، فلما فرغ من الصلاة، قال له جبرائيل: زعمت قريش، أن الله شريكاً، وزعمت اليهود والنصارى، أن الله ولد، سل يا محمد، هؤلاء النبيين، هل كان الله شريك؟ ثم قرأ ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾

(٢) روح البيان.

(١) المراغي.

الآية، فقال ﷺ: لا أسأل، وقد اكتفيت، ولست بشاك فيه، فلم يشك فيه، ولم يسأل، وكان أثبت يقيناً من ذلك.

قال أبو القاسم، المفسر في كتاب «التنزيل» له: إن هذه الآية أنزلت على النبي ﷺ ببيت المقدس، ليلة المعراج، فلما أنزلت وسمعتها الأنبياء عليهم السلام، أقرؤا الله تعالى بالوحدانية، وقالوا: بعثنا بالتوحيد، انتهى.

قصة موسى عليه السلام مع فرعون اللعين

ولما أعلم سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوه، وذكر اتفاق الأنبياء على التوحيد، أتبعه بذكر قصة موسى وفرعون، وبيان ما نزل بفرعون وقومه من النعمة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد بعثنا موسى بن عمران عليه السلام، حال كونه متلبساً ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ومعجزاتنا التسع الدالة على صحة نبوته ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ اللعين ﴿وَمَلَأْنَاهُ﴾؛ أي: أشرف قومه، والإرسال إلى الأشراف إرسال إلى الأراذل؛ لأنهم تابعون لهم ﴿فَقَالَ﴾ موسى لهم ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليكم فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ موسى ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ليسعدوا وينتهوا وينتفعوا بها، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ مرتب على محذوف، تقديره: فطلبوا منه الآيات الدالة على صدقه، فلما جاءهم إلخ، كما يدل عليه ما في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا﴾ إلخ. ﴿إِذَا﴾ فجائية رابطة لجواب لما الشرطية ﴿هُمْ مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك الآيات ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بها، ويسخرون منها، ويهزؤون بها؛ أي: فاجؤوا المجيء بها بالضحك، سخرية من غير توقف، ولا تأمل، وإذا هنا حرف فجأة لا ظرف، كما زعمه الزمخشري؛ أي: استهزؤوا بها، وكذبوها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها، وقالوا: سحر وتخيل ظلماً وعلواً.

والمعنى^(١): أي فلما جاءهم موسى بالأدلة على صدق قوله، فيما يدعوهم إليه من توحيد الله، وترك عبادة الآلهة، إذا فرعون وقومه يضحكون من تلك

(١) المراغي.

المعجزات، كما أن قومك يسخرون مما جئتهم به، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ على، ما كان يلقاه من قومه المشركين، وإعلام له بأن قومه لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم، الذين كانوا على مناهجهم في الكفر بالله، وتكذيب رسله، وندب له أن يستن بسنة أولي العزم من الرسل، في الصبر على أذى أقوامهم، وتكذيبهم لهم، وإخبار بأن عقبي أمرهم الهلاك، كسنته في الكافرين قبلهم، وظفره بهم، وعلو أمره، كما فعل بموسى عليه السلام وقومه، الذين آمنوا معه من إظهارهم على فرعون وملته.

﴿وَمَا تُرِيدُ﴾؛ أي: وما أرينا فرعون وملأه ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ من تلك الآيات؛ أي: حجة من حججنا الدالة على صدق رسولنا في دعواه الرسالة ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾؛ أي: إلا كانت أعظم من سابقتها في الحجية عليهم، وأكد في الدلالة على صحة ما يأمر به من توحيد الله؛ أي: كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها، وأعظم قدراً، مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها.

وقيل المعنى^(١): إن الأولى تقتضي علماً، فإذا ضمت الثانية إلى الأولى ازداد الوضوح، ومعنى الأخوة بين الآيات: أنها متشاكلة متناسبة في دلالتها على صحة نبوة موسى، كما يقال: هذه صاحبة هذه؛ أي: هما قرينتان في المعنى، وقيل: المعنى أن كل واحدة من الآيات إذا انفردت ظن الظان أنها أكبر من سائر الآيات، ومثل هذا: قول القائل:

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقْلٌ لَأَقِيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي
وجملة قوله: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ في محل جر، صفة لـ ﴿آيَةٍ﴾.

ثم بين ما جوزوا به على تكذيبهم، فقال: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ﴾؛ أي: أخذنا فرعون وقومه ﴿بِالْعَذَابِ﴾ وعاقبناهم بالسنين، والطوفان والجراد والدم والطمس ونحوها، وكانت هذه الآيات دلالات ومعجزات لموسى، وزجراً وعذاباً للكافرين ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لكي يرجعوا^(٢) عما هم عليه من الكفر، فإن من جهولية نفس

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

الإنسان، أن لا يرجع إلى الله على أقدام العبودية، إلا أن يجر بسلاسل البأساء والضراء إلى الحضرة الإلهية، فكلمة لعل، مستعارة لمعنى كي، وهو التعليل كما سبق في أول هذه السورة؛ أي: عاقبناهم بالعذاب لكي يرجعوا عما هم عليه من الكفر إلى الإيمان بالله وطاعته، والتوبة مما هم عليه مقيمون من المعاصي، ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات، والدلالات الواضحات، ظنوا أن ذلك من قبيل السحر ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: فرعون وقومه في كل مرة من العذاب، لما ضاق نطاق بشرتهم ﴿يَكَايَةُ السَّاحِرِ﴾ نادوه بذلك في مثل تلك الحالة؛ أي: عند طلب كشف العذاب بدعائه، لغاية عتوهم وغاية حماقتهم، أو سبق ذلك إلى لسانهم، على ما ألفوه من تسميتهم إياه بالساحر لفرط حيرتهم، قال سعدي المفتي: والأظهر: أن النداء كان باسمه العلم، كما في الأعراف، لكن حكى الله تعالى هنا كلامهم لا بعبارتهم، بل على وفق ما أضمرت قلوبهم، من اعتقادهم أنه ساحر، لاقتضاء مقام التسلية ذلك، فإن قريشاً أيضاً سموه ساحراً، وسموا ما أتى به سحراً، وعن الحسن قالوه على الاستهزاء، وقال بعضهم: قالوه تعظيماً، فإن السحر كان عندهم علماً عظيماً، وصفة ممدوحة والساحر فيهم عظيم الشأن، فكأنهم قالوا: يا أيها العالم بالسحر الكامل، الحاذق فيه، ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿يَمَّا عَهْدَ عِنْدَكَ﴾؛ أي: بسبب ما أخبرتنا من عهده إليك، أنا إن آمنا به كشفه عنا، أو بعهده عندك، وهو النبوة، فإن النبوة تسمى عهد الله، والباء حينئذ للقسمة؛ أي: ادع الله بحق ما عندك من النبوة، أو بما عهده عندك من استجابة دعوتك في كل شيء.

قال في «التأويلات النجمية»: ما قالوا مع هذا الاضطراب: يا أيها الرسول، وما قالوا: ادع لنا ربنا؛ لأنهم ما رجعوا إلى الله بصدق النية، وخلوص العقيدة. ليروه بنور الإيمان رسولاً، ويروا الله ربهم، وإنما رجعوا بالاضطرار لخلاص أنفسهم، لا لخلاص قلوبهم ﴿إِنَّا لَكَاهِتُونَ﴾؛ أي: لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك وعد منهم، معلق بشرط الدعاء، ولهذا تعرضوا للنبوة على تقدير صحتها، وقالوا: ربك، لا ربنا، فإنه إنما يكون ربهم بعد الإيمان؛ لأنهم قائلون بربوبية فرعون.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ مرتب على محذوف تقديره: فدعا موسى ربه فكشف عنهم العذاب، فلما كشفنا وأزلنا عنهم العذاب النازل بهم ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾؛ أي: فاجؤوا نقض عهدهم بالاهتداء، وهو الإيمان؛ أي: بادروا النكث ولم يؤخروه، وعادوا إلى كفرهم، وأصروا عليه، ولما نقضوا عهودهم صاروا ملعونين، ومن آثار لعنهم الغرق كما يأتي، فعلى العاقل الوفاء بالعهد، وقرأ أبو حيوه ﴿يَنْكُثُونَ﴾ بكسر الكاف.

والمعنى: فدعانا موسى فكشفنا عنهم العذاب فلم يؤمنوا، ونقضوا العهد، وقد كان هذا ديدنهم مع موسى، يعدونه في كل مرة أن يؤمنوا به، إذا كشف الرجز، ثم ينقضون ما عاهدوا الله عليه، ونحو الآية: ما جاء في سورة الأعراف من قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ إِنِّي مُمْضِلٌ فَلِئْسَ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾.

ثم أخبر سبحانه، عن تمرد فرعون وعتوه وعناده، فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه، أو بمناد أمره بالنداء ﴿فِي قَوْمِهِ﴾؛ أي: في مجتمعهم وفيما بينهم، بعد أن كشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمنوا فـ ﴿قَالَ يَفْقَهُوْا﴾ يريد الأقباط ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام التقريري. لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني مخالف، وهي أربعون فرسخاً في أربعين، وفي «فتح الرحمن»: وهو من نحو الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل، وأسوان بالضم، بلد بصعيد مصر، كما في «القاموس». قال في «روضة الأخبار»: مصر بلدة معروفة، بناها مصر بن حام بن نوح، وبه سميت مصر مصرأ.

﴿وَهَٰذِهِ أَلْأَنهَارُ﴾؛ أي: أنهار^(١) النيل، فاللام عوض عن المضاف إليه، والمراد بها: الخلجان الكبار الخارجة من النيل، ومعظمها أربعة أنهر، نهر

(١) روح البيان.

الملك وهو نهر الإسكندرية، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس، وهو بوزن سكين بلدة بجزيرة من جزائر بحر الروم، قرب دمياط، ينسب إليها الشباب الفاخرة، كما في «القاموس» ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِيَّ﴾؛ أي: من تحت قصري، أو بأمرى، والواو في قوله: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ إما عاطفة لهذه الأنهار على ملك، فجملة ﴿تَجْرِي﴾ حال منها، أو ﴿الواو﴾ للحال، فـ﴿هذه﴾ مبتدأ و﴿الأنهار﴾ صفتها، و﴿تَجْرِي﴾ خبر للمبتدأ.

قال في «خريدة العجائب»: ليس في الدنيا نهر أطول من النيل؛ لأن مسيرته شهران في الإسلام، وشهران في الكفر، وشهران في البرية، وأربعة أشهر في الخراب، ومخرجه من بلاد جبل القمر، خلف خط الاستواء، وسمي جبل القمر؛ لأن القمر لا يطلع عليه أصلاً، لخروجه عن خط الاستواء، وميله عن نوره، وضوءه يخرج من بحر الظلمة؛ أي: البحر الأسود، ويدخل تحت جبل القمر، وليس في الدنيا نهر يشبه النيل إلا نهر مهران، وهو نهر السند، وقال الضحاك^(١): أراد بالأنهار القواد والرؤساء والجبابرة، وأنهم تحت لوائه، وقيل: أراد بالأنهار الأموال، والأول أولى؛ لأن هذين التفسيرين يشبهان تفسير الباطنية، والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخل على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتعلمون فلا تبصرون عظمتي وقدرتي، وعجز موسى، و﴿أم﴾ في قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ منقطعة، تقدر ببل الإضرابية، وبهمزة الاستفهام التقريرية؛ لأن غرضه حملهم على الإقرار بخيريته، كأنه قال إثر ما عدد أسباب فضله، ومبادئ خيريته، أثبت عندكم واستقر لديكم، أني أنا خير من هذا الذي هو مهين؛ أي: بل أنا خير ﴿مِنْ هَذَا﴾ الساهر ﴿الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾؛ أي: ضعيف، حقير، فقير، ذليل، لا قدر ولا ملك له، من المهانة، وهي الذلة ﴿وَلَا يَكَاذُ﴾؛ أي: لا يقرب ﴿يُبِينُ﴾ الكلام، ويوضحه ويبينه للكنة، ورتة في لسانه، فكيف يصلح للنبوة والرسالة، يريد أنه ليس معه من آيات الملك والسياسة، ما يعتضده ويتقوى به، كما قالت

(١) الشوكاني.

قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهو في نفسه، خال عما يوصف به الرجال من الفصاحة والبلاغة، وكان الأنبياء كلهم فصحاء بلغاء، قاله افتراءً على موسى، وتنقيصاً له في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من نوع رته، حدثت بسبب الجمرة، وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (٣٦) والرتة: غير اللثغة، وهي حبسة في اللسان، تمنعه من الجريان، وسلاسة التكلم، واللثغة: إبدال حرف بحرف، كإبدال الراء غيناً، والسين ثاء مثله. وفي «التأويلات النجمية»: تشير الآية، إلى أن من تعزز بشيء من دون الله، فحتفه وهلاكه في ذلك الشيء، فلما تعزز فرعون بملك مصر، وجري النيل بأمره، كان فيه هلاكه، وكذلك من استصغر أحداً سلط عليه، كما أن فرعون استصغر موسى عليه السلام وحديثه، وعابه بالفقر واللكنة، فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾، فسلطه الله عليه، وكان هلاكه على يديه، وفيه إشارة أخرى، وهي أن قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾، هو من خصوصية صفة إبليس، فكانت هذه الصفة توجد في فرعون، وكان من صفة فرعون قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، ولم توجد هذه الصفة في إبليس، وقرأ الباقر ﴿يبين﴾ بفتح الياء، من بان إذا ظهر.

والمعنى^(١): أي بل أنا ولا شك خير وأفضل بما لي من الملك والسلطة والسعة والجاه من هذا؛ أي: من موسى الذي هو ضعيف، حقير ممتهن في نفسه، لا عز له، ولا يكاد يبين الكلام، ويفصح عما يريد، لما في لسانه من العقدة بسبب الجمرة، وهذا حكم عليه بما يعلم منه في الماضي، دون أن يعلم أن الله الكريم، أزال عنه عقده حين دعا، فقال: ﴿وَأَحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ (٧٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٧٨) فحل عقدة لسانه، كما جاء في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾.

قال الحسن البصري: إنه قد بقي منها شيء لم يسأل زواله، وإنما سأل زوال ما يمنع الإبلاغ والإفهام اهـ. والأشياء الخلقية لا يعاب بها المرء ولا يذم،

(١) المراغي.

لكنه أراد الترويج على رعيته، وصدهم عن الإيمان به.

ثم ذكر شبهة مائعة له من الرياسة، وهي أنه لا يلبس لبس الملوك، فلا يكون رئيساً ولا رسولاً لتلازمهما في زعمه، فقال: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ قاله توبيخاً^(١) ولوماً على ترك الفعل، على ما هو مقتضى حرف التحضيض، الداخِل على الماضي، والأسورة جمع سوار بالكسر والضم، وهو ما يلبس في الساعد، والذهب جسم ذائب صاف، منطرق، أصفر، كما سيأتي.

والمعنى: فهلا أُلقي على موسى، وأُعطي مقاليد الملك، إن كان صادقاً في مقالته في رسالته، فيكون حاله خيراً من حالي، والملقي هو رب موسى من السماء، وإلقاء الأسورة كناية عن إلقاء مقاليد الملك؛ أي: أسبابه التي هي كالمفاتيح له، وكانوا إذا سودوا رجلاً سوروه بسوارين، وطوقوه بطوق من ذهب علما على رياسته، ودلالة لسيادته؛ أي: فهلا أُلقي رب موسى عليه أساور من ذهب، فيتحلّى بها إن كان صادقاً، في أن له رباً أرسله إلينا، كما جرت عادتهم بذلك، وهذا شبيه بما قال كفار قريش في عظيم القريتين.

وقرأ الضحاك^(٢): ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ﴾: مبني للفاعل؛ أي: الله ﴿أَسَاوِرَةً﴾: بالنصب، وقرأ الجمهور: ﴿أَسَاوِرَةً﴾: بالرفع. وقرأ أبي وعبد الله: ﴿أَسَاوِيرَ﴾ جمع إسوار، لغة في سوار، وقرأ الحسن وقتادة وأبو رجاء والأعرج ومجاهد وأبو حيوة وحفص: ﴿أَسْوِرَةً﴾ جمع سوار، نحو: خمار وأخمرة، وقرأ الأعمش ﴿أَسَاوِرَ﴾، ورويت عن أبي وعن أبي عمرو.

ثم ذكر شبهة أخرى، وهي أنه ليس له خدم من الملائكة تعينه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ جَآءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾؛ أي: حالة كونهم متقارنين متتابعين، أو مقرونين بموسى منضمين إليه: إن كان صادقاً يعينونه على أمره، ويشهدون له بالنبوة، ويمشون معه، كما نفعل نحن، إذا أرسلنا رسولاً في أمر هام يحتاج إلى دفاع، وفيه خصام ونزاع، وهو بهذا، أوهم قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على

(٢) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

هيئة الجبابة، أو يكونوا محفوفين بالملائكة.

ثم ذكر أن هذه الخدع قد غلبت عليهم، و سحرت ألبابهم لغفلتهم، وضعف عقولهم، فاعترفوا بربوبيته، وكذبوا بنبوة موسى، فقال: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ﴾؛ أي: فاستجهل قومه، واستحق عقولهم بقوله وكيده، وبما أبداه لهم من عظمة الملك والرياسة، وجعلها مناطاً للعلم والنبوة، وأنه لو كانت هناك نبوة، لكان هو أولى بها ﴿فَاطَاعُوهُ﴾ أي: فامتثلوه فيما أمرهم به من تكذيب موسى وإقرار ربوبيته، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾؛ أي: خارجين عن طاعة الله تعالى، تعليل لطاعتهم له؛ أي: أطاعوه فيما أمرهم به؛ لأنهم كانوا قوماً ذوي فسق وضلال وغي، ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة ذلك الفاسق، الغوي، اللعين.

ثم ذكر جزاءهم على ما اجتروا من تكذيب رسوله، على وضوح الدليل، وظهور الحق، فقال: ﴿فَلَمَّا عَاسَفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا بعنادهم وعظيم استكبارهم، وبغيهم في الأرض، والأسف محرراً: الغضب، وقيل: أشد الغضب، وقيل: السخط^(١)، وحقيقته ثوران دم القلب إرادة الانتقام، فمتى كان ذلك على من دونه، انتشر فصار غضباً، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزناً.

والمعنى: فلما أغضبنا فرعون وقومه أشد الغضب، بالإفراط في العناد والعصيان، وغضب الله نقيض الرضى، أو إرادة الانتقام، أو تحقيق الوعيد، أو الأخذ الأليم، أو البطش الشديد، أو هتك الأستار والتعذيب بالنار، أو تغيير النعمة، وقيل: المعنى: أغضبوا رسولنا موسى عليه السلام. بتكذيبه وعدم طاعته ﴿أَنقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أردنا أن نعجل لهم انتقامنا وعذابنا، وأن لا نحلم عنهم، وفي «كشف الأسرار»: أحللنا بهم النعمة والعذاب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ في «البحر»، تفسير للانتقام؛ أي: فأهلكناهم المطاع والمطيعين له ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بالإغراق في

(١) روح البيان.

اليم، لم نترك منهم أحداً، وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعزوا به، وهو الماء في قوله: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ﴾.

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب»، وابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه.. فإنما ذلك استدراج منه له»، وقرأ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا﴾؛ أي: قدوة لمن عمل بعلمهم من الكفار، في استحقاق العذاب ككفار قومك.

وقرأ الجمهور^(١): ﴿سُلَفًا﴾ بفتح السين واللام جمع سالف، كخدم وخدام وحرس وحارس، يعني: اسم جمع له؛ لأن فعلاً ليس من أبنية الجموع المكسرة، قال ابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة؛ أي: جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون. وقرأ^(٢) أبو عبد الله. وأصحابه، وسعيد بن عياض والأعمش وطلحة والأعرج وحمزة والكسائي: ﴿وسلفاً﴾ بضم السين وضم اللام جمع سليف، كسر وسرير، وقال أبو حاتم: هو جمع سلف، كخشب وخشب، وقرأ علي وابن مسعود ومجاهد وأبو وائل والنخعي وحميد بن قيس والأعرج أيضاً ﴿وسلفاً﴾ بضم السين وفتح اللام جمع سلفة، كغرفة وغرف، وهي الفرقة المتقدمة والقطيعة من الناس.

﴿و﴾ جعلناهم أيضاً ﴿مثلاً﴾ وعبرةً وتذكرةً ﴿لِلْآخِرِينَ﴾؛ أي: لمن يأتي بعدهم من الكافرين؛ أي: جعلناهم حديثاً عجيب الشأن، سائراً مسير المثل، يحدث به الآخرون من الكفار، يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، فاللام متعلق بكل من ﴿سُلَفًا﴾ ﴿وَمَثَلًا﴾ على سبيل التنازع.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ

(٢) البحر المحيط.

(١) البحر المحيط.

سَيِّدِينَ ﴿٧٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٧٩﴾.

﴿وَأَذِ﴾: الواو: استئنافية، ﴿إِذِ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجبر مضاف إليه لـ ﴿إِذِ﴾، ﴿لِأَيِّهِ﴾: متعلق بـ ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَوْمِهِ﴾: معطوف على ﴿أَبِيهِ﴾، ﴿إِنِّنِّي﴾: ناصب واسمه، والنون نون الوقاية، ﴿بِرَأْيِ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنْ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ ﴿بِرَأْيِ﴾، وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلة لما الموصولة ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿الَّذِي﴾ مستثنى في محل النصب على الاستثناء، والاستثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً، بناء على أنهم كانوا يشركون مع الله الأصنام، ورجح أبو حيان كون الاستثناء منقطعاً، إذ كانوا لا يعبدون الله مع الأصنام، ﴿فَطَرَنِي﴾: فعل وفاعل مستتر، ونون وقاية ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء: تعليلية. ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿سَيِّدِينَ﴾ خبره، والسين للتأكيد، لا للاستقبال كما مر؛ أي: يديم هدايتي في المستقبل والحال، والمفعول به محذوف؛ أي: سيهديني لرعاية الفاصلة، وجملة ﴿إِنْ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَجَعَلَهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جَعَلَهَا﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، أو على الله، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾، ﴿كَلِمَةً﴾: مفعول ثان، ﴿بَاقِيَةً﴾: صفة لـ ﴿كَلِمَةً﴾، ﴿فِي عَقِيهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿بَاقِيَةً﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ناصب واسمه وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لَعَلَّ﴾ تعليلية، لا محل لها من الإعراب، ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب عن محذوف، تقديره: فلم يحصل ما رجاه إبراهيم. ﴿مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على الجملة المحذوفة، ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾: معطوف على هؤلاء، أو مفعول معه ﴿حَقَّقْ﴾ حرف جر وغاية، ﴿جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾: فعل، ومفعول، وفاعل في محل النصب بأن المضمرة بعد حتى الجارة، ﴿وَرَسُولٌ﴾: معطوف على ﴿الْحَقُّ﴾، ﴿مُبِينٌ﴾ صفة رسول، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَقَّقْ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى

مجيء الحق إياهم ورسول مبين، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿مَتَّعْتُ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٢٦) أَهْمَرُ يَقْسِمُونَ رَحِمْتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلَخِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢٧).

﴿وَلَمَّا﴾: الواو: عاطفة، أو استئنافية، ﴿لَمَّا﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل جواب لما، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾، أو مستأنفة، ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل نصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿وَإِنَّا﴾: الواو: عاطفة، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ ﴿كَافِرُونَ﴾، و﴿كَافِرُونَ﴾: خبر ﴿إِن﴾، وجملة ﴿إِن﴾ معطوفة على ما قبلها، على كونها مقولاً لـ ﴿قَالُوا﴾، ﴿وَقَالُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿قَالُوا﴾ الأولى ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا. ﴿نُزِّلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ﴿هَذَا﴾: نائب فاعل، ﴿الْقُرْآنُ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان له، والجملة الفعلية في محل نصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾ متعلق بـ ﴿نُزِّلَ﴾، ﴿مِنَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ صفة أولى لـ ﴿رَجُلٍ﴾. ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة ثانية له، ﴿أَهْمَرُ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري التجهيلي، ﴿هَمَّ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَقْسِمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة إنشائية. ﴿رَحِمْتَ رَبِّكَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿قَسَمْنَا﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿قَسَمْنَا﴾، ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾: مفعول به، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: حال من ضمير ﴿مَّعِيشَتَهُمْ﴾؛ لأن المضاف كالجاء من المضاف إليه، ﴿وَرَفَعْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَسَمْنَا﴾، ﴿بَعْضُهُمْ﴾: مفعول به. ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿رَفَعْنَا﴾، ﴿دَرَجَاتٍ﴾: تمييز محول عن المفعول، أو منصوب بنزع الخافض، كما مر، ﴿لِّيَتَّخِذَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل. ﴿يَتَّخِذَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة

بعد لام كي، ﴿بَعْضُهُمْ﴾ فاعل، ﴿بَعْضًا﴾: مفعول أول لـ ﴿يَتَّخِذُ﴾. ﴿سُخْرِيًّا﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لاتخاذ بعضهم بعضاً سخرياً، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿رَفَعْنَا﴾، ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّيكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿رَحِمْتُ رَبِّيكَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾، وجملة ﴿يَجْمَعُونَ﴾: صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره: مما يجمعونه.

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِنَ يَكْفُرَ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَنَّهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٢٣).

﴿وَلَوْلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود، ﴿أَن﴾ حرف مصدر ونصب، ﴿يَكُونَ﴾: فعل ناقص منصوب بـ ﴿أَن﴾، ﴿النَّاسُ﴾: اسمها. ﴿أُمَّةً﴾: خبرها، ﴿وَاحِدَةً﴾: صفة ﴿أُمَّةً﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر، مجرور بإضافة المبتدأ المقدر إليه، وخبر ذلك المبتدأ محذوف وجوباً، والتقدير: ولولا كراهية كون الناس أمة واحدة موجود، والجملة الاسمية شرط لـ ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَجَعَلْنَا﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿لِنَ﴾: في موضع المفعول الثاني لـ ﴿جَعَلْنَا﴾، وجملة ﴿يَكْفُرُ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾: متعلق بـ ﴿يَكْفُرُ﴾، ﴿لِيُثْبِتَنَّهُمْ﴾ بدل اشتمال من ﴿لِنَ يَكْفُرُ﴾ بإعادة الجار، ﴿سُقْفًا﴾ مفعول أول لـ ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿مِّنْ فَضَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿سُقْفًا﴾، وجملة ﴿جَعَلْنَا﴾ جواب ﴿لولا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة، ﴿وَمَعَارِجَ﴾ معطوف على ﴿سُقْفًا﴾، ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَظْهَرُونَ﴾، وجملة ﴿يَظْهَرُونَ﴾ صفة لـ ﴿مَعَارِجَ﴾.

﴿وَلِيُثْبِتَنَّهُمْ أَتْرَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ (٢٤) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢٥).

﴿وَلِيُثْبِتَنَّهُمْ﴾: معطوف على قوله ﴿لبيوتهم﴾، وكرر لفظ البيوت لزيادة التقرير، ﴿أَتْرَابًا﴾ معطوف بعاطف مقدر على ﴿سُقْفًا﴾، أو منصوب بفعل محذوف،

مماثل للأول، فيكون من عطف الجمل؛ أي: ولجعلنا لبيوتهم أبواباً ﴿وَسُرّاً﴾: معطوف على أبواباً، ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَتَكُونُ﴾، وجملة ﴿يَتَكُونُ﴾ صفة لـ﴿سُرّاً﴾، ﴿وَزُخْرُفًا﴾: معطوف على أبواباً، أو مفعول به لفعل محذوف؛ أي: ولجعلنا لهم زخرفاً، وعطفه الزمخشري على محل ﴿مِنْ فَضَّةٍ﴾، كأنه قال: سقفاً من فضة وذهب؛ أي: بعضها من فضة وبعضها من ذهب. ﴿وَأَنْ﴾: ﴿الواو﴾: استثنائية. ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد، حرف بمعنى إلا الاستثنائية، استثناء مفرغاً، ﴿مَتَّعَ﴾: خبر المبتدأ. ﴿الْحَيَوَّةَ﴾: مضاف إليه، ﴿الَّذِي﴾: صفة لـ﴿الْحَيَوَّةَ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، وقرئ بتخفيف لما، و﴿إِنْ﴾ حينئذ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً، ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿لَمَّا﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿مَا﴾: زائدة، ﴿مَتَّعَ لِّلْحَيَوَّةَ﴾: خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ والخبر خبر لـ﴿إِنْ﴾ المخففة، وجملة ﴿إِنْ﴾ المخففة مستأنفة، ﴿وَالْآخِرَةُ﴾: مبتدأ، ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿الْآخِرَةُ﴾ أو من الضمير المستكن في الخبر، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٢١﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: استثنائية، ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يَعْشُ﴾: فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾: متعلق بـ﴿يَعْشُ﴾، ﴿نُقَيِّضْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، مجزوم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿نُقَيِّضْ﴾، ﴿شَيْطَانًا﴾: مفعول به، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿فَهُوَ﴾ الفاء: عاطفة تفرعية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿لَهُ﴾ حال من ﴿قَرِينٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿قَرِينٌ﴾ خبر هو، والجملة الاسمية معطوفة على جملة جواب الشرط، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿يَصُدُّونَهُمْ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿يَصُدُّونَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ متعلق بـ﴿يَصُدُّونَهُمْ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية، أو على جملة

الجواب ﴿وَيَحْسُبُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿إِنَّ﴾، ﴿أَنْتُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿مُتَهَتِّدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿أَنْ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي حسب؛ أي: يحسبون اهتداءهم.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقَرِينُ﴾.

﴿حَقَّ﴾: حرف ابتداء وغاية، لدخولها على الجملة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿جَاءَنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعل مستتر يعود على العاشي، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على العاشي، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر بـ﴿حَقَّ﴾ الجارة، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: فهو له قرين، إلى قوله: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ وقت مجيئه إيانا. ﴿يَلَيْتَ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، والمنادى محذوف، تقديره: يا هذا القرين، ﴿ليت﴾: حرف تمن ونصب، ﴿بَيْنِي﴾ ظرف متعلق بمحذوف، خبر ﴿ليت﴾ مقدم على اسمها، ﴿وَبَيْنَكَ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِي﴾، ﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾: اسم ﴿ليت﴾ مؤخر، ومضاف إليه، وجملة النداء مع جملة التمني في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَيَلْسَ﴾: الفاء: استثنائية. ﴿يلس﴾ فعل ماضٍ من أفعال الذم. ﴿الْقَرِينُ﴾: فاعل، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً تقديره: أنت، وجملة ﴿يلس﴾ في محل الرفع خبر لهذا المخصوص، المحذوف، والجملة الاسمية جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

﴿وَلَنْ﴾: ﴿الواو﴾: استثنائية، ﴿لَنْ﴾ حرف نصب، ﴿يَنْفَعَكُمْ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿لَنْ﴾، والكاف مفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على التمني المفهوم من ﴿ليت﴾، والجملة مستأنفة، ﴿الْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَنْفَعَكُمْ﴾، ﴿إِذْ﴾: حرف تعليل بمعنى اللام، أو ظرف لما مضى من الزمان، بدل من اليوم، ﴿ظَلَمْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف

لـ ﴿إِذْ﴾، أو في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بـ ﴿إِذْ﴾ التعليلية؛ أي: ولن ينفعكم تمنيتكم اليوم، وندمكم لظلمكم في الدنيا، ﴿أَنْتُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ متعلق بـ ﴿مُشْرِكُونَ﴾، و﴿مُشْرِكُونَ﴾ خبر ﴿أَنْ﴾، وجملة ﴿أَنْ﴾ مسوقة لتعليل الظلم، لا محل لها من الإعراب، وقرئ أنكم بفتح الهمزة، ففاعل النفع حيثئذ المصدر، المؤول من ﴿أَنْ﴾ والتقدير: ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب، لظلمكم في الدنيا.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٣﴾ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِضُونَ ﴿٤٤﴾ أَوْ نُزَيِّنَكَ أَلَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَفَأَنْتَ﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري التعجبي، داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنت تتعب نفسك، فأنت تسمع الصم، والجملة المحذوفة مستأنفة، مسوقة لتسليته ﷺ، ﴿أَنْتَ﴾: مبتدأ، ﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿تَهْدِي الْأَعْمَى﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُسْمِعُ﴾، ﴿وَمَنْ﴾: اسم موصول في محل نصب، معطوف على العمي، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: خبرها، ﴿مُبِينٍ﴾ صفة ﴿ضَلَالٍ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصح من جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكر، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك: ﴿إِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ حرف شرط جازم ﴿مَا﴾ زائدة ﴿نَذْهَبَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد حرف، لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير يعود على الله سبحانه، ﴿بِكَ﴾: متعلق بـ ﴿نَذْهَبَنَّ﴾، ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿مُنْقِضُونَ﴾، و﴿مُنْقِضُونَ﴾ خبر ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل نصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة،

﴿أَوْ﴾ حرف عطف وتفصيل، ﴿زُرَيْكَ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية معطوف على ﴿نَذَهَبَنَّ﴾ لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الله، والكاف مفعول أول، ﴿الَّذِي﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿أَرَى﴾، لأنها بصرية تعدت بالهمزة إلى مفعولين، ﴿وَعَدْنَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وعدناهموه، ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿مُقَدِّرُونَ﴾، و﴿مُقَدِّرُونَ﴾ خبر ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية المقدرة بالعطف على كونها جواباً لها.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٢٧٣ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٢٧٤﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٢٧٥﴾.

﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك استمسك. ﴿استمسك﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿بِالَّذِي﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿أُوحِيَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿أُوحِيَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ﴾ خبره ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾: صفة ﴿صِرَاطٍ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَإِنَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَذِكْرٌ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿ذِكْرٌ﴾ خبر ﴿إِنْ﴾. ﴿لَكَ﴾ متعلق بـ﴿ذِكْرٍ﴾، أو صفة له، ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾: معطوف على ﴿لَكَ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنْ﴾ الأولى، ﴿وَسَوْفَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿سَوْفَ﴾: حرف تسويف، ﴿تُسْأَلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنْ﴾ فعلية على اسمية، ﴿وَسَلِّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اسْأَلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة معطوفة على جملة ﴿استمسك﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل

النصب مفعول أول لـ ﴿أَسَأَلَ﴾، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، صلة من الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من أرسلناه. ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾: متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿مِنْ رُسُلِنَا﴾: حال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف، ﴿أَجْعَلْنَا﴾: الهمزة: للاستفهام الاستخباري ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾: في موضع المفعول الثاني لـ ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول أول لـ ﴿جَعَلْنَا﴾، وجملة ﴿يُعْبَدُونَ﴾: صفة لـ ﴿ءَالِهَةً﴾، وجملة ﴿جَعَلْنَا﴾ في محل نصب سدت مسد المفعول الثاني، لـ ﴿سَأَلَ﴾ المعلق عنها بهمزة الاستفهام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿بِآيَاتِنَا﴾: حال من موسى، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿وَمَلَئِهِۦ﴾ معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ﴿فَقَالَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ناصب واسمه وخبره، ومضاف إليه، وجملة ﴿إِنْ﴾ في محل نصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة على مقدر تقديره: فطلبوا منه الآيات، ﴿لَمَّا﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿جَاءَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متعلق بـ ﴿جَاءَهُمْ﴾، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِذَا﴾: حرف فجأة رابطة لجواب ﴿لَمَّا﴾، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ ﴿يَضْحَكُونَ﴾، وجملة ﴿يَضْحَكُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ معطوفة على الجملة المقدرة.

﴿وَمَا يُرِيدُ مِنَ آيَةِ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عِهْدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استثنائية، أو عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿تُرِيهِمْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول، والجملة مستأنفة أو معطوفة على ما قبلها، ﴿مِنْ﴾: زائدة، ﴿آيَةٍ﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿تُرِي﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هِيَ أَكْبَرُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مِنْ أُخْتِهَا﴾: متعلق بـ ﴿أَكْبَرُ﴾، والجملة الاسمية صفة لـ ﴿آيَةٍ﴾، ﴿وَأَخَذْنَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِالْعَذَابِ﴾ متعلق بـ ﴿أَخَذْنَا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُرِيهِمْ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لَعَلَّ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَقَالُوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾، ﴿يَتَأْتِي السَّاحِرُ﴾: ﴿يَا﴾: حرف نداء، ﴿أَيَّ﴾ منادى نكرة مقصودة في محل نصب، مبني على الضم. ﴿هَا﴾: حرف تنبيه زائد، تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة، مبني بسكون على الألف المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين. ﴿السَّاحِرُ﴾ بدل من أي، أو نعت لها، وجملة النداء في محل نصب، مقول ﴿قالوا﴾. ﴿أَنْعُ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ﴿إِنَّا﴾: متعلق به، ﴿رَبِّكَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب، مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَنْعُ﴾، و﴿مَا﴾ إما موصولة أو مصدرية، ﴿عَهْدَ﴾ فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عِنْدَكَ﴾ متعلق بـ ﴿عَهْدَ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، أو لـ ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمْهَتَدُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مُهَتَدُونَ﴾: خبر ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿فَلَمَّا﴾ الفاء، عاطفة على مقدر، يقتضيه المقام تقديره: فدعا موسى، فكشفنا عنهم العذاب، فلما كشفنا عنهم العذاب إلخ، ﴿لَمَّا﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿كَشَفْنَا﴾ فعل وفاعل، فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾، ﴿عَنَّهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿كَشَفْنَا﴾، ﴿الْعَذَابِ﴾ مفعول به ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿لَمَّا﴾ الشرطية، حرف لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، كما قدرنا آنفاً ﴿هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفِرُوا بِاللَّيْلِ لِي مَلَكَ مِصْرَ وَهَٰذَا الْأَنْهَارُ يَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَنَادَى﴾: ﴿الواو﴾: استثنائية، ﴿نادى فرعون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فِي قَوْمِهِ﴾: متعلق بـ﴿نادى﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، والجملة مفسرة لجملة ﴿نادى﴾، ﴿يَقُولُ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل نصب، مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أَلَيْسَ﴾: الهمزة: للاستفهام التقريري. لدخولها على النافي، ﴿ليس﴾: فعل ناقص، ﴿إِلَى﴾: خبرها مقدم، ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿ليس﴾ في محل نصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَهَذِهِ﴾: في محل الرفع معطوف على اسم ﴿ليس﴾، ﴿الْأَنْهَرُ﴾ بدل من اسم الإشارة، ﴿تَجْرِي﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿الْأَنْهَرُ﴾، ﴿مِنْ تَحْتِ﴾ متعلق بـ﴿تَجْرِي﴾، والجملة الفعلية حال من الأنهار، ويحتمل كون اسم الإشارة مبتدأ، و﴿الْأَنْهَرُ﴾ بدل منه، وجملة تجري خبره، والجملة الاسمية حال من ياء المتكلم في ﴿إِلَى﴾، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور في ﴿إِلَى﴾، ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخل على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنتعمون فلا تبصرون، والجملة المحذوفة في محل نصب، مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُبْصِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿أَمْرًا أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٦) ﴿فَلَوْلَا أَلْفَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكُ مَقَرَّتَيْنِ﴾ (٥٧) ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِقِينَ﴾ (٥٨) ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٩) ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ (٦٠).

﴿أَمْرًا﴾: منقطعة بمعنى بل، وهمزة الاستفهام، ﴿أَنَا﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾ خبره، ﴿مِنْ هَذَا﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿الَّذِي﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة معطوفة على ما قبلها، على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿هُوَ مَهِينٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَكَادُ﴾: فعل مضارع من أفعال المقاربة، واسمها ضمير يعود على الموصول، وجملة ﴿يُبِينُ﴾: خبرها، وجملة ﴿يَكَادُ﴾: معطوفة على الجملة الابتدائية، على كونها صلة الموصول، ﴿فَلَوْلَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا،

﴿أَلَيْ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أَلَيْ﴾، ﴿أَسُورَةٌ﴾: نائب فاعل لـ﴿أَلَيْ﴾، ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾: صفة لـ﴿أَسُورَةٌ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل، ﴿جَاءَ﴾: فعل ماضٍ، ﴿مَعَهُ﴾: متعلق بـ﴿جَاءَ﴾، ﴿الْمَلَكُوتُ﴾: فاعل، ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: حال من الملائكة، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَلَيْ﴾، ﴿فَاسْتَحَفَّ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿استخف﴾ فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿قَوْمُهُ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَادَى﴾، ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿استخف﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قَوْمًا﴾ خبره، ﴿فَنَسِيقِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل إطاعتهم. ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكر من طاعتهم له، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك، ﴿لَمَّا آسَفُونَا﴾، ﴿لَمَّا﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿ءَاسَفُونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لَمَّا﴾، ﴿أَنْتَقَمْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَنْتَقَمْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لَمَّا﴾، وجملة ﴿لَمَّا﴾ في محل نصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾: الفاء: عاطفة ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿أَنْتَقَمْنَا﴾ عطفاً تفسيريًا، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لضمير المفعول، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿جَعَلْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿سَلَفًا﴾ مفعول ثانٍ، ﴿وَمَثَلًا﴾: معطوف على ﴿سَلَفًا﴾. ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ صفة لـ﴿مَثَلًا﴾ و﴿سَلَفًا﴾ على سبيل التنازع، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ بفتح الباء وألف وهمزة بعد الراء، وهو في الأصل وقع موقع الصفة مبالغة، ولذلك استوى فيه المذكر والمؤنث، والواحد والاثنان والجمع، يقال: نحن البراء. وأما البريء فهو يؤنث ويجمع، يقال: بريء وبريؤون وبريئة وبريئات. وفي «المختار»: وتبرأ من كذ فهو براء منه بالفتح والمد، لا يشئ ولا يجمع؛ لأنه مصدر. وفي «القاموس»: وأنا براء منه، لا يشئ ولا يجمع ولا

يؤنث؛ أي: بريء. ﴿فَطَرَنِي﴾ خلقني، والفطر: ابتداء خلق من غير مثال، من قولهم: فطرت البئر إذا أنشأت حفرها من غير أصل سابق. ﴿فِي عَقِيهِ﴾؛ أي: في ذريته، قال الراغب: العقب مؤخر الرجل، واستعير للولد وولد الولد، انتهى. وفي «القاموس»: العقب ككتف الجري بعد الجري، والولد وولد الولد. ﴿هَكَذَا سِحْرٌ﴾ والسحر: إراءة الباطل في صورة الحق. ﴿مَعِيشَتُهُمْ﴾ والمعيشة: ما يعيش به الإنسان، ويتغذى، ويجعله سبباً في قوام بنيته، إذ العيش الحياة المختصة بالحيوان، كما سبق. وأصل معيشة: بوزن مفعلة، نقلت حركة الياء إلى العين، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد. ﴿سُخْرِيًّا﴾ والسخري: هو الذي يقهر على العمل، وهو بضم السين نسبة إلى السخرة، وهي العمل بلا أجر، وفي «القاموس»: وسخره كمنعه سخرياً بالكسر، ويضم كلفه ما لا يريد وقهره، ويبعد أن تكون من السخرية التي هي بمعنى الاستهزاء؛ أي: ليستهزئ الغني بالفقير، وهو هنا من التسخير، بمعنى الاستخدام والاستعمال.

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ والبيوت والأبيات جمع بيت، وهو اسم لمبنى مسقف، مدخله من جانب واحد، بني للبيتوتة، قال الراغب: أصل البيت مأوى الإنسان بالليل، ثم قد يقال من غير اعتبار الليل فيه، والبيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر، ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر، ومن صوف ووبر، وبه شبه بيت الشعر. ﴿سُقْفًا﴾ جمع سقف، كرهن ورهن، وهو سماء البيت وعلوه. ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾ والفضة: جسم ذائب، صابر، صاف، منطرق، أبيض، رزين بالقياس إلى باقي الأجساد، سميت فضة لتفضضها وتفرقها في وجوه المصالح. ﴿وَمَعَارِجَ﴾ جمع معرج بفتح الميم وكسرها بمعنى: السلم، وهو المسمى الآن: سنسير، وهذا من معجزات القرآن، إذ لم يكن معروفاً في عصر التنزيل، قال الراغب: العروج: ذهاب في صعود، والمعارج المصاعد، وسميت المصاعد من الدرج معارج؛ لأن المشي عليها مثل مشي الأعرج. ﴿يُظْهِرُونَ﴾ يقال: ظهر على الشيء، إذا علاه وارتقى إليه، وأصل ظهر الشيء أن يحصل شيء على ظهر الأرض فلا يخفى، ثم صار مستعملاً في كل بارز للبصر والبصيرة، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ جمع باب، والباب: يقال لمدخل الشيء، وأصل ذلك مداخل الأمكنة، كباب المدينة والدار

والبيت. ﴿وَسُرُّرًا﴾ جمع سرير، قال الراغب: السرير الذي يجلس عليه من السرور إذا كان ذلك لأولي النعمة، وسرير الميت تشبيه به في الصورة، وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى الله، وخلاصه من السجن المشار إليه بقوله ﷺ: «الدنيا سجن للمؤمن».

﴿يَزْكُوْنَ﴾ من الاتكاء، وهو الاعتماد. ﴿وَزُخْرُفًا﴾ هو في الأصل: بمعنى الذهب، ويستعار لمعنى الزينة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَغَدَّتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾. قال الراغب: الزخرف الزينة المزوقة، ومنه قيل للذهب زخرف، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ يَتَّىٰ مِّنْ زُخْرَفٍ﴾؛ أي: ذهب مزوق. قال ابن زيد: الزخرف هو ما يتخذه الناس في منازلهم من الأمتعة، والأثاث. قال الحسن: النقوش، وأصله: الزينة، يقال: زخرفت الدار؛ أي: زينتها، وتزخرف فلان؛ أي: تزين. وأوردت معاجم اللغة معاني عديدة للزخرف، منها: الذهب، وحسن الشيء، وزخرف الكلام أباطيله المموهة، وزخرف الأرض ألوان نباتها، والجمع زخارف.

﴿وَمَن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ﴾ ويعش بضم الشين، من عشا يعشو عشا إذا تعاشى بلا آفة وتعامى؛ أي: نظر نظر العشا، ولا آفة في بصره، ويقال: عشي يعشى، كرضي يرضى إذا كان في بصره آفة مخلة بالرؤية. قال الراغب: العشا بالفتح والقصر ظلمة تعرض في العين، يقال: رجل أعشى، وامرأة عشواء. وفي «القاموس»: العشا سوء البصر بالليل والنهار، وخبطه خبط عشواء، ركبه على غير بصيرة، والناقة العشواء التي لا تبصر أمامها. ﴿نُقِضَ لَهُ شَيْطٰنًا﴾ نسب ونقدر ونسلط ونضمه إليه ليستولي عليه استيلاء القيض على البيض، وهو القشر الأعلى اليابس، ويقال قيض الله كذا، قدره له، وقيض الله فلاناً لفلان، جاء به. ﴿وَلَمَّا يَصُدُّوهُمْ﴾ أصله: يصددونهم بوزن يَفْعُلُون، نقلت حركة الدال الأولى إلى الصاد فسكنت، وأدغمت في الدال الثانية ﴿بَعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، أي: بعد المشرق، وكثيراً ما تسمي العرب الشئين المتقابلين باسم أحدهما، قال الفرزدق:

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ ٱلسَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَآ قَمَرَاهَا وَٱلنُّجُومُ ٱلطَّوَالِغُ
يريد الشمس والقمر، وبعد المشرقين بعد أحدهما من الآخر. ﴿فَٱسْتَسْيِكَ

بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴿﴾ أصله أوحى بهمزتين الأولى مضمومة والثانية ساكنة، أبدلت الساكنة حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى المضمومة فأبدلت واواً. ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا﴾ الأخت تأنيث الأخ، وجعلت التاء فيها كالعوض عن المحذوف منه. ﴿يَتَأْتُهُ الْبَارُقُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا﴾ ﴿يَتَأْتُهُ﴾ حذف الألف التي بعد الهاء من رسم المصحف العثماني هنا كما حذف من قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ آيَةً الْفُلَّانِ﴾ ومن قوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ من سورة النور اتباعاً للخط تحت اللفظ. ﴿ادع﴾ وزنه افع لحذف لامه الواو، لبناء الأمر من معتل الآخر على ذلك، ﴿بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ﴾ وأصل العهد بمعنى التوصية أن يتعدى بإلى إلا أنه أورد هنا بدلها لفظ ﴿عندك﴾ إشعاراً بأن تلك الوصية مرعية محفوظة عنده، لا مضیعة ملغاة. قال الراغب: العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال وعهد فلان إلى فلان بعهد؛ أي: ألقى العهد إليه، وأوصاه بحفظه. ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾؛ أي ينقضون العهد، والنكث في الأصل: نقض الحبل والغزل ونحوه ذلك، واستعير هنا لنقض العهد كما سيأتي.

﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِصْرَ﴾ وفي «القاموس»: مَصْرُوا المكان تمصيراً: جعلوه مصراً فتمصّر، ومصر: علم للمدينة المعروفة، سميت لتمصّرها، أو لأنه بناها مصر بن حام بن نوح، وقال بعضهم: مصر بلد معروف، من مَصَرَ الشيء يمصره، إذا قطعه، سمي به لانقطاعه عن الفضاء بالعمارة، انتهى. ﴿مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ مهين صفة مشبهة بوزن فعيل بمعنى ضعيف وحقير. ﴿وَلَا يَكَاذُ يَبِينُ﴾ أصله يبين بوزن يفعل، نقلت حركته الياء إلى الباء فسكنت إثر كسرة. فصارت حرف مدّ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بموسى لثغة في لسانه، واللثغة بالضم أن تصير الراء غيناً أو لاماً، والسين ثاءً، وقد لثغ من باب ضرب فهو اللثغ: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ﴾ جمع سوار، كأخمرة جمع الخمار، على تعويض التاء من ياء أساور، يعني الياء المقابلة لألف أسوار، ونظيره: زنادقة وبطارقة، فالهاء فيهما عوض عن ياء زناديق وبطاريق، المقابلة لياء زنديق وبطريق، قال في «القاموس»: السوار بالكسر والضم القلب، كالأسوار بالضم. والجمع أسورة وأساور وأساور. وفي «المفردات»: سوار المرأة أصله: دستوره، فهو فارسي

معرب عند البعض، انتهى. ﴿مَنْ ذَهَبَ﴾ والذهب: جسم ذائب، صاف، منطرق، أصفر، رزين بالقياس إلى سائر الأجسام. ﴿مُقْتَرِنَيْنِ﴾؛ أي: مقرونين به يعينونه على من خالفه.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ وجد أحلامهم خفيفة يغترون بالتلبسات الباطلة، وقال الراغب: حملهم على أن يخفوا معه، أو وجدهم خفافاً في أبدانهم وعزائمهم. وفي «القاموس»: استخفه ضد استثقله، واستخف فلاناً عن رأيه حملة على الجهل والخفة، وأزاله عما كان عليه من الصواب. وأصله: استخفف بوزن استفعل، نقلت حركة الفاء الأولى إلى الخاء فسكنت، وأدغمت في الفاء الثانية. ﴿فَاطَّاعُوهُ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: فاطوعوه، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها، في الحال. ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ منقول من أسف يأسف، كعلم يعلم إذا اشتد غضبه. وفي «القاموس»: الأسف محركة أشد الحزن، وأسف عليه غضب. وقال الراغب: الأسف الحزن والغضب معاً، وقد يقال: لكل منهما على الانفراد، وحقيقته ثوران دم القلب إرادة الانتقام، كما مر. وأصله: أأسفونا بهمزتين الأولى همزة التعدية، والثانية فاء الفعل، فأبدلت الثانية الساكنة حرف مد مجانساً لحركة الأولى المفتوحة، والمجانس لها هو الألف. ﴿سَلَفًا﴾ إما مصدر سلف يسلف، كطلب يطلب، بمعنى التقدم وصف به الأعيان للمبالغة، فهو بمعنى متقدمين ماضين، أو جمع سالف كخدم جمع خادم، ولما لم يكن التقدم متعدياً باللام، فسروه بالقدرة مجازاً لأن المتقدمين يلزمهم غالباً أن يكونوا قدوة لمن بعدهم. ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ اللام متعلق بكل من ﴿سَلَفًا﴾ و﴿مَثَلًا﴾ على سبيل التنازع؛ أي: عظة للكفار المتأخرين عنهم، والعظة ليس من لوازمها الانتعاظ، أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال لهم، فيقال: مثلكم مثل قوم فرعون كما مر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرورياً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ﴾؛ لأن المراد بالكلمة الجملة التي قالها بقوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فيه إطلاق اسم الجزء على الكل.

ومنها: صيغة المضارع في قوله: ﴿سَيِّدِينَ﴾ للدلالة على الاستمرار؛ أي: دوام الهداية حالاً واستقبالاً.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لما فيه من إسناد ما للبعض إلى الكل نظراً بحال الأكثر؛ لأن الرجوع إنما يحصل من البعض لا من الكل.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فِي عَقِيهِ﴾ لأن العقب حقيقة في مؤخر الرجل، فاستعير للولد وولد الولد، كما قاله الراغب.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿وَلِيُؤْيِيَهُمْ﴾ لزيادة التقرير.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿يَتَكُونُ﴾ رعاية للفاصلة.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿أَهْمَرُ يَقْسِمُونَ﴾، وبين ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ لأن حق العبارة، ليتخذوهم سخرياً لغرض الإيضاح والبيان.

ومنها: التجهيل والتعجيب من تحكمهم في قوله: ﴿أَهْمَرُ يَقْسِمُونَ رَحِمَتَ رَبِّكَ﴾.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿رَحِمَتَ رَبِّكَ﴾؛ لأن المراد بالرحمة هنا النبوة.

ومنها: تقديم المسند إليه، وهو نحن على المسند، وهو قسمنا، في قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ لإفادة الاختصاص.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ لغرض التأكيد.

ومنها: التعريض إلى تعظيمه ﷺ، في وصف رجل بعظيم، في قوله: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٌ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لأنه في تقدير ولولا، كراهية أن يكون الناس... إلخ.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿وَرُحْرُقًا﴾؛ لأن الزخرف في الأصل اسم لكل ما يتزين به، والمراد به هنا: الذهب.

ومنها: الطباق بين ﴿الْذَّنْبِ وَالْآخِرَةِ﴾ في قوله: ﴿وَإِن كُُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾؛ لأنه مستعار للإعراض عنه.

ومنها: النكرة الواقعة في سياق الشرط في قوله: ﴿نَقِصْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ لإفادة العموم، ولذلك أعاد عليه الضمير مجموعاً، في قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ لأن فيه تغليب المشرق على المغرب، كالعمرين والقمرين.

ومنها: إعادة النكرة معرفة في قوله: ﴿فَيَنسَ الْفَرِيقُ﴾ إفادة بأنه نفس الأول، كما قال السيوطي في «عقود الجمان»:

ثُمَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمُشْتَهَرَةِ إِذَا أَتَتْ نَكِرَةً مُّكَرَّرَةً تَغَايَرَتْ، وَإِنْ يُعْرَفَ ثَانٍ تَوَافَقَا كَذَا الْمُعَرَّفَانِ
ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وفيه أيضاً الاستعارة التصريحية، حيث شبه الكفار بالصم العمي، بجامع عدم الاهتداء إلى المقصود في كل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَأَمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾؛ لأنه كناية عن الموت.

ومنها: الإيهام في قوله: ﴿بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ لغرض التفضيم والتعظيم.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ لتغيير الشكل، وبعض الحروف بينهما، وفيه أيضاً المجاز المرسل، فقد أوقع السؤال على الرسل، مع أن المراد أممهم، لعلاقة الهداية المفضية بهم إلى معرفة اليقين، وقيل: هو على حذف مضاف، ففيه مجاز بالحذف؛ أي: واسأل أمم من أرسلنا من قبلك.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لأن كلمة لعل مستعارة لمعنى كي، وهو التعليل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾؛ لأن النكث في الأصل: نقض الحبل والغزل مثلاً، فاستعير لنقض العهد بجامع الانفكاك في كل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ علاقته المحلية، فقد جعل قومه محلاً لندائه وموقعاً له، والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم، وفيه أيضاً الإسناد المجازي؛ لأنه أسند النداء إلى نفسه، مع أن المنادى غيره كقولهم: قطع الأمير اللص إذا أمر بقطعه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِئِكَ فِي الْأَرْضِ خَلَائِفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّكُمْ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ آيَةِ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَتَّبِعُوا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّاهِ الْإِنْسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَرِّغُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَا بِمَلِكٍ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْزَنُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَفِيهِ يَرَبِّ إِنْ هَذَا قَوْمٌ لَا يُوْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر^(١) طرفاً من قصة موسى عليه السلام، ذكر طرفاً من قصة عيسى عليه السلام، وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره لما نزل ﴿لَنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾، ونزل: كيف خلق من غير فحل، قالت قريش: ما أراد محمد ﷺ من ذكر عيسى إلا أن نعبد، كما عبدت النصرى عيسى عليه السلام، فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً.

قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦) ... ﴿الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف: أن يوم القيامة سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.. أردف ذلك ببيان أحوال ذلك اليوم: فمنها: أن الأخلاء يتعادون فيها، إلا من تخالوا على الإيمان والتقوى.

ومنها: أن المؤمنين لا يخافون من سلب نعمة يتمتعون بها، ولا يحزنون على فقد نعمة قد فاتتهم.

ومنها: أنهم يتمتعون بفنون من الترف والنعيم، فيطاف عليهم بصحاف من ذهب، فيها ما لذ وطاب من المأكّل، وبأكواب وأباريق فيها شهى المشارب، ويقال لهم: هذا النعيم كفاء ما قدمتم، من عمل بأوامر الشرع ونواهيه، وأسلفتم من إخلاص لله وتقوى له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ﴾ (٧٦) ... ﴿الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر^(٢) ما أعد لأهل الجنة من النعيم المقيم، والتمتع بفنون اللذات، من المأكّل والمشارب والفواكه.. أعقب ذلك، بذكر ما يكون فيه الكفار من العذاب الأليم، الدائم، الذي لا يخفف عنهم أبداً، وهم في حزن لا ينقطع، ثم ذكر أن هذا ليس إلا جزاءً وفاقاً، لما دسوا به أنفسهم من سيء الأعمال، ثم أردف ذلك، بمقال أهل النار، لخزنة جهنم وطلبهم من ربهم، أن يموتوا حتى يستريحوا مما هم فيه من العذاب، ثم إجابته لهم عن ذلك، ثم وبخهم على ما عملوا في الدنيا واستحقوا به العذاب. ثم ذكر

(٢) المراخي.

(١) البحر المحيط.

ما أحكموا تدبيره من رد الحق، وإعلاء شأن الباطل، ظناً منهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، وقد وهموا فيما ظنوا، فإن الله عليم بذلك، ورسله يكتبون كل ما صدر عنهم من قول، أو فعل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر مقال أهل النار لخزنة جهنم، وطلبهم من ربهم أن يموتوا حتى يستريحوا مما هم فيه من العذاب، وحسبانهم أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم: أمر هنا نبيه ﷺ أن يقول للمشركين إحقاقاً للحق: إن مخالفتهم لهم في عبادة ما يعبدون، لم يكن بغضاً منه لهم، ولا عداوة لمعبودهم، بل لاستحالة نسبة ما نسبوه إليهم، وبنوا عليه عبادتهم لهم، من كونهم بنات الله، تنزه ربنا عما يقولون. ثم أمره أن يتركهم وشأنهم حتى يأتي اليوم الذي يلاقون فيه جزاء أعمالهم وأقوالهم. ثم أخبر بأن لا معبود في السماء، ولا في الأرض سواه، وهو الحكيم العليم بكل شيء، وأن من يعبدونهم لا يشفعون لهم حين الجزاء والحساب. ثم ذكر أن أقوالهم تناقض أفعالهم، فهم يعبدون غير الله ويقولون: إن الخالق للكون سمائه وأرضه، هو الله سبحانه، ثم أردف هذا، بأنه لا يعلم الساعة إلا هو سبحانه، وأنه يعلم شديد حزنك على عدم إيمانهم وعدم استجابتهم لدعوتك، ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم وتركهم وشأنهم، وسيأتي اليوم الذي يلقون فيه الجزاء على سوء صنيعهم، وقبيح فعالهم من عبادة غير الله سبحانه وتعالى، والإشراك به ما لا ينفع ولا يضر من مخلوقاته.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية^(١): ما أخرجه أحمد بسند صحيح، والطبراني عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، فقالوا:

(١) لباب القول.

ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً، وقد عبد من دون الله، فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا...﴾ الآية.

قال الواحدي^(١): وأكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة عبد الله بن الزبعرى السهمي، مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.. قال ابن الزبعرى: خصمتك ورب الكعبة، أليست النصراني يعبدون المسيح واليهود عزيزاً، وبنو مليح الملائكة، ففرح قومه بذلك من قوله فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٧)، ونزلت هذه الآية المذكورة هنا. وقد مضى هذا في سورة الأنبياء، ولا يخفاك أن ما قاله ابن الزبعرى مندفع من أصله، وباطل برمته، فإن الله سبحانه قال: إنكم وما تعبدون، ولم يقل: ومن تعبدون حتى يدخل في ذلك العقلاء، كالمسيح، وعزير، والملائكة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية^(٢): ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان، وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا، فقال آخر: إذا جهرتهم سمع، وإذا أسررتهم لم يسمع، فنزلت هذه الآية: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ وجعل عيسى ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عليه السلام ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: مثالاً ومثابهاً للأصنام، من حيث إن النصراني اتخذوه إلهاً، وعبدوه من دون الله؛ أي: ضربه عبد الله بن الزبعرى السهمي مثلاً لأصنامهم، كان من مردة قريش قبل أن يسلم. قال في «القاموس»: الزبعرى بكسر الزاي وفتح الباء والراء والد عبد الله الصحابي القرشي الشاعر، انتهى. ومعنى ضربه مثلاً أي^(٣): جعله مثلاً ونظيراً

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) لباب النقول.

ومقياساً لأصنامهم في بيان إبطال ما ذكره رسول الله ﷺ، من كون معبودات الأمم دون الله ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ الآية، حين قرأه على قريش فامتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً؛ أي: غضبوا وشق عليهم ذلك، فقال ابن الزبير بطريق الجدال: هذا لنا ولآلهتنا خاصة، أم لجميع الأمم؟ فقال النبي ﷺ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك ورب الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيزاً، وبنو مليح الملائكة، فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضيينا أن نكون وآلهتنا معهم، ففرح به قومه، وضحكوا، وارتفعت أصواتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا﴾ فجائية ﴿قَوْمُكَ﴾ قريش يا محمد ﴿مِنْتُمْ﴾؛ أي: من ذلك المثل الذي ضربه ابن الزبير؛ أي: لأجله وبسببه ﴿يَصِيدُونَ﴾؛ أي: يضجون ويصيحون ويرفعون أصواتهم بالضحك، فرحاً بذلك المثل المضروب، ظنا منهم أن الرسول ﷺ صار ملزماً به، مغلوباً محجوباً عليه، وقرأ أبو جعفر^(١) والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب وعامر ونافع والكسائي ﴿يصدون﴾ بضم الصاد؛ أي: يعرضون عن الحق من أجل ضرب المثل. وقرأ ابن عباس وابن جبير والحسن وعكرمة وباقي السبعة بكسرها؛ أي: يصيحون ويضحكون فرحاً بضرب المثل.

قال الكسائي والفراء والزجاج والأخفش^(٢): هما لغتان، مثل: عكف يعكف، ويعكف بالكسر والضم، ومعناها يضجون. قال الجوهري: صد يصد صديداً؛ أي: ضج، وقيل: إنه بالضم الإعراض، وبالكسر الضجيج قاله قطرب قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحق لقال: إذا قومك عنه يصدون، وقال الفراء: هما سواء منه وعنه. وقال أبو عبيدة: من ضم فمعناه: يعدلون، ومن كسر فمعناه: يضجون.

﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: قال قومك قريش ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ﴾ عندك من عيسى، فإن آلهتهم خير عندهم من عيسى ﴿أَمْ هُوَ﴾؛ أي: أم عيسى خير من آلهتنا، وظاهر

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

أن عيسى خير من آلهتنا، فحيث كان هو في النار، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها، فالاستفهام إنكاري؛ لأن المعنى: ليست خيراً منه، وقيل: معناه آلهتنا خير أم هو؛ أي: محمد ﷺ فنعبده ونطيعه، ونترك آلهتنا، قاله قتادة، ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن مسعود ﴿آلهتنا خير أم هذا﴾، والأول أولى لتناسق الضمائر في قوله: إن هو إلا عبد، ذكره في «البحر». وقرأ الجمهور^(١): ﴿آلهتنا﴾ بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، وقرأ الكوفيون ويعقوب: بتحقيقها، وقرأ ورش في رواية أبي الأزهري: بهمزة واحدة على مثال الخبر، فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام محذوفة لدلالة أم عليها، واحتمل أن يكون خبراً محضاً، حكوا: أن آلهتهم خير ثم عن لهم أن يستفهموا على سبيل التنزل من الخبر إلى الاستفهام المقصود به الإفحام، وهذا يتضمن أن آلهتهم خير من عيسى عليه السلام، فعلى قراءة^(٢) ورش تكون: ﴿أمر﴾ منقطعة لا عاطفة، تقدر ببل والهمزة، وأما على قراءة العامة، فتكون متصلة عاطفة على آلهتنا عطف المفردات، والتقدير: آلهتنا أم هو خير؛ أي: أيهما خير، فالهمزة لطلب التعيين. وعلى قراءة ورش يكون هو مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: بل أهو خير، وليست ﴿أمر﴾ حينئذ عاطفة اهـ «سمين».

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾؛ أي: ما ضرب قومك لك هذا المثل في عيسى، وما ذكروه ﴿إِلَّا﴾ ليجادلوك ويخاصموك ﴿جَدَلًا﴾؛ أي: جدالاً وخصاماً، ونزاعاً في الحق على أنه منصوب على المصدرية، أو ما ضربوه لك إلا لأجل الجدل والخصام، لا لطلب الحق، حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك، أو إلا حال كونهم مجادلين على أنه مصدر وقع موقع الحال. وقرأ ابن مقسم: ﴿إِلَّا جَدَلًا﴾ بكسر الجيم وبالف.

وقال بعضهم: مرادهم بهذا الكلام؛ إن قال محمد ﷺ: آلهتكم خير من عيسى، فقد أقر بأنها معبودة، وإن قال: عيسى خير من آلهتكم، فقد أقر بأن عيسى يصلح لأن يعبد، وإن قال: ليس واحد منهم خيراً فقد نفى عيسى، فراموا

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

بهذا السؤال أن يجادلوه ولم يسألوه للاستفادة، فبين الله سبحانه: أن جدالهم ليس لفائدة، إنما هو لخصومة نفس الإنسان فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾؛ أي: لدد شداد الخصومة بالباطل، مجبولون على اللجاج والخلاف، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وذلك لأنهم قد علموا أن المراد من قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هؤلاء الأصنام بشهادة المقام، لكن ابن الزبيري لما رأى الكلام محتملاً للعموم بحسب الظاهر، وجد مجالاً للخصومة. وفي الحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أتوا الجدل»، ثم قرأ ﴿مَا ضَرَفُوهُ لَكَ﴾ الآية، أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد في جماعة عن أبي أمامة.

ومعنى الآية^(١): أي ولما ضرب ابن الزبيري عيسى بن مريم مثلاً، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى له إذا قومك من هذا المثل، يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وسروراً، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا أعيوا في حجة، ثم فتحت عليهم، وقالوا: إن آلهتنا ليست خيراً من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب جهنم، كان أمر آلهتنا أهون، ما ضربوا لك المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لإظهار الحق، فإن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إنما ينطبق على الأصنام والأوثان، ولا يتناول عيسى والملائكة، ولكنهم قوم ذوو لد في الخصومة، مجبولون على سوء الخلق واللجاج.

قال الزمخشري^(٢): إن ابن الزبيري بخبه وخداعه، وخبث دخلته، لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم، مع علمه بأن المراد به أصنامهم، لا غير، وجد للحيلة مساعاً، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله، على طريقة المحك والجدال، وحب المغالبة والمكابرة، وتوقع في ذلك فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ فدل به على أن الآية خاصة في الأصنام، انتهى.

(٢) الكشاف.

(١) المراغي.

ثم بين أن عيسى عبد من عبيده، الذين أنعم الله عليهم بقوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما عيسى بن مريم ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ مربوب ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بفضلنا^(١) عليه بالنبوة، أو بخلقه بلا أب، أو بقمع شهوته لا ابن الله، والعبد لا يكون مولى ولا إلهاً، كالأصنام ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ أي: آية وعبرة ﴿لِقَوْمٍ إِسْرِئِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله سبحانه حيث خلقه من غير أب، وكان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، وكل مريض؛ أي: جعلناه أمراً عجيباً حقيقاً، بأن يسير ذكره، كالأمثال السائرة.

والمعنى^(٢): أي ما عيسى بن مريم إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة وروادفها، فهو رفيع المنزلة على القدر، وقد جعلناه آية على قدرتنا، بأن خلقناه من غير أب وشرفناه بالنبوة، وصيرناه عبرة سائرة تفتح للناس باب التذكر والفهم، وليست مخالفة العادة بموجبه لعبادته كما يزعم النصارى، بل مذكرة بعبادة الخالق الحكيم ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ ﴿لَوْ﴾ للمضي، وإن دخل على المضارع ولذا لا يجزمه، ويتضمن ﴿لَوْ﴾ معنى الشرط؛ أي: ولو شئنا ﴿لَ﴾ أهلكناكم يا كفار مكة ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بدلاً ﴿مِنْكُمْ مَلَائِكَةً﴾ يسكنون ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ عنكم؛ أي: يكونون خلفاً عنكم يعمرّون الأرض، ويعبدونني، ويطيعونني، ومقصود الآية: أنا لو شئنا لأسكننا الملائكة الأرض، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا، أو يقال لهم: بنات الله، قاله السدي. ونحوه عن مجاهد.

وقيل المعنى^(٣): ولو شئنا ﴿لَجَعَلْنَا﴾؛ أي: أولدنا؛ أي: لخلقنا بطريق التوالد ﴿مِنْكُمْ﴾ وأنتم رجال من الإنس ليس من شأنكم الولادة. كما ولدنا حواء من آدم، وعيسى من غير أب، وإن لم تجر العادة بذلك ﴿مَلَائِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين في السماء ﴿يَخْلُقُونَ﴾؛ أي: يخلقونكم، ويصيرون خلفاء بعدكم مثل أولادكم فيما تأتون وتذرون، ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم، مع أن شأنهم التسبيح، والتقدّيس في السماء، فمن شأنهم بهذه المثابة بالنسبة إلى القدرة الربانية، كيف

(٣) روح البيان.

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

يتوهم استحقاقهم للمعبودية، أو انتسابهم إليه بالولادة. يعني: أن الملائكة مثلكم في الجسمية واحتمال خلقها توليداً لما ثبت أنهم أجسام، والأجسام كلها متماثلة، فيجوز على كل منها ما يجوز على الآخر، كما جاز خلقها إبداعاً، وذات القديم الخالق لكل شيء متعالية عن مثل ذلك.

فقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ...﴾ إلخ، لتحقيق^(١) أن مثل عيسى ليس ببدع من قدرة الله، وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك، وهو توليد الملائكة من الرجال، مع التنبيه على سقوط الملائكة أيضاً عن درجة المعبودية، والمعنى الأول أولى وفي الآية إشارة، إلى أن الإنسان لو أطاع الله تعالى، لأنعم الله عليه، بأن جعله متخلفاً بأخلاق الملائكة، ليكون خليفة الله في الأرض بهذه الأخلاق، ليستعد بها إلى أن يتخلق بأخلاق الله، فإنها حقيقة الخلافة.

والمعنى على القول الأول: ولو شئنا لأهلكناكم، وجعلنا بدلكم في الأرض ملائكة يعمرونها ويعبدوننا، وفي الآية على هذا المعنى تهديد وتخويف لكفار قريش، وقد يكون المعنى: ولو شئنا لجعلنا ذريبتكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، كما يخلفكم أولادكم، كما خلقنا عيسى من أنثى بلا ذكر، وجعلناه رجلاً.

والخلاصة^(٢): أننا لو شئنا لجعلنا في الأرض عجائب، كأمر عيسى بحيث يلد الرجل ملكاً فيخلفه، فباب العجائب وتغير السنن لا حد له عندنا، فكم من نواميس خافية عليكم بيدنا تصريفها.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: وإن عيسى بن مريم عليه السلام بنزوله في آخر الزمان ﴿لَوَلَّمْ لِلْسَّاعَةِ﴾ أي^(٣): لشرط من أشرط الساعة، يعلم بنزوله قريبا، وتسميته علماً لحصوله به، فهي على المبالغة في كونه مما يعلم به، فكأنه نفس العلم بقربها، أو المعنى: إن حدوثه بغير أب، أو إحياءه الموتى دليل على صحة البعث، الذي

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة، وهذا المعنى قاله^(١) ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي والضحاك وابن زيد، يعني: عود الضمير على عيسى عليه السلام. وقال الحسن وقتادة أيضاً وابن جبير: الضمير يعود على القرآن؛ أي: وإن هذا القرآن يدل إنزاله على قرب الساعة، أو إنه به تعلم الساعة وأهوالها. وقالت فرقة: الضمير يعود على النبي ﷺ إذ هو آخر الأنبياء تميزت به الساعة نوعاً وقدرًا من التمييز، ونفي التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه، والأول أولى، إذ الظاهر في الضمائر السابقة أنها عائدة على عيسى.

وروي: أن عيسى عليه السلام، ينزل على ثنية بالأرض المقدسة، يقال لها: أفيق بوزن أمير، قرية بين حوران والغور، وعليه ممصرتان، يعني: ثوبين مصبوغين بالأحمر، فإن المصر الطين الأحمر، والمصر المصبوغ به، كما في «القاموس» وشعر رأسه دهين، وبيده حربة وبها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس، والناس في صلاة الصبح، وفي رواية في صلاة العصر، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل اليهود والنصارى إلا من آمن به. وفي حديث آخر: الأنبياء أولاد علات، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ليس بيني وبينه نبي، وفي «صحيح مسلم»: «ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية»، وزاد غيره «وتهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام»، دل آخر الحديث، على أن المراد بوضع الجزية: تركها ورفعها عن الكفار بأن لا يقبل إلا الإسلام، صرح بذلك النووي. ولعل المراد بالكسر والقتل المذكورين ليس حقيقتهما، بل إزالة آثار الشرك عن الأرض.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿لَعَلَّم﴾ بصيغة المصدر، جعل المسيح علماً، مبالغة لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله. وقرأ ابن عباس وأبو هريرة، وأبو مالك الغفاري وزيد بن علي وقتادة ومجاهد والضحاك ومالك بن دينار والأعمش

(٢) البحر المحيط.

(١) البحر المحيط.

والكلبي قال ابن عطية وأبو نصره ﴿للعلم﴾ بفتحين؛ أي: لعلامة. وقرأ عكرمة به. قال ابن خالويه وأبو نصره: ﴿للعلم﴾ معرفاً بفتحين.

﴿فَلَا تَمَزَّكْ بِهَا﴾؛ أي: فلا تشكن يا كفار مكة في وقوع الساعة، ولا تكذبن بها، فإنها كائنة لا محالة من الامتراء، وهو المحاجة فيما فيه مرية ﴿وَأَتَّبِعُون﴾؛ أي: واتبعوا هداي وشرعي فيما أمركم به، وأنهاكم عنه من التوحيد وبطلان الشرك، والمعنى: قل لهم يا محمد: اتبعوني ﴿هَذَا﴾ الذي أدعوكم إليه وأمركم به من التوحيد وفرائض الله تعالى ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: قويم لا اعوجاج فيه، موصل إلى الحق وإلى رضا الله سبحانه وتعالى.

وقرأ الجمهور^(١): بحذف الياء من ﴿اتبعون﴾ وصلاً ووقفاً، وكذلك قرؤوا بحذفها في الحالين في ﴿أطيعون﴾. وقرأ يعقوب باثباتها وصلاً ووقفاً فيهما. وقرأ أبو عمرو وهي رواية عن نافع بحذفها في الوصل دون الوقف.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: لا يمنعنكم الشيطان، ولا يصرفنكم عن اتباعي؛ أي: لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم، فيمنعنكم عن اتباعي، فإن الذي دعوتكم إليه هو دين الله الذي اتفق عليه رسله وكتبه، ثم علل نهيمهم، عن أن يصددهم الشيطان ببيان عداوته لهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن الشيطان ﴿لَكُرُوءٌ﴾؛ أي: لبني آدم لا لغيركم ﴿عَدُوٌّ﴾؛ أي: شديد العداوة ﴿مُبِينٌ﴾؛ أي: بين العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور، وعرضكم للبلية.

فائدة: وحكي^(٢): أنه لما خرج آدم عليه السلام من الجنة، قال إبليس: أخرجته من الجنة بالوسوسة، فماذا أفعل به الآن، فذهب إلى السباع والوحوش فأخبرهم بخبر آدم، وما يولد منه حتى قالت الوحوش والسباع: ما التدبير والرأي في ذلك قال إبليس: ينبغي أن تقتلوه، وقتل واحد أسهل من قتل ألف، فأقبلوا إلى آدم وإبليس أمامهم، فلما رأى آدم أن السباع قد أقبلت إليه رفع يده إلى

(٢) روح البيان.

(١) الشوكاني.

السماء، وتضرع إلى الله تعالى، فقال الله: يا آدم امسح بيدك على رأس الكلب، فمسح فكرَّ الكلب على السباع والوحوش حتى هزمها، ومن ذلك اليوم صار الكلب عدو للسباع، التي هي أعداء لآدم وأولاده، وأصله: أن إبليس بصق على آدم حين كان طيناً، فوقع بصاقه على موضع سرتة، فأمر الله سبحانه وتعالى جبرئيل حتى قور ذلك الموضع، فخلق من القوارة الكلب، ولذا أنس بآدم وصار حامياً له. ويقال: المؤمن بين خمسة أعداء: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وعدو يقتله، ونفس تغويه، وشيطان يضلّه.

والمعنى^(١): أي إنه مظهر لعداوته لكم غير متحاش، ولا متكتم لها، كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين أبيكم آدم، من امتناعه عن السجود له، وما ألزم به نفسه من إغواء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ﴾ إلى بني إسرائيل ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحة والشرائع الربانية، وقال قتادة: البيّنات هنا الإنجيل ﴿قَالَ﴾ لهم عيسى ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ يا بني إسرائيل وبعثت إليكم ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾؛ أي: بالإنجيل أو بالشرعة لأعلمكم، وقيل: الحكمة كل ما يرغب في الجميل، ويكف عن القبيح ﴿وَجِئْتُكُمْ﴾ ﴿لَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أحكام التوراة، قيل: إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم، وقيل: ذلك البعض ما يتعلق بأمور الدين، وأما ما يتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء، كما قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»، لأن اختلافهم يكون فيها وفي غيرها من الأمور التي لا تتعلق بالديانات، فأمور الديانات بعض ما يختلفون فيه، وبين لهم في غيره ما احتاجوا إليه، واللام في قوله: ﴿وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ معطوفة على مقدر، كأنه قال: قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها، ولأبين لكم.

فإن قلت^(٢): كيف قال عيسى عليه السلام لأمته ذلك، مع أن كل نبي يلزمه أن يبين لأمته كل ما يختلفون فيه؟.

(٢) فتح الرحمن.

(١) روح البيان.

قلت: المراد: أنه يبين لهم مما اختلفوا فيه ما يحتاجونه دون ما لا يحتاجونه، وقال أبو عبيدة: المراد بالبعض: الكل، كما في قوله: يصبكم بعض الذي يعدكم، ورده الناس عليه، وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿وَلَأُحِذِّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الإنجيل من لحم الإبل والشحم من كل حيوان، وصيد السمك يوم السبت من كل ما حرم عليهم في التوراة.

والمعنى^(١): ولما جاءهم عيسى بالمعجزات الواضحة قال: قد جئتكم بالشرائع التي فيها صلاح البشر، ولأبين لكم بعض ما اختلف فيه قوم موسى، من أحكام الدين دون أمور الدنيا، كطرق الفلاحة والتجارة، فإن الأنبياء لم يبعثوا لبيانها، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ حين نهاهم عن تأبير النخل - تلقيحه بطلع الذكر - ففقد الثمر ولم يغل شيئاً نافعاً: «أنتم أعلم بأمور دنياكم، وأنا أعلم بأمور دينكم».

ولما بين لهم أصول الدين وفروعه قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: اتقوا عقابه في مخالفتي أن يحل بكم ﴿وَأَطِيعُوا﴾؛ أي: أطيعوني فيما أبلغه عنه تعالى من الشرائع والتكاليف، فإن طاعتي طاعة الله سبحانه وتعالى، كما قال من يطع الرسول فقد أطاع الله.

ثم فصل ما يأمرهم به بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي يستحق إفراده بالألوهية، وإخلاص العبادة له ﴿هُوَ رَبِّي﴾ ومالكي ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ ومالككم، فأنا وأنتم عبيد له فقراء إليه، فخصوه بالعبادة والتوحيد، وهذا بيان^(٢) لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد، والتعبد بالشرائع ﴿هَذَا﴾ الذي جئتكم به من التوحيد، والتعبد بالشرائع، ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه، وكل الديانات جاءت بمثله، فما هو إلا اعتقاد بوحداية الله تعالى، وتعبد بشرائعه، وفي «التأويلات النجمية»: فاعبدوه ولا تعبدوني، فإني في العبودية شريك معكم، وإنه متفرد بربوبيته إيانا، وتعبدنا إياه صراط مستقيم لا اعوجاج فيه، وهذا تنمة كلام عيسى عليه السلام،

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

أو استئناف من الله، يدل على ما هو المقتضي للطاعة في ذلك، ولما كان الطريق القويم يجب الاجتماع عليه، والاتفاق على سلوكه، بين أنهم خالفوا ذلك فاختلّفوا فيه، فقال: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾؛ أي: فاختلّفت الفرق المتخربة من اليهود والنصارى في شأن عيسى عليه السلام، بعد رفعه إلى السماء اختلافاً ناشئاً ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾؛ أي: من قبل أنفسهم لم يدخلهم الاختلاف من غيرهم، فقالت اليهود لعنهم الله تعالى: ابن زانية زنت أمه بيوسف النجار، وقالت اليعقوبية من النصارى: هو الله، وقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت الملكانية: هو شريك الله، وقالت المرقسية: هو ثالث ثلاثة.

وفي «التأويلات النجمية»: تفرق قومه الذين بعث إليهم أحزاباً وفرقاً، حزب آمنوا به أنه عبد الله ورسوله، وحزب آمنوا به أنه ثالث ثلاثة فعبدوه بالالوهية، وحزب اتخذوه ولداً لله وابناً له، تعالى الله عما يقول الظالمون، وحزب كفروا به وجحدوا نبوته، وظلموا عليه، وأرادوا قتله. وقيل: المراد بالأحزاب: الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وكذبوه وهم المرادون بقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾. والأول أولى. فقال الله في حق الظالمين المشركين: ﴿قَوِيلٌ﴾؛ أي: فشدّة عذاب ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من هؤلاء المتحزبين، الذين وضعوا القول في غير موضعه، ففيه إظهار في مقام الإضمار، تسجيلاً عليهم باسم الظلم ﴿وَمِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ﴾؛ أي: وجيع عذابه، وهو يوم القيامة، والمراد: يوم أليم العذاب، كقوله: في يوم عاصف؛ أي: عاصف الريح. والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ للإنكار، والضمير لكفار مكة؛ أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون، وقيل: للأحزاب المختلفة؛ أي: ما ينتظر هؤلاء الأحزاب المتفرقة، وهذا أوفق بمقتضى السياق، وقيل: جميع الكفرة، وهذا أولى لعمومه؛ أي: ما ينتظر الكفار ولا يرتقبون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل^(١) من الساعة؛ أي: إلا إتيان الساعة، ولما كانت الساعة تأتيم لا محالة كانوا كأنهم ينتظرونها، وانتصاب ﴿بَغْتَةً﴾ على المصدرية؛ أي: إتيان بغتة وفجأة. قال في «الإرشاد»:

(١) روح البيان.

فجأة لكن لا عند كونهم مترقبين لها، بل غافلين عنها مشغولين بأمور الدنيا، منكرين لها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يعلمون بإتيانها، فيجازي كل الناس على حسب أعمالهم، فلا تؤدي ﴿بَقَّةٌ﴾ مؤدى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، حتى لا يستغنى بها عنه؛ لأنه ربما يكون إتيان الساعة بغتة مع الشعور بوقوعه، والاستعداد له، لأنه إذا لم يعرف وقت مجيئه ففي أي وقت جاء أني بغتة، وربما يجيء والشخص غافل عنه منكر له، والمراد هنا: هو الثاني، فلذا وجب تقييد إتيان الساعة بمضمون الجملة الحالية، فعلى العاقل الخروج عن كل ذنب، والتوبة لكل جريمة، قبل أن يأتي يوم أليم عذابه، وهو يوم الموت، فإن ملائكة العذاب ينزلون فيه على الظالمين، ويشددون عليهم حتى تخرج أرواحهم الخبيثة بأشد العذاب.

والمعنى^(١): أي هل ينتظر هؤلاء الأحزاب المختلفون في شأن عيسى، القائلون فيه الباطل من القول إلا أن تقوم الساعة بغتة، وهم غافلون عنها، لا يعلمون بمجيئها لاشتغالهم بأمور دنياهم وإنكارهم لها، فيندمون حين لا ينفعهم الندم، ولا يدفع ذلك عنهم شيئاً، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

روى ابن مردويه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والرجلان يحلبان الشاة، والرجلان يطويان الثوب»، ثم قرأ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦).

واعلم^(٢): أن القيامة ثلاث:

الكبرى: وهي حشر الأجساد، والسوق إلى المحشر للجزاء.

والصغرى: وهي موت كل أحد، كما قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» ولذا جعل القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران.

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

والوسطى: وهي موت جميع الخلائق، وقيام هذه الوسطى لا يعلم وقته يقينا، وإنما يعلم بالعلامات المنقولة عن الرسول ﷺ، مثل: أن يرفع العلم، و يكثر الجهل، والزنا، وشرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد.

وعن علي رضي الله عنه: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من الدين إلا رسمه، ولا من القرآن إلا درسه، يعمرن مساجدهم، وهي خراب عن ذكر الله تعالى، شر أهل ذلك الزمان علماؤهم منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود»، يعني: يهدى به ولا يهتدي، فنعوذ بالله من علم بلا عمل.

﴿الْأَخْلَاءُ﴾ والأصدقاء؛ أي^(١): المتحابون في الدنيا على الإطلاق، أو في الأمور الدنيوية ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تأتيهم الساعة، وهو ظرف لقوله: ﴿عَذُوبٌ﴾. والفصل بالمبتدأ غير مانع، والتنوين فيه عوض عن الجملة المحذوفة التي أضيف إليها إذ ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي: يعادي بعضهم بعضاً؛ لأنه قد انقطعت بينهم علائق الخلّة والتحاب، واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسباباً للعذاب، فصاروا أعداء، ثم استثنى المتقين فقال ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإن خلّتهم في الدنيا، لما كانت في الله بقيت على حالها، ولم تنقطع، بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار الخلّة، من الثواب ورفع الدرجات. والاستثناء على الأول متصل، وعلى الثاني منقطع.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير سبحانه إلى أن كل خلّة وصداقة تكون في الدنيا مبنية على الهوى والطبيعة الإنسانية، وتكون في الآخرة عداوةً يترأ بعضهم من بعض. والأخلاء في الله خلّتهم باقية إلى الأبد، وينتفع بعضهم من بعض، ويشفع بعضهم في بعض، ويتكلم بعضهم في شأن بعض، وهم المتقون الذين استثناهم الله سبحانه، وشرائط الخلّة في الله أن يكونا متحابين في الله محبةً خالصة لوجه الله، من غير شوب بعلّة دنيوية، هوائية، متعاونين في طلب الله،

(١) روح البيان.

ولا يجري بينهم مداهنة، فبقدر ما يرى بعضهم في بعض من صدق الطلب والجهد، والاجتهاد يساعده، ويوافقه، ويعاونه، فإذا علم منه شيئاً لا يرضاه الله تعالى، لا يرضاه من صاحبه، ولا يداريه، فقد قيل: المداراة في الشريعة كفر، بل ينصحه بالرفق والموعظة الحسنة، فإذا عاد إلى ما كان عليه وترك ما تجدد لديه يعود إلى صدق مودته وحسن صحبته، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ عُدْتُمْ عَدْنَا﴾ انتهى.

ثم ذكر ما يتلقى الله سبحانه وتعالى به عباده المتقين، المتحابين في الله تشريعاً لهم، وتسكيناً لروعتهم مما يرون من الأهوال فقال: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ من لقاء المكاره ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ من فوت المقاصد، كما يخاف ويحزن غير المتقين، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو: ﴿يا عبادي﴾ بإثبات الياء، ساكنة وصلأً ووقفاً. وقرأ أبو بكر وزر بن حبيش بإثباتها وفتحها في الحالين. وقرأ الباقر بحذفها في الحالين. وقرأ الجمهور: ﴿لَا خَوْفٌ﴾: مرفوعاً منوناً، وابن محيصن بالرفع من غير تنوين، والحسن والزهرى وابن أبي إسحاق وعيسى وابن يعمر بفتحها من غير تنوين، ذكره في «البحر»؛ أي^(١): ونقول لهم يومئذ: يا عبادي لا تخافوا من عقابي. فإني قد أمنتكم منه برضاي عنكم، ولا تحزنوا على فراق الدنيا، فإن الذي تقدمون عليه خير لكم مما فارقتموه منها.

ثم بين من يستحق هذا النداء وذلك التكريم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وصدقوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وعملوا بجميع ما فيها ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: منقادين لتكاليفنا بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي. وجملة ﴿كَانُوا﴾ حال من ﴿الوَاوِ﴾ في ﴿آمَنُوا﴾، أو عطف على الصلة؛ أي: مخلصين وجوههم لنا، جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا، وفي الآية إشارة إلى الإيمان بالآيات التنزيلية، والتكوينية.

والمعنى: أي الذين آمنت قلوبهم، وصفت نفوسهم، وانقادت لشرع الله بواطنهم وظواهرهم، والموصول يجوز أن يكون نعتاً لعبادي، أو بدلاً منه، أو

(١) المراغي.

عطف بيان له، أو مقطوعاً عنه في محل نصب على المدح، أو في محل رفع على الابتداء، وخبره قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ على تقدير يقال لهم: ادخلوا الجنة، والأول أولى، وبه قال الزجاج؛ أي: ويقال لهم على سبيل البشرى: ادخلوا الجنة أيها المؤمنون ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾؛ أي: نساؤكم المؤمنات، وقيل: قرناؤهم من المؤمنين. وقيل: زوجاتهم من الحور العين، والأول أولى. حال كونكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾؛ أي: تسرون سروراً يظهر حباره، بفتح الحاء وكسرهما؛ أي: أثره على وجوهكم لقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٢٤)، أو تزينون من الخبرة، وهو حسن الهيئة، وبعدئذ ذكر طرفاً مما يتمتعون به من النعيم فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على العباد المؤمنين بعد دخولهم الجنة، والطائف^(١): الخادم ومن يدور حول البيت حافظاً، والإطافة كالطوف والطواف؛ أي: يدار عليهم بأيدي الغلمان والولدان ﴿بِصِحَافٍ﴾ وقصاع وجفان مخلوقة ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ مملوءة بألوان من الطعام والحلوى، جمع صحفة كجفان جمع جفنة، وهي القصعة العريضة الواسعة، قال السدي: ليست لها آذان، قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة، وهي تشعب عشرة ثم الصفحة، وهي تشعب خمسة، ثم المكيلة، وهي تشعب الرجلين والثلاثة.

والمعنى: أن لهم في الجنة أطعمة، يطاف عليهم بها في صحاف الذهب ﴿و﴾ لهم فيها أشربة، يطاف عليهم بها في ﴿أكواب﴾ وكاسات من ذهب، جمع كوب، وهو كوز لا عروة له ولا خرطوم، ليشرب الشارب من حيث شاء، قال سعدي المفتي: قللت الأكواب، وكثرت الصحف؛ أي: كما دل عليهما الصيغة لأن المعهود قلة أواني الشرب بالنسبة إلى أواني الأكل.

والمعنى^(٢): أي وبعد أن استقروا في الجنة، وهذا روعهم، يطاف عليهم بجفان من الذهب. مترعة بألوان الأطعمة والحلوى، وبأكواب فيها أصناف الشراب مما لذ وطاب.

(٢) المراغي.

(١) روح البيان.

وبعد أن فصل بعض ما في الجنة من نعيم، عمم في ذلك فقال: ﴿وَفِيهَا﴾؛ أي: وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ وتطلبه؛ أي: أنفس أهل الجنة من فنون الملاذ والمشتهيات النفسانية، كالمطاعم والمشارب والمناكح والملابس، والمراكب، ونحو ذلك. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وابن عباس وحفص: ﴿تَشْتَهِيهِ﴾ بإثبات الضمير العائد على الموصول، وقرأ الجمهور^(١)، وباقي السبعة: بحذف الهاء.

قال في «الأسئلة المقحمة»: أهل الجنة هل يعطيهم الله جميع ما يسألونه، وتشتهي أنفسهم ولو اشتهدت أنفسهم شيئاً من مناهي الشريعة كيف يكون حاله؟

والجواب: معنى الآية أن نعيم الجنة كله مما تشتهيه الأنفس، وليس فيها ما لا تشتهيه النفوس، ولا تصل إليه، وقد قيل: يعصم الله سبحانه أهل الجنة من شهوة محال، أو منهى عنه، يقول الفقير: دل هذا على أنه ليس في الجنة اللواط المحرمة في جميع الأديان والمذاهب، ولو في دبر امرأته، فإن الإمام مالكا رحمه الله تعالى رجع عن تجويز اللواط في دبر امرأته، وليس فيها اشتهاؤ اللواط، لكونها مخالفة للحكمة الإلهية، وقد جوزها بعضهم في «شرح الأشباح»، وغلط فيه غلطاً فاحشاً، وأما الخمر فليست كاللواط لكونها حلالاً على بعض الأمم.

والحاصل: أنه ليس في الجنة ما يخالف الحكمة كائناً ما كان، ولذا تستر فيها الأزواج عن غير محارمهن، وإن كان لا حل ولا حرمة هناك؛ أي: وفيها^(٢) ما تشتهيه الأنفس من الأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة، جزاء لهم بما منعوا أنفسهم من الشهوات في الدنيا ﴿وَلَكَدْ أَلْأَعْيُنُ﴾؛ أي: تستلذه الأعين، وتقر بمشاهدته من الأشياء المبصرة، جزاء ما تحملوه من منع أعينهم، من نظر ما لا يجوز شرعاً، وفي مصحف عبد الله: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ بإثبات الهاء فيهما.

(٢) المراح.

(١) البحر المحيط.

قال جعفر^(١): شتان بين ما تشتهي الأنفس، وبين ما تلذ الأعين؛ لأن ما في الجنة من النعيم والشهوات واللذات في جنب ما تلذ الأعين، كأصبح يُغمس في بحر، لأن شهوات الجنة لها حد ونهاية؛ لأنها مخلوقة، ولا تلذ الأعين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الوجه الباقي الذي لا حد له ولا نهاية.

﴿وَأَنْتَرُ﴾ يا عبادي ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿خَلِيدُونَ﴾؛ أي: باقون دائمون، لا تخرجون ولا تموتون، إذ لولا البقاء والدوام لنقص العيش، ونقص السرور، والاشتقاء، واللذة فلم يكن التمتع كاملاً، والخوف والحسرة زائلاً بخلاف الدنيا، فإنها لفنائها عيشها مشوب بالكدر، ونفعها مخلوط بالضرر.

والمعنى^(٢): أي وفي الجنة ما تشتهي أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة، والأشياء المعقولة والمسموعة ونحوها، مما تطلبه النفوس وتهواه، كائناً ما كان، جزاء لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات، وفيها ما تقر أعينهم بمشاهدته، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، وأنتم لا تخرجون منها، ولا تبغون عنها حولاً.

أخرج ابن أبي شيبة والترمذي عن عبد الرحمن بن سابط قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل في الجنة خيل، فإني أحب الخيل، قال: «إن يدخلك الله الجنة، فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء، فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت». وسأله آخر فقال: يا رسول الله هل في الجنة من إبل، فإني أحب الإبل، فقال: «إن يدخلك الله الجنة، يكن لك ما اشتئت نفسك ولذت عينك».

ثم ذكر أن هذا كان فضلاً من ربكم، آتاكموه كفاء أعمالكم التي أسلفتموها فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ، إشارة إلى الجنة المذكورة ﴿الْجَنَّةُ﴾ خبره ﴿الَّتِي أَوْرَثْتُمُوهَا﴾؛ أي: أعطيتموها، وجعلتم ورثتها، وصارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث ﴿بِمَا﴾ الباء سببية؛ أي: بسبب ما ﴿كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من

(٢) المراغي.

(١) روح البيان.

الأعمال الصالحة وقيل: اسم الإشارة مبتدأ، والجنة صفته، والتي أورثتموها صفة للجنة، والخبر بما كنتم تعملون، وقيل: الخبر الموصول مع صلته، والأول أولى، وعليه أكثر المفسرين.

والمقصود^(١): أن دخول الجنة بمحض فضل الله تعالى ورحمته، واقتسام الدرجات بسبب الأعمال، والخلود فيها بحسب عدم السيئات، شبه جزاء العمل بالميراث، لأن العامل يكون خليفة العمل على جزائه، يعني: يذهب العمل ويبقى جزاؤه مع العامل، فكان العمل كالمرورث، وجزاؤه كالميراث.

والمعنى: أي وهذه الجنة جعلها الله تعالى لكم باقية، كالميراث الذي يبقى عن المورث جزاء ما قدمتم من عمل صالح، أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾».

وبعد أن ذكر الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال: ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون المتقون ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة سوى الطعام والشراب ﴿فَكَثْرَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب^(٢) الأنواع، والأصناف لا بحسب الأفراد فقط. والفواكه من أشهى الأشياء للناس، ولذا عندهم، وأوقفها لطباعهم وأبدانهم، ولذلك أفردها بالذكر ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: بعضها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ في نوبة لكثرتها، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرة خلت من ثمرها لحظة، فهي مزينة بالثمار أبداً موفرة بها، وفي الحديث: «لا ينزع رجل في الجنة ثمرة من ثمرها، إلا نبت مثلاًها مكانها»، فمن تبعيضية، والتقديم للتخصيص، ويجوز أن تكون ابتدائية، وتقدم الجار للفاصلة، أو للتخصيص، كالأول فيكون فيه دلالة على أن كل ما يأكلون للتفكه ليس فيها تقوت، إذ لا تحلل حتى يحتاج إلى الغذاء.

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى^(١): لكم فيها صنوف من الفواكه لا حصر لها، تأكلون منها حيثما شئتم، وكيفما اخترتم.

ولما ذكر سبحانه حال أهل الجنة، وما يقال لهم من لذائذ البشارة. . أعقب ذلك بذكر حال الكفرة، وما يجاوبون به عند سؤالهم فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: إن المشركين الراسخين الكاملين في الإجرام والإشراك حسبما ينبىء عنه إيرادهم في مقابلة المؤمنين بالآيات ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ﴾ متعلق بقوله: ﴿خَالِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيه أبداً لا ينقطع عذابهم في جهنم، كما ينقطع عذاب عصاة المؤمنين، على تقدير دخولهم فيها ﴿لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا يخفف عنهم العذاب، ولا ينقص من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً، ونقص حرها. والجملة في محل النصب على الحال ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المجرمون ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: آيسون من النجاة والراحة، وخفة العقوبات، وعن الضحاك: يجعل المجرم في تابوت من النار، ثم يردم عليه فيبقى فيه خالداً، لا يرى ولا يرى. وقيل: ساكتون سكوت يأس، وقرأ عبد الله ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في جهنم، والجمهور ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: في العذاب.

وفي «التأويلات النجمية»: في الآية إشارة، إلى أن أهل التوحيد وإن كان بعضهم في النار، لكن لا يخلدون فيها، ويفتر عنهم العذاب بدليل الخطاب، وقد ورد في الخبر: «إنه يميتهم الحق إماتةً إلى أن يخرجهم من النار، والميت لا يحس ولا يألم» وذكر في الآية وهم مبلسون؛ أي: خائبون، وهذه صفة الكفار والمؤمنون وإن كانوا في بلائهم، فهم على وصف رجائهم، يعدون أيامهم إلى أن تنتهي أشجانهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بذلك؛ أي: ما عذبناهم بغير ذنب، ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿وَلَكِنْ كَانُوا﴾؛ أي: المجرمون ﴿هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الإشراك والمعاصي لتعريض أنفسهم للعذاب الخالد، بالكفر والمعاصي. و﴿هُمْ﴾ ضمير^(٢) فصل عند البصريين، من حيث إنه فصل به بين كون ما بعده خبراً أو

(٢) روح البيان.

(١) المراغي.

نعتاً، وتسمية الكوفيين له عماداً، لكونه حافظاً لما بعده، حتى لا يسقط عن الخبرة، كعماد البيت، فإنه يحفظ سقفه من السقوط، وقرأ الجمهور^(١): ﴿الظَّالِمِينَ﴾ بالنصب، على أنه خبر كان، والضمير ضمير فصل، وقرأ عبد الله وأبو زيد النحوي: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ بالرفع على أنه خبر ﴿هُمْ﴾، و﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وذكر أبو عمرو الجرمي أن لغة تميم جعل ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ، ويرفعون ما بعده على الخبر، وقال أبو زيد: سمعتهم يقرؤون ﴿تجدوه عند الله هو خيرٌ وأعظمُ أجراً﴾، يعني: برفع خير وأعظم.

والمعنى^(٢): أي: إن الذين اجترموا الكفر بالله في الدنيا، يجازيهم ربهم بعذاب جهنم خالدين فيه أبداً لا ينفك عنهم، ولا يجدون عنها حولاً، ولا يخفف عنهم لحظة، وهم فيه ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج، ولا منافاة بين هذا وبين قوله الآتي: ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ﴾ إلخ، لأن تلك أزمنة متطاولة، وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال، فيسكتون تارة لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنه لا فرج، ويشتد عليهم العذاب أخرى فيستغيثون.

ثم ذكر أن ذلك العذاب جزاء ما كسبت أيديهم، فقال: وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم، ما أخبرناكم أننا فاعلون بهم، ولكن هم الذين أساءوا إلى أنفسهم، فكذبوا الرسل وعصوهم، بعد أن أقاموا الحجة عليهم فأتوهم بباطل المعجزات.

ثم ذكر ما يقوله أهل النار، وما يجيبهم به خزنتها، فقال: ﴿وَنَادُوا﴾؛ أي: ونادى المجرمون من شدة العذاب، فقالوا: ﴿يَمْلِكُ﴾ هو خازن النار، قرأ^(٣) الجمهور: ﴿يَمْلِكُ﴾ بدون ترخيم، وقرأ عبد الله وعلي وابن وثاب والأعمش: ﴿يا مالٍ﴾ بالترخيم، على لغة منم ينتظر الحرف المحذوف، وقرأ أبو السرار الغنوي: ﴿يا مالٌ﴾ بالبناء على الضم، جعله اسماً على حياله على لغة من لا

(٣) البحر المحيط.

(١) البحر المحيط والمراغي.

(٢) المراغي.

ينتظر، واللام في ﴿لِيَقْضِ﴾ لام الطلب والرغبة؛ أي: ليقض ﴿عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ بالموت حتى لا يتكرر عذابنا؛ أي: ليمتنا حتى نستريح من ألم العذاب، من قضى عليه إذا أماته، كقوله تعالى: ﴿فَوَكَّرَ مُوَيْ قَفَضَى عَلَيْهِ﴾؛ أي: أماته، توسلوا بمالك إلى الله سبحانه وتعالى، ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت، فيستريحوا من العذاب.

والمعنى^(١): سل ربك يا مالك، أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذكر من إبلاهم أولاً كما مر، لأنه جوار؛ أي: صياح وتمن للموت، لفرط الشدة ﴿قَالَ﴾ مالك مجيباً لهم بعد أربعين سنة، يعني: ينادون مالكا أربعين سنة، فيجيبهم بعدها، كما قاله عبد الله بن عمرو، أو بعد مئة سنة، كما قاله نوف، أو بعد ألف سنة، كما قاله ابن عباس، وقيل: بعد ثمانين سنة؛ لأن تراخي الجواب أحزن لهم ﴿إِنَّكُمْ مَكْنُوتٌ﴾ المكث ثبات مع انتظار؛ أي: إنكم مقيمون في العذاب أبداً، لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره، فليس بعدها إلا جوار كصياح الحمير، أوله زفير وآخره شهيق.

والمعنى^(٢): أي ونادى المجرمون من شدة العذاب، فقالوا: يا مالك، ادع لنا ربك أن يقبض أرواحنا ليريحنا مما نحن فيه، فأجابهم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ مَكْنُوتٌ﴾ لا خروج لكم منها، ولا محيص لكم عنها. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾، وقوله: ﴿وَيَنْجَنِيَّ الْأَشْفَى ۝ ١١﴾ الْإِلَى يَصَلِّي الْقَارَ الْكَبْرَى ۝ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ ١٣﴾.

ثم خاطبهم خطاب تقريع وتوبيخ، وبين سبب مكثهم فيها بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ﴾ أيها المجرمون في الدنيا ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بإرسال، وإنزال الكتب. وهو خطاب توبيخ من جهة الله تعالى مقرر لجواب مالك، ومبين لسبب مكثهم، ويحتمل^(٣) أن يكون من كلام مالك، والأول أولى.

(٣) الشوكاني.

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والمعنى: أنا أرسلنا إليكم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب فدعوكم إلى التوحيد فلم تقبلوا ولم تصدقوا، وهو معنى قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ أيها المجرمون ﴿لِلْحَقِّ﴾ أي حق كان ﴿كَرِهُونَ﴾؛ أي: لا يقبلون، وينفرون منه مشمئزين منه.

والمعنى: أي لقد بينا لكم الحق على السنة رسلنا، وأنزلنا إليكم الكتب مرشدة إليه، ولكن سجاياكم وطبائعكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل، وتعظمه وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تفعمكم الندامة.

وبعد أن ذكر كيفية عذابهم في الآخرة، بين سببه، وهو مكرهم، وسوء طويتهم في الدنيا، فقال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ و﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي تقدر بمعنى بل والهمزة؛ أي: بل أبرم كفار قريش ﴿أَمْراً﴾ وأحكموا كيداً، واحتالوا حيلة للرسول ﷺ في فتكه، كما فعلوا في اجتماعهم على قتله ﷺ في دار الندوة إلى غير ذلك، وفي ذلك انتقال من توجع أهل النار إلى حكاية ما يقع من هؤلاء. والإبرام^(١): الإلتقان والإحكام، يقال: أبرمت الشيء أحكمته وأتقنته، وأبرم الحبل إذا أحكم فتله.

والمعنى: بل أحكموا كيداً للنبي ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾؛ أي: محكمون لهم كيداً قاله مجاهد وقتادة وابن زيد، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وقيل: المعنى أم قضوا أمراً فإننا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب، قاله الكلبي.

والخلاصة: بل هم تحيلوا في رد الحق بالباطل بوجوه من الحيل والمكر، فكادهم الله تعالى، ورد عليهم سوء كيدهم بتخليدهم في النار، معذبين فيها أبداً ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ﴾؛ أي: بل أيحسب كفار مكة ويظنون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾؛ أي: ما يسرون به في أنفسهم من حديث النفس، أو ما يتحدثون به سراً في مكان خال

(١) روح البيان.

من كيد النبي ﷺ؛ لأنهم كانوا مجاهرين بتكذيب الحق ﴿وَيَحْوِثُهُمْ﴾؛ أي: ما يتناجون ويتحدثون به فيما بينهم بطريق التناجي، والتشاور في شأن النبي ﷺ ﴿بَلَى﴾ نحن نسمعهما، ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلَنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم، ويلازمونهم أينما كانوا ﴿لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾؛ أي: يكتبونهما، أو يكتبون كل ما صدر منهم من الأفعال والأقوال، التي من جملتها ما ذكر من سرهم ونجواهم، ثم تعرض عليهم يوم القيامة، فإذا كان خفاياهم غير خفية على الملائكة، فكيف على عالم السر والنجوى، ولقد أجاد من قال:

إِنِّي لَمُسْتَتِرٌ مِنْ عَيْنِ جِيرَانِي وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارِي وَإِعْلَانِي
والجملة^(١) معطوفة على ما يترجم عنه بلى، وفي «التأويلات النجمية»: خوفهم بسماعه أحوالهم، وكتابة الملك عليهم أعمالهم لغفلتهم عن الله تعالى، ولو كان لهم خبر عن الله لما خوفهم بغير الله، ومن علم أن أعماله تكتب عليه، ويطالب بمقتضاها، قل الإمام بما يخاف أن يسأل عنه. قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية، فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من أمارات النفاق، ولما قدم في أول السورة تبكيتهم والتعجب منهم في ادعائهم لله ولداً من الملائكة، وهددهم بقوله: ستكتب شهادتهم ويسألون.. أمر الله سبحانه رسوله ﷺ، أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة، ويقطع ما يوردونه من الشبهة، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفرة ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ فرضاً، كما تقولون: الملائكة بنات الله ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ لذلك الولد، وأسبقكم إلى تعظيمه والانقياد له، وذلك لأنه ﷺ أعلم الناس بشؤونه تعالى، وبما يجوز عليه، وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومن موجب تعظيم الوالد تعظيم ولده؛ أي: إن ثبت بحجة قطعية كون الولد للرحمن، كما تزعمون فأنا أولكم في التعظيم، وأسبقكم إلى الطاعة تعظيماً لله تعالى، وانقياداً لأن الداعي إلى طاعته وتعظيمه أول وأسبق في ذلك، وكون الولد له تعالى، مما هو مقطوع بعدم وقوعه، ولكن نزل منزلة ما لا جزم لوقوعه، واللاوقوعه على

(١) روح البيان.

المساهلة، وإرخاء العنان لقصد التبكيت، والإسكان والإلزام، فجيء بكلمة إن المفيدة للشك، فلا يلزم من هذا الكلام صحة كينونة الولد، وعبادته، لأنها محال في نفسها يستلزم المحال، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد، والإطناب مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، قال جعفر الصادق رحمه الله تعالى: وأول ما جرى به القلم لا إله إلا الله محمد رسول الله، قال: فأنا أول العابدين أحق بتوحيد الله، وذكر الله سبحانه.

وقال ابن عباس^(١): ﴿إِنْ كَانَ﴾؛ أي: ما كان للرحمن ولد ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾؛ أي: الشاهدين له بذلك. وقيل: العابدين بمعنى الآنفين؛ أي: أنا أول الجاحدين المنكرين لما قلتم، وأنا أول من غضب للرحمن أن يقال له ولد. وهو^(٢) تكلف لا ملجئ إليه، ولكنه قرأ أبو عبد الرحمن اليماني ﴿العبدین﴾ بغير ألف، يقال: عبد يعبد عبداً، بالتحريك من باب فرح، إذا أنف وغضب فهو عبد، والاسم العبدة مثل الأنفة، ولعل الحامل لمن قرأ هذه القراءة على هذه القراءة الشاذة البعيدة هو استبعاد معنى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾، وليس بمستبعد ولا مستنكر، وقد حكى الجوهرى عن أبي عمرو في قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أنه من الأنف والغضب، وحكاها الماوردي عن الكسائي والقتبي، وبه قال الفراء، وكذا قال ابن الأعرابي: إن معنى العابدين الغضاب الآنفين، وقال أبو عبيدة: معناه: الجاحدين، وحكى عبدني حقي؛ أي: جحدني. وقد أنشدوا على هذا المعنى الذي قالوه قول الفرزدق:

أَوْلَيْكَ أَبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ وَأَعْبُدْ أَنْ أَهْجُو كُتَيْبًا بِدَارِمٍ
وقوله أيضاً:

أَوْلَيْكَ نَاسٌ لَوْ هَجَوْنِي هَجَوْتُهُمْ وَأَعْبُدْ أَنْ يُهَجَى كُتَيْبٌ بِدَارِمٍ
ولا شك أن عبد وأعبد بمعنى أنف، أو غضب ثابت في لغة العرب، وكفى

(٢) الشوكاني.

(١) الخازن.

بنقل هؤلاء الأئمة حجةً، ولكن جعل ما في القرآن من هذا من التكلف الذي لا مجلىء إليه، ومن التعسف الواضح، وقد رد ابن عرفة ما قالوه فقال: إنما يقال: عبد يعبد فهو عبد، وقل ما يقال: عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ. وقرأ الجمهور: ﴿ولد﴾ بفتح اللام بالإفراد، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً ﴿ولد﴾ بضم ﴿الواو﴾ وسكون اللام.

والمعنى: أي قل يا محمد لكفار قريش: إن ثبت ببرهان صحيح تورودونه، وحجة واضحة تدلون بها، أن للرحمن ولداً كنت أنا أسبقكم إلى طاعته والانقياد له، كما يعظم الرجل ابن الملك تعظيماً لأبيه، ولا شك أن هذا أبلغ أسلوب في نفي الولد، كما يقول الرجل لمن يناظره ويجادله: إن ثبت ما تقول بالدليل، فأنا أول من يعتقده، ويقول به، وهذا ما اختاره ابن جرير ورجحه.

ثم نزه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: تنزيهاً له وتقديساً عما يقولون من الكذب، بأن له ولداً، ويفترون عليه سبحانه ما لا يليق بجنابه، وهذا إن كان من كلام الله سبحانه، فقد نزه نفسه عما قالوه، وإن كان من تمام كلام رسوله ﷺ، الذي أمره بأن يقوله.. فقد أمره بأن يضم إلى ما حكاه عنهم، بزعمهم الباطل، تنزيه ربه وتقديسه، وفي إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها، تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته، كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه سبحانه ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ في تكرير اسم الرب، تفخيم لشأن العرش ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: يصفونه به، وهو الولد. قال في «بحر العلوم» أي: سبّحوا رب هذه الأجسام العظام، لأن مثل هذه الربوبية توجب التسبيح على كل مربوب فيها، ونزهوه عن كل ما يصفه الكافرون به من صفات الأجسام، فإنه لو كان جسماً لم يقدر على خلق هذا العالم، وتدبير أمره.

والمعنى: أي تنزه مالك السموات والأرض وما فيهما من الخلق، ورب العرش المحيط بذلك كله، عما يصفه به المشركون كذباً، وعما ينسبون إليه من الولد إذ كيف تكون هذه العوالم كلها ملكاً له، ويكون شيء منها جزءاً منه، تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً.

ولما ذكر الدليل القاطع على نفي الولد، أمره أن يتركهم وشأنهم فيما يقولون، فقال: ﴿فَذَرَّهُمْ﴾؛ أي: اترك أيها الرسول هؤلاء الكفرة، حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلي، ولم يهتدوا بما هديتهم به، ولا أجابوك إلى ما دعوتهم إليه ﴿يَخُوضُوا﴾ بالجزم في جواب الطلب؛ أي: يشرعوا في أباطيلهم وأكاذيبهم والخوض^(١): هو الشروع في الماء، والمرور فيه، ويستعار للأمر، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه، كما في «المفردات» ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم، ويلهوا فيها، فإن ما هم فيه من الأقوال والأفعال ليست إلا من باب الجهل واللعب يقال: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً، قالوا: كل لعب لا لذة فيه فهو عبث، وما كان فيه لذة فهو لعب ﴿حَقٌّ يُلْقَوُا﴾ ويعاينوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ على لسانك، وهو يوم القيامة، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم، قال سعدي المفتي: والأظهر: يوم الموت، فإن خوضهم ولعبهم إنما ينتهي به.

يقول الفقير: وفيه أن الموعود هو يوم القيامة؛ لأنه الذي كانوا ينكرونه، لا يوم الموت الذي يشكون فيه، ولما كان يوم الموت متصلاً بيوم القيامة، على ما أشار إليه قوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» جعل الخوض واللعب منتهيين بيوم القيامة.

وفي الآية: إعلام بأنهم من الذين طبع الله على قلوبهم، فلا يرجعون عما هم عليه أبداً، وإشارة إلى أن الله سبحانه، خلق الخلق أطواراً مختلفة، فمنهم من خلقه للجنة، فيستعده للجنة بالإيمان والعمل الصالح وانقياد الشريعة ومتابعة النبي ﷺ، ومنهم من خلقه للنار، فيستعده للنار، برد الدعوة والإنكار والجحود والخذلان، ويكله إلى الطبيعة النفسانية الحيوانية، التي تميل إلى اللهو واللعب والخوض فيما لا يعنيه، ومنهم من خلقه للقربة والمعرفة، فيستعده لهما بالمحبة والصدق والتوكل واليقين.

واعلم: أن الاشتغال بما سوى الله تعالى من قبيل اللهو واللعب إذ ليس فيه

(١) روح البيان.

مقصد صحيح وإنما المطلوب الأعلى هو الله سبحانه وتعالى، ولذا خرج السلف عن الكل، ووصلوا إلى مبدأ الكل، جعلنا الله وإياكم من المشتغلين به.

وقال عكرمة وغيره^(١): هو يوم بدر، وأضاف اليوم إليهم؛ لأنه الذي فيه هلاكهم وعذابهم، قيل: وهذا الأمر بتركهم منسوخ بآية السيف، وقيل: هو غير منسوخ، وإنما أخرج مخرج التهديد. وقرأ الجمهور: ﴿حَتَّى يُلَاقُوا﴾. وقرأ مجاهد وأبو جعفر وابن محيصة وحميد وعبيد بن عجيل عن أبي عمرو وابن السميع ﴿حتى يلقوا﴾ بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف، مضارع لقي من باب رضي.

وحاصل معنى الآية^(٢): أي فاترك أيها الرسول هؤلاء المفترين على الله الواصفية، بأن له ولداً، يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم حتى يأتي ذلك اليوم، الذي لا محيص عنه، وحينئذ يعلمون عاقبة أمرهم، ويذوقون الوبال والنكال، جزاء ما اجترحوه من الشرك والآثام، ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد والتهديد.

ثم أكد هذا التنزيه، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ﴾؛ أي^(٣): مستحق لأن يعبد فيها؛ أي: هو معبود أهل السماء من الملائكة، وبه تقوم السماء وليس حالاً فيها ﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾؛ أي: مستحق لأن يعبد فيها؛ أي: فهو معبود أهل الأرض من الإنس والجن، وإله الآلهة التي تدعون، ولا قاضي لحوائج أهل الأرض إلا هو، وبه تقوم الأرض وليس حالاً فيها.

فالظرفان متعلقان بـ﴿إِلَهٌُ﴾ لأنه بمعنى المعبود بالحق، أو متضمن معناه كقولهم: هو حاتم؛ أي: جواد لاشتهاره بالجود، وكذا في قراءة من قرأ ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ﴾ وفي الأرض الله، ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: وهو الواجب الوجود المعبود المستحق للعبادة

(٣) روح البيان.

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

فيهما، والعائد إلى الموصول مبتدأ محذوف لطول الصلة بمتعلق الخبر، وهو ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ والعطف عليه، والتقدير: وهو الذي هو في السماء إله، وهو في الأرض إله، قاله أبو علي الفارسي قال: والمعنى على الإخبار بإلهيته فيهما، لا على الكون والحلول فيهما، وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى على؛ أي: هو القادر على السماء والأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأَصْلَحَنَّهُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾.

وقرأ الجمهور^(١): ﴿إِلَهُ﴾ في الموضعين، وقرأ عمر وعبد الله وأبي وعلي والحكم بن أبي العالي وبلال بن أبي بردة وابن يعمر وجابر وابن زيد وعمر بن عبد العزيز وأبو الشيخ الهنائي وحميد وابن مقسم وابن السميّع ﴿الله﴾ فيهما كما مر آنفاً بيانه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما دبره لخلقه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم، فهو كالدليل على ما قبله والتعليل له؛ لأنه المتصف بكمال الحكمة والعلم، المستحق للألوهية لا غيره؛ أي: وهو الحكيم في تدبير العالم وأهله، العليم بجميع الأحوال من الأزل إلى الأبد.

فإن قلت: ما في هذه^(٢) الآية يقتضي تعدد الآلهة؛ لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت، كقولك: أنت طالق وطالق.

قلت: لا إله هنا بمعنى المعبود، وهو تعالى معبود فيهما، والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء ومعبوديته في الأرض؛ لأن المعبودية من الأمور الإضافية، فيكفي التغاير فيها من أحد الطرفين، فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض مع أن المعبود واحد.

وحاصل معنى الآية^(٣): أي: وهو الله الذي يعبداه أهل السماء وأهل الأرض، ولا تصلح العبادة إلا له، وهو الحكيم في تدبير خلقه، وتسخيرهم لما

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) فتح الرحمن.

يشاء، العليم بمصالحهم، فالحكمة المقترنة بالعلم تخللت كل رطب ويابس، وجليل وحقير، فمن يشاهد إتقان العالم وحسن تنسيقه وإبداعه، يجد الحكمة فيه على أتم وجوهاها، ويعجب مما فيه من جمال وكمال، ويدهش لما يجد فيه من غرائب يحار فيها اللب، فأفردوا له العبادة، ولا تشاركوا به شيئاً سواه ﴿وَبَارَكَ﴾؛ أي: تعالى وتقدس عن الولد والشريك، وجل عن الزوال والانتقال، الإله ﴿الَّذِي﴾ فاعل تبارك ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: سلطتهما ﴿و﴾ سلطنة ﴿مَا بينهما﴾ إما على الدوام كالهواء، أو في بعض الأوقات كالطير والسحاب؛ أي: تزايد خيره، وعمت بركته، وتبارك: تفاعل من البركة، وهي كثرة الخير معنى ﴿و﴾ تبارك الذي ﴿عنده علم﴾ وقت قيام ﴿السَّاعَةِ﴾؛ أي: القيامة لا يعلمها إلا هو ﴿وَرِائِهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تَرْجَعُونَ﴾ بالموت ثم البعث، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر، والالتفات فيه للتهديد، وقرأ الجمهور^(١): ﴿تَرْجَعُونَ﴾ بقاء الخطاب مبنيًا للمفعول، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بياء الغيبة كذلك، وقرئ بفتح تاء الخطاب مبنيًا للفاعل.

والمعنى: أي وتقدس خالق السموات والأرض وما فيهما من عوالم لا ندري كنهها، ولا نعلم حقيقتها، المتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة من أحد، وعنده علم وقت مجيء الساعة، لا يجليها لوقتها إلا هو، وإليه المرجع، فيجازي كل أحد بما يستحق إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾؛ أي: لا يقدر ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ أي: يدعو الكفار ويعبدونهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تعالى ﴿السَّفْعَةَ﴾ عند الله تعالى، كما يزعمون ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ﴾ وأقر، واعتقد ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي هو التوحيد. والاستثناء^(٢) إما متصل والموصول عام، لكل ما يعبد من دون الله تعالى، كعيسى وعزير والملائكة وغيرهم، أو منقطع على أنه خاص بالأصنام، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص، حال من فاعل ﴿شَهِدَ﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿من﴾، كما أن الأفراد أولاً باعتبار لفظها، والمعنى^(٣) على الاتصال: إلا

(٣) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(١) البحر المحيط.

من شهد بالحق، وهم المسيح، وعزير، والملائكة، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها. وعلى الانقطاع: لكن من شهد بالحق يشفع في هؤلاء، ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفاً؛ أي: لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق، قال سعيد بن جبير وغيره: معنى الآية: أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة. وقال قتادة: لا يشفعون لعابديهم بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية، وقرأ الجمهور: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالتحية، وقرأ السلمي وابن وثاب بالفوقية.

والمعنى^(١): ولا تقدر الأصنام والأوثان التي يعبدونها على الشفاعة لهم، كما زعموا أنهم شفعاء عند ربهم، ولكن من نطق بكلمة التوحيد، وكان على بصيرة وعلم من ربه، كالملائكة، وعيسى تنفع شفاعتهم عنده بإذنه لمن يستحقها.

ثم بين أن هؤلاء المشركين، متناقضوا الأقوال والأفعال، فقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن سألت يا محمد العابدين والمعبودين ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ﴾؛ أي: من أوجدهم، وأخرجهم من العدم إلى الوجود ﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: ليقرون جميعاً، ويعترفون بأن خالقهم الله، ولا يقدرُونَ على الإنكار والجحود لتعذر الإنكار، لغاية ظهوره ﴿فَأَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾؛ أي: فمع إقرارهم بأن خالقهم هو الله سبحانه، كيف يصرفون عن عبادته تعالى إلى عبادة غيره؟ فهو^(٢) استفهام تعجيب من جحودهم التوحيد، مع ارتكازه في فطرتهم، فإن المعترف بأن الله خالقه، إذا عمد إلى صنم أو حيوان، وعبده مع الله، أو عبده وحده فقد عبد بعض مخلوقات الله، وفي هذا من الجهل ما لا يقادر قدره، وقيل: المعنى ولئن سألت هؤلاء المشركين، العابدين للأصنام، ليقولن: الله. وقيل: ولئن سألت المسيح، وعزيراً، والملائكة من خلقهم؟ ليقولن: الله، فأنى يؤفك هؤلاء الكفار عن عبادة الله تعالى، باتخاذهم آلهة.

قال في «الأسئلة المقحمة»: فإن قلت: هذا دليل على أن معرفة الله

(٢) روح البيان.

(١) المراغي.

ضرورية، ولا تجب بالسمع الضروريات؛ لأنه تعالى أخبر عن الكفار، أنهم كانوا يقرّون بوحدانية الله قبل ورود السمع.

قلت: إنهم يقولون ذلك تقليداً لا دليلاً، وضرورة، ومعلوم أن في الناس من أهل الإلحاد من ينكر الصانع، ولو كان ضرورياً لما اختلف فيه اثنان، انتهى.

وقرأ الجمهور^(١): ﴿فَأَنَّى يُؤفَّكُونَ﴾: بياء الغيبة مناسباً لقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾؛ أي: كيف يصرفون عن عبادة من أقروا أنه موجد العالم. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بقاء الخطاب.

ومعنى الآية: أي ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله، العابدين غيره تعالى، من خلق الخلق جميعاً؟ ليعترفن بأنه هو الله تعالى وحده، لا شريك له في ذلك، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلاته، فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف، وفي هذا تعجيب شديد من إشراكهم بعد هذا.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿وَقِيلَهُ﴾ بالنصب عطفاً على محل الساعة، كأنه قيل: إنه يعلم الساعة ويعلم قبله، أو عطفاً على سرهم ونجواهم؛ أي: يعلم سرهم ونجواهم ويعلم قبله؛ أي: قول محمد ﷺ: إن هؤلاء قوم إلخ، أو عطفاً على مفعول يكتبون المحذوف؛ أي: يكتبون ذلك ويكتبون قبله، أو عطفاً على مفعول يعلمون المحذوف؛ أي: يعلمون ذلك ويعلمون قبله أو منصوب على المصدرية بفعله المحذوف؛ أي: قال قبله، أو منصوب على حذف حرف القسم، ومن المجوزين للوجه الأول: المبرد وابن الأنباري، ومن المجوزين للثاني: الفراء والأخفش، ومن المجوزين للنصب على المصدرية الفراء والأخفش أيضاً. وقرأ حمزة وعاصم: ﴿وَقِيلَهُ﴾ بالجر عطفاً على لفظ الساعة؛ أي: وعنده علم الساعة وعلم قبله، أو على أن ﴿الواو﴾ للقسم، وقرأ قتادة ومجاهد والحسن وأبو قلابة والأعرج وابن هرمز ومسلم بن جندب ﴿وَقِيلَهُ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛

(٢) الشوكاني.

(١) البحر المحيط.

أي: وعنده علم الساعة وعنده قيله، أو على الابتداء، وخبره الجملة المذكورة بعده، أو خبره محذوف تقديره: وقيله كيت وكيت، أو وقيله مسموع.

قال بعضهم^(١): والأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، يعني: أن الجر على إضمار حرف القسم، كما في قولك: اللّٰهُ لأفعلن، النصب على حذفه وإيصال فعله إليه، كقولك: اللّٰهُ لأفعلن، كأنه قيل: وأقسم قيله، أو بقيله. والفرق بين الحذف والإضمار أنه في الحذف لا يبقى للذهاب أثر. نحو: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾، وفي الإضمار يبقى له الأثر نحو: ﴿أَنْتَهُوَ خَيْرًا لَّكُمْ﴾، والتقدير: افعلوا خيراً لكم.

ويجوز الرفع في ﴿قيله﴾ على أنه قسم مرفوع بالابتداء، محذوف الخبر كقولهم: أيمن الله، ويكون ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ إلخ جواب القسم؛ أي: وقيله يا رب قسمي إن هؤلاء إلخ، وذلك لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، بما لا يحسن اعتراضاً إن كان مرفوعاً معطوفاً على ﴿عَلِمُ السَّاعَةِ﴾، بتقدير مضاف مع تنافر النظم، ورجح الزمخشري احتمال القسم لسلامته عن وقوع الفصل وتنافر النظم، ولكن في القسم التزام حذف وإضمار بلا قرينة ظاهرة في اللفظ الذي لم يشتهر استعماله في القسم.

قال أبو عبيد^(٢): يقال: قلت قولاً وقيلاً وقالاً. والضمير في ﴿وَقِيلَهُ﴾ راجع إلى النبي ﷺ، قال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه. وقيل: الضمير عائد إلى المسيح، وعلى الوجهين فالمعنى: أنه قال منادياً لربه ﴿يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الذين أرسلتني إليهم ﴿قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والمعنى^(٣): أي ويعلم سبحانه علم الساعة، وقوله ﷺ لربه شاكياً قومه، الذين كذبوه، ولقي منهم شديد الأذى: يا رب إن هؤلاء المشركين الذين أمرتني بإنذارهم، وأرسلتني إليهم لتبليغهم دينك الحق قوم لا يؤمنون؛ أي: لا يريدون الإيمان. ولما شكوا الرسول ﷺ إلى ربه عدم إيمانهم، أجابه الله سبحانه وتعالى

(٣) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(١) روح البيان.

بقوله: ﴿فَاصْفَحْ﴾ يا محمد، وأعرض ﴿عَنَّهُمْ﴾؛ أي: عن هؤلاء المشركين؛ أي: أعرض عن دعوتهم، واقنط من إيمانهم، ﴿وَقُلْ﴾ لهم أمري وشأني ﴿سَلَّمٌ﴾ منكم؛ أي: سلامتي منكم، وتبر منكم ومن دينكم، ومتاركة لكم، ولا تجبههم بمثل ما يخاطبونك به من سبىء الكلام، بل تألفهم، واصفح عنهم قولاً وفعلًا، فليس المأمور به السلام عليهم والتحية، بل البراءة كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَلَّمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ﴾ وقوله: ﴿سَلَّمٌ عَلَيْكُمْ لَا بَنِيَ الْجَنَّةِ الْكَبِيرَةِ﴾، وقال قتادة: أمره بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم، فصار الصفح منسوخاً بالسيف، وقيل: محكمة لم تنسخ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم وسوء كفرهم، فإنك ستنصر عليهم، ويحل بهم بأسنا الذي لا يرد وإن تأخر، ففيه تهديد شديد، ووعيد عظيم من الله عز وجل، وقد أنجز الله وعده، وأنفذ كلمته، وأعلى دينه، وشرع الجهاد والجلاد، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فله الحمد والمنة على إظهار الحق، وإعلاء مناره، وإزهاق الباطل، وكبح جماحه. وقرأ الجمهور^(١): ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بياء الغيبة مناسباً قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنَّهُمْ﴾. وقرأ أبو جعفر والحسن والأعرج ونافع وهشام وابن عامر ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالفوقية.

الإعراب

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا مَاءِ الْهَيْئَتِنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾.

﴿وَلَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ﴾: فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿مَثَلًا﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿ضُرِبَ﴾؛ لأن ﴿ضُرِبَ﴾ ضمن معنى جعل، ويجوز أن يعرب حالاً؛ أي: ذكر ممثلاً به، ﴿إِذَا﴾: حرف فجأة رابطة جواب ﴿لَمَّا﴾ وجوباً، ﴿قَوْمُكَ﴾ مبتدأ، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ ﴿يَصِدُّونَ﴾، وجملة

(١) البحر المحيط.

﴿يَصِدُّونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿لَمَّا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ مستأنفة. ﴿وَقَالُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على جواب ﴿لَمَّا﴾، ﴿ءَالِهَتُنَا﴾ الهمزة: للاستفهام، لطلب تعيين أحد الأمرين، ﴿آلِهَتُنَا﴾: مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾ خبره. ﴿أَمْ﴾ حرف عطف متصلة، ﴿هُوَ﴾ معطوف على آلهتنا، والجملة الاسمية في محل نصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿صَرِيحُهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿لَكَ﴾ متعلق بـ﴿صَرِيحُهُ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿جَدَلًا﴾ مفعولا لأجله؛ أي: ما ذكروه لك إلا لأجل الجدل، والمراء واللجاج، لا لإظهار الحق، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال؛ أي: ما ذكروه لك إلا حال كونهم مجادلين لك، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وانتقال، ﴿هُرٌّ﴾: مبتدأ، ﴿قَوْمٌ﴾: خبر، ﴿خَصِمُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَا صَرِيحُهُ لَكَ﴾: عطف اسمية على فعلية، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿عَبْدٌ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنْعَمْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿أَنْعَمْنَا﴾، وجملة ﴿أَنْعَمْنَا﴾ صفة لـ﴿عَبْدٌ﴾، ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾: عاطفة، ﴿جَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾: فعل وفاعل، ومفعولان، ﴿لِيَبَيِّنَ إِسْرَءِيلَ﴾ صفة لـ﴿مَثَلًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنْعَمْنَا﴾.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِئِكَ فِي الْأَرْضِ بَخِلُفُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّكُمْ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لو﴾ حرف شرط، ﴿نَشَاءُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، ﴿لَجَعَلْنَا﴾: اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْكُمْ﴾ في موضع المفعول الثاني إن كان ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى صيرنا، وإن كان بمعنى خلقنا، فالجار والمجرور متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿لَكِئِكَ﴾ مفعول أول، أو مفعول به، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بـ﴿يَخْلُقُونَ﴾، وجملة ﴿يَخْلُقُونَ﴾ صفة لـ﴿لَكِئِكَ﴾، وجملة ﴿جَعَلْنَا﴾ جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ...﴾ إلخ، ﴿وَإِنَّكُمْ لَعِلْمٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، واللام: حرف ابتداء، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿لِّلسَّاعَةِ﴾ صفة ﴿علم﴾، ﴿فَلَا﴾: الفاء: فاء

الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم كونه علماً للساعة، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم، فأقول لكم ﴿لَا تَمْتَرْنَ بِهَا﴾، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَمْتَرْنَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، والنون المشددة نون التوكيد، والجملة الفعلية في محل نصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَا﴾ متعلق بـ﴿تَمْتَرْنَ﴾، ﴿وَأَتَّبِعُون﴾ ﴿الْوَاو﴾: عاطفة. ﴿اتَّبِعُوا﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على حذف النون، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل نصب مفعول به، والجملة معطوفة على جملة النهي، ﴿هَذَا﴾: مبتدأ، ﴿صِرْطٌ﴾ خبر ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ صفة ﴿صِرْطٌ﴾، والجملة الاسمية مسوقة لتعليل الأمر بالاتباع.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿وَلَا﴾: ﴿الْوَاو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿يَصُدَّنَّكُمُ﴾: فعل مضارع، في محل الجزم بـ﴿لَا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والكاف مفعول به، ﴿الشَّيْطَانُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تَمْتَرْنَ﴾، ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾، أو حال منه، ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿مُبِينٌ﴾ صفة ﴿عَدُوٌّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

﴿وَلَمَّا﴾: ﴿الْوَاو﴾: استئنافية، ﴿لَمَّا﴾: حرف شرط. ﴿جَاءَ عِيسَى﴾: فعل وفاعل، فعل شرط لـ﴿لَمَّا﴾، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ متعلق بـ﴿جَاءَ﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾ جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جِئْتُكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ متعلق به، والجملة في محل نصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلِأُبَيِّنَ﴾ ﴿الْوَاو﴾: عاطفة، واللام لام كي، ﴿أُبَيِّنَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿عِيسَى﴾، ﴿لَكُمْ﴾

متعلق بـ ﴿أَبِين﴾، ﴿بَعْضَ الَّذِي﴾: مفعول به، ومضاف إليه، وجملة أبين مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: ولتبيني لكم بعض الذي فيه تختلفون، الجار والمجرور متعلق بمقدر، معطوف على ﴿جِئْتُكُمْ﴾، تقديره: قد جئْتُكم بالحكمة وجئْتُكم لتبيني لكم، ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله، ليؤذن بالاهتمام بالعلة، حتى جعلت كأنها كلام برأسه، ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾، ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ﴾: الفاء: عاطفة تفرعية، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾: على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَأَطِيعُوا﴾: الواو: عاطفة. ﴿أَطِيعُوا﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وباء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب، مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ﴾ ويجوز أن تجعل الفاء في ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ﴾: استئنافية، فيكون الكلام مستأنفاً من الله، للدلالة على طريق الطاعة ومحبتها الواضحة.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿رَبِّي﴾: خبر، ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ معطوف على ﴿رَبِّي﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مفسرة لما تقدم من قوله: ﴿وَأَطِيعُوا﴾. ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم كون الله ربي وربكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اعبدوه. ﴿أَعْبُدُوهُ﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿هَذَا﴾: مبتدأ، ﴿صِرَاطٌ﴾: خبر، ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ صفة ﴿صِرَاطٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿فَاخْتَلَفَ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿اختلف الأحزاب﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿وَمِنْ بَيْنِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من الأحزاب؛ أي: حال كونهم

مختلفين من قبل أنفسهم وباختيارهم، أو حال كون الأحزاب بعضهم؛ أي: بعض النصارى، إذ بقي منهم فرقة أخرى مؤمنة، يقولون: إنه عبد الله ورسوله، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿ويل﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿اختلف﴾، وجملة ﴿ظَلَمُوا﴾ صلة الموصول؛ أي: فعذاب شديد كائن وحاصل للذين ﴿ظَلَمُوا﴾، ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، ﴿يَوْمٍ﴾: مضاف إليه، ﴿أليم﴾ صفة ﴿يَوْمٍ﴾ أي: فعذاب شديد، كائن للذين ظلموا، حال كون ذلك العذاب من عذاب يوم أليم عذابه، وهو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦) ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩).

﴿هَلْ﴾ حرف استفهام للاستفهام الإنكاري؛ أي: لا ينظرون، ﴿يَنْظُرُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿السَّاعَةَ﴾ مفعول به، ﴿أَنْ﴾ حرف مصدر، ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿السَّاعَةَ﴾، ومفعول به، والجملة الفعلية مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه بدلاً من الساعة؛ أي: هل ينظرون إلا الساعة إلا إتيانها إياهم، ﴿بَغْتَةً﴾ حال من فاعل ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾؛ أي: حال كونها باغته، ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من مفعول ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾ ﴿الْأَخِلَاءُ﴾ مبتدأ أول، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف إلى مثله، متعلق بـ ﴿عَدُوٌّ﴾، ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ ثان، ﴿لِبَعْضٍ﴾ حال من عدو، لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره خبر للاول، وجملة الاول مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿الْمُتَّقِينَ﴾: مستثنى منصوب بـ ﴿إِلَّا﴾، ﴿يَعْبَادُ﴾ حرف نداء، ﴿عباد﴾ منادى مضاف إلى يا المتكلم، المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة المناسبة، وجملة النداء في محل نصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم: يا عباد لا

خوف عليك، ﴿لَا﴾: نافية، تعمل عمل ليس، ﴿خَوْفٌ﴾ اسمها، ﴿عَلَيْكَ﴾ خبرها، أو ﴿لَا﴾ مهيمة، ﴿خَوْفٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه بعد النفي ﴿عَلَيْكَ﴾: خبرها، والجملة الاسمية مقول للقول المحذوف. ﴿الْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور قبله، ﴿وَلَا﴾ ﴿الْوَاو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾ نافية مهيمة، ﴿أَنْتَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَحْزَنُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿الَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿عِبَادَ﴾، وجملة ﴿ءَامِنُوا﴾ صلته، ﴿بِئَايَاتِنَا﴾ متعلق بـ ﴿ءَامِنُوا﴾، ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامِنُوا﴾: على كونها صلة الموصول.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ﴿٧١﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٢﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٤﴾.

﴿ادْخُلُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل ﴿الْجَنَّةَ﴾ مفعول به، منصوب على السعة، والجملة في محل نصب مقول للقول المحذوف، ﴿أَنْتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿تُحْبَرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿ادْخُلُوا﴾، أو في محل نصب مقول القول، ﴿يُطَافُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: في موضع رفع نائب فاعل، ﴿بِصِحَافٍ﴾: متعلق بـ ﴿يُطَافُ﴾، ﴿مِّنْ ذَهَبٍ﴾: صفة ﴿صِحَافٍ﴾، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ معطوف على ﴿صِحَافٍ﴾، وذكر الذهب في الصحف، واستغنى به عن الإعادة في الأكواب، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَثِيرًا﴾. ﴿وَفِيهَا﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يُطَافُ﴾. ﴿شَتَّهِهِ﴾: فعل ومفعول، ﴿الْأَنْفُسُ﴾ فاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على صلة ﴿مَا﴾، والعائد محذوف، تقديره: تلذذ الأعين، ﴿وَأَنْتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَالِدُونَ﴾. ﴿خَالِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنْتُمْ

وَأَرْجُوهُ. وهو من جملة ما يقال لهم، وما بينهما اعتراض اعترض به، لبيان صفات الجنة. ﴿وَتِلْكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿تلك﴾: مبتدأ. ﴿الجنة﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿الَّتِي﴾ صفة لـ ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٦)، ﴿أَوْرِثْتُمُوهَا﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿أَوْرِثْتُمُوهَا﴾، ﴿كُنْتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، أو المصدرية. ﴿لَكُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿فِيهَا﴾: حال من فاعله، و﴿فَكَهْهُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿كَبِيرَةٌ﴾ صفة أولى لـ ﴿فَكَهْهُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مرفوع ﴿أَوْرِثْتُمُوهَا﴾، ﴿وَنَهَا﴾ متعلق بـ ﴿تَأْكُلُونَ﴾، وجملة ﴿تَأْكُلُونَ﴾ صفة ثانية لـ ﴿فَكَهْهُ﴾، ولكنها سببية، والرباط ضمير ﴿مَنْهَا﴾.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَالِدُونَ﴾ (٧٦) لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ﴾: متعلق بـ ﴿خَالِدُونَ﴾، و﴿خَالِدُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُفْتَرُّ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على العذاب. ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يُفْتَرُّ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من عذاب جهنم، ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿مُبْسُوتُونَ﴾، و﴿مُبْسُوتُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿خَالِدُونَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿ظَلَمْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على جملة ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَلَكِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل. ﴿كَانُوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿هُم﴾: ضمير فصل، ﴿الظَّالِمِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿ظَلَمْنَاهُمْ﴾.

﴿وَنَادَا بِمَكَاتِكُمْ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ (٧٨) لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿وَنَادَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿نادوا﴾: فعل ماضٍ وفاعل، والجملة معطوفة

على جملة ﴿إِنَّ﴾ وعبر بالماضي عن المضارع إيداناً بتحقيق وقوعه، فهو من باب أتى أمر الله، ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَيْنَا رَبُّكَ﴾: مقول محكي لـ ﴿نادوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿مالك﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل نصب مقول ﴿نادوا﴾؛ لأنه بمعنى قالوا. ﴿لِيَقْضِ﴾ اللام: لام الأمر، ﴿يقض﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، ﴿عَيْنَا﴾: متعلق به، ﴿رَبُّكَ﴾ فاعل، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مالك﴾، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿مَكْثُونَ﴾ خبره، والجملة في محل نصب مقول قال، ﴿لَقَدْ﴾ اللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿جِئْتَكُمْ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق به، والخطاب لأهل مكة عام لمؤمنهم وكافرهم، والقائل هو الله تعالى، على لسان رسوله ﷺ، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، مقررة لجواب مالك لأهل النار، ومبينة لسبب مكثهم، كما قاله أبو السعود، ويحتمل أن يكون هذا، من قول مالك لأهل النار؛ أي: إنكم ماكثون في النار، لأننا جئناكم بالحق في الدنيا، ﴿وَلَكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَكِنَّ﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكْثَرَكُمْ﴾: اسمها، ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بـ ﴿كَرِهُونَ﴾، و﴿كَرِهُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لَكِنَّ﴾ معطوفة على ما قبلها، على كونها جواب القسم.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٦) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿أَبْرَمُوا﴾: فعل ماضٍ وفاعل، ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿مُبْرِمُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَبْرَمُوا﴾، ﴿أَمْ﴾: منقطعة كما ذكرنا آنفاً. ﴿يَحْسَبُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾: معطوف على ﴿سِرَّهُمْ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أَنْ﴾، وجملة ﴿أَنْ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي

﴿حَسْبُ﴾، ﴿بَلَى﴾: حرف جواب، يجاب بها لإثبات نفي ما قبلها، قائم مقام جملة الجواب، تقديره: نسمع ذلك، والجملة الجوابية المحذوفة مستأنفة، ﴿وَرُسُلَنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿رسلنا﴾: مبتدأ، ﴿لَدَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَكْتُبُونَ﴾ وجملة ﴿يَكْتُبُونَ﴾: خبر ﴿رسلنا﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الجواب، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية. ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾: خبرها مقدم، ﴿وَلَدٌ﴾: اسمها مؤخر، ﴿فَأَنَا﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية، ﴿أَنَا﴾: مبتدأ، ﴿أَوَّلَ الْعَالَمِينَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿سُبْحَنَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، وجملة ﴿سُبْحَنَ﴾: مستأنفة، ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مضاف إليه، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾: بدل من ﴿رَبِّ الْأَوَّلِ﴾، ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿سُبْحَنَ﴾، وجملة ﴿يَصِفُونَ﴾: صلة لـ﴿عَمَّا﴾ الموصولة.

﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ (٨٢) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٣) وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ آسَمَاتٌ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥).

﴿فَذَرَهُمْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تعنتهم وتمردهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ذرهم، ﴿ذرهم﴾: فعل، ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل نصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿يَخُوضُوا﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بالطلب السابق، والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب، ﴿وَيَلْعَبُوا﴾: معطوف على ﴿يَخُوضُوا﴾، ﴿حَتَّى﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُلَاقُوا﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى الجارة، ﴿يَوْمَهُمُ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّى﴾ بمعنى إلى؛ أي: إلى ملاقاتهم يومهم، الجار والمجرور، متعلق بـ﴿يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ على سبيل التنازع، ﴿الَّذِي﴾: صفة لـ﴿يَوْمَهُمُ﴾، وجملة

﴿يُوعَدُونَ﴾ من الفعل المغير ونائبه صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يوعدونه، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الوَإِوَاءُ﴾: استثنائية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿الَّذِي﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾: متعلق بإله؛ لأنه في تأويل معبود، ﴿إِلَهُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: وهو الذي هو إله في السماء، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ إِلَهُ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الوَإِوَاءُ﴾ عاطفة، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ خبر أول، ﴿الْعَلِيمُ﴾ خبر ثان، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ﴾ ﴿وَبَارَكَ﴾ ﴿الوَإِوَاءُ﴾: عاطفة، أو استثنائية، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على ما قبلها. ﴿لَهُ﴾ خبر مقدم، ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَمَا﴾: معطوف على السموات، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَعِنْدَهُ﴾ خبر مقدم، ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة الصلة. ﴿وَالْيَوْمِ﴾: متعلق بـ﴿تَرْجَعُونَ﴾، وجملة ﴿تَرْجَعُونَ﴾: معطوفة على جملة الصلة.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾



﴿وَلَا﴾: ﴿الوَإِوَاءُ﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَمْلِكُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يدعونهم، ﴿مِنْ دُونِهِ﴾: متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾، ﴿الشَّفَعَةَ﴾ مفعول يملك. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل نصب على الاستثناء، ويحتمل كون الاستثناء منقطعاً، والمعنى: ولا يملك آلهتهم الأصنام والأوثان الشفاعة كما زعموا، ولكن من شهد، وأقر بالتوحيد كعيسى، وعزير يملك الشفاعة في مستحقيها، وأن يكون متصلاً، والمعنى: ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق، فهو استثناء من المفعول المحذوف، ﴿شَهِدَ﴾ فعل ماضٍ وفاعل مستتر صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿شَهِدَ﴾، ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿شَهِدَ﴾، والجمع باعتبار معنى

﴿مَنْ﴾؛ أي: شهدوا بالحق بألسنتهم، حال كونهم يعلمون بقلوبهم حقيقة ما شهدوا بألسنتهم.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمْتُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿وَلَيْنَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿إِنَّ﴾: حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتَهُمْ﴾: فعل ماضٍ وفاعل ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿إِنَّ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول ثانٍ. ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول، صلة من الموصولة. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: اللام: موطئة للقسم، مؤكدة للأولى، ﴿يقولن﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، والنون المشددة نون التوكيد؛ لأن أصله: ليقولونن، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن سألتهم: من خلقهم، يقولون: الله، وجملة الشرط معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿اللَّهُ﴾: فاعل بفعل محذوف، دل عليه ما قبله، تقديره: خلقهم الله، أو مبتدأ، خبره محذوف تقديره: الله خلقهم، والأول أولى؛ لأن الجملة الفعلية في هذا الباب أكثر، فالحمل عليها أولى، والجملة الفعلية أو الاسمية في محل نصب مقول لـ﴿يقولن﴾، ﴿فَأَنَّى﴾: الفاء: عاطفة، ﴿أَنَّى﴾: اسم استفهام بمعنى كيف، في محل نصب على الحال من مرفوع ﴿يُؤْفَكُونَ﴾، و﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة القسم، ﴿وَقِيلَ لَهُ﴾؛ أي: وقوله ﷺ بالجبر، يقال في إعرابه ﴿الواو﴾ حرف جر وقسم، ﴿قِيلَ﴾ مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بقول محمد ﷺ. ﴿يَرْبِّ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل نصب مقول لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ ناصب واسمه، ﴿قَوْمٌ﴾: خبره، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم

مع جوابه، معطوفة على جملة القسم الأول، وهذا أحسن الأعراب في هذا المقام، وقرئ بالنصب على المصدرية بفعله المقدّر، تقديره: وقال محمد ﷺ قوله يا رب إلخ. وقيل: معطوف على ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، كما مر ذلك كله مبسوطاً في مبحث التفسير. وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ما بعده، أو أن الخبر محذوف تقديره: وقوله مسموع أو مقبول. ﴿فَاصْفَحْ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: إذا عرفت أنهم قوم لا يؤمنون، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اصفح عنهم. ﴿اصفح﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، ﴿عَنَّهُمْ﴾: متعلق به، والجملة في محل نصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَقُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿فَاصْفَحْ﴾، ﴿سَلِّمْ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمري وشأني ومطلبي، سلامة من إذايتكم، وبراءة من دينكم، والجملة في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿سَوْفَ﴾: حرف تنفيس واستقبال. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، ومفعوله محذوف للتفخيم تقديره: عاقبة أمرهم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَاصْفَحْ﴾: على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿صُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: جعل، ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: حجة وبرهاناً على شبهتهم. ﴿يَصِدُّونَ﴾ قال في «القاموس»: صد يصد ويصد صديداً، إذا ضج وارتفع صوته، فالمكسور من باب ضرب، والمضموم من باب رد، يقال: صد عنه يصد بالضم صدوداً إذا أعرض عنه، وصد فلاناً عن كذا صداً، منعه وصرفه، كأصد، فالصديد بمعنى الضجيج، والصدود بمعنى الإعراض، والصد بمعنى المنع. ﴿إِلَّا جَدًّا﴾؛ أي: خصومةً بالباطل، والجدل محرّكاً قتل الخصم عن قصده لطلب صحة قوله، وإبطال غيره، وهو مأمور به على وجه الإنصاف، وإظهار الحق بالاتفاق. وقوله: ﴿ابْنُ﴾ أصله: بنو حذف لامه الواو، وعوض عنها همزة الوصل، وقوله: ﴿يَصِدُّونَ﴾ قرئ بكسر الصاد من صد اللازم، وقرئ بضمها

من صد المتعدي، وأصله على كلتا القراءتين: يصددون بوزن يفعلون بكسر العين، أو يصددون بوزن يفعلون بضم العين، نقلت حركة الدال فيهما إلى الصاد فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية. ﴿خَصْمُونَ﴾؛ أي: شديداً الخصومة، مجبولون على اللجاج، وسوء الخلق. ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: أمراً عجباً حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة.

﴿يَخْلُقُونَ﴾ يقال: خلف فلان فلاناً إذا قام بالأمر عنه، إما معه وإما بعده. ﴿فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا﴾ أصله: تمتريون حذفته منه نون الرفع للجازم، وهو لا الناهية، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت فسكنت فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت الراء لمناسبة الواو، ثم دخلت نون التوكيد على الفعل، فصار تمترون، فالتقى ساكنان الواو وأولي نوني التوكيد المشددة، فحذفت الواو لبقاء داله، فصار تمترون بوزن تفتعن. ﴿وَأَتَّبِعُونَ﴾ بحذف الياء خطأ؛ لأنها من ياءات الزوائد، وأما في اللفظ فيجوز إثباتها وحذفها وصلاً ووقفاً.

﴿يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ أصله: يصددنكم، نقلت حركة الدال الأولى إلى الصاد فسكنت، فأدغمت في الثانية، وبني الفعل على الفتح وإن كان في محل جزم لاتصال نون التوكيد به. ﴿الْأَخْرَابُ﴾ جمع حزب بكسر الحاء بمعنى جماعة الناس. ﴿بَغْتَةً﴾ والبغت مفاجأة الشيء من حيث لا يحسب، كما في «المفردات». ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ جمع خليل، وهو الصديق. وفي «المصباح»: الخليل الصديق، والجمع أخلاء كأصدقاء، وفي «القاموس»: والخل بالكسر والضم الصديق المختص، أو لا يضم إلا مع ود، يقال: كان لي ودأ وخلا، والجمع أخلال كالخليل وخلان، أو الخليل الصادق، أو من أصفى المودة وأصحها، واستدرك في «التاج» فقال: قال ابن سيده: وكسر الخاء أكثر، ويقال للأنثى: خل أيضاً. وأصل ﴿الْأَخْلَاءُ﴾: الأخلاء، بوزن أفعلاء جمع خليل، كصديق وأصدقاء، نقلت حركة اللام الأولى إلى الخاء فسكنت، فأدغمت في اللام الثانية، فصار أخلاء بوزن أفلاء.

﴿يُطَافُ﴾ أصله: يطوف، بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت

ثم أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون سروراً يظهر حباره؛ أي: أثره على وجوهكم. وقال الزجاج: تكرمون إكراماً يبالغ فيه، والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل. وفي «القاموس»: والحبر بفتحتي الأثر كالحبار، بكسر أوله وفتحه، والحبر بالكسر الأثر أو أثر النعمة، والحسن، والوشي وبالفتح السرور، وحبره سره، والنعمة، والحبرة بالفتح السماء في الجنة، وكل نعمة حسنة. وقال الراغب: الحبر الأثر المستحسن، ومنه ما روي: يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسبره؛ أي: جماله وبهاؤه، والحبر: العالم لما يبقى من أثر علومه في قلوب الناس، ومن آثار أفعاله الحسنة المقتدى بها.

﴿بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ جمع صحفة، كجفان جمع جفنة، وقصاع جمع قصعة. قال الكسائي: وأعظمها الجفنة، وهي القصعة العريضة الواسعة، ثم القصعة، وهي التي تشبع العشرة، ثم الصحفة وهي تشبع الخمسة، ثم المثكلة، وهي التي تشبع الرجلين أو الثلاثة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب، كعود وأعواد، وهو كوز لا عروة له ولا خرطوم، وإنما كانت بغير عروة ليشرب الشارب من أي جانب شاء؛ لأن العروة ترد الشارب من بعض الجوانب. وقال عدي:

مُتَّكِئًا تُصَفِّقُ أَبْوَابُهُ يَسْعَى عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِالْكُؤُبِ
﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ يقال: لذت الشيء بالكسر لذذاً ولذاذة؛ أي: وجدته لذياً، أصله: تلذذ بوزن تفعل، مضارع لذذ بكسر العين، من باب فعل المكسور، نقلت حركة الذال الأولى إلى اللام فسكنت، فأدغمت في الذال الثانية ﴿لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ﴾ من قولهم: فترت الحمى عنه إذا سكنت قليلاً ونقص حرها. قال الراغب: الفتر: سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة. ﴿مُبْلِسُونَ﴾ وفي «المفردات»: الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس، ومنه اشتق إبليس، ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكون وينسى ما يعنيه.. قيل: أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته. ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ﴾ أصله: نادىوا بوزن فاعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿لِيَقْضَىٰ﴾ وزن يقض يفغ لحذف لامه للجازم. ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: نجويهم،

قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا﴾ أصله: يخوضون بوزن يفعلون، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الخاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد، ثم حذفت نون الرفع لما وقع الفعل جواباً للأمر، فوزنه يفلولوا، وأصل الخوض: الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار للأمر. وقوله: ﴿يُلْقُوا﴾ أصله: يلاقون، حذفت نون الرفع للناصب، ثم حذفت حركة الياء تخفيفاً، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين وضمت القاف لمناسبة الواو. ﴿كَذَهُونَ﴾ من الكراهة مصدر كره الشيء بالكسر؛ أي: لم يرده فهو كاره. ﴿أَمْ أَتَرْمُوا أَمْراً﴾ من الإبرام، وهو إحكام الأمر، وأصله: من إبرام الحبل، وهو ترديد فتله. ﴿وَيَجْعَلُنَّهُمْ﴾ يقال: ناجيته؛ أي: ساررتة، وأصله: أن تخلو في نجوة من الأرض؛ أي: مكان مرتفع منفصل بارتفاعه عما حوله، والسر هو ما يحدث به الإنسان نفسه، أو غيره في مكان خال، والنجوى التناجي والتحدث فيما بينهم. ﴿وَقِيلَهُ﴾ قال أبو عبيدة: يقال: قلت قولاً وقالاً وقيلاً. وفي الخبر: «نهى عن قيل وقال». فالقول والقليل والقال كلها مصادر، وفيه إعلال بالقلب، أصله: قَوْلُهُ من القول، قلبت الواو ياءً لوقوعها ساكنةً إثر كسرة، فصارت حرف مد. ﴿فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ﴾؛ أي: اعف عنهم عفو المعرض، ولا تقف عن التبليغ. ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾؛ أي: سلام متاركة لكم بسلامتكم مني وسلامتي منكم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع:

فمنها: الإبهام في فاعل ضرب في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ للإهانة والتحقير له.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿أَلَا إِلَهُتُنَا خَيْرٌ أَرَأَوْهُ﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾، وفي قوله: ﴿إِنْ هُوَ

إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿وَلَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلْسَاعَةِ﴾؛ أي: إن نزوله لعلامة لقرب الساعة.

ومنها: تأكيد النهي في قوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ إيداناً بأنه لا محالة منها.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، إن، وضمير الفصل، وتعريف الطرفين.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنَّ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: فويل لهم.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَلْسَاعَةً﴾؛ أي: ما ينظرون.

ومنها: النداء في قوله: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ، تشريفاً لهم، وناداهم بأربعة أمور: الأول: نفي الخوف، والثاني: نفي الحزن، والثالث: الأمر بدخول الجنة، والرابع، البشارة بالسرور، في قوله: ﴿تُحْبَرُونَ﴾ اهـ شيخنا.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾؛ أي: أكواب من ذهب، وحذف لدلالة السابق عليه.

ومنها: ذكر العام، في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ بعد الخاص، في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾.

ومنها: الحصر المستفاد من قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ فقد حصر أنواع النعم في أمرين اثنين، إما مشتهاة في القلوب، وإما مستلذة في العيون.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَأَنشُرْ فِيهَا ذَلِيلُونَ﴾ للتشريف والتفخيم لشأنهم.

ومنها: إفراد الخطاب في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ حيث لم يقل: وتلك الجنة، مع أن مقتضى أورثتموها أن يقال: وتلكم، للإيدان بأن كل واحد من أهل الجنة مقصود بالذكر لذاته، وبالخطاب.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ فقد شبه الجنة بالمال الموروث، والتلاد الموفور، ثم استعار له الإرث على طريق الاستعارة المكنية؛ لأن كل عامل لا بد أن يلقي جزاءه، إذ يذهب العمل ويبقى جزاؤه مع العامل، أو إنها شبهت في بقائها على أهلها، وإفاضة النعم السوابغ عليهم، بالميراث الباقي، لا ينضب له معين، ولا ينتهي إلى نفاذ.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ لأن المراد: سرهم وعلانياتهم.

ومنها: الحذف للاختصار في قوله: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: بلى نسمع سرهم ونجواهم، للدلالة ﴿بلى﴾ على المحذوف.

ومنها: تكرير اسم الرب في قوله: ﴿رَبِّ الْمَرْشَى﴾ تفخيماً لشأن العرش؛ لأنه أعظم مخلوقات الله سبحانه.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَذَرَهُمْ يَخْوضُوا﴾؛ لأن حقيقة الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه، فاستعير لشروعهم في أباطيلهم، وأكاذيبهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

- ١ - وصف القرآن الكريم .
- ٢ - الأمر بإنذار قومه ﷺ، مع غفلتهم وإسرافهم في لذات الدنيا .
- ٣ - شأن هؤلاء المشركين في تكذيبهم للرسول، شأن غيرهم من المكذبين من قبلهم .
- ٤ - اعترافهم بأن الله هو خالق السموات والأرض، مع عبادتهم للأوثان والأصنام .
- ٥ - اعتقادهم أن الملائكة بنات الله، ثم نعي ذلك عليهم .
- ٦ - تمسكهم بتقليد الآباء والأجداد في شؤونهم الدينية .
- ٧ - قصص الأنبياء من أولي العزم، كإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام .
- ٨ - وصف نعيم الجنة .
- ٩ - الأهوال التي يلقاها أهل النار، حتى يتمنوا الموت ليستريحوا مما هم فيه .
- ١٠ - متاركة أهل الباطل والصفح عنهم، حتى يأتي وعد الله تعالى .

والله أعلم

سورة الدخان

سورة الدخان مكية، قال القرطبي مكية بالاتفاق، إلا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ الآية.

وآياتها^(١): سبع أو تسع وخمسون آية. وكلماؤها: ثلاث مئة وست وأربعون كلمة. وحروفها: ألف وأربع مئة وأحد وثلاثون حرفاً.
المناسبة: ومناسبتها لما قبلها من وجوه^(٢):

- ١ - أنه تعالى حكى فيما قبلها قول رسوله ﷺ: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، وحكى في هذه عن أخيه موسى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾ (٢١).
- ٢ - أنه تعالى ختم ما قبلها بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه بالإنذار الشديد.
- ٣ - أنه تعالى قال فيما سلف: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾، وحكى هنا عن موسى ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ (٢٢) وَلَئِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ (٢٣) وهو قريب من ذلك.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها^(٣): أنه تعالى ذكر في أواخر ما قبلها: ﴿فَذَرَهُمْ يَخْوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ (٨٢)، فذكر يوماً غير معين ولا موصوفاً، فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم، بوصف وصفه، فقال: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٠)، وأن العذاب هو ما يأتيهم من قبلك، ويحل بهم من الجذب والقحط، ويكون العذاب في الدنيا، وإن كان العذاب في الآخرة، فيكون ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ يوم القيامة، انتهى.

تسميتها: سميت سورة الدخان، لأن الله تعالى جعله - أي: الدخان - آية لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة، بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ،

(٣) البحر المحيط.

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكون، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة الدخان جميعها محكم، غير آية واحدة، وهي قوله تعالى في آخرها: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ (٥٩) نسخت بآية السيف.

فضلها: ومما ورد في فضلها، ما أخرجه الترمذي والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ «من قرأ حم الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم أحد رواة ضعيف. قال البخاري: منكر الحديث.

ومنها: ما أخرجه الترمذي ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له». قال الترمذي بعد إخرجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام بن المقدم أحد رواة ضعيف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كذا قال أيوب ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد، ويشهد له ما أخرجه ابن الضريس عن الحسن مرفوعاً بنحوه، وهو مرسل.

وما أخرجه الدارمي ومحمد بن نصر عن أبي رافع قال: «من قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له، وزوج من الحور العين».

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة حم الدخان في ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة، بنى الله بها بيتاً في الجنة».

وعبارة الشهاب في سورة الواقعة: ولم يذكر البيضاوي، في فضائل السور، حديثاً غير موضوع من أول القرآن إلى هنا، غير ما ذكره هنا، وما مر في سورة يس والدخان.

والله سبحانه وتعالى أعلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ٣﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٤﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٥﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٦﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٧﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٨﴾ إِن كُنْتُمْ تُوقِنُونَ ٩﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ١٠﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ١١﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ١٢﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٣﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٤﴾ أَتَى لَهُمُ الْذِكْرُ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٥﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّجُ الْمُنُونِ ١٦﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ١٧﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ١٨﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ١٩﴾ أَنْ أَدْأُوا إِلَىٰ عَبْدٍ لِلَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ٢٠﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُبْعَثَ ٢١﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ٢٢﴾ وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا بِى فَأَعِزُّوهُ ٢٣﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَبْ لَآئِهِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ٢٤﴾ فَآتَىٰ بِعَادِلٍ لَّيْلًا إِنَّكُمْ مَّتَشَبِعُونَ ٢٥﴾ وَاتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ٢٦﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٢٧﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ٢٨﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينَ ٢٩﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ٣٠﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ٣١﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيهِ إِسْرَافِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلْمُهِينَ ٣٢﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيلًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ٣٣﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٤﴾ وَمَا أَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْأَلْبَتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ٣٥﴾ .

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة وما قبلها آنفاً، والله سبحانه وتعالى أقسم في مبدأ هذه السورة بكتابه الكريم المبين، كما أقسم به في السابقة، لما فيه من صلاح البشر، على أنه أنزل القرآن في ليلة القدر، لإنذار العباد، وتخويفهم من عقابه، وأن هذه الليلة يفصل فيها كل أمر حكيم، فيبين فيها التشريع النافع للعباد في دنياهم وآخرتهم، وهو رب السموات والأرض وما بينهما، فلا تخفى عليه خافية من أمرهم، وهو الذي بيده أحيائهم وإماتهم، وهو

ربهم ورب آبائهم الأولين، ولكنهم يمترون بعد أن وضع الحق وأفصح الصبح
لذي عينين .

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ١٠﴾... ﴿الآيات، مناسبة
هذه^(١) الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال كفار قريش إذ
قابلوا الرحمة بالكفران، ولم ينتفعوا بالمنزل ولا بالمنزل عليه.. أردف هذا بأن
أمر نبيه ﷺ بالانتظار، حتى يحل بهم بأسه؛ لأنهم أهل الخذلان والعذاب، لا
أهل الإكرام والغفران، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، وتهديد للمشكرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه
الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أن مشركي مكة أصروا على
كفرهم، ولم يؤمنوا برسولهم.. أردف هذا، ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم،
فكثير قبلهم كذبوا رسلهم، فها هم أولاء قوم فرعون، قد كان منهم مع موسى مثل ما
كان من قومك معك، بعد أن أتاهم بالبينات التي كانت تدعو إلى تصديقه، فكذبوه،
فنصره الله عليهم، وأغرق فرعون وقومه، وجعلهم مثلاً للآخرين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ١٠﴾ الآيات، سبب نزول
هذه الآية^(٢): ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود، قال: إن قريشاً لما استعصوا
على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط حتى أكلوا
العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من
الجهد، فأنزل الله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ١٠﴾ فأتى رسول الله ﷺ،
فقال: يا رسول الله، استسقى الله لمضر، فإنها قد هلكت فاستسقى فسقوا،
فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، حين أصابتهم،
فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ١١﴾ قال: يعني يوم
بدر. والحديث أخرجه مسلم وأحمد.

(٢) لباب النقول.

(١) المراغي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حَمَّ ①﴾؛ أي: أقسمت^(١) بحق ﴿حَم﴾، وهي هذه السورة، أو مجموع القرآن ﴿وَالْكِتَابِ﴾؛ أي: وبالكتاب الكريم، وهو القرآن، معطوف على ﴿حَم﴾، إذ لو كان قسماً آخر، لزم اجتماع قسمين على مقسم عليه واحد، ومدار العطف على تقدير كون ﴿حَمَّ ①﴾ اسماً لمجموع القرآن المغايرة في العنوان ﴿الْبَيْنِ﴾؛ أي: البين معانيه لمن أنزل عليهم، وهم العرب لكونه بلغتهم، وعلى أساليبهم، أو المبين لطريق الهدى من طرق الضلالة، الموضح لكل ما يحتاج إليه في أبواب الديانة، وقال بعضهم: معنى الكلام: أقسمت بحق الحي القيوم، وبحق القرآن الفاصل بين الحق والباطل، فالحاء إشارة إلى الاسم الحي، والميم إلى الاسم القيوم، وهما أعظم الأسماء الإلهية لاشتمالهما على ما يشتمل عليه كل منها من المعاني والأوصاف والحقائق.

ويجوز^(٢) أن يراد بالكتاب المبين ههنا: الكتب المتقدمة، التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه، والضمير في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ عائد عليه بمعنى الكتب؛ لأنها كلها أنزلت في رمضان، كما سيأتي، أو على القرآن، ويجوز أن يكون المراد به: اللوح المحفوظ، والأول أولى. وقال النسفي: والواو في ﴿وَالْكِتَابِ﴾: واو القسم إن جعلت ﴿حَمَّ ①﴾ تعديداً للحروف، أو اسماً للسورة، مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف، وواو العطف إن كانت ﴿حَمَّ ①﴾ مقسماً بها، وجواب القسم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ وفي «عرائس البقلي» الحاء من ﴿حَمَّ ①﴾ الوحي الخاص إلى محمد ﷺ، والميم محمد ﷺ، وذلك ما كان بلا واسطة، فهو سر بين المحب والمحبوب، لا يطلع عليه أحد غيرهما، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُوهٖ مَا أَوْحَىٰ ②﴾.

ويحتمل^(٣) أن يكون ﴿حَمَّ ①﴾ إشارة إلى حمد الله على إنزاله القرآن،

(٣) روح البيان.

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

الذي هو أجل النعم الإلهية. ﴿حَمَّ ۝﴾ منحوت من الحمد، والمعنى: وحق الحق، الذي يستحق الحمد في مقابلة إنزال القرآن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾؛ أي: الكتاب المبين الذي هو القرآن، وهو جواب القسم؛ أي: إنا أنزلنا القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، في مكان يقال له: بيت العزة دفعةً واحدة، وأمله جبرائيل على السفرة، ثم كان ينزله على النبي ﷺ نجوماً؛ أي: مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع؛ أي: أنزلناه ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَتٍ﴾؛ أي: ذات بركة وخير كثير، إذ فيها الرحمة والمغفرة ومضاعفة الحسنات، واستجابة الدعوات، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة، وهي ليلة القدر في شهر رمضان، أو ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصك، وليلة الرحمة، وقيل: بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة، والجمهور^(١) على الأول، لقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾ وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وليلة القدر في أكثر الأفاويل في شهر رمضان، وقيل: ابتداء نزوله إلى النبي ﷺ في ليلة القدر. قال القرطبي: ومن قال^(٢): أقسم بسائر الكتب المنزلة فقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ كنى به عن غير القرآن، وروى قتادة عن واثلة، أن النبي ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزلت الزبور لاثني عشرة من رمضان، وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان، ثم قال: أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا في هذه الليلة، ثم أنزل نجماً نجماً في سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب»، وقيل: كان ينزل من اللوح المحفوظ في كل ليلة القدر، ما ينزل في سائر السنة، وقيل: كان ابتداء الإنزال من اللوح المحفوظ في هذه الليلة، انتهى.

والحكمة في نزوله ليلاً^(٣): أن الليل زمان المناجاة، ومهبط النفحات، وفي الليل فراغ القلوب بذكر حضرة المحبوب، فهو أطيب من النهار عند المقربين

(١) النسفي.

(٣) روح البيان.

(٢) القرطبي.

والأبرار، ووصف الليلة بالبركة، لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها، أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة، وإجابة الدعوة ونحوها، وإلا فأجزاء الزمان متشابهة بحسب ذواتها وصفاتها، فيمتنع أن يتميز بعض أجزائه عن بعض، بمزيد القدر والشرف لنفس ذواتها.

ثم بين السبب في إنزاله، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾؛ أي: ومبشرين، ففيه اكتفاء استئناف مبين لما يقتضي الإنزال، كأنه قيل: إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتخويف من العقاب، والتبشير بالجنة؛ أي: وإنما أنزلناه لأننا كنا معلمين الناس ما ينفعهم، فيعملون به، وما يضرهم فيجتنبونه لتقوم حجة الله على عباده.

ثم بين سبب تخصيص نزوله بتلك الليلة، فقال: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الليلة المباركة ﴿يُفْرَقُ﴾؛ أي: يكتب، ويفصل، ويبين، ويظهر للملائكة، الموكلين بالتصرف في العالم ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: كل أمر محكم، متقن، مبرم، مقضي من الله سبحانه، في تلك السنة من أرزاق العباد، وآجالهم، وجميع أمورهم إلا السعادة والشقاوة، من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة، وقيل: يبدأ في انتساخ ذلك من اللوح المحفوظ، في ليلة البراءة: ليلة النصف من شعبان ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب والزلازل والصواعق والخسف إلى جبرائيل، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا، وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت، حتى أن الرجل ليمشي في الأسواق، وأن الرجل لينكح ويولد له، ولقد أدرج اسمه في الموتى، وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة، وما بينهما اعتراض، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، قال الزمخشري^(١): فإن قلت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٣﴾

فِيهَا يُفْرَقُ﴾ ما موقع هاتين الجملتين.

قلت: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان، فسر بهما جواب القسم، الذي هو

(١) الكشف.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، كأنه قيل: أنزلناه، لأن من شأننا الإنذار والتحذير، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر حكيم.

قلت: وهذا من محاسن هذا الرجل، اهـ «سمين».

وقرأ الجمهور^(١): ﴿يُفْرَقُ﴾ بضم الياء وفتح الراء مخففاً، مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن والأعمش والأعرج: ﴿يُفْرَقُ﴾ بفتح الياء وضم الراء. ﴿كل﴾: بالنصب ﴿حكيم﴾. بالرفع على الفاعلية، وقرأ زيد بن علي فيما ذكر الزمخشري: ﴿نفرق﴾ بالنون ﴿كل﴾ بالنصب، وفيما ذكر أبو علي الأهوازي عنه ﴿يفرق﴾ بفتح الياء وكسر الراء ونصب ﴿كل﴾، ورفع ﴿حكيم﴾ على أنه الفاعل بيفرق. وقرأ الحسن وزائدة عن الأعمش ﴿يفرق﴾ بالتشديد مبنياً للمفعول.

قال الشوكاني: والحق^(٢) ما ذهب إليه الجمهور، من أن هذه الليلة المباركة، هي ليلة القدر، لا ليلة النصف من شعبان؛ لأن الله سبحانه أجملها هنا، وبينها في سورة البقرة، بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ ويقول في سورة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾ فلم يبق بعد هذا البيان الواضح، ما يوجب الخلاف ولا ما يقتضي الاشتباه.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ قال الزجاج والفراء: انتصاب ﴿أَمْرًا﴾ على المصدرية بـ ﴿يُفْرَقُ﴾؛ أي: يفرق فرقاً؛ لأن ﴿أَمْرًا﴾ بمعنى فرقاً، مثل قولك: قعدت جلوساً، والمعنى: إنا نأمر ببيان ذلك، ونسخه من اللوح المحفوظ، وقال المبرد: ﴿أَمْرًا﴾ في موضع المصدر لـ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، والتقدير: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ إنزالاً من عندنا. وقال الأخفش انتصابه على الحال من فاعل أنزلناه؛ أي: أنزلناه أمرين، أو من مفعول أنزلناه؛ أي: مأموراً به، وقيل: هو منصوب على الاختصاص؛ أي: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية، بعد بيان فخامته الذاتية؛ أي: فيه تفخيم لشأن القرآن، وتعظيم

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

له، وقد ذكر بعض أهل العلم في انتصاب ﴿أَمْرًا﴾ اثني عشر وجهًا، أظهرها ما ذكرناه. وقرأ زيد بن علي ﴿أمر﴾ بالرفع؛ أي: هو أمر.

ولما ذكر إنزال القرآن، ذكر المرسل، فقال ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ هذه الجملة إما بدل من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ بدل الكل، أو جواب ثالث للقسم، أو مستأنفة، قال الرازي: المعنى إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل أنا كنا مرسلين للأنبياء. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول لأجله للإرسال.

والمعنى^(١): إنا أنزلنا القرآن، لأن عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد، لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، فيكون قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ غاية للإرسال، متأخرة عنه على أن المراد منها: الرحمة الواصلة إلى العباد، أو لاقتضاء رحمتنا السابقة إرسالهم، فيكون باعثاً متقدماً للإرسال، على أن المراد: مبدؤها، ووضع الرب موضع الضمير، للإيدان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها، وإضافته إلى ضميره ﷺ للتشريف، وقرأ الحسن وزيد بن علي ﴿رحمة﴾ بالرفع على تقدير: هي رحمة؛ أي: تلك رحمة من ربك التفاتاً من مضمّر إلى ظاهر، إذ لو روعي ما قبله، لكان التركيب رحمةً منا، لكنه وضع الظاهر موضع المضمّر، إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، كما مر آنفاً.

والمعنى^(٢): أي في هذه الليلة بدأ سبحانه، يبين ما ينفع عباده، من أمور محكمة لا تغيير فيها ولا تبديل، بإنزاله ذلك التشريع الكامل، الذي فيه صلاح البشر، وهدايتهم، وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، ولا غرو، فهي من لدن حكيم عليم بما يصلح شؤون عباده في معاشهم ومعادهم.

ثم بين السر في نزول القرآن على لسان رسوله، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إلخ؛ أي: إنا^(٣) أرسلنا الرسول به، رحمة منا لعبادنا، حتى يستبين لهم ما يضرهم وما ينفعهم، وحتى لا يكون لهم حجة بعد إرسال الرسول به.

(٣) المراغي.

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

ثم أكد ربوبيته، بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمن دعاه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيته، يسمع كل شيء من شأنه أن يسمع، خصوصاً أنين المشتاقين، ويعلم كل شيء من شأنه أن يعلم، خصوصاً حنين المحبين، فلا يخفى عليه شيء من أقوال العباد وأفعالهم، وأحوالهم، وهو تحقيق لربوبيته تعالى، وأنها لا تحقق إلا لمن هذه نعوته الجليلة؛ أي: إنه إنما فعل تلك الرحمة؛ لأنه هو السميع لأقوالهم، العليم بما يصلح أحوالهم، فلا عجب أن أرسله إليهم لحاجتهم إليه. ثم أكد العلة في سمعه للأشياء وعلمه بها، فقال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ربك؛ أي: مالك جميع الموجودات العلوية والسفلية ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿مُوقِنِينَ﴾ بشيء، فهذا أولى ما توقنون به، لفرط ظهوره، أو إن كنتم مريدين لليقين فاعلموا ذلك.

والمعنى: إنه هو السميع لكل شيء، العليم به؛ لأنه مالك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، إن كنتم تطلبون معرفة ذلك، معرفة يقين لا شك فيه؛ أي: إن كنتم موقنين بأنه رب السموات والأرض وما بينهما.. فأقروا بتوحيده، ولا تكذبوا رسوله فيما دعاكم إليه، وقد أقروا بذلك، كما حكاها الله عنهم، في غير موضع. وقرأ ابن محيصن^(١) والأعمش وأبو حيوة والكوفيون: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ بالخفض، بدلاً من ﴿رَبِّكَ﴾، أو بياناً له، أو نعتاً، وقرأ باقي السبعة والأعرج وابن أبي إسحاق وأبو جعفر وشيبة بالرفع على القطع؛ أي: هو رب السموات، أو على البدل من السميع العليم، أو على أنه مبتدأ، وخبره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وبعد أن أثبت ربوبيته ووحدانيته، ذكر فذلّة لذلك، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه، جملة مستأنفة مقررة لما قبلها، أو خبر ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما مر، وكذلك جملة ﴿يُخَيِّ وَيُمِيتُ﴾ فإنها مستأنفة مقررة لما قبلها؛ أي^(٢): يوجد الحياة في الجماد، ويوجد الموت في الحيوان بقدرته، كما يشاهد

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

ذلك؛ أي: يعلم علماً جلياً يشبه المشاهدة؛ أي: هو سبحانه الإله الذي لا تصلح العبادة إلا له، وهو المحيي المميت، فيحيي ما يشاء مما يقبل الحياة، ويميت ما يشاء عند انتهاء ما قدر له ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ أي: هو ربكم أيها العباد، وخالقكم ورازقكم ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾؛ أي: رب آدم ومن دونه من الأولين.

وقرأ الجمهور^(١): ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ﴾ برفعهما على الاستئناف، بتقدير مبتدأ؛ أي: هو ربكم، أو على أنه بدل من ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾، أو بيان، أو نعت له، وقرأ ابن أبي إسحاق وابن محيصن وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم والحسن وأبو موسى عيسى بن سليمان، وصالح الناقط كلاهما عن الكسائي بالجذر، على أنه بدل ثان من ﴿رَبِّكُمْ﴾، أو بيان له، وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي ﴿ربكم ورب آبائكم﴾ بالنصب على المدح.

والمعنى^(٢): هو مالكم والمتصرف فيكم، ومالك آبائكم الأولين، ومدير شؤونهم، فاعبدوه دون آلهتكم التي لا تقدر على ضر ولا نفع.

ثم بين أنهم، ليسوا بموقنين بالجواب، بعد أن تبين لهم الرشد من الغي، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ مما ذكر من شؤونه تعالى، غير موقنين في إقرارهم بأنه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما ﴿يَلْعَبُونَ﴾ لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان، بل مخلوطاً بهزء ولعب، وهو خبر آخر للمبتدأ. وفي «كشف الأسرار» الظرف متعلق بالفعل، أو حال من فاعل ﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: بل هم يلعبون في شك، ويتحIRON فيه، مثل قوله: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أو بل هم حال كونهم في شك مستقر في قلوبهم يلعبون؛ أي: بل هم في شك من التوحيد والبعث والإقرار، بأن الله خالقهم، وإن قالوا ذلك، فإنما يقولونه تقليداً لأبائهم، من غير علم، إذ هم قابله وبالهزء والسخرية، فعل اللاعب العابث الذي يأخذ الجد، وما لا مزية فيه، أخذ الهزل الذي لا فائدة فيه.

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

والفاء، في قوله: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره إذا عرفت حالهم هذا، وأردت بيان عاقبتهم... فأقول لك: انتظر يا محمد لكفار مكة ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: ظاهر لا شك فيه، و﴿يَوْمَ﴾ مفعول ﴿ارتقب﴾ والباء للتعدي، ويجوز أن يكون ظرفاً له، والمفعول محذوف؛ أي: ارتقب وعد الله في ذلك اليوم، أطلق الدخان على شدة القحط، وغلبة الجوع على سبيل الكناية، أو المجاز المرسل.

والمعنى^(١): فانتظر لهم يوم شدة ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، إما لضعف بصره، أو لأن في عام القحط يظلم الهواء، لقلة الأمطار وكثرة الغبار، ولذا يقال لسنة القحط السنة الغبراء، كما قالوا: عام الرمادة، والظاهر أن السنة الغبراء ما لا تنبت الأرض فيها شيئاً، وكانت الريح إذا هبت ألقت تراباً كالرماد، أو لأن العرب تسمي الشر الغالب دخاناً، وإسناد الإتيان إلى السماء لأن ذلك يكفها عن الأمطار، فهو من قبيل إسناد الشيء إلى سببه.

وذلك أن قريشاً لما بالغوا في الأذية له ﷺ دعا عليهم، فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر؛ أي: عقابك الشديد. يعني: خذهم أخذاً شديداً. واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، وهي السبع الشداد، فاستجاب الله دعاءه، فأصابتهم سنة؛ أي: قحط حتى أكلوا الجيف، والجلود، والعظام، والعلهز وهو الوبر والدم المخلوطان؛ أي: يخلط الدم بأوبار الإبل، ويشوى على النار، كان الرجل منهم يرى بين السماء والأرض الدخان من الجوع، وكان يحدث الرجل، ويسمع كلامه، ولا يراه من الدخان، وذلك قوله تعالى: ﴿يَعْشَى النَّاسُ﴾ صفة ثانية لـ ﴿دُخَانٍ﴾؛ أي: يحيط ذلك الدخان بهم، ويشملهم من جميع جوانبهم حال كونهم قائلين: ﴿هَذَا﴾ الجوع، أو الدخان ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فمشى إليه ﷺ أبو سفيان ونفر معه، وناشدوه الله والرحم؛ أي: قالوا: نسألك يا محمد بحق

(١) روح البيان.

الله وبحرمة الرحم أن تستسقي لنا ، ووعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم القحط أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾؛ أي: وقائلين: ربنا اكشف وارفع عنا هذا العذاب؛ أي: عذاب الجوع، أو عذاب الدخان، ومآلهما واحد، فإن الدخان إنما ينشأ من الجوع ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بعد رفعه عنا.

قال الشوكاني: وقد اختلف^(١) في هذا الدخان، المذكور في الآية متى يأتي، فقيل: إنه من أشراط الساعة، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً، وقد ثبت في «الصحيح»: أنه من جملة العشر الآيات، التي تكون قبل قيام الساعة، وقيل: إنه أمر قد مضى، وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي ﷺ كما بينا آنفاً، وهذا ثابت في «الصحيحين». وغيرهما، وقيل: إنه يوم فتح مكة، فقد قال الأعرج: إن المراد بالدخان: هو الغبار الذي ظهر يوم فتح مكة من ازدحام جنود الإسلام حتى حجب الأبصار عن رؤية السماء، فحينئذ فالمراد بالعذاب: في قوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾: الجوع الذي كان بسبه، ما يروونه من الدخان، أو الدخان الذي هو من أشراط الساعة، أو يروونه يوم فتح مكة، على اختلاف الأقوال، والراجع منها: أنه الدخان الذي كانوا يتخيلونه، مما نزل بهم من الجهد وشدة الجوع، ولا ينافي ترجيح هذا القول ما ورد أن الدخان من آيات الساعة، فإن ذلك دخان آخر، ولا ينافيه أيضاً ما قيل: إنه الذي كان يوم فتح مكة، فإنه دخان على تقدير صحة وقوعه، اهـ. بتصرف واختصار.

والمعنى^(٢): أي فانتظر يوم يأتيهم الجذب والمجاعة، التي تجعل الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، المنتشر في الفضاء، يغشى ذلك الدخان، ويحيط بهم من كل جانب، فيقولون: ربنا هذا عذاب مؤلم، يقض المضاجع، وينتهي إلى موت محقق إن دام، فاكشفه عنا إنا مؤمنون، إن كشفته عنا، وهذه هي طبيعة البشر، إذا هم وقعوا في شدة أيا كانت، أن يعدوا بالتوبة والإقلاع عما هم فيه، ولكن النفوس الشريرة لا تتجه إلى فعل الخير، ولا تفعل ما تقترب به

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

إلى ربها انتظاراً لمثوبته ورجاءاً في غفرانه ورحمته .

ثم نفى صدقهم في الوعد، وبين أن غرضهم كشف العذاب فحسب، فقال: ﴿أَنْتُمْ لَمْ تَذْكُرُوا﴾؛ أي: من أين يحصل لهم التذكر والاتعاظ، فهو بعيد عنهم غير ممكن منهم، فهو رد^(١) لكلامهم، واستدعائهم الكشف، وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان، المنبئ عن التذكر والاتعاظ بما اعتراه من الداهية، والمراد بالاستفهام: الاستبعاد، لا حقيقته، وهو ظاهر؛ أي: كيف يتذكرون، أو من أين يتذكرون؟ ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ يبين لهم كل شيء يحتاجون إلى بيانه، من أمر الدين، والدنيا؛ أي: والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر، وموجبات الاتعاظ، ما هو أعظم منه في إيجابهما، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبين لهم مناهج الحق بإظهار آيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة، تحرك صم الجبال ﴿ثُمَّ﴾ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ هنا للاستبعاد ﴿تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أعرضوا ﴿عَنْهُ﴾؛ أي: عن ذلك الرسول فيما شاهدوا منه من العظائم، الموجبة للإقبال إليه، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل جاوزوه ﴿وَقَالُوا﴾ تارةً هذا الرجل ﴿مُعَلَّلٌ﴾ يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف، واسمه عداس أو أبو فكهة، أو جبر أو يسار. وقرأ زر بن حبیش ﴿مُعَلَّمٌ﴾ بكسر اللام، قاله في «البحر» وتارة أخرى ﴿مَجْنُونٌ﴾؛ أي: مغلوب العقل ناقصه، أو يقول بعضهم: كذا، وآخرون: كذا، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم، أن يتأثروا منه بالعظة والتذكير، وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضغاً، وإذا شبع طغاً. وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم: ربنا اكشف عنا العذاب؛ أي: إنا نكشف العذاب المعهود عنكم، بدعاء النبي ﷺ، وإنزل المطر كشفاً ﴿قَلِيلًا﴾ وهو دليل على كمال خبت سريرتهم، فإنهم إذا عادوا إلى الكفر بكشف العذاب كشفاً قليلاً، فهم بالكشف رأساً أعود، أو زماناً قليلاً، وهو ما بقي من أعمارهم ﴿إِنْ تَكْفُرْ عَاطِدُونَ﴾؛ أي: تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والإصرار على الكفر، وتنسون هذه الحالة، وصيغة^(٢) الفاعل في الموضعين

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

للدلالة على تحققهما لا محالة، ولقد وقع كلاهما، حيث كشفه الله سبحانه، بدعاء النبي ﷺ، فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا فيه من العتو والعتاد؛ لأن من مقتضى فساد طبيعتهم واعوجاج طبيعتهم، المبادرة إلى خلف الوعد ونقض العهد، والعود إلى الإشراك إذا زال المانع على ما بينه الله تعالى، فيمن ركب الفلك إذا أنجاه إلى البر، والمراد بعودهم إليه: عودهم إلى العزم على الاستمرار عليه؛ لأنه لم يوجد منهم إيمان بالفعل، إنما وجد منهم الوعد به، إذا انكشف عنهم العذاب.

ومعنى الآيات^(١): أي كيف يتذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوا به من الإيمان حين يكشف عنهم العذاب، وقد جاءهم الرسول بما هو كاف في رجوعهم إلى الحق، فلم يرجعوا بل قال بعضهم: إن القرآن إنما يعلمه له غلام رومي لبعض ثقيف. وقال آخرون: إنه أصيب بخبل، إذ تلقي إليه الجن هذه الكلمات، حين يعرض له الغشي.

والخلاصة: أن التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من النوائب، وإما أن تكون بما يتضح لهم من الحقائق، وهؤلاء قد اتضحت لهم وجوه الصواب فلم يفقهوا، فأخذناهم بالعذاب، ولكن كيف يرجعون به وقد ذكرناهم بالآيات، وأريناهم الحقائق، وهو أنجع أثراً من العقاب فلم يؤمنوا، وقالوا ما قالوا.

ثم نبه إلى أنهم لا يوفون بعهدهم، بل إذا زال الخوف نكصوا على أعقابهم، ورجعوا إلى سيرتهم الأولى، وعضوا على الكفر بالنواجذ، وساروا على طريق الآباء والأجداد، فقال: إنا كاشفوا العذاب، إلخ؛ أي: إنا رافعوا هذا الضر النازل بهم، بالخصب الذي نوجده لهم زمناً يسيراً، وإنا لنعلم أنهم عائدون إلى سيرتهم الأولى من تمسكهم بالكفر، وترك الحق وراءهم ظهيراً لما في طباعهم من الميل إلى عبادة الأوثان، وتقليد الآباء والأجداد.

ولما كان العذاب الأليم لم يؤثر، والإصلاح بالعلم والإيمان لم يفد

(١) المرآغي.

أمهلناهم إلى يوم البطشة الكبرى، حيث لا توبة بعدها فينتقم الله منهم، وهذا ما عناه سبحانه، بقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ ونأخذهم ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾؛ أي: الأخذة الشديدة ﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ منهم أشد الانتقام؛ أي: يوم القيامة ننتقم منهم، ونعاقبهم العقوبة العظمى، فيوم ظرف لما دل عليه قوله: ﴿سُنْقِمُونَ﴾، وهو ننتقم، لا بمنتقمون؛ لأن ما بعد ﴿إِنَّ﴾ لا يعمل فيما قبلها، أو منصوب بمحذوف. تقديره: اذكر يوم نبطش البطشة الكبرى، إنا منتقمون منهم في ذلك اليوم، ويوم البطشة الكبرى هو يوم القيامة. كما ذكرنا آنفاً، قاله الحسن وعكرمة وابن عباس.

والمعنى عليه: أي إنا يوم القيامة لنسلطن عليهم بأسنا، وننتقم منهم أشد الانتقام، ولا يجدن شفيعاً ولا ولياً ولا نصيراً يمنع عنهم عقابنا، فيندمن ولات حين مندم، وقيل: البطشة الكبرى هي يوم بدر، قاله الأكثر. والمعنى عليه: إنهم لما عادوا إلى التكذيب والكفر بعد رفع العذاب عنهم، انتقم الله منهم بوقعة بدر.

والظاهر: أن ذلك يوم القيامة. وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضاً. قال الشوكاني: بل الظاهر: أنه يوم بدر وإن كان يوم القيامة يوم بطشة كبرى من كل بطشة، فإن السياق مع قريش، فتفسيره بالبطشة الخاصة بهم، أولى من تفسيره بالبطشة التي تكون يوم القيامة لكل من الإنس والجن.

وقرأ الجمهور^(١): ﴿نَبْطِشُ﴾ بفتح النون وكسر الطاء؛ أي: نبطش بهم، وقرأ الحسن وأبو جعفر بضم الطاء، وهي لغة فيه. وقرأ الحسن أيضاً وأبو رجاء وطلحة بضم النون وكسر الطاء. بمعنى: نسلط عليهم من يبطش بهم، والبطشة على هذه القراءة ليس منصوباً بنبطش، بل بمقدر؛ أي: نبطش ذلك المسلط البطشة، أو يكون البطشة في معنى الإبطاشة، فينتصب بنبطش.

والخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى، أخذهم بالجوع والدخان، ثم أذاقهم القتل والأسر يوم بدر، وكل ذلك من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، فإذا كان يوم القيامة، يأخذهم أخذاً شديداً، لا يقاس على ما كان في الدنيا، نسأل

(١) البحر المحيط.

الله العصمة من عذابه وجحيمه، والتوفيق لما يوصل إلى رضاه ونعمته، وقال بعض المفسرين: المراد بالدخان: ما هو من أشراط الساعة كما مر، وهو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة، فيدخل في أسماع الكفرة، حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيد؛ أي: المشوي، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كببت أوقد فيه، ليس فيه خصاص؛ أي: فرجة يخرج منها الدخان، وفي الحديث: «أول الآيات الدخان، ونزول عيسى بن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين»، وهو بفتح الهمزة على ما هو المشهور، اسم رجل بنى هذه البلدة باليمن، وأقام بها، تسوق الناس إلى المحشر؛ أي: إلى الشام والقدس، قال حذيفة: فما الدخان؟ «فتلا الآية، فقال: يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلاً، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره».

وقال حذيفة بن أسيد الغفاري - رضي الله عنه -: اطلع رسول الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ﷺ: «ما تذاكرون؟» فقالوا: نذكر الساعة، فقال ﷺ: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها آيات»؛ أي: علامات، فذكر الدخان والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ وقرئ ﴿فَتَنَّا﴾ بتشديد التاء للمبالغة في الفعل، أو لتكثير متعلقه؛ أي: وعزتي وجلالي لقد فتنا وابتلينا قبل كفار مكة ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: القبط، وامتحانهم؛ أي: فعلنا بهم فعل الممتحن بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا، ويظهر منهم ما كان مستوراً، فاختاروا الكفر على الإيمان.

فالفعل حقيقة، أو المعنى^(١): أوقعناهم في الفتنة بالإمهال، وتوسيع الرزق

(١) روح البيان.

عليهم، فهو مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى سببه؛ لأن المراد بالفتنة حينئذ: ارتكاب المعاصي، وهو تعالى كان سبباً لارتكابها بالإمهال والتوسيع المذكورين ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى، وهو موسى عليه السلام، بمعنى: أنه استحق على ربه أنواعاً كثيرة من الإكرام، أو كريم على المؤمنين، أو في نفسه، لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من كان أفضل نسباً، وأشرف حسباً على أن الكرم بمعنى الخصلة المحموده، وقال بعضهم: لمكالمته مع الله تعالى، واستماع كلامه من غير واسطة، وقال مقاتل: حسن الخلق بالتجاوز والصفح، وقال الفراء: كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة.

وفي الآية: إشارة إلى أنه تعالى جعل فرعون وقومه فيما فتنهم فداء أمة محمد ﷺ، لتعتبر هذه الأمة بهم، فلا يصرون على جحودهم كما أصروا، ويرجعوا إلى طريق الرشd، ويقبلوا دعوة نبيهم، ويؤمنوا بما جاء به لئلا يصيبهم مثل ما أصابهم بعد أن جاءهم رسول كريم ﴿أَنْ أَدُوءًا﴾ ﴿أَنْ﴾ إما مصدرية؛ أي: بأن أدوا، وادفعوا ﴿إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ﴾؛ أي: بني إسرائيل، وسلموهم، وأرسلوهم معي لأذهب بهم إلى الشام موطن آبائهم، ولا تستعبدوهم، ولا تعذبوهم؛ أي: جئتكم من الله تعالى لطلب تأدية عباد الله إلي. يقول الفقير: فتكون التأدية بعد الإيمان، كما قالوا في آية أخرى: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، ونظيره قول نوح عليه السلام لابنه: ﴿يَبْنِيْ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: آمن واركب، فإن الراكب إنما هم المؤمنون، والركوب متفرع على الإيمان. وقال بعضهم: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ منصوب بحرف النداء المحذوف؛ أي: بأن أدوا إلي يا عباد الله حقه من الإيمان، وقبول الدعوة، وقيل: المعنى أدوا إلي يا عباد الله سمعكم، حتى أبلغكم رسالة ربكم، وإما مفسرة لتقدم ما هو بمعنى القول، وهو رسول كريم، أو مخففة من الثقيلة، والمعنى: أن الشأن والحال. أدوا إلي عباد الله، والأول أولى وأوضح.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه ورسالته، صادق في دعواه بالمعجزات، تعليل للأمر بالتأدية، وفيه إشارة إلى أن بني إسرائيل، كانوا

أمانة الله في أيدي فرعون وقومه، يلزمهم تأديتهم إلى موسى لكونه أميناً، فخانوا تلك الأمانة حتى آخذهم الله تعالى على ذلك.

والمعنى^(١): أي ولقد اخترنا قبل مشركي قومك قوم فرعون، وهم مثال قومك في جبروتهم وطغيانهم وعتوهم، واستكبارهم، فأرسلنا إليهم الرسول الكريم موسى عليه السلام، فقال لهم: أيها القوم أرسلوا معي بني إسرائيل، وأطلقوهم من أسركم وتعذيبكم إني رسول من الله مأمون على ما أبلغكم غير متهم فيه ونحو الآية: قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نُغَظِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْمُدَّثِّيَّ﴾.

﴿وَأَن لَّا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: ويأني لا تتكبروا عليه تعالى، بالاستهانة بوحية وبرسوله، واستخفاف عباده وإهانتهم وقال يحيى بن سلام: لا تستكبروا عن عبادة الله. وقال ابن جريج: لا تعظموا على الله، قيل: والفرق بينهما: أن التعظيم تطاول المقتدر، والاستكبار ترفع المحتقر ذكره الماوردي. وقوله: ﴿إِنِّي أَنَا إِلَهُكُمْ﴾؛ أي: من جهته تعالى، يحتمل أن يكون اسم فاعل، وأن يكون فعلاً مضارعاً ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة في نفسها، وموضحة صدق دعواي، لا سبيل إلى إنكارها، يعني: المعجزات، تعليل للنهي. وفي إيراد^(٢) الأداء مع الأمين، والسلطان مع العلو، من الجزالة ما لا يخفى، وقرأ الجمهور ﴿إِنِّي﴾ بكسر الهمزة على سبيل الإخبار. وقرأت فرقة بفتح الهمزة.

والمعنى عليه: لا تعلوا على الله من أجل أنني آتيكم، فهذا توبيخ لهم، كما تقول: أنغضب أن قال لك الحق؛ أي: وأن لا تطغوا وتبغوا على ربكم، فتكفروا به وتعصوه، فتخالفوا أمره، لأنني آتيكم بحجة واضحة على حقية ما أدعوكم إليه لمن تأملها وتدبر فيها ﴿وَإِنِّي عُدْتُ﴾ والتجأت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ وتوكلت عليه من ﴿أَن تَزْمُنُون﴾ أي فهو العاصم من شركم من الرجم، وهو الرمي بالرجام بالكسر، وهي الحجارة، أو تؤذوني ضرباً أو شتماً بأن تقولوا: هو ساحر ونحوه، أو

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

تقتلونني. قيل: لما قال: ﴿وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ توعده بالقتل. وفي «التأويلات النجمية». وإني عذت بربي من شر نفسي، وبربكم من شر نفوسكم، أن ترجموني بشيء من الفتن، انتهى.

والمعنى: وإني التجيء إلى الله الذي خلقني وخلقكم، أن لا تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي^(١): ﴿عُتُّ﴾.

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ﴾؛ أي: وإن لم تصدقوني، وتقرؤا نبوتي ﴿فَأَمَّا لَوْلَا﴾؛ أي: فاتركوني، ولا تتعرضوا لي بأذى. قال مقاتل: دعوني كفافاً لا علي ولا لي. وقيل: كونوا بمعزل عني، وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا، وقيل: فخلوا سبيلي، والمعنى متقارب، والإيمان يتعدى باللام باعتبار معنى الإذعان والقبول، وبالباء باعتبار معنى الاعتراف، وحقيقة آمن به أمن المخبر من التكذيب والمخالفة، وقال ابن الشيخ: اللام للأجل بمعنى: لأجل ما أتيت به من الجحة.

والمعنى^(٢): وإن كابرتم مقتضى العقل، ولم تصدقوني فكونوا بمعزل مني، لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا إلي بشر ولا أذى، لا باليد ولا باللسان، فليس ذلك من جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم، فالاعتزال كناية عن الترك، ولا يراد به الاعتزال بالأبدان.

قال القاضي عبد الجبار - من متأخري المعتزلة -: كل موضع جاء فيه لفظ الاعتزال في القرآن، فالمراد به: الاعتزال عن الباطل، وبهذا صار اسم الاعتزال اسم مدح، وهو منقوض، بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ لِي فَأَمَّا لَوْلَا﴾، فإن المراد بالاعتزال هنا: العزلة عن الإيمان التي هي الكفر، لا العزلة عن الكفر والباطل.

وخلاصة المعنى^(٣): أي وإن لم تصدقوني فيما جئتكم به، من عند ربكم، فخلوا سبيلي، ولا ترجموني باللسان ولا باليد، ودعوا الأمر بيني وبينكم

(٣) المراغي.

(١) البيضاوي.

(٢) روح البیان.

مسالمة، إلى أن يقضي الله بيننا، ولما طال مقامه عليه السلام، بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، ولم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً.. دعا عليهم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ إذ كذبوه، ولم يؤمنوا به، ولم يؤدوا إليه عباد الله، وهموا بقتله بـ ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَبْطِيِّينَ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾؛ أي: مصرون على الإجرام والكفر، مشركون بك، مكذبون لرسلك، متبعون أهواءهم، وأنت أعلم بهم، فافعل بهم ما يستحقونه، والفاء في قوله: ﴿فَأَسْرَ بَعَادَى لَيْلًا﴾ عاطفة ما^(١) بعدها على محذوف ولكنه مع إضمار القول بعدها، لثلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر. والإسراء وكذا السرى لا يكون إلا بالليل، لكنه أتى بالليل للتأكيد، وسماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرد كونهم مجرمين؛ لأنهم قد يستحقون بذلك الدعاء عليهم، والتقدير: فأجاب الله دعاءه، فقال له: أسر وأمسر يا موسى بيني إسرائيل ومن آمن معك من القبط، من مصر ليلاً، على غفلة من العدو.

ثم علل السرى ليلاً، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُتَّبِعُونَ﴾؛ أي: إن فرعون وقومه يتبعونكم إذا علموا بخروجكم ومسيركم ليلاً ليقتلوكم، وأؤخر علمهم بذلك، فلا يدركونكم. ونحو الآية. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اسْرِ بِعِبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾.

وقرأ الجمهور^(٢): بفتح همزة: ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ﴾ على إضمار حرف الجر، كما قدرنا آنفاً، وقرأ الحسن في رواية، وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وزيد بن علي بكسرهما، على إضمار القول. وقرأ الجمهور: ﴿فَأَسْرَ﴾ بقطع الهمزة وقرأ أهل الحجاز بالوصل، ووافقهم ابن كثير، فالقراءة الأولى من أسرى، والثانية: من سرى، يقال: سرى وأسرى لغتان.

﴿وَأَتْرَكَ﴾ يا موسى ﴿الْبَحْرَ﴾؛ أي: بحر القلزم، وهو الأظهر الأشهر، أو النيل، حال كونه ﴿رَهْوًا﴾؛ أي: ساكناً، مصدر^(٣) سمي به البحر للمبالغة، وهو

(٣) روح البيان.

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

بمعنى الفرجة الواسعة؛ أي: ذا رهو أو راهياً، مفتوحاً على حاله منفرجاً، ولا تخف أن يتبعك فرعون وقومه، أو ساكناً على هيئته بعدما جاوزته، ولا تضرب بعصاك لينطبق، ولا يغيره عن حاله ليدخله القبط، فإذا دخلوا فيه أطبقه الله عليهم، فيكون معنى ﴿رَهَوًا﴾ ساكناً غير مضطرب، وذلك لأن الماء وقف له كالطود العظيم، حتى جاوز البحر ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ علة للأمر بترك البحر رهوًا، والجند جمع معد للحرب، والإغراق والغرق الرسوب في الماء، والتسفل فيه؛ أي: وإذا قطعت البحر أنت وأصحابك، فاتركه منفرجاً، ساكناً على حاله التي كان عليها حين دخلته، حتى يدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه؛ لأنهم جند مغرقون، في سابق علمنا، أخبر تعالى موسى بذلك ليسكن قلبه، ويطمئن جأشه. وقرأ الجمهور^(١): بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾ على الاستئناف، لقصد الإخبار بذلك، وقرئ بالفتح على تقدير لأنهم ﴿كَمْ﴾ هي الخبرية، المفيدة للتكثير، في محل النصب على أنه مفعول ﴿تَرَكُوا﴾، وقوله: ﴿مَنْ جَنَّتٍ﴾ بيان لإبهامها ﴿وَعُيُونٍ﴾ معطوف على ﴿جَنَّتٍ﴾؛ أي: ترك آل فرعون في مصر كثيراً من بساتين كثيرة الأشجار، وعيون نابعة بالماء، وكانت بساتينهم متصلةً من رشيد إلى أسوان، وقدر المسافة بينهما أكثر من عشرين يوماً. ولعل^(٢) المراد بالعيون: الأنهار الجارية، المتشعبة من النيل، إذ ليس في مصر آبار ولا عيون، كما قال بعضهم في ذمها هي بين بحر رطب، عفن، كثير البُخارات الرديئة، التي تولد الأدواء، وتفسد الغذاء، وبين جبل وبر يابس صلد. ولشدة ييسه لا تنبت فيه خضراء، ولا تنفجر فيه عين ماء، انتهى.

وفي الآية^(٣) اختصار، والمعنى: فعل موسى ما أمر به، بأن ترك البحر رهوًا. فدخله فرعون فأغرقوا، وتركوا بساتين كثيرةً وعيوناً نابعةً، قال بعضهم: لما كان فرعون يفتخر بالماء وجريان الأنهار من تحت قصره، وأشجار بساتينه جاء الجزاء من جنس العمل، ولذا أمر الله تعالى موسى عليه السلام، بأن يسير

(١) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

(٢) روح البيان.

إلى جانب البحر دون البر، وإلا فالله سبحانه وتعالى قادر على إهلاك العدو في البر أيضاً، بسبب من الأسباب، كما فعل بأكثر الكفار، ممن كانوا قبل القبط ﴿و﴾ كم تركوا من ﴿زروع﴾ كثيرة الأقوات، جمع زرع، وهو ما استنبت بالبذر، تسميةً بالمصدر من زرع الله الحرث إذا أنبته وأنماه. قال في «كشف الأسرار»؛ أي: وفنون الأقوات، وألوان الأطعمة؛ أي: كانوا أهل ريف وخصب، خلاف حال العرب ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: محافل مزيّنة، ومنازل محسنة، وقرأ الجمهور^(١) ﴿وَمَقَامٍ﴾ بفتح الميم، قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير: أراد المقام، وهو اسم مكان للقيام، وقرأ ابن هرمز وقتادة وابن السميّع ونافع، في روايةٍ خارجة، وقتادة بضمها، اسم مكان الإقامة، قال قتادة: أراد المواضع الحسان من المجالس، والمساكن وغيرها.

﴿وَنِعْمَةٍ﴾؛ أي: تنعم^(٢) ونضارة عيش ولذاذة حياة، يقال: كم ذي نعمة لا نعمة له؛ أي: كم ذي مال لا تنعم له، فالنعمة بالكسر ما أنعم به الله عليك، والنعمة بالفتح التّنعّم، وهو استعمال ما فيه النعومة، واللين، من المأكولات والملبوسات؛ أي: وكم تركوا من نعمة ﴿كَأَنَّهُمْ﴾؛ أي: فرعون وقومه ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك النعمة ﴿فَنَكِيهَيْنَ﴾؛ أي: متنعمين متلذذين، ومنه الفاكهة، وهي ما يتفكه به؛ أي: يتنعم ويتلذذ بأكله، وقرأ أبو رجاء ﴿ونعمة﴾ بالنصب عطفاً على ﴿كَمْ﴾ وقرأ الجمهور: ﴿فَنَكِيهَيْنَ﴾ بالألف؛ أي: طيبي الأنفس، أصحاب فاكهة كلابن وتامر؛ أي: كانوا فيها متنعمين طيبةً بها أنفسهم، وقرأ^(٣) أبو رجاء والحسن، وأبو الأشهب، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة ﴿فكهيّن﴾ بغير ألف؛ أي: أشربين بطرين، وقال الجوهري: فكه الرجل بالكسر فهو فكه، إذا كان مزاحاً، والفكه أيضاً الأشر. وقال القشيري: فاكهيّن لاهين. وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ في محل^(٤) رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، قال الزجاج: الأمر، وهو إهلاك فرعون وقومه، وتخليفهم وراءهم كذلك، ويجوز أن تكون في محل نصب،

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٤) الشوكاني.

والإشارة إلى مصدر فعل يدل عليه ﴿تَرْكُوا﴾؛ أي: مثل ذلك السلب سلبناهم إياها، وقيل: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، وقيل: مثل ذلك الإهلاك أهلكتناهم، فعلى الوجه الأول يكون قوله: ﴿وَأَوْزَنَّا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ معطوفاً على ﴿تَرْكُوا﴾، وعلى الوجه الأخيرة يكون معطوفاً على الفعل المقدر، والمراد بالقوم الآخرين: بنو إسرائيل، فإن الله سبحانه ملكهم أرض مصر، بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين؛ أي: إنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث بلا كلفة، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾.

أي^(١): جعلنا أموال القبط لقوم، ليسوا منهم في شيء، من قرابة، ولا دين، ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل، كانوا مسخرين لهم مستعبدين في أيديهم، فأهلكهم الله تعالى، وأورثهم ديارهم وملكهم وأموالهم، وقيل: غيرهم لأنهم لم يعودوا إلى مصر. قال قتادة: لم يرو في مشهور التواريخ، أنهم رجعوا إلى مصر، ولا ملكوها قط، ورد بأنه لا اعتبار بالتواريخ فالكذب فيها كثير، والله تعالى أصدق قيلاً، وقد جاء في الشعراء التنصيب بإيراثها بني إسرائيل، كذا في «حواشي» سعدي المفتي.

قال المفسرون عند قوله تعالى^(٢): ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَسَتَلْفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يجعلكم خلفاء في أرض مصر، أو في الأرض المقدسة، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾؛ أي: أرض الشام، ومشارقها ومغاربها، جهاتها الشرقية والغربية، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة. والعمالقة، بعد انقضاء مدة التيه، وتمكنوا في نواحيها، فاضطرب كلامهم، فتارة حملوا الأرض على أرض مصر، وأخرى على أرض الشام، والظاهر: الثاني ولأن المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا أولادهم، ومصر إنما ورثها أولادهم، لأنها فتحت في زمان

(٢) روح البيان.

(١) روح البيان.

داوود عليه السلام، ويمكن أن يحمل على أرض الشام ومصر جميعاً والمراد بالمستضعفين: هم وأولادهم، فإن الأبناء ينسب إليهم ما ينسب إلى الآباء، والله أعلم.

وعبارة «المراغي» هنا: أي كم^(١) ترك فرعون وقومه، بعد مهلكهم من بساتين فيحاء، وحدائق غناء، وزروع ناضرة، وقصور شاهقة، فقد كانوا في بُلْهَيْنَةٍ من العيش، وسعة في الرزق، وخفض ودعة، وسرور، وحبور، ثم أكد هذا بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾؛ أي: هكذا فعلنا بهؤلاء الذين كذبوا رسلنا، وهكذا نفعل بكل من عصانا، وخالف أمرنا ﴿وَأَوْفَيْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ﴾؛ أي: وأورثنا تلك البلاد بما فيها من خير عظيم ونعيم عظيم، قوماً غير أهلها ممن لا يمتنون^(٢) - لا ينسبون - إليهم بقرابة ولا دين، فقد تغلب على مصر الآشوريون، والبابليون حيناً، والحبش حيناً آخر، ثم الفرس مدّة، واليونان أخرى، ثم الرومان من بعدهم، ثم العرب، ثم الطولونيون، والإخشيدون، والفاطيون، والمماليك البرية والبحرية، والترك والفرنسيون، والإنكليز، وها نحن أولاء نجاهد لنحظى بخروجهم من ديارنا، ونتمكن من استقلال بلادنا، والله الأمر من قبل ومن بعد ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم سخر منهم، واستهزأ بهم حين هلكوا، فقال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ مجاز مرسل عن عدم الاكتراث بهلاكهم. والاعتداد بوجودهم؛ لأن سبب البكاء على الشيء هو المبالاة بوجوده، قال المفسرون؛ أي^(٣): إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم به، ولم يصعد لهم إلى السماء عمل طيب يُبْكِي عليهم به.

(١) المراغي.

(٢) يمتنون: المت التوسل بقرابة بابه رداه مختار.

(٣) الشوكاني.

والمعنى: أنه لم يصب بفقدهم وهلاكهم أحد من أهل السماء، ولا من أهل الأرض، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض؛ أي: عمت مصيبته، ومن ذلك قول جرير:

لَمَّا أَتَى خَبْرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَعُ
وقال الحسن: في الكلام حذف مضاف، تقديره: أي ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض من الملائكة والناس، وقال مجاهد: الكلام على حقيقته، فإن السماء والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحاً، وقيل: إنه يبكي على المؤمن مواضع صلاته، ومساعد عمله، وفي الحديث: «إن المؤمن يبكي عليه من الأرض مصلاه، وموضع عبادته، ومن السماء مصعد عمله»، ورُوي: إذا مات كافر استراح منه السماء والأرض، والبلاد، والعباد، فلا تبكي عليه أرض ولا سماء ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾؛ أي: ممهلين إلى وقت آخر، بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم، وشدة عنادهم؛ أي: ما أمهلوا لتوبة، أو تدارك تقصير، بل عجل لهم العذاب.

ولما بين كيفية إهلاك فرعون وقومه أردف ذلك، بذكر إحسانه إلى موسى، وقومه فبدأ بدفع الضرر عنهم، وهو نجاتهم مما كانوا فيه من العذاب، ثم ذكر اتصال النفع لهم من اختيارهم على العالمين، وإيتائهم الآيات، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد خلصنا أولاد يعقوب بإغراق القبط في اليم ﴿وَمِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾؛ أي: من العذاب الشديد من استعباد فرعون إياهم، وقتل أبنائهم، واستخدام نسائهم وبناتهم، وتكليفه إياهم بالأعمال الشاقة. وقوله: ﴿وَمِنَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب، إما على جعله نفس العذاب لإفراطه في التعذيب، وإما على حذف المضاف؛ أي: من عذاب فرعون، أو حال من المهين؛ أي: حال كونه واقعاً من جهة فرعون واصلاً إليهم من جانبه.

وقرأ عبد الله^(١): ﴿من عذاب المهين﴾ وهو من إضافة الموصوف إلى

(١) البحر المحيط.

صفته، كبقلة الحمقاء، أو من عذاب فرعون المهين إياهم؛ لأنه كان عظيم السعي في إهانة المحققين، وقرأ ابن عباس ﴿من فرعون﴾، من اسم استفهام مبتدأ، و﴿فرعون﴾ خبره لما وصف فرعون بالشدة والفظاعة، قال ﴿من فرعون﴾ على معنى: هل تعرفونه من هو في عتوه وشيظته.

ثم عرف حاله في ذلك. بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾؛ أي: متكبراً عن الإيمان وقبول الحق، ﴿مَنْ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان؛ أي: من الذين أسرفوا على أنفسهم بالظلم والعدوان، وتجاوز الحد في الكفر والعصيان، ومن إسرافه أنه على حقارته، وخسة شأنه ادعى الإلهية، وكان أكفر الكفار، وأطغاهم، وهو أبلغ من أن يقال: مسرفاً لدلالته على أنه معدود في زميرتهم، مشهور بأنه في جملتهم، وفيه ذم لفرعون، ولمن كان مثله في العلو والإسراف، كنمرود وغيره، وبيان أن من أهان المؤمن، أهلكه الله تعالى، وأذله، ومن يهن الله فما له من مكرم، وأن النجاة من أيدي الأعداء، من نعم الله الجليلة على الأحباب، فإن من نكد الدنيا ومصائبها على الحر، أن يكون مغلوباً للأعداء، وأن يرى عدواً له، ما من صداقته بد، وأن الله تعالى إذا أراد للمرء ترقياً في دينه ودنياه، يقدم له البليات ثم ينجيّه.

والمعنى: أي ولقد خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد، وقتل الأبناء، واستحياء النساء، وتكليفهم بالأعمال الشاقة إلى نحو ذلك، من وسائل الخسف والضميم، إذ كان جباراً مستكبراً مسرفاً في الشر والفساد، ولا أدل على ذلك من ادعائه الألوهية إذ قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾.

وبعد أن بين طريق دفعه الضر عنهم، أردف ذلك، ذكر ما أكرمهم به، فقال: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد اصطفينا بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿اخترنا﴾؛ أي^(١): حالة كوننا

(١) روح البيان.

عالمين، بأنهم أحقاء بالاختيار، والاصطفاء، وفضلناهم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: على عالمي زمانهم، أو على العالمين جميعاً في زمانهم وبعدهم في كل عصر، لكثرة الأنبياء فيهم حيث بعث فيهم يوماً ألف نبي، ولم يكن هذا في غيرهم، ولا ينافيه قوله تعالى في حق أمة محمد ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية، لتغاير جهة الخيرية. وقال هنا^(١): ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾؛ أي: منا وقال في الجاثية: ﴿وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بحذفه جرياً هنا على الأصل في ذكر ما لا يغني عنه غيره، واكتفاء، ثم بقوله بعد: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾.

يقول الفقير: والحق أن هذه الأمة المرحومة، خير من جميع الأمم من كل وجه، فإن خيرية الأمم إن كانت باعتبار معجزات أنبيائهم، فالله تعالى قد أعطى لنبينا ﷺ جميع ما أعطاه للأولين، وإن كانت باعتبار كثرة الأنبياء في وقت واحد، فعلمائنا الذين كأنبياء بني إسرائيل أكثر، وأزيد، وذلك لأنه لا تخلو الدنيا كل يوم من أيام هذه الأمة إلى قيام الساعة من مئة ألف ولي وأربعة وعشرين ألف ولي، فانظر كم بينهم من الفرق، وهادانا الله وإياكم أجمعين انتهى.

وقال الواسطي رحمه الله تعالى^(٢): اخترناهم على علم منا بجنایاتهم، وما يقترفون من أنواع المخالفات، فلم يؤثر ذلك في سوابق علمنا بهم، ليعلموا أن الجنایات لا تؤثر في الرعايات، ومن هذا القبيل أولاد يعقوب عليه السلام، فإنهم مع ما فعلوا بيوسف من إلقائه في الجب ونحوه، اختارهم الله تعالى للنبوة على قول.

والمعنى^(٣): أي ولقد اصطفيناهم على عالمي زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتب، وأرسلنا فيهم من الرسل، ونحن عالمون بأنهم أهل لكل مكربة وفضل ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ﴾؛ أي: وأعطينا بني إسرائيل ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾؛ أي: من الأمور ذوات الخطر والشرف، الدالة على كرامتهم عندنا، وهي معجزات موسى عليه السلام،

(٣) المراغي.

(١) فتح الرحمن.

(٢) روح البيان.

﴿مَا فِيهِ بَلَكَاٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: اختبار ظاهر، وامتحان واضح، لننظر كيف يعملون، كفلق البحر، وإنجائهم من الغرق، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من عظام الآيات التي لم يعد مثلها في غيرهم. وفي «كشف الأسرار»: ابتلاهم بالرخاء والبلاء، فطالبهم بالشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء.

الإعراب

﴿حَمَّ ① وَالْكِتَابِ ② الْمُبِينِ ③﴾.

﴿حَمَّ ①﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة الآتية سورة ﴿حَم﴾؛ أي: مسماة بـ ﴿حَم﴾ إن قلنا إنه اسم للسورة، والجملة مستأنفة، وإن قلنا: إنه مما استأثر الله سبحانه بعلمه، فلا محل له من الإعراب؛ لأن الإعراب فرع عن إدراك المعنى، والمعنى: لم يعلم ﴿وَالْكِتَابِ ②﴾ ﴿الْوَاوِ﴾: حرف جر وقسم. ﴿الْكِتَابِ ②﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، ﴿الْمُبِينِ ③﴾ صفة لـ ﴿الْكِتَابِ ②﴾، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً، تقديره: أقسم والكتاب المبين، وجملة القسم مستأنفة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ④ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ⑤﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ⑥ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑦ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ⑧ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑨﴾.

﴿إِنَّا ④﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنْزَلْنَاهُ ④﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿فِي لَيْلَةٍ ④﴾: متعلق به، ﴿مُبَرَكَةٍ ④﴾ صفة ﴿لَيْلَةٍ ④﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِن ④﴾، وجملة ﴿إِن ④﴾ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ﴿إِنَّا ④﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا ⑤﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مُنْذِرِينَ ⑤﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ ⑤﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِن ④﴾، وجملة ﴿إِن ④﴾ جواب ثان للقسم أيضاً، أو مستأنفة، أو تفسيرية لجواب القسم. ﴿فِيهَا ⑤﴾: متعلق بـ ﴿يُفْرَقُ ⑤﴾، ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ ⑤﴾: فعل مغير الصيغة، ونائب فاعل، ومضاف إليه ﴿حَكِيمٍ ⑤﴾: صفة أمر، والجملة الفعلية مستأنفة، أو صفة ثانية لـ ﴿لَيْلَةٍ ④﴾، وما بينهما اعتراض ﴿أَمْرًا ⑤﴾: مفعول مطلق لـ ﴿يُفْرَقُ ⑤﴾ لأنه مصدر معنوي له؛ أي: يفرق فرقاً من عندنا، أو مفعول مطلق لفعله المحذوف؛

أي: أمرنا أمراً ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ صفة لـ ﴿أَمْرًا﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنْ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿رَحْمَةً﴾ أجازوا فيه خمسة أوجه، متساوية الرجحان:

الأول: المفعول لأجله والعامل فيه إما ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، وإما ﴿أَمْرًا﴾، وإما ﴿يُفَرِّقُ﴾، وإما ﴿مُنْذِرِينَ﴾.

والثاني: أنه مصدر منصوب بفعل مقدر؛ أي: رحمتنا رحمة.

والثالث: أنه مفعول بـ ﴿مُرْسِلِينَ﴾.

والرابع: أنه حال من ضمير ﴿مُرْسِلِينَ﴾؛ أي: ذوي رحمة.

والخامس: أنه بدل من ﴿أَمْرًا﴾، ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ صفة لـ ﴿رَحْمَةً﴾، أو متعلق بنفس الرحمة، ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿الَسَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ خبران لـ ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ٧ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ٨ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٩ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ١٠.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾: بالجر بدل من ﴿رَبِّكَ﴾، وبالرفع خبر ثالث لـ ﴿إِنْ﴾. ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَوَاتِ﴾، ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿السَّمَوَاتِ﴾، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف صلة لما، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿كُنْتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها: ﴿مُوقِنِينَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنتم موقنين، فأيقنوا بأن محمداً ﷺ رسوله، وجملة الشرط معترضة ﴿لَا إِلَهَ﴾: ناصب واسمه وخبره محذوف جوازاً، تقديره: موجود، وجملة ﴿لَا﴾: في محل الرفع خبر ثالث أو رابع لـ ﴿إِنْ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع، بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾: المحذوف، ﴿يُحْيِي﴾: فعل، وفاعل مستتر، والجملة خبر رابع لـ ﴿إِنْ﴾. ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوف على ﴿يُحْيِي﴾، ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر خامس لـ ﴿إِنْ﴾. ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ﴾: معطوف على

﴿رَبُّكُمْ﴾، ﴿الْأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ ﴿آبَائِكُمْ﴾، ﴿بَلَّ﴾: حرف إضراب عن محذوف، تقديره: فليسوا بموقنين بل هم، و﴿هَمْ﴾: مبتدأ، ﴿فِي سَلَكٍ﴾: خبره، وجملة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ في محل نصب، حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، والجملة الإضرابية معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾.

﴿فَارْتَقِبْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تعنتهم وتمردهم في الكفر، وأردت بيان عاقبة أمرهم.. فأقول لك: ارتقب: ﴿ارتقب﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل نصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَوْمَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿تَأْتِي السَّمَاءُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿بِدُخَانٍ﴾: متعلق لـ ﴿تَأْتِي﴾، ﴿مُبِينٍ﴾ صفة لـ ﴿دُخَانٍ﴾.

﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿أَنْ لَّهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾.

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿دُخَانٍ﴾، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر، صفة ثانية لـ ﴿دُخَانٍ﴾. ﴿هَذَا عَذَابٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة لـ ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية في محل نصب، مقول لقول محذوف، وجملة القول المحذوف حال من الناس، تقديره: يغشى الناس، حال كونهم يقولون لربك هذا عذاب أليم، ربنا اكشف عنا العذاب، ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل نصب، مقول القول. ﴿اكْشِفْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَنَّا﴾: متعلق به، ﴿الْعَذَابَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب، مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة في محل نصب، مقول القول مسوقة لتعليل الدعاء بالكشف، ﴿أَنْ﴾: اسم استفهام بمعنى كيف، أو أين، في محل نصب على الظرفية، مبني على السكون، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، حال من الضمير المستكن في الخبر الظرفي، ﴿الذِّكْرَى﴾ مبتدأ،

والتقدير: الذكرى حاصل؛ أي: حال كونه كائناً لهم، والاستفهام هنا لاستبعاد حصول الذكرى لهم، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾ حالية، ﴿قَدْ﴾ حرق تحقيق ﴿جَاءَهُمْ﴾ فعل ومفعول به، ﴿رَسُولٌ﴾: فاعل، ﴿مُبِينٌ﴾ صفة لـ ﴿رَسُولٌ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب، حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونٌ﴾ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتأخير، ﴿تَوَلَّوْا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على مقدر تقديره: فلم يذكروا ثم تولوا عنه، ﴿وَقَالُوا﴾: فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تَوَلَّوْا﴾، ﴿مُعَلِّمٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو معلم، ﴿مِّثْنُونٌ﴾: خبر ثان للمبتدأ، والجملة الاسمية مقول لـ ﴿قَالُوا﴾، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾: خبره، ومضاف إليه، وجملة ﴿إِن﴾ مستأنفة، ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: كشفاً قليلاً، أو على الظرفية الزمانية؛ لأنه صفة لزمان محذوف؛ أي: زمناً قليلاً، ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَائِدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿إِن﴾ معطوفة على جملة ﴿إِن﴾ الأولى بعاطف مقدر، تقديره: إنا كاشفوا العذاب قليلاً ثم إنكم عائدون، ﴿يَوْمَ﴾ منصوب باذكر مقدر، أو بننتقم منهم، ﴿نَبِطِشُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه ليوم، و﴿الْبَطْشَةَ﴾ مفعول مطلق، ﴿الْكُبْرَىٰ﴾ صفة له، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مُنْقِمُونَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (١٧).

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿فَتَنَّا﴾: فعل وفاعل، ﴿قَبْلَهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿فَتَنَّا﴾، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَجَاءَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جَاءَهُمْ﴾: فعل ومفعول به، ﴿رَسُولٌ﴾: فاعل، ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة ﴿رَسُولٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَتَنَّا﴾.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِيَّيْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٨) وَأَنْ لَا تَقْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّيْ مَا يَكُمُ
يُسْلَطُنِي مُبِينٌ﴾ (١٩).

﴿أَنْ﴾ يجوز أن تكون مفسرة؛ لأن مجيء الرسل متضمن معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: بأدائكم إلي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جاءهم﴾، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة ﴿أَدُّوا إِلَيَّ﴾: خبرها. ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾: منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، فيكون المراد بعباد الله: القبط. واختار الزمخشري أن يكون ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ مفعولاً به، وهم بنو إسرائيل، يقول أدوهم إلي، وأرسلوهم معي، ويؤيد هذا المعنى ما جاء في سورة الشعراء: ﴿فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢١) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٢). ﴿إِيَّيْ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَكُمْ﴾: حال من رسول؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿رَسُولٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَمِينٌ﴾: صفة ﴿رَسُولٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالأداء. ﴿وَأَنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أَنْ﴾: معطوفة مع مدخولها على ﴿أَنْ﴾ الأولى، ويجوز فيها من الأوجه ما جاز في الأولى. ﴿لَا﴾ ناهية. ﴿تَقْلُوا﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿تَقْلُوا﴾؛ أي: وبعدم علوكم على الله. ﴿إِيَّيْ﴾ ناصب واسمه، ﴿مَا يَكُمُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿يُسْلَطُنِي﴾ متعلق بـ﴿مَا يَكُمُ﴾، ﴿مُبِينٌ﴾: صفة لـ﴿سلطان﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي قبلها.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا إِلَيَّ فَأَعَزِّلُونِي﴾ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ
هَتُولَاءَ قَوْمٌ يُجْرِمُونَ﴾ (٢٢).

﴿وَإِنِّي﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿عُذْتُ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنْ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ قبلها، ﴿بِرَبِّي﴾: متعلق بـ﴿عُذْتُ﴾، ﴿وَرَبِّكُمْ﴾: معطوف على ﴿رَبِّي﴾، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَرْجُمُونِ﴾: فعل مضارع، منصوب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل،

والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية مفعول به، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع مدخولها، في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: من رجمكم إياي بلا جرم، والجار والمجرور متعلق بـ﴿عُذْتُ﴾، ﴿وَأَنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿لَنْ﴾: حرف جزم بـ﴿تُؤْمِنُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَنْ﴾، والواو فاعل، ﴿لِي﴾: متعلق بـ﴿تُؤْمِنُوا﴾، واللام بمعنى الباء، كقوله: فأمن له لوط؛ أي: به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿فَاعْتَرِلُون﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية وجوباً ﴿اعْتَرِلُون﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة الشرط معطوفة على مقدر معلوم من السياق، تقديره: فأمنوا بي ولا تؤذون، وإن لم تؤمنوا فاعتزلون. ﴿فَدَعَا﴾ الفاء عاطفة على مقدر معلوم من السياق، تقديره: فلم يتركوه، ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾ فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على موسى ومفعول به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ﴾: ناصب واسمه، ﴿قَوْمٌ﴾: خبر. ﴿يُجْرِمُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ ومدخولها في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: بأن هؤلاء إلخ، الجار والمجرور متعلق بـ﴿دَعَا﴾.

﴿فَأَسْرَ بَعَادَى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ (٢٢) وَاتَّزَكَّ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ (٢٣) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٤) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٥) وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَلَکَهِينَ (٢٦) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٧) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٨).

﴿فَأَسْرَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان أمرهم وشأنهم كما قلت، وأردت النصر عليهم. فأقول لك: أسر بعبادي، ﴿أَسْرَ﴾: فعل أمر، مبني على حذف حرف العلة، وهي الياء، وفاعله ضمير مستتر يعود على موسى ﴿بَعَادَى﴾: متعلق بـ﴿أَسْرَ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لَيْلًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿أَسْرَ﴾. ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ خبره،

﴿وَاتْرُكْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اترك﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على موسى، ﴿الْبَحْرَ﴾: مفعول به، ﴿رَهْوَاً﴾: حال من البحر، أو مفعول ثانٍ لـ﴿اترك﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَسْرَى﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿جُنْدٌ﴾ خبره ﴿مُغْرَقُونَ﴾ صفة ﴿جُنْدٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب، وقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا...﴾ إلخ، مرتبط بمقدر لا بد من تقديره: ليلتئم نظام الكلام، تقديره: فاطمأن موسى بذلك، فتم إغراقهم، وكم تركوا إلخ، ﴿كَمْ﴾: خبرية بمعنى عدد كثير، في محل نصب، مفعول به مقدم لـ﴿تركوا﴾، ﴿تَرَكُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنْ جَنْتٍ﴾: تمييز لـ﴿كَمْ﴾، و﴿مِنْ﴾: زائدة، وجملة ﴿تَرَكُوا﴾: معطوف على ذلك المقدر. ﴿وَعِوَيْنَ وَزُرُوعَ وَمَقَارٍ﴾: معطوفات على ﴿جَنْتٍ﴾، ﴿كَرِيرٍ﴾ صفة ﴿مَقَارٍ﴾، ﴿وَنَعَمَةٍ﴾: معطوف أيضاً على ﴿جَنْتٍ﴾: عطف عام على خاص؛ لأن النعمة تشمل جميع ما ذكر وغيره، مما لم يذكر هنا، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿فَنَكَبِينَ﴾، و﴿فَنَكَبِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانُوا﴾ في محل الجر صفة لـ﴿نعمة﴾، ﴿كَذَلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر كذلك، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب، وقال الزمخشري: الكاف صفة لمصدر محذوف؛ أي: أخرجناهم منها إخراجاً مثل ذلك الإخراج، وقال أبو البقاء: صفة للترك؛ أي: وتركوها تركاً مثل ذلك الترك، ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أَوْرَثْنَاهَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول أول، ﴿قَوْمًا﴾ مفعول ثانٍ، ﴿الْآخِرِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾، ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة على مقدر، تقديره: فأغرقوا فما بكت، ﴿مَا﴾: نافية ﴿بَكَتْ﴾ فعل ماضٍ، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿بَكَتْ﴾، ﴿السَّمَاءِ﴾: فاعل، ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف عليه، والجملة معطوفة على تلك المقدرة، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَا﴾: نافية، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُنْظَرِينَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَكَتْ﴾ أو على أغرقوا المقدر، وما بينهما اعتراض.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا نَبِيًّا إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف

تحقيق، ﴿بَجَيْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿بَيَّ إِسْرَءِيلَ﴾: مفعول به، ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿بَجَيْنَا﴾، ﴿الْمُهِنِ﴾: صفة لـ﴿الْعَذَابِ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، على ما يكابده من قريش، من الأذى، ﴿مِنَ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور، في قوله: ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص واسمه ضمير يعود على فرعون، ﴿عَالِيَا﴾: خبره ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان لـ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو): عاطفة، واللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَخَّرْنَاهُمْ﴾: فعل، وفاعل ومفعول به، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على القسم المذكور قبلها، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿أَخَّرْنَاهُمْ﴾ و﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى مع؛ أي: مع علمنا بأنهم يزيغون، وتفطروا منهم الفطرات، ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَخَّرْنَاهُمْ﴾، ﴿وَمَا أَتَيْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول أول، معطوف على ﴿أَخَّرْنَاهُمْ﴾، ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾: حال مقدم على صاحبها؛ لأنه حال من ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل نصب، مفعول ثان لـ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾، ﴿فِيهِ﴾ خبر مقدم، ﴿بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مُبِينٌ﴾ صفة ﴿بَلَاءٌ﴾، والجملة الاسمية صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَتٍ﴾؛ أي: ذات بركة وخير كثير، اسم مفعول من بارك الرباعي، بوزن فاعل لا مصدر، والمفاعلة ليست على بابها، وهي ليلة القدر على الصحيح المشهور. وقال النووي في «شرح مسلم»: والقول بأنها ليلة النصف من شعبان خطأ. ﴿مُنْذِرِينَ﴾؛ أي: مخوفين ﴿يُفَرِّقُ﴾؛ أي: يفصل ويبين ﴿أَمْرٍ﴾

حَكِيمٌ؛ أي: محكم مبرم لا يقبل التغيير والتبديل. ﴿مُؤَقِّنٌ﴾؛ أي: مريدن اليقين، كما يقال: منجد، متهم؛ أي: يريد نجداً وتهامة: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أصله: يموت بوزن يفعل، مضارع أمات الرباعي، نقلت حركة الباء إلى الميم فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد، وفيه حذف همزة أفعل من المضارع كما في أكرم.

﴿فَارْتَقَبْ﴾؛ أي: انتظر من قولهم: رقبته؛ أي: انتظرته وحرسه. ﴿يَدْخُلَانِ مُبِينٍ﴾ في «المختار»: دخان النار معروف، ودخنت النار ارتفع دخانها، وبابه دخل وخضع، وأدخنت مثله، ودخنت النار إذا فسدت بإلقاء الحطب عليها حتى هاج دخانها، ودخن الطبخ، إذا تدخنت القدر، وبابه طرب، وقياس جمعه في القلة أدخنة، وفي الكثرة دخنان، نحو: غراب وأغربة وغريان، وشذوا في جمعه على فواعل، فقالوا: دواخن، كأنه جمع داخنة، كما شذوا في عنان، فقالوا في جمعه: عوانن. وفي «القاموس»: والدخان كغراب وجبل، وorman العُثَانُ، والجمع أدخنة ودواخن ودواخين، وقال أبو عبيدة: والدخان الجذب، قال القتيبي: سمي دخاناً ليبس الأرض منه، حتى يرتفع منها كالدخان. ﴿يَغْشَى النَّاسُ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: يغشي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، والمراد بالدخان هنا: ما أصابهم من الظلمة في أبصارهم من شدة الجوع، حتى كأنهم كانوا يرون دخاناً، فإن الإنسان إذا اشتد خوفه، أو ضعفه، أظلمت عيناه، ورأى الدنيا كالمملوءة دخاناً ﴿يَغْشَى النَّاسُ﴾؛ أي: يحيط بهم ﴿أَكْشَفَ عَنَّا﴾؛ أي: أرفع عنا ﴿أَنَّ﴾؛ أي: كيف يكون، ومن أين يحصل ﴿مَعْلَرٌ﴾؛ أي: يعلمه غلام رومي لبعض ثقيف.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنَّا﴾ أصله: تَوَلَّوْا بوزن تفعلوا قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة فحذفت الألف وبقيت الفتحة دالة عليها. ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ جمع عائد، وفيه إعلال بالإبدال أصله: عاودون، أبدلت الواو همزة في الوصف، حملاً له في الإعلال على فعله حيث أعل الفعل عود بقلب الواو ألفاً، لتحركها بعد فتح. ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ يقال: بطش به أخذه بالعنف والسطوة، كأبطشه، والبطش الأخذ الشديد في كل شيء، والبأس قاله في «القاموس». وفي «المصباح»: بطش بطشاً من باب ضرب، وبها قرأ السبعة، وفي

لغة من باب قتل، وبها قرأ الحسن البصري، وأبو جعفر المدني، والبطش: هو الأخذ بعنف، وبطشت اليد إذا عملت فهي باطشة اهـ.

﴿وَلَقَدْ فتنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: بلونا، وامتحنا؛ أي: فعلنا بهم فعل الممتحن الذي يريد أن يعلم بحقيقة ذلك الشيء، وذلك الامتحان كان بزيادة في الرزق، والتمكين في الأرض، ففسدوا واستطالوا في الغي، وركوب متن الضلال ﴿كَرِيمٌ﴾؛ أي: جامع لخصال الخير، والأفعال المحمودة قاله الراغب. ﴿أَنَّا أَذَوَّا إِلَيْكَ﴾ أصله: أديوا، أمر من أدى يؤدي، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت التقي ساكنان، فحذف الياء وضمت الدال، لمناسبة الواو؛ أي: أطلقوا، وسلموا إلي ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: ائتمنه الله على وحيه ورسالته.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: لا تستكبروا على الله بالاستهانة بوحيه، أصله: تعلوا بوزن تفعلوا، سكنت الواو الأولى لوقوعها إثر ضمة، لتكون حرف مد، فالتقى ساكنان فحذفت الواو الأولى، لام الكلمة فوزنه تفعوا.

﴿إِنِّي أَنَا إِلَهُكُمْ﴾ اسم فاعل من أتى الثلاثي، فالمدة فيه مدة فاعل، اتصلت بفاء الكلمة، وسكنت الياء لوقوعها إثر كسرة، ويحتمل أن يكون مضارع أتى، فاجتمعت همزتان، همزة المضارع للمتكلم، وهمزة فاء الفعل، فأبدلت الثانية ألفاً حرف مد، من جنس حركة الأولى. ﴿سُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها. ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ أي: التجأت إليه، وتوكلت عليه، وأصله: عوذ قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، فصار عاذ فاتصلت بالفعل تاء الفاعل فبني على السكون، فصار عاذت فالتقى ساكنان، فحذفت الألف فصار عذت، فحذفت حركة فاء الفعل، وعوض عنها حركة تجانس العين المحذوفة، وهي الضمة؛ لأن عين الفعل واو فقليل: ﴿عُذْتُ﴾ بوزن فلت ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾؛ أي: تؤذونني ضرباً، أو شتماً. ﴿فَاعْتَرَلُونِ﴾؛ أي: كونوا بمعزل مني، لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا لي بسوء ﴿فَأَنسِرْ يَبَادِي﴾؛ أي: سربهم ليلاً ﴿مُتَّبِعُونَ﴾؛ أي: يتبعكم فرعون وقومه. ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا﴾؛ أي: حال كونه رهواً، فهو منصوب على الحال من البحر. والرهو في الأصل، مصدر رها يرهو رهواً، كعدا يعدو عدواً، إما بمعنى سكن؛ أي: ساكناً، وإما بمعنى انفرج وانفتح؛ أي: منفرجاً منفتحاً.

وفي «المختار»: رها بين رجله؛ أي: فتح، وبابه عدا ورها البحر سكن، وبابه عدا أيضاً، اهـ.

﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ والجند الجمع المعد للحرب، ﴿مُغْرَقُونَ﴾؛ أي: متمكنون في هذا الوصف، وإن كان لهم وصف القوة، والتجمع الذي شأنه النجدة الموجبة للعلو في الأمور. والغرق: الرسوب في الماء، والتسفل فيه حتى يغرق ويهلك، ﴿وَمَقَامٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: مجالس محفلة، ومنازل مزينة، وأصله: مقوم بوزن مفعول، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال، مصدر ميمي، أو اسم مكان. ﴿وَنَعْمَ﴾ قال صاحب «الكشاف»: النعمة بالفتح من التمتع، وبالكسر من الإنعام؛ أي: حسن حياة، ونضرة عيش.

﴿كَانُوا فِيهَا فَكِكِهِينَ﴾؛ أي: طيبي الأنفس ناعمين، أو أصحاب فاكهة، كلاين وتامر، وقد مرت هذه الصيغة، وعبرة «القاموس»: الفاكهة الثمر كله، والفاكهاني بائعها وكخجل آكلها، والفاكهه صاحبها، وفكههم تفكيهاً أطرفهم بها، والاسم الفكية والفاكهة بالضم، وفكه كفرح فكهاً فهو فكه وفاكه طيب النفس ضحوك، أو يحدث صحبه، فيضحكهم انتهى.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ﴾؛ أي: لم تكثرث لهلاكهم، ولا اعتدت بوجودهم، وقد جرى الناس أن يقولوا حين هلاك الرجل العظيم الشأن: إنه قد أظلمت الدنيا لفقده، وكسفت الشمس والقمر له، وبكت عليه السماء والأرض، كما قال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

السَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرُ
أي: يا نجوم الليل والقمر، وأصله: بكى بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين فوزنه فعت. ﴿مُنْظَرِينَ﴾؛ أي: ممهلين مؤخرين ﴿أَلْمُهِينَ﴾؛ أي: الشديد الإهانة والإذلال ﴿عَالِيًا﴾؛ أي: جباراً متكبراً. ﴿بَيْنَ الْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: في الشر والفساد. ﴿وَعَالِيًا﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: عالوا من العلو، قلبت الواو ياء

لوقوعها متطرفة إثر كسرة. ﴿أَخَّرْتَهُمْ﴾؛ أي: اصطفييناهم. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: عالمين باستحقاقهم ذلك. ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: عالمي زمانهم، وقوله: ﴿أَخَّرْتَهُمْ﴾ أصل اختار اختير، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم لما أسند الفعل إلى ضمير الرفع التقى ساكنان، فحذفت الألف فوزنه افتلناهم ﴿وَمِنَ الْآيَاتِ﴾؛ أي: المعجزات، كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى ﴿بَلَكُوا مِيًّا﴾؛ أي: اختبار ظاهر، أصل بلاء بلاو، أبدلت الواو همزة لتطرفها بعد ألف زائدة، وقوله: ﴿مِيًّا﴾ أصله: ميين بوزن مفعّل نقلت حركة الياء إلى الباء، فسكنت إثر كسرة وصارت حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرورياً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع:

فمنها: وضع الرب موضع الضمير في قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: رحمة منا، وفيه أيضاً الإضافة إلى ضميره ﷻ للتشريف، وفيه أيضاً الالتفات من التكلم إلى الغيبة، ولو جرى على منوال ما تقدم لقال: رحمة منا كما في «السمين».

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

ومنها: تكرار لفظ الرب، اعتناءً بشأن الربوبية.

ومنها: الإسناد العقلي في قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ حيث أسند الإتيان إلى السماء؛ لأن كفها عن الإمطار كان سبباً في الدخان، فهو من قبيل إسناد الشيء إلى سببه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِدُخَانٍ﴾ حيث أطلق الدخان على شدة القحط، وغلبة الجوع على سبيل الكناية، أو المجاز المرسل.

ومنها: صيغة الفاعل في قوله: ﴿كَاشِفُوا الْعَذَابَ﴾، وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ عَادُونَ﴾ للدلالة على تحقق الكشف والمعاودة لا محالة، ولقد وقع كلاهما، حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبي ﷺ، فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا فيه من

العتو والعناد.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ لما فيه من إسناد الفعل إلى سببه؛ لأن المراد بالفتنة: ارتكاب المعاصي، وهو تعالى كان سبباً لارتكابها بالإمهال، وتوسيع الرزق عليهم.

ومنها: إيراد الأداء مع الأمين، والسلطان مع العلو، في قوله: ﴿أَنْ أَدُؤَا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وفي قوله: ﴿وَأَنْ لَا تَقْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ يُسْطَنِي مُبِينٌ﴾؛ لأن في ذلك من الجزالة، والمناسبة ما لا يخفى.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَأَعْزَلُون﴾؛ لأن الاعتزال هنا كناية عن الترك، ولا يراد به الاعتزال بالأبدان.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾؛ أي: وقلنا له: أن أسر بعبادي.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَنَعَمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَّ﴾؛ لأن النعمة تشمل الأربعة قبلها، وغيرها من أنواع النعم، كالنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾؛ لأن الإيراث هنا مجاز عن تمليكها مخلفة عليهم، أو عن تمكينهم من التصرف فيها، تمكين الوارث فيما يرثه.

ومنها: الاستعارة المكنية التخيلية في قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ حيث شبه السماء والأرض بمن يصح منه الاكتراث، ثم حذف المشبه به، وهو من يصح منه الاكتراث، واستعار له شيئاً من لوازمه، وهو البكاء، فإسناد البكاء إليهما على سبيل التخيل، والمعنى: أنهم لم يكونوا يعملوا عملاً صالحاً ينقطع بهلاكهم، فتبكي الأرض لانقطاعه، وتبكي السماء؛ لأنه لم يصعد إليها شيء من ذلك العمل الصالح بعد هلاكهم، وجعله بعضهم مجازاً مرسلأً عن الاكتراث بهلاك الهالك، والعلاقة السببية، فذكر المسبب، وأراد السبب، فإن الاكتراث

المذكور سبب يؤدي إلى البكاء عادة.

ومنها: أن الإضافة في قوله: ﴿وَلِيَّ عُدَّتْ بِرِّي﴾ للتشريف، وفي قوله: ﴿وَرِيكُمُ﴾ للتهويل والتهديد، وفي قوله: ﴿هَاسِرٍ بِيَادِي﴾ للتشريف.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿لَيْلًا﴾ لأن الإسرائاء، وكذا السرى، لا يكون إلا في الليل.

ومنها: أن التنكير والإبهام في قوله: ﴿جَنَّتِ﴾ وما بعده للتكثير والتعظيم؛ لأن جناتهم، وبساتينهم كانت كبيرة واسعة جداً؛ لأنها كانت متصلة من رشيد إلى أسوان، وقدر المسافة بينهما أكثر من عشرين يوماً.

ومنها: الإيجاز والاختصار في هذه الآية، والتقدير: وفعل موسى ما أمر به من ترك البحر رهواً، فدخله فرعون وقومه فأغرقوا، وتركوا بساتين كثيرة كما مرّ.

ومنها: تسمية الشيء بالمصدر لكونه سببه في قوله: ﴿وَزُرُوعٌ﴾؛ لأنه مصدر زرع الله الحرث زرعاً، إذا أنبته وأنماه.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ بين المعطوف والمعطوف عليه، للتفخيم والتعجيب.

ومنها الإبهام في قوله: ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ دلالة على فخامتهم، ونباهتهم.

ومنها: التهكم بالكفار، وبحالهم المنافية لحال من يعظم، فيقال له: بكت عليه السماء والأرض، في قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ٣٥ ﴿فَأَنذَرْتُ بَنِيَّ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٣٦﴾ أَهَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ٣٧ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْبِ ٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٩ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤١ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ٤٣ ﴿طَعَامُ الْأَثِيرِ ٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٤٥ ﴿كَغَلْيِ الْحَبِيرِ ٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٤٧ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ ٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٤٩ ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ٥١ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّعِلِينَ ٥٣ ﴿كَذَلِكَ وَرَوَّجْتُهُمْ بِخُورٍ عَيْنٍ ٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأَوَّلَى وَوَقَّعَهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ ٥٦﴾ فَضَلَّ مِنْ رَيْكِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٥٧ ﴿فَأَنَّمَا يَتَرْنَهُ بِلِسانِكَ لَعْنَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ٥٩ ﴿

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ٣٦﴾... ﴿الآيات، عود^(١) على بدء، كان الكلام أولاً في كفار قريش، إذ قال فيهم: ﴿بَلْ هُمْ فِي سَكٍّ يَلْعَبُونَ ٤١﴾؛ أي: إنهم في شك من البعث والقيامة، ثم بين كيف أصروا على كفرهم، ثم ذكر أن قوم فرعون كانوا في إصرارهم على الكفر كهؤلاء، وقد أهلكهم الله، وأنجى بني إسرائيل، ثم رجع إلى الحديث الأول، وهو إنكارهم للبعث، وقولهم: إنه لا حياة بعد هذه الحياة فإن كنتم صادقين، فاسألوا ربكم، يعجل لنا إحياء من مات، حتى يكون ذلك دليلاً على صدق دعواكم النبوة، والبعث والقيامة، ثم توعدهم بأنه سيستن بهم سنة من قبلهم من المكذبين، فقد أهلك من هم أقوى منهم

(١) المراغي.

بطشاً، وأكثر جنداً، وهم قوم تبع ملوك اليمن من قحطان، فحذار أن تصروا على الكفر، حتى لا يحيق بكم بأس ربكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١)... الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر وعيد الكافرين، وما يروونه من الأهوال في ذلك اليوم.. أعقب هذا بوعد المتقين، بما يلاقونه في جنات النعيم، من ضروب التكريم في الملبس، والزوجات، والمآكل، ثم بيان أن هذا النعيم أبدي، خالد، لا يعقبه موت ولا تحول ولا انتقال، ثم ختم السورة بالمنة على العرب في نزول القرآن بلغتهم لعلهم يعتبرون، ويتعظون به، ثم توعدهم إذا هم كذبوا بما جاء به الرسول بحلول النعمة بهم، والنصر له عليهم، كما هي سنته في أمثالهم من المكذبين ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ (٤٢) طَعَامُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٤٣﴾ سبب نزول هذه الآية^(١): ما أخرجه سعيد بن منصور عن أبي مالك، قال: إن أبا جهل كان يأتي بالتمر، والزبد، فيقول: تزقموا، فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد ﷺ، فنزلت: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ (٤٢) طَعَامُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٤٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٨٩) سبب نزوله^(٢): ما أخرجه الأموي في «مغازيه» عن عكرمة، قال: لقي النبي ﷺ أبا جهل، فقال: «إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ فَاؤُكَ﴾ (٣٤) ثُمَّ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ فَاؤُكَ﴾ (٣٥) قال فنزع ثوبه من يده، فقال: ما تستطيع لي أنت وصاحبك من شيء، لقد علمت أنني أمتع أهل بطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله يوم بدر، وأذله، وعيره بكلمته، ونزل فيه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٨٩)، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه.

(١) لباب القول.

(٢) لباب القول.

التفسير وأوجه القراءة

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ﴾ إلى كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم في الإصرار على الكفر؛ أي: إن هؤلاء المشركين من قومك ﴿لَيَقُولُونَ إِن هِيَ﴾؛ أي: ما العاقبة، ونهاية الأمر ﴿إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى﴾ التي نموتها في الدنيا، ونزِيل حياتنا الدنيوية، ولا حياة بعدها ولا بعث.

قال الرازي: المعنى أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى، اهـ، ووصفها بالأولى لا يستدعي أن يثبت الخصم موتة ثانية، فيقصّدوا بذلك إنكارها؛ لأن كون الشيء أولاً، يستلزم وجود ما كان آخراً بالنسبة إليه، كما لو قال أول عبد أملكه حر، فملك عبداً عتق، سواء كان ملك بعده عبداً آخر، أو لا، ولا يبعد^(١) أن يحمل على حذف المضاف، على أن يكون التقدير: إن الحياة إلا حياة موتتنا الأولى، فالأولى صفة للمضاف، والقرينة عليه قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾، فالآية مثل قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾؛ أي: بمبعوثين بعد الموت، من أنشر الله الموتى، إذا بعثهم، وغرضهم من هذا القول، المبالغة في إنكار حشر الموتى، ونشرهم من القبور، والمعنى؛ أي: إن هؤلاء المشركين من أهل مكة يقولون ماثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث، ولا نشور.

ثم خاطبوا من وعدوهم بالنشور، وهم النبي ﷺ وأصحابه، وقالوا لهم ﴿فَأَنذَرُوا يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾؛ أي: ارجعهم إلى الدنيا بعد موتهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولونه، وتخبروننا به من البعث؛ أي: إن كان البعث والنشور حقاً ممكناً معقولاً كما تقولون، فعجلوا لنا بإحياء آبائنا الذين ماتوا، وذهبوا ولم يرجعوا، إن كنتم صادقين فيما تدعون من البعث، قيل: وكانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله تعالى، فينشر لهم قصي بن كلاب ليشاوروه، ويسألوا منه عن أحوال الموت، وكان كبيرهم ومفزعهم في المهمات والملامات.

(١) روح البيان.

وهذه حجة داحضة، فإن المعاد يوم القيامة، بعد انقضاء دار الدنيا، حين يعيد الله تعالى العالمين خلقاً جديداً، ومن ثم لم يتعرض الكتاب الكريم لرد ما قالوا، بل قال لهم متوعداً منذراً بأسه الذي لا يرد ﴿أَهْمُ؟﴾؛ أي: أكفار قريش ﴿خَيْرٌ﴾ في القوة، والشوكة اللتين يدفع بهما أسباب الهلاك، لا في الدين حتى يردانه ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه، وغلب أهلها وقهرهم خير، لا خيرية في واحد من الفريقين، وفيه وعيد شديد والمراد بتبع هنا: واحد من ملوك اليمن، معروف عند قريش، وخصه بالذكر لقرب الدار، وسيأتي بقية الكلام فيه، وقيل: المراد بتبع: جميع ملوكه لا واحد بعينه، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل قوم تبع، معطوف على ﴿قَوْمُ تَبَّعٍ﴾، والمراد بهم: عاد، وثمود، وأضرابهم من كل جبار عنيد، أولي بأس شديد.

والاستفهام^(١) لتقرير أن أولئك أقوى من هؤلاء المشركين، ومع ذلك ﴿أَهْلَكْتَهُمْ﴾ لما كذبوا رسلنا، وهذا كلام مستأنف لبيان عاقبة أمرهم؛ أي: أهلكنا قوم تبع والذين من قبلهم، وجملة قوله: ﴿إِنِّي أَنْتُمْ كَانُوا تُجْرِمُونَ﴾؛ أي: إن قوم تبع ومن قبلهم كانوا كاملين في الإجرام والآثام، مستحقين للهلاك، تعليل لإهلاكهم، ليعلم أن أولئك، حيث أهلكوا بسبب إجرامهم، مع ما كانوا في غاية القوة والشدة، فلأن يهلك هؤلاء، وهم شركاء لهم في الإجرام، وأضعف منهم في الشدة والقوة أولى.

ومعنى الآية^(٢): أي إن نظراءهم المشركين، المنكرين للبعث، كقوم تبع، أهلكهم الله تعالى، وخرّب ديارهم، وشردهم في البلاد شذر مذر، وقد كانوا أقوى منهم جنداً، وأكثر عدداً، وكانت لهم دولة وصولاً، وهؤلاء ليسوا في شيء من ذلك، وكذلك فعل بمن قبلهم كعاد، وثمود، إذ كانوا في خسران مبين بكفرهم، وإنكارهم للبعث والنشور، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٢٧).

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وقولنا: تبع الحميري منسوب إلى حمير، وهم أهل اليمن، وقد كانت حمير وهم أولاد سبأ، كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من الألقاب السلطانية، وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: لا تسبوا تبعاً، فإنه قد أسلم، وكان يكتب إذا كتب بسم الله الذي ملك برأ وبحراً، والمراد به هنا: تبع الأكبر، اسمه أسعد بن ملكيكون، وقيل: ابن حسان^(١) الحميري، وكنيته أبو كرب الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة، وأراد خرابها ثم انصرف عنها، لما أخبر أنها مهاجر نبي اسمه أحمد، وقال شعراً أودعه عند أهلها، وكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر، إلى أن هاجر النبي ﷺ، فدفعوه إليه، ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد، وفيه:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدٍ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ
فَلَوْ مُدَّ عُمرِي إِلَى عُمرِهِ لَكُنْتُ وَزيراً لَهُ وَأَبْنِ عَمِّ

وروى ابن إسحاق وغيره: أنه كان في الكتاب الذي كتبه، أما بعد: فإنني آمنت بك وبكتابك الذي ينزل عليك، وأنا على دينك وستك، وآمنت بربك ورب كل شيء، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام، فإن أدركتك فيها ونعمت، وإن لم أدركك فاشفع لي، ولا تنسني يوم القيامة، فإنني من أمتك الأولين، وبابعتك قبل مجيئك، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام، ثم ختم الكتاب ونقش عليه الله الأمر من قبل ومن بعد، وكتب على عنوانه، إلى محمد بن عبد الله، نبي الله ورسوله، خاتم النبيين ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم، من تبع الأول، وكان من اليوم الذي مات فيه تبع، إلى اليوم الذي بعث فيه النبي ﷺ، ألف سنة، لا يزيد ولا ينقص.

وفي «أوائل السيوطي»: أول من كسا الكعبة أسعد الحميري، وهو تبع

(١) الفتوحات.

الأكبر، وذلك قبل الإسلام بتسع مئة سنة، كساها الثياب الحبرة، وهي بوزن عنبه ضرب من برود اليمن، وفي رواية: وكسا بها الوصائل، وهي برود حمراء، فيها خطوط خضراء تعمل باليمن، وعن بعضهم: أول من كسا الكعبة كسوة كاملة، تبع كساها العصب وهي ضرب من البرود، وجعل لها باباً يغلق، وقال في ذلك:

وَكَسَوْنَا الْبَيْتَ الَّذِي حَرَّمَ أَلَلُّهُ مَلَاءَ مُعْصَباً وَبُرُوداً
وَأَقْمَنَّا بِهِ مِنَ الشَّهْرِ عَشْراً وَجَعَلْنَا لِبَابِهِ إِقْلِيداً
وَخَرَجْنَا مِنْهُ نَزُومٌ سُهَيْلاً قَدْ رَفَعْنَا لِوَائِنَا مَعْقُوداً

وكان تبع هذا مؤمناً بالاتفاق، وقومه كانوا كافرين، ولذلك ذمهم الله تعالى دونه، واختلف هل كان نبياً أو ملكاً، فقال ابن عباس: كان تبع نبياً وقال كعب: كان تبع ملكاً من الملوك، وكان قومه كهاناً، وأهل كتاب فأمر الفريقين أن يقرب كل منهما قرباناً ففعلوا، فتقبل قربان أهل الكتاب، فأسلم، وقالت عائشة رضي الله عنهما: لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً، والله أعلم.

وفي «فتح الرحمن»: فإن قلت: القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية، فكان حقهم أن يقولوا: إن هي إلا حياتنا الأولى؟

قلت: لما قيل لهم: إنكم تموتون موتةً يعقبها حياة كما تقدمتكم موتة، لذلك قالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى؛ أي: ما الموتة التي من شأنها أن يعقبها الحياة إلا الموتة الأولى.

ثم أقام تعالى على قدرته القاهرة دليلاً، ليستدل بذلك على إمكان البعث، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: وما بين جنس السماء والأرض من المخلوقات، قرأ الجمهور: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ نظراً إلى الجنس، وقرأ عمرو بن عبيد ﴿وما بينهما﴾ نظراً إلى مجموع السموات والأرض حالة كونها ﴿لَعِينَت﴾؛ أي: عابثين من غير أن يكون لخلقهما غرض صحيح، وغاية حميدة، يقال: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً. وفي «التعريفات»: اللعب فعل الصبيان، يعقبه التعب من غير فائدة، وفي «فتح الرحمن»: قاله هنا

بالجمع، موافقة لقوله أول السورة: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا﴾ وما بينهما في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالة كوننا متلبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي^(١): محقين، لنا فيه حكمة، وذلك ليستدل به على قدرتنا ووجدانيتنا، فهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أو ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء، فهو استثناء من أهم الأسباب، وقال الكلبي: إلا للحق، وكذا قال الحسن، وقيل: إلا لإقامة الحق وإظهاره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: أكثر الناس، وهم كفار مكة، وسائر الكفرة بسبب الغفلة، وعدم الفكرة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك فينبكرون البعث، والجزاء.

والآية دليل على ثبوت الحشر ووقوعه، ووجه الدلالة أنه لو لم يحصل البعث والجزاء، لكان هذا الخلق عبثاً؛ لأنه تعالى خلق نوع الإنسان، وما يتنظم به أسباب معاشهم من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما فيهما وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع الأحوال، ثم كلفهم بالإيمان والطاعة ليميز المطيع من العاصي، بأن يكون المطيع متعلقاً فضله وإحسانه، والعاصي متعلق عدله وعقابه، وذلك لا يكون في الدنيا لقصر زمانها، وعدم الاعتداد بمنافعها، لكونها مشوبة بأنواع المضار والمحن، فلا بد من البعث والجزاء لتجزي كل نفس بما كسبت، فالجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها، إذ لو لم يكن الجزاء كما يقول الكافرون، لاستوت عند الله تعالى أحوال المؤمن والكافر، وهو محال.

ومعنى الآية^(٢): أي وما خلقنا الخلق عبثاً بأن نوجدتهم ثم نفنيهم بغير امتحان بطاعتنا، واتباع أمرنا ونهيها، وبغير مجازاة للمطيع على طاعته، والعاصي على معصيته، بل خلقناهم لنبلي من أردنا امتحانهم منهم بما شئنا، ولنجزى الذين أسأؤا بما عملوا، ولنجزى الذين أحسنوا بالحسنى، وقد سبق نحو هذا في سورة

(٢) المراغي.

(١) روح البيان.

يونس، وسورة المؤمنين حيث قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٥)، وفي سورة ص، إذ قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٧)، ما خلقناهما إلا خلقاً متلبساً بالحق، وهو الدلالة بهما على وحدانية الخالق لهما، ووجوب طاعته والإنابة إليه لعظمته وجبروته، كما جاء في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً، فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق فبي عرفوني» ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون ذلك، فهم لا يخافون من سخطه، عقوبة لهم على ما اجتروحوا من السيئات، ولا يرجون ثواباً على خير فعلوه، لتكذيبهم بالميعاد، والعودة إلى دار أخرى، بعد هذه الدار.

وخلاصة ما تقدم^(١): أن هؤلاء لقلة تدبرهم، لا يعتقدون أن الأمر كذلك، وهم واهمون فيما يظنون، إذ لو لم توجد دار للجزاء، لما امتاز مطيع من عاص، ولا محسن من مسيء، والعقل قاض بغير هذا.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾؛ أي: إن يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق من الباطل، ويميز المحق من المبطل، ويقضى بين الخلائق، بين الأب والابن، والزوج والزوجة، ونحو ذلك ﴿مِيقَتُهُمْ﴾؛ أي: وقت موعد الخلائق ﴿أَجْمَعِينَ﴾ من الأولين والآخرين؛ أي: الوقت المجعول لتمييز المحسن منهم من المسيء، والمحق من المبطل، لا يتخلف عنه أحد منهم أجمعين، وقال بعضهم: يوم الفصل يوم يفصل فيه بين كل عامل وعمله، ويطلب بإخلاص ذلك وبصحته، فمن صح له مقامه وأعماله، قبل منه وجزي عليه، ومن لم تصح له أعماله، كانت أعماله عليه حسرةً وندامةً.

وقد اتفق^(٢) القراء على رفع ﴿مِيقَتُهُمْ﴾ على أنه خبر ﴿إِنَّ﴾، واسمها ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، و﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير المجرور في ﴿مِيقَتُهُمْ﴾، وأجاز الكسائي والقراء نصبه على أنه اسمها، و﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ خبرها. وقرئ ﴿مِيقَاتِهِمْ﴾ بالنصب

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

على أنه اسم ﴿إِنَّ﴾ والخبر ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ ذكره في «البحر». والميقات اسم للوقت المضروب للفصل، فيوم القيامة وقت لما وعدوا به، من الاجتماع للحساب والجزاء.

وقوله: ﴿لَا يُغْنِي﴾ بدل من ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، أو منتصب بفعل مضمر يدل عليه الفصل؛ أي: يفصل بينهم يوم لا يغني، ولا يجزي ﴿مَوْلًى﴾؛ أي: ولي، وناصر من قرابة، أو عتاق، أو صداقة ﴿عَنْ مَوْلًى﴾ له؛ أي: عن قريب له أيّا كان ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء، والإجزاء على أن شيئاً واقع موقع المصدر، وتنكيره للتقليل، ويجوز أن يكون منصوباً على المفعول به على أن يكون ﴿لَا يُغْنِي﴾: بمعنى لا يدفع بعضهم عن بعض شيئاً من عذاب الله، ولا يبعده، فإن الإغناء يأتي بمعنى الدفع، وإبعاد المكروه. وتنكير^(١) ﴿مَوْلًى﴾ في الموضعين للإبهام، فإن المولى مشترك بين معان كثيرة يطلق على المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب كابن العم ونحوه، والجار والحليف والابن والعم والنزيل والشريك، وابن الأخت والولي والرب والناصر والمنعم والمنعم عليه والمحب والتابع والصهر، كما في «القاموس» وكل من ولي أمر واحد، فهو وليه ومولاه، فواحد من هؤلاء أي واحد كان، لا يغني عن مولاه أي مولى كان شيئاً من الإغناء؛ أي: إغناء قليلاً، وإذا لم ينفع بعض الموالي بعضاً ولم يغن عنه شيئاً من العذاب بشفاعته، كان عدم حصول ذلك ممن سواهم أولى، وهذا في حق الكفار، يقال: أغنى عنه كذا إذا كفاه.

﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾؛ أي: لا يمنعون مما نزل بهم من العذاب، ولا يملكون أن يشفع لهم غيرهم، فالضمير لمولى الثاني باعتبار المعنى، لأنه عام لوقوعه نكرة في سياق النفي، فكأنه جمع، والمراد بالضمير: المولى الثاني؛ لأن المراد به^(٢) الكافر، وأما الأول فالمراد به: المؤمن.

والمعنى: يوم لا يغني مولى مؤمن عن مولى كافر شيئاً من عذاب الله،

(٢) الفتوحات.

(١) روح البيان.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾، فالمعنى: لا ينصر المؤمن الكافر، ولو كان بينهما في الدنيا علاقة من قرابة، أو صداقة، أو غيرهما كما أشار إليه القرطبي. ﴿إِلَّا مِنْ رَحْمَةٍ﴾ ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بالعفو عنه، وقبول الشفاعة في حقه، وهم المؤمنون، ومحله الرفع على البذل من ﴿الواو﴾ في ﴿يُصْرُونَ﴾، كما في «المختار»، أو النصب على الاستثناء ﴿إِنَّهُمْ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا ينصر من أراد تعذيبه كالكفار ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن أراد أن يرحمه كالمؤمنين.

والمعنى: أي إن هذا اليوم الذي يفصل الله فيه بين خلقه، فيحق الحق ويبطل الباطل لآت لا محالة، وهو وقت حسابهم وجزائهم على ما كسبت أيديهم من خير، أو شر، ونحو الآية قوله: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾، ثم وصف أهوال هذا اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ إِنْخ؛ أي: إن هذا يوم تنقطع فيه الأسباب بابين آدم، فلا تنفع الناس إلا أعمالهم، فمن أصاب خيراً في دنياه سعد به، ومن أصاب شراً شقي به، ولا يغني القريب عن القريب، ولا يدفع عنه شيئاً من عذاب الله، ولا يجد الناصر الذي يقيه ذلك العذاب.

وقصارى ذلك: لا يفيد المؤمن الكافر، ولا ينصره ولو كان بينهما في الدنيا علاقة من قرابة أو صداقة أو غيرهما، ونحو الآية قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيًّا حَمِيًّا﴾ ﴿يُصْرُونَ﴾ ﴿إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ أي: لكن من رحمه الله تعالى، فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه، ولا إلى ناصر ينصره، قاله الكسائي على أن الاستثناء منقطع، وقيل: متصل، والمعنى: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنهم يؤذن لهم في الشفاعة فيشفعون، إنه سبحانه هو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه وأهل طاعته.

ثم لما وصف يوم الفصل، ذكر بعده وعيد الكفار، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ وقرئ بكسر الشين، هي على صورة شجرة الدنيا، لكنها في النار،

والزقوم ثمرها، وهو في الأصل كل طعام ثقيل، وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها، فأكلوا منها قال في «القاموس»: هي شجرة بجهنم، وطعام أهل النار. وفي «عين المعاني»: شجرة في أسفل النار مرتفعة إلى أعلاها، وما من دركة إلا وفيها غصن منها انتهى. فتكون هي في الأصل نظير طوبى في الأعلى. وفي «كشف الأسرار»: شجرة الزقوم على صورة شجرة الدنيا لكنها من النار، والزقوم ثمرها، وهو ما أكل بكره شديد، وقيل: كل طعام ثقيل فهو زقوم كما مر.

وفي «إنسان العيون»: لا تسلط لجهنم على شجرة الزقوم، فإن من قدر على خلق من يعيش في النار ويلتذ بها كالسمندل، فهو أقدر على خلق الشجر في النار، وحفظه من الإحراق بها. وقد قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: إنها تحيا باللهب كما تحيا شجرة الدنيا بالمطر، وثمر تلك الشجرة مر له زفرة، انتهى و﴿شَجَرَتْ﴾ ترسم بالتاء المجرورة، ووقف عليها أبو عمرو بالهاء، وكذا ابن كثير والكسائي، ووقف الباقون بالتاء على الرسم ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ﴿٤٤﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: غذاء الأثيم؛ أي: الكثير الإثم والمراد به^(١): الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه، يعني: أنهم أجمعوا على أن المراد بقوله: ﴿لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ هم الكفار، وبقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ المؤمنون، وكذا دل عليه قوله فيما سيأتي ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿كَالْمُهَلِّ﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو كالمهل. وعن النبي ﷺ في تفسير المهل: كعكر الزيت، وهو درديه فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه، أخرجه الترمذي، وقال: لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد، وقد تكلم فيه من غير حفظه، وشبهه بالمهل في كونه غليظاً أسود وقال بعضهم: المهل ما يمهل في النار حتى يذوب، كالحديد، والرصاص والصفرة ونحوها. وشبه الطعام بالنحاس، أو الصفر المذاب في الذوب ونهاية الحرارة، لا في الغليان، وإنما يغلي ما شبه به، وجملة قوله: ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ حال من الطعام، وقوله: ﴿كَغَلِي الْحَمِيرِ﴾ ﴿٦١﴾ صفة مصدر

(١) روح البيان.

محذوف؛ أي: حال كون ذلك الطعام يغلي، ويفور في بطون الكفار غلياناً كغليان الماء الحار، الذي انتهى حره وغليانه لشدة حرارته وكرهية المعدة إياه، والغلي والغليان: التحرك والارتفاع. وفي الحديث: أيها الناس اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن هو طعامه وليس له طعام غيره». أخرجه الترمذي عن ابن عباس، وقال حديث حسن صحيح.

وقال الحسن^(١): ﴿كالمهل﴾ بفتح الميم لغة فيه، وقرأ الجمهور وعمر بن ميمون وأبو رزين والأعرج وأبو جعفر وشيبة وطلحة: ﴿تغلي﴾ بالتاء الفوقية، على أن الفاعل ضمير يعود على الشجرة، والجملة خبر ثان، أو حال، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي تغلي غلياً مثل غلي الحميم، وهو الماء المسخن الذي يتطاير من غليانه، وقرأ مجاهد وقتادة والحسن وابن كثير وابن عامر وحفص وابن محيصن وورش عن يعقوب: ﴿يَغْلِي﴾ بالياء التحتانية، على أن الفاعل ضمير يعود على الطعام، ولا يصح أن يكون الضمير عائداً إلى المهل؛ لأنه مشبه به، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل.

والمعنى^(٢): أن الزقوم وهو ثمر هذه الشجرة التي في الجحيم طعام للكافر، الكثير الذنوب والآثام، يشبه المهل؛ أي: دردي الزيت الأسود، يغلي في بطون الكفار كغلي الماء المسخن، البالغ نهاية الحرارة، وقوله: ﴿حُدُوهُ﴾ على تقدير القول، والخطاب للزبانية؛ أي: يقال للزبانية يوم القيامة: خذوا الأثيم، فلا يأخذونه إلا بالنواصي والأقدام ﴿فَأَعْتَلُوهُ﴾؛ أي: جروه بالعنف والقهر، فإن العتل الأخذ بمجامع الثوب ونحوه، وجره بقهر وعنف ﴿إِلَى سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: إلى وسطها قاله ابن عباس، أو إلى معظمها الذي تستوي المسافة إليه من جميع جوانبه، قاله الحسن. وقرأ الجمهور^(٣): ﴿فَأَعْتَلُوهُ﴾ بكسر التاء،

(١) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

(٢) المراعي.

وقرأ زيد بن علي وابن كثير وابن عامر: بضم التاء وهما لغتان، والخلاف عن الحسن وقتادة والأعرج وأبي عمرو ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (١) وصب الماء إراقته من أعلى، والعذاب ليس بمصبوب؛ لأنه ليس من الأجسام المائعة، فكان الأصل يصب من فوق رؤوسهم الحميم، كما هو القراءة في سورة الحج، والمصبوب في الحقيقة هو الحميم، فتارة اعتبرت الحقيقة كما في سورة الحج، وتارة اعتبرت الاستعارة كما هنا، فقليل: يصب من فوق رؤوسهم العذاب، وهو الحميم؛ لأنه أذم، وأهيب من الحميم، فقد صب ما تولد عنه من الآلام والعذاب، فعبّر بالمسبب عن السبب؛ لأن العذاب هو المسبب عن الحميم، ولفظة العذاب أهول وأهيب، وزيد من للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان؛ أي: إلى عذاب هو الحميم.

ويروى: أن الكافر إذا دخل النار يطعم الزقوم، ثم إن خازن النار يضربه على رأسه بمقمة، يسيل منها دماغه على جسده، ثم يصب الحميم فوق رأسه، فينفذ إلى جوفه فيقطع الأمعاء والأحشاء ويمرق من قدميه.

وقولوا له على سبيل الاستهزاء والتهكم والتقريع: ﴿ذُقْ﴾ أيها الأثيم هذا العذاب المذل المهين ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ في نظرك ﴿الْكَرِيمُ﴾ عند قومك؛ أي: وقولوا له ذلك استهزاء به، وتقريعاً له على ما كان يزعمه، من أنه عزيز كريم، فمعناه: أنت الذليل المهان.

وقيل: إن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبلي مكة أعز وأكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك، أن تفعل بي شيئاً، فوردت الآية وعيداً له ولأمثاله، عجباً كيف أقسم بالله تعظيماً له، ثم نفى الاستطاعة عنه، مع أن الرسول عليه السلام كان لا يدعو ربا سواه، فالكلام المذكور من حيرة الكفر وحكم الجهل وتعصب النفس، كما قالوا: أمطر علينا حجارة من السماء، وفي لفظ الذوق إشارة إلى أنه كان معذباً في الدنيا، ولكن لما كان في نوم الغفلة،

(١) روح البيان.

وكثافة الحجاب، لم يكن ليزوق ألم العذاب، فلما مات انتبه، وذاق ألم ما ظلم به نفسه، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّكَ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب على المنبر، والكسائي بفتحها؛ أي: لأنك. قال الفراء: أي بهذا القول الذي قلته في الدنيا اهـ.

والمعنى: أي ذق هذا الذل والهوان اليوم، فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم، وها هوذا، قد تبين لك أنك أنت الذليل المهين، فأين ما كنت تقول وتدعي من العز والكرامة، فهلا تمتنع من العذاب بعزتك ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب الذي تعذبون به ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تشكون في الدنيا، أو تمارون فيه؛ أي: تجادلون بالباطل؛ أي: العذاب الذي كنتم تشكون فيه في الدنيا فتختصمون فيه ولا توقنون به، فقد لقيتموه فذوقوه، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ۖ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٤) والجمع باعتبار المعنى؛ لأن المراد: جنس الأثيم.

ولما ذكر حال الكفار.. أعقبه بحال المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: عن الكفر والمعاصي وهم المؤمنون المطيعون ﴿فِي مَقَامٍ﴾؛ أي: في موضع قيام. والمراد^(١): المكان على الإطلاق، فإنه من الخاص الذي شاع استعماله في معنى العموم، يعني أنه عام، ومستعمل في جميع الأمكنة حتى قيل لموضع القعود. مقام وإن لم يقم فيه أصلاً؛ أي: في مكان ﴿أَمِينٍ﴾ يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه، على أن وصف المقام بالأمن من المجاز في الإسناد، كما في قولهم: جرى النهر، فالأمن ضد الخوف، والأمين بمعنى ذي الأمن.

وأشار الزمخشري إلى وجه آخر، وهو أن الأمين من الأمانة التي هي ضد الخيانة، وهي في الحقيقة صفة صاحب المكان، لكن وصف به المكان بطريق الاستعارة التخيلية، كأن المكان المخيف يحزن صاحبه ونازله، بما يلقي فيه من المكاره، أو كناية؛ لأن الوصف إذا أثبت في مكان الرجل، فقد أثبت له، لقولهم

(١) روح البيان.

المجد بين ثوبيه، والكرم بين برديه، كما في «بحر العلوم». قال أهل السنة: كل من اتقى الشرك، صدق عليه أنه متق، فيدخل الفساق في الوعد، يقول الفقير: الظاهر أن المطلق مصروف على الكامل بقرينة أن المقام مقام الامتنان، والكامل والمؤمن المطيع كما أشرنا إليه في عنوان الآية، نعم يدخل العصاة فيه انتهاءً وتبعيةً لا ابتداءً وأصالة. كما يدل عليه الوعيد الوارد في حقهم، وإلا لاستوى المطيع والعاصي، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ عفا الله عنا وعنكم أجمعين.

وقرأ عبد الله بن عمر وزيد بن علي وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وقتادة ونافع وابن عامر^(١): ﴿في مقام﴾ بضم الميم، وقرأ أبو رجاء وعيسى ويحيى والأعمش وباقي السبعة: بفتحها، وعلى القراءة الأولى هو موضع الإقامة، وعلى القراءة الثانية هو موضع القيام، قاله الكسائي وغيره، وقال الجوهري: قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام.

وقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار، بدل من ﴿مَقَارٍ﴾، أو بيان له، أو خبر ثان جيء به دلالةً على نزاهته واشتماله على طيبات المأكَل والمشارب، والمراد^(٢) بالعيون: الأنهار الجارية، والتكثير فيهما للتعظيم، وقوله: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثان أو ثالث، أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، والسندس ما رقَّ من الحرير، يجري مجرى الشعار لهم، وهو اللين من الدثار في المعتاد، والإستبرق ما غلظ منه وصفق نسجه، يجري مجرى الدثار، وهو أرفع نوع من أنواع الحرير، والحرير نوعان: نوع كلما كان أرق كان أنفُس، ونوع: كلما كان أرزق بكثرة الإبريسم كان أنفُس، يقول الفقير: يحتمل عندي أن يكون السندس لباس المقربين، والإستبرق لباس الأبرار يدل عليه أن شراب المقربين هو التسنيم الخالص، وشراب الأبرار هو الرحيق الممزوج به.

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وفي «فتح الرحمن»: إن قلت: كيف وعد الله تعالى أهل الجنة بلبس الإستبرق، وهو غليظ الديباج، مع أن غليظه عند السعداء، من أهل الدنيا عيب ونقص؟

قلت: غليظ ديباج الجنة لا يشابه غليظ ديباج الدنيا حتى يعاب، كما أن سندس الجنة وهو رقيق الديباج، لا يشابه سندس الدنيا. وقيل: إن السندس لباس سادة أهل الجنة، والإستبرق لباس خدمهم إظهاراً لتفاوت الرتب انتهى. وقرأ ابن محيصن^(١): ﴿وَاسْتَبْرَقَ﴾ جعله فعلاً ماضياً.

وقوله: ﴿مُتَقَبِّلِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَلْبَسُونَ﴾؛ أي: حال كونهم متقابلين في المجالس. ليستأنس بعضهم ببعض. ومعنى متقابلين: متواجهين لا ينظر^(٢) بعضهم إلى قفا بعض، لدوران الأسرة بهم، فهو أتم للأنس. وقال بعضهم: معناه: متقابلين بالمحبة، غير متدابرين بالبغض والحسد؛ لأن الله ينزع من صدورهم الغل و قت دخولهم الجنة، فإن قلت: المقصود من جلوسهم متقابلين: استئناس بعضهم ببعض، والجلوس على هذه الصفة موحش؛ لأنه يكون كل واحد منهم مطلعاً على ما فيه الآخر، فقليل الثواب إذا اطلع على حال كثيره.. تنقص.

والجواب: أن أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا، اهـ «كرخي». والكاف، في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ إما صفة لمصدر محذوف مع فعله؛ أي: أثبتناهم إثابةً مثل المذكور، أو نفعل بالمتقين فعلاً مثل ذلك المذكور، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمر كذلك، والأول أولى ليعطف عليه، قوله: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: قرناهم بهن، فيتمتعون تارةً بمؤانسة الإخوان ومقابلتهم، وتارةً بملاعبة النسوان من الحور العِين، ومزاوجتهن، فليس المعنى: حصول عقد النكاح بينهم وبين الحور، فإن التزويج بمعنى العقد لا يتعدى بالباء، كما جاء في التنزيل: ﴿فَلَمَّا فَضَّيَ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ وإذا لم يكن عقد التزويج يقال: زوجناك بها، بمعنى كنت فرداً فقرناك بها؛ أي: جعلناك شفعاً بها، والله سبحانه

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وتعالى جعلهم اثنين ذكراً وأنثى، وقال في «المفردات»: لم يجيء في القرآن زوجناهم حوراً، كما يقال: زوجته امرأة تنبهاً على أن ذلك لم يكن على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكح انتهى.

ثم الحور جمع الحوراء، وهي البيضاء، والعين جمع العيناء، وهي العظيمة العينين، فالحور هي النساء النقيات البياض، يحار فيهن الطرف لبياضهن وصفاء لونهن، واسعات الأعين حسانها، أو الشديديات بياض الأعين الشديديات سوادها.

وحاصل معنى الآيات: أن^(١) المتقين لله في الدنيا الخائفين عقابه، المنتظرين فضله وثوابه، يكونون في الآخرة في مجالس يأمنون فيها من الموت، ومن كل ما يحزنهم ويصيبهم من الآفات والآلام. وقد ذكر سبحانه من ضروب نعيمهم خمسة ألوان:

١ - مساكنهم، كما قال: ﴿مَقَارِ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٢) والمسكن يطيب بأمرين:

الأول: أن يكون من فيه آمناً من جميع ما يخافه ويحذر منه، وهو المقام الأمين.

الثاني: أن يكون فيه أسباب النزهة من الجنات والعيون. وذلك قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٢).

٢ - ملابسهم، وهي التي عناها سبحانه بقوله: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

٣ - استئناس بعضهم ببعض بجلوسهم على جهة التقابل، وهو ما أشار إليه بقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾.

٤ - الأزواج كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٥٢).

(١) المراغي.

٥ - المآكل، كما قال: ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: يطلبون ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنات ﴿يَكُلُّ فَنَكَمَةً﴾؛ أي: يأمرؤن بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان، وذلك لا يجتمع في الدنيا، يعني: أن فواكه الدنيا لا توجد في كل مكان، ولها أزمان مخصصة، لا تستقدمها ولا تستأخرها، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: حال كونهم آمنين من كل ما يسوءهم أيا كان، خصوصاً الزوال والانقطاع، وتولد الضرر من الإكثار، وحجاب القلب، كما يكون في الدنيا فيكونون في الصورة مشغولين بالحواس العينية، وبما يشتهون من النعيم، وبالقلوب متوجهين إلى الذات العلية، مشاهدين لها.

والمعنى^(١): يطلبون ما يشتهون من أنواع الفاكهة، وهم آمنون من انقطاعها، ومن غائلة أذاها ومكروها، فهي ليست كفاكهة الدنيا التي نأكلها، ونخاف مكروه عاقبتها، أو نخاف نفادها في بعض الأحيان.

وبعد أن وصف ما هم فيه من نعيم مقيم، بين أن حياتهم في هذا النعيم دائمة، لا يلحقها موت ولا فناء، فقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنات ﴿الْمَوْتَ﴾ أبداً ﴿إِلَّا الْمَوْتَ الْأَوَّلَ﴾ التي ذاقوها في الدنيا، وقرأ^(٢) عبيد بن عمير ﴿لَا يَذَاقُونَ﴾ مبنياً للمفعول، والموت والموتة: مصدران من فعل واحد، كالنفخ والنفخة، إلا أن الموتة أخص من الموت؛ لأن الموتة للوحدة والموت للجنس، فيكون بعضاً من جنس الموت، وهو فرد واحد، ونفي الواحدة أبلغ من نفي الجنس، فكانت أقوى وأنفى في نفي الموت عن أنفسهم، كأنه قال: لا يذوقون فيها شيئاً من الموت يعني: أقل ما ينطلق عليه اسم الموت، كما في «بحر العلوم»، والاستثناء^(٣) منقطع؛ أي: لا يذوقون الموت في الجنة لكن الموتة الأولى قد ذاقوها قبل دخول الجنة، فعيشتهم المرضية مقارنة للحياة الأبدية، بخلاف أهل النار، فإنه لا عيشة لهم، وكذا لا يموتون فيها، ولا يحيون، ويقال:

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

ليس في الجنة عشرة أشياء: ليس فيها هرم ولا نوم ولا موت ولا خوف ولا ليل ولا نهار ولا ظلمة ولا حر ولا برد ولا خروج، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلًا، على أن المراد: بيان استحالة ذوق الموت فيها على الإطلاق، كأنه قيل: لا يذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى في المستقبل، وذوق الماضي غير ممكن في المستقبل، لا سيما في الجنة التي هي دار الحياة فهذا من باب التعليق بالمحال كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

والمقصود: أنهم لا يذوقون فيها الموت البتة، وكذا لا ينكحون منكوحات آبائهم قطعاً، وقيل: إلا بمعنى بعد كما اختاره ابن جرير، أو بمعنى سوى، واختاره ابن عطية، فإن قلت: هذا دليل على نفي الحياة والموت في القبر.

قلت: أراد به: جنس الموت، المتعارف المعهود فيما بين الخلق، فإن الموت المعهود لا يعرى عن الغصص، والموت بعد الإحياء في القبر يكون أخف من الموت المعهود، كما في «الأسئلة المقحمة».

والمعنى^(١): أي لا يخشون في الجنة موتاً ولا فناء أبداً، وقد ثبت في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت».

وروى أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تهرموا أبداً»، رواه مسلم.

وخلاصة ذلك: لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا، كذا قال الزجاج والفراء.

(١) المراغي.

﴿وَوَقَّهْمُ﴾؛ أي: حفظهم الله سبحانه وتعالى ﴿عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وصرفه عنهم، وقرأ^(١) الجمهور: ﴿وقاهم﴾ بالتخفيف، وقرأ أبو حيوة مشدداً بالقاف، وقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ منصوب على المصدرية بفعل مقدر، أو على الحالية؛ أي^(٢): أعطي المتقون ما ذكر من نعيم الجنة، والنجاة من عذاب النار عطاءً وتفضلاً منه تعالى، لا جزاء للأعمال المعلولة، وقرئ بالرفع؛ أي: ذلك فضل من ربك، كما في «البيضاوي».

واحتج أهل السنة بهذه الآية: على أن كل ما وصل إليه العبد من الخلاص من النار، والفوز بالجنة ونعيمها، فإنما يحصل بفضل الله وإحسانه، وأنه لا يجب عليه شيء من ذلك، ففي إثبات الفضل نفى الاستحقاق، فجميع الكرامات فضل منه على المتقين، حيث اختارهم بها في الأزل، وأخرجها من علل الاكتساب، فإن الاكتساب أيضاً فضل إذ لو لم يخلق القدرة على كسب الكمالات، وتحصيل الكرامات لما وجد العبد إليه سبيلاً.

وفي الحديث: «لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة، ولا يجيره من النار، ولا أنا، إلا برحمة الله»؛ أي: ولا أنا أدخل الجنة بعمل، إلا برحمة الله، وليس المراد به توهين أمر العمل، بل نفى الاغترار به، وبيان أنه يتم بفضل الله تعالى، وأما قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونظائره فلا ينافي الحديث: لأن الآية تدل على سببية العمل، والمنفي في الحديث عليته وإيجابه، انتهى.

وقال الشيخ الأكبر رحمه الله تعالى في «مواقع النجوم»: الدخول بالرحمة، وقسمة الدرجات بالأعمال، والخلود بالنيات فهذه ثلاثة مقامات، وكذلك في دار الشقاوة دخول أهلها فيها بعدل الله، وطبقات عذابها بالأعمال، وخلودهم بالنيات، وأصل ما استوجبوا به هذا العذاب المؤبد، المخالفة، كما كانت في السعادة الموافقة، وكذلك من دخل النار من العاصين، لولا المخالفة لما عذبهم الله شرعاً، نسأل الله سبحانه لنا وللمسلمين، أن يستعملنا بصالح الأعمال،

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

ويرزقنا الحياء منه تعالى .

﴿ذَلِكَ﴾ الذي أعطيناه هؤلاء المتقين من الكرامة ﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾ والظفر بما كانوا يطلبون إدراكه في الدنيا بأعمالهم، وطاعتهم لربهم، واتقائهم إياه فيما امتحنهم به من الطاعات، واجتنابهم للمحرمات؛ أي: ذلك هو الفوز ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، إذ هو خالص من جميع المكاره، وجامع لكل المطالب. يقول الفقير: لما كان الموت وسيلةً لهذا الفوز، وباباً له.. ورد الموت تحفة المؤمن، والموت وإن كان من وجه هلكاً فمن وجه فوز، ولذلك قيل: ما أحد إلا والموت خير له، أما المؤمن فإنما كان الموت خيراً له؛ لأنه يتخلص به من السجن، ويصل إلى النعيم المقيم في روضات الجنات، وأما العاصي فلأن الإمهال في الدنيا سبب لازدياد المعاصي والإثم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وهو سبب لازدياد العذاب.

ولما أتم المقاصد التي أراد ذكرها في هذه السورة، لخصها بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ فهذه^(١) الآية فذلـكة للسورة الكريمة، ونتيجة لها، واللسان آلة التكلم في الأصل، واستعير هنا لمعنى اللغة، كما في قوله ﷺ: «لسان أهل الجنة العربية»؛ أي: إنما يسرنا الكتاب المبين، وسهلنا قراءته عليك، حيث أنزلناه بلسانك ولغة قومك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لكي يفهمه قومك، ويتذكروا به، ويتعظوا بعظاته، ويعملوا بموجبه، ويتفكروا في آياته إذا تلوتها عليهم، فينبوا إلى ربهم، ويدعوا للحق الذي تبينوه، وإذا لم يعملوا بذلك ﴿فَارْتَقِبْ﴾؛ أي: فانتظر ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾؛ أي: منتظرون، وفي «عين المعاني»: أو فارتقب الثواب فإنهم كالمرتقبين العقاب؛ لأن المسيء ينتظر عاقبة الإساءة، وعلى كلا التقديرين فمفعول الارتقاب محذوف في الموضعين؛ أي: ولما كان القرآن الكريم مع هذا الوضوح والبيان قد خالف فيه بعض الناس، وعاند قال تعالى، مسلياً رسوله، وواعداً له بالنصر، ومتوعداً من كذبه بالهلاك: ﴿فَارْتَقِبْ﴾؛

(١) روح البيان.

أي: فانتظر يا محمد لما يحل لهم من المقادير، فإن في رؤيتها عبرة للعارفين، وموعظة للمتقين ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾؛ أي: منتظرون لما سيحل بك من الدوائر، ولم يضرك ذلك فعن قريب يتحقق أملك، وتخيب آمالهم، وسيعلمون لمن تكون له النصرة والغلبة والظفر، وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، ولا شك أن النصر سيكون لك كما كان لإخوانك من النبيين والمرسلين، ومن تبعهم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ٥١ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٥٢﴾.

وفي الآية فوائد^(١):

منها: أنه تعالى بين تيسير القرآن، والتيسير ضد التعسير، وقد قال في آية أخرى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ٥٥﴾ فبينهما تعارض في الظاهر، والجواب: أنه ميسر باللسان، وثقيل من حيث اشتماله على التكاليف الشاقة على المكلفين، ولا شك أن التلاوة باللسان، أخف من العمل بما فيه.

ومنها: أنه تعالى قال: ﴿بِلِسَانِكَ﴾، فأشار إلى أنه لو أسمعهم كلامه بغير الوساطة لماتوا جميعاً لعدم تحملهم، قال جعفر الصادق - رحمه الله -: لولا تيسيره، لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن، وأنى لهم ذلك، وهو كلام من لم يزل، ولا يزال، وقال ابن عطاء: يسر ذكره على لسان من شاء من عباده؛ فلا يفتر عن ذكره بحال، وأغلق باب الذكر على من شاء من عباده، فلا يستطيع بحال أن يذكره.

ومنها: أن انتظار الفرج عبادة، على ما جاء في الحديث؛ لأنه من الإيمان.

الإعراب

﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ٢٢﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ٢٥ فَأَتُوا

(١) روح البيان.

يَا بَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتُمْ إِنْتُمْ كَانُوا
مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ .

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: اللام: حرف ابتداء، وجملة
﴿يقولون﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة للحديث
عن قریش، بعد استطراد حديث بني إسرائيل. ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هِيَ﴾: مبتدأ.
﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَوْتُنَا﴾: خبر هي، ﴿الْأُولَى﴾: نعت للموتة، والجملة
الاسمية في محل النصب، مقول لـ ﴿يقولون﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو عاطفة ﴿مَا﴾:
نافية حجازية، ﴿نَحْنُ﴾: اسمها. ﴿يُمْنَرِينَ﴾: خبرها والباء زائدة، والجملة
معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿فَأَتَوْا﴾: الفاء: واقعة في جواب شرط قدم جوابه
عليه، اعتناء بشأن الجواب، تقديره: إن كنتم صادقين، فأتوا بآبائنا. ﴿اتَّوَا﴾:
فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الطلبية في محل الجزم
بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها. ﴿يَا بَائِنَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه
متعلق بـ ﴿اتَّوَا﴾، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنْتُمْ﴾: فعل ماض ناقص، في
محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وتاء المخاطبين اسمها.
﴿صَادِقِينَ﴾: خبرها، والجملة الشرطية مؤخرة عن جوابها، كما قدرنا أولاً،
وجملة الشرط مع جوابه في محل النصب مقول لـ ﴿يقولون﴾، ﴿أَهْمُ﴾ الهمزة:
للاستفهام التعيني. ﴿هَمْ﴾ مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾: خبره، ﴿أَمْ﴾: حرف عطف متصلة.
﴿قَوْمٌ تُبْعَ﴾: معطوف على ﴿هَمْ﴾، ﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوف ﴿قَوْمٌ تُبْعَ﴾، ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾:
جار ومجرور صلة الموصول، والجملة الاسمية جملة إنشائية، لا محل لها من
الإعراب. ﴿أَهْلَكْتُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة، أو في محل
النصب حال من المعطوف والمعطوف عليه. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانُوا﴾
مُجْرِمِينَ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنْ﴾،
وجملة ﴿إِنْ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ .

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استثنائية ﴿ما﴾: نافية. ﴿خَلَقْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿السَّمَوَاتِ﴾: مفعول به، ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل نصب معطوف على السموات، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف، وقع صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿لِعَيْنِكَ﴾ حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿خَلَقْنَاهُمَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مفسرة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِالْحَقِّ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿خَلَقْنَاهُمَا﴾؛ أي: ما خلقناهما إلا حالة كوننا، متلبسين بالحق والحكمة؛ أي: محقين، أو صفة لمصدر محذوف، تقديره: إلا خلقاً متلبساً بالحق والحكمة. ﴿وَلَكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لكن أكثرهم﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، ومفعول العلم محذوف، تقديره: لا يعلمون كون خلقنا إياهما لحكمة، والجملة الاستدراكية في محل نصب، حال من مفعول ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أي: ما خلقناهما إلا لحكمة، حال كون أكثرهم لا يعلمون ذلك، ولكنها حال سببية.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُورِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيرِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَقَعُ فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَفَى الْحَبِيرِ (٤٦).

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿مِيقَتُهُمْ﴾ خبره، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد للضمير في ﴿مِيقَتُهُمْ﴾، والجملة مستأنفة ﴿يَوْمَ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، أو ظرف لما دل عليه الفصل؛ أي: يفصل بينهم يوم لا يغني ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع. ﴿مَوْلَى﴾: فاعل، ﴿عَنْ مَوْلَى﴾: متعلق بـ ﴿يُغْنِي﴾، ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق؛ أي: إغناء شيئاً؛ أي: قليلاً وجملة ﴿لَا يُغْنِي﴾ في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَا﴾: نافية، ﴿هَمَّ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُصْرُونَ﴾ خبره، وهو مبني للمجهول، والواو نائب فاعل، والجملة الاسمية في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿لَا يُغْنِي﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع،

بدل من ﴿الواو﴾ في ﴿يُصْرُوت﴾؛ أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله تعالى، ويجوز النصب على الاستثناء، فيكون منقطعاً كما مر، ﴿رَحِمَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: إلا من رحمه الله، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه: ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾: خبران، لـ ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ (٤٢)، ناصب واسمه، ومضاف إليه، ﴿طَعَامُ الْأَثِيرِ﴾ (٤٣) خبره ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿كَالْمُهْلِ﴾: خبر ثان لـ ﴿إِنْ﴾. ﴿يَقِلُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿الزَّقُّومِ﴾، ﴿فِي الْبُطُونِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿الزَّقُّومِ﴾، أو من ﴿طَعَامُ الْأَثِيرِ﴾ (٤٤)، ﴿كَفَلِيَ الْحَمِيمِ﴾ (٤٥): جار ومجرور ومضاف إليه، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: يغلي غلياناً، مثل غليان الحميم.

﴿خَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٨) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥١﴾.

﴿خَذُوهُ﴾: فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال للزبانية خذوه، ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿اعتلوه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿خَذُوهُ﴾، ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿اعتلوه﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿صُبُّوا﴾: فعل أمر وفاعل، معطوف على ﴿اعتلوه﴾. ﴿فَوْقَ رَأْسِهِ﴾، ظرف متعلق بـ ﴿صُبُّوا﴾، ﴿مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ متعلق بـ ﴿صُبُّوا﴾ أيضاً، فـ ﴿مِنْ﴾ تبعية، وهو من إضافة الصفة للموصوف، أو المسبب إلى السبب اهـ شيخنا. ﴿ذُقْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿الْأَثِيرِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال له: ذق ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَنْتَ﴾: ضمير فصل، ﴿الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ خبران لـ ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ مقول للقول المحذوف، على كونها معللة لما قبلها. ﴿إِنَّ هَذَا﴾: ناصب واسمه ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل

الرفع خبر، ﴿إِنْ﴾. ﴿كُنْتُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿يَدِ﴾: متعلق بـ﴿تَمْتَرُونَ﴾
وجملة ﴿تَمْتَرُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد
ضمير ﴿يَدِ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ في محل نصب، مقول للقول المحذوف.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَلَكَهَةٍ
ءَامِينَةٍ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ
﴿٥٦﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: ناصب واسمه ﴿فِي مَقَامٍ﴾: خبره. ﴿أَمِينٍ﴾: صفة
لـ﴿مَقَامٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٢): بدل من ﴿فِي
مَقَامٍ﴾: بإعادة الجار، ﴿يَلْبَسُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْ سُندُسٍ﴾: متعلق به.
﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ معطوف على ﴿سُندُسٍ﴾، وجملة ﴿يَلْبَسُونَ﴾ إما خبر ثان لـ﴿إِنْ﴾، أو
في محل نصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، الواقع خبراً
لـ﴿إِنْ﴾، ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: حال من الضمير في ﴿يَلْبَسُونَ﴾، ﴿كَذَلِكَ﴾ خبر لمبتدأ
محذوف؛ أي: الأمر كذلك، وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف
عليه، جيء بها للتقرير، ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على
﴿يَلْبَسُونَ﴾، أو على محذوف إن قلنا إن الكاف في ﴿كَذَلِكَ﴾ صفة لمصدر
محذوف كما مر. ﴿بِحُورٍ﴾: متعلق بـ﴿زَوَّجْنَاهُمْ﴾، ﴿عِينٍ﴾ صفة لـ﴿حُورٍ﴾،
﴿يَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، حال من الهاء في ﴿زَوَّجْنَاهُمْ﴾، ﴿فِيهَا﴾: حال من
فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾، ﴿بِكُلِّ فَلَكَهَةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَدْعُونَ﴾،
﴿ءَامِينَةٍ﴾: حال من فاعل ﴿يَدْعُونَ﴾ أيضاً؛ أي: لا يخافون من مغبة أكلها
﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَذُوقُونَ﴾ فعل وفاعل، حال من الضمير المستكن في
﴿ءَامِينَةٍ﴾، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿يَذُوقُونَ﴾، ﴿الْمَوْتَ﴾: مفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة
استثناء منقطع ﴿الْمَوْتَةَ﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿الْأُولَىٰ﴾ صفة لـ﴿الْمَوْتَةَ﴾،
﴿وَوَقَّهَهُمْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به أول معطوف
على ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾، ﴿عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ مفعول ثان لـ﴿وَقَّهَهُمْ﴾.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسْتَرْئِيهِ لِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ .

﴿فَضْلًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: تفضلنا بذلك المذكور فضلاً، ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾: صفة لـ ﴿فَضْلًا﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿الْفَوْزُ﴾: خبره. ﴿الْعَظِيمُ﴾ صفة لـ ﴿الْفَوْزُ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما بيناه لك في هذه السورة، وأردت بيان نتيجته.. فأقول لك: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يَسْتَرْئِيهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿لِسَانُكَ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ﴿لعل﴾ حرف ترج مستعار للتعليل، فتكون بمعنى كي، والهاء اسمها، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على كونها معللة لما قبلها، ﴿فَأَرْتَقِبْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة أيضاً؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت تيسيره لتذكيرهم، وأبوا من التذكر به، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ارتقب. ﴿ارْتَقِبْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، مستأنفة. ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على كونها مسوقة لتعليل الأمر بالارتقاب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾؛ أي: بمبعوثين، يقال: نشر الله الموتى وأنشروهم إذا أحياهم. ﴿ثُبَّجٌ﴾ بوزن سكر، واحد التبابعة، وهم ملوك اليمن، وهذا اللقب أشبه بفرعون لدى قدماء المصريين، وكان منهم سبعون تبعاً، قال النعمان بن بشير الأنصاري:

لَنَا مِنْ بَنِي قَحْطَانَ سَبْعُونَ تُبَّعًا أَطَاعَتْ لَنَا بِالْخَرْجِ مِنَّا الْأَعَاجِمُ

وَمِنَّا سِرَاءُ النَّاسِ هُوْدٌ وَصَالِحٌ وَذُو الْكِفْلِ مِنَّا وَالْمُلُوكُ الْأَعَاضِمُ
وهم طبقتان:

الطبقة الأولى: ملوك سبأ وريدان، من سنة ١١٥ قبل الميلاد، إلى ٢٧٥ بعده.

والطبقة الثانية: ملوك سبأ وريدان، وحضرموت، والشحر من سنة (٢٧٥) بعد الميلاد، إلى سنة (٥٢٥)، وأولهم شمر برعش، وآخرهم ذو نواس، ثم ذو جدن، ومنهم ذو القرنين، أو إفريقش ويسمى الصعب، وبعده عمرو زوج بلقيس، ثم أبو بكر ابنه، ثم ذو نواس، والذين اشتهروا من هؤلاء الملوك ثلاثة، شمر برعش، وذو القرنين، وأسد أبو كرب، وتفاصيل أخبارهم مبثوثة في بطون كتب التاريخ المطولة، فليرجع إليها من استهوته قراءة الأساطير الممتعة، وما فيها من قصص عجيبة.

والظاهر: أن تبعاً الأول سمي به لكثرة قومه وتبعه، ثم صار لقباً لمن بعده من الملوك، سواء كانت لهم تلك الكثرة والأتباع، أم لا. ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾؛ أي: ميقات كفار مكة وسائر الناس؛ أي: وقت وعدهم الذي ضرب لهم في الأزل، وأصل الميقات: موقات قلبت الواو ياءً لسكونها إثر كسرة، فصارت حرف مد، قال في «بحر العلوم»: ميقاتهم؛ أي: حدهم الذي يوقتون به ولا ينتهون إليه، ومنه مواقيت الإحرام على الحدود، التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً، فإنَّ الميقات ما وقت به الشيء؛ أي: حد. قال ابن الشيخ: الفرق بين الوقت والميقات أن الميقات وقت يقدر؛ لأن يقع فيه عمل من الأعمال، وأن الوقت ما يقع فيه شيء، سواء قدره مقدر لأن يقع فيه شيء، أم لا.

﴿لَا يُعْنَى مَوْلَى﴾ في «المختار»: المولى المعتق والمعتق وابن العم والناصر والجار والحليف، اهـ. وفي «القرطبي»؛ أي: لا يدفع ابن عم عن ابن عمه، ولا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه شيئاً اهـ. وأصله مولي بوزن مفعول، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿إِنَّكَ سَجَرْتَ الزَّقُومَ﴾ وفي «المفردات»: شجرة الزقوم عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه استعير زقم فلان وتزقم، إذا

ابتلع شيئاً كريهاً. وفي «المراغي»: شجرة الزقوم هي شجرة ذات ثمر مر، تنبت بتهامة، شبهت بها الشجرة التي تنبت في الجحيم وفي «القاموس»: الزقم اللقم، والتزقم التلقم، وأزقمه فازدقمه أبلعه فابتلعه، والزقوم كتثور الزبد بالتمر، وشجرة بجهنم ونبات بالبادية له زهر ياسميني الشكل، وطعام أهل النار، وشجرة بأريحاء من الغور، لها ثمر كالتمر حلو عفص، ولنواه دهن عظيم المنافع، عجيب الفعل في تحليل الرياح الباردة، وأمراض البلغم، وأوجاع المفاصل والنقرس، وعرق النساء، والريح اللاحجة في حق الورك، يشرب منه زنة سبعة دراهم ثلاثة أيام، وربما أقام الزمنى والمقعدين، ويقال: أصله الأهليلج، والزقمة الطاعون، انتهى ﴿الْأَثِيرُ﴾ الكثير الآثام والذنوب، وهو الكافر.

﴿كَالْمُهْلِ﴾ المهل بضم الميم، له معان كثيرة، واللائق منها هنا دردي الزيت وعكر القطران، والصدید والقیح والنحاس المذاب. والمهل بالفتح التؤدة والرفق، ومنه ﴿فَهْلُ الْكَفِيرِ﴾. ﴿كَغَلِي الْحَمِيرِ﴾ والغلي والغليان: التحرك والارتفاع. قال في «المفردات». الغلي والغليان، يقال في القدر إذا طفحت؛ أي: امتلأت وارتفعت، ومنه استعير ما في الآية، وبه شبه غليان الغضب والحرب.

﴿فَأَعْتَلُوهُ﴾؛ أي: جروه بالعنف والقهر. وفي «المختار»: عتل الرجل جذبه جذباً عنيفاً، وبابه ضرب ونصر، فقولهم: العتال للذي ينقل الأحمال بالأجرة صحيح لا غبار عليه، والحرفة العتالة، وفي «القاموس»: العتلة محركة، المدرة الكبير تنقلع من الأرض، وحديدة كأنها رأس فأس، والعصا الضخمة من حديد لها رأس مفلطح، يهدم بها الحائط، اهـ. والعُتْلُ الجافي الغليظ، والعتل أن تأخذ بمنكبي الرجل فتجره إليك، وتذهب به إلى حبس أو محنة، وقال ابن السكيت: عتلته إلى السجن، وأعتلته إذا دفعته دفعاً عنيفاً. ﴿سَوَاءُ الْجَحِيمِ﴾ وسطها. ﴿الْحَمِيرِ﴾ الماء الذي تناهي حره ﴿ذُقْ﴾ أمر من ذاق يذوق، وأصل يَذُوق يَذُوق، بوزن يفعل نقلت حركة الواو إلى الذال، فسكنت إثر ضمة فصار يذوق، فلما بني منه الأمر قيل: ذوق فالتقى ساكنان فحذفت الواو، وهكذا شأن

كل ثلاثي أجوف واوي العين، كقل من قال، وكن من كان مثلاً.

﴿تَمَرُّونَ﴾ أصله: تمربون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت، حذفت لالتقاء الساكنين، ثم ضمت الراء لمناسبة الواو، فصار تَمَرُّونَ ﴿فِي مَقَامٍ﴾ قرىء مقام بفتح الميم، وأصله: مقوم بوزن مفعّل بفتح العين، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال، وقرىء مقام بضم الميم، اسم مكان من أقام فعل به ما فعل بالأول.

﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾؛ أي: في مجلس أمنوا منه من كل هم وحزن، وأصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويستعمل الأمان تارة اسماً للحالة التي عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسماً لما يؤتمن عليه الإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَتَحَوَّنَا أَمْنَتِكُمْ﴾؛ أي: ما ائتمتم عليه. ﴿مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السندس هو مارق من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه. وفي «المصباح»: والديباج ثوب سدهاء ولحمته إيريسم، ويقال: هو معرب، انتهى. ثم إن الإستبرق من كلام العجم، عرب بالقاف، قال في «القاموس»: الإستبرق الديباج الغليظ. معرب إستروه، وتصغيره أبيرق، وستبر بالتاء والطاء، بمعنى: الغليظ بالفارسية، قال الجواليقي في «المعربات»: نقل الإستبرق من العجمية إلى العربية، فلو حقر أو كسر لكان في التحقير أبيرق، وبالتكسير أباريق، بحذف السين والتاء جميعاً، انتهى. والتعريب: جعل العجمي بحيث يوافق اللفظ العربي، بتغييره عن منهجه، وإجرائه على أوجه الإعراب، وجاز وقوع اللفظ العجمي في القرآن العربي؛ لأنه إذا عرب خرج من أن يكون عجمياً إذا كان متصرفاً تصرف اللفظ العربي من غير فرق، فمن قال: القرآن أعجمي فقد كفر؛ لأنه عارض قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وإذا قال: فيه كلمة أعجمية، ففي أمره نظر؛ لأنه إن أراد وقوع الأعجمي فيه بتعريب فصحيح، وإن أراد وقوعه بلا تعريب فغلط.

﴿بِحُورٍ﴾ بوزن فعل بضم العين، جمع حوراء كحمر وحمرء. ﴿عَيْنٍ﴾ جمع عيناء، وقياسه أن يجمع على فعل بضم الفاء، كما جمعت حوراء على حور،

لكن الفاء كسرت لمناسبة الياء. ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ الأصل فيه يذوقون نقلت حركة الواو إلى الذال، فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مد فوزنه يفعلون. ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ والموت والموتة مصدران من فعل واحد كالنفخ والنفخة، كما مر ﴿وَوَقَّهَتْ﴾ الأصل فيه ووقيههم بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، والوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه، ويضره.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرورياً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع:

منها: الإشارة بالقرب إليهم في قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ﴾ (٢٤) للتحقير والازدراء بهم.

ومنها: التجهيل لمنكري الحشر في قوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتوكيده بحرف الاستدراك؛ لأن إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، اهـ «كرخي»؛ أي: ليس عندهم علم بالكلية. ومنها: أسلوب التعجيز في قوله: ﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٦).

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

ومنها: الاستفهام الذي يطلب به، وبأمر تعيين أحد الأمرين، في قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ...﴾ إلخ، والمراد: التهديد لهم؛ لأنه لا خيرية في الفريقين.

ومنها: تنكير مولى في الموضعين في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى﴾ لغرض الإبهام فإن المولى مشترك بين معان كثيرة، يطلق على المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب، كابن العم ونحوه والجار والحليف والابن والعم والنزيل والشريك وابن الأخت والولي والرب والناصر والمنعم والمنعم عليه والمحب والتابع والصهر، كما في «القاموس». وكل من ولي أمر أحد، فهو وليه ومولاه، فواحد من هؤلاء أي واحد كان، لا يغني عن مولاه أي مولى كان، شيئاً من الإغناء؛ أي: إغناء قليلاً.

ومنها: تنكير شيئاً في قوله: ﴿عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ لإفادة التقليل.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَلْمُهَلِّ﴾ شبه بالمهل في كونه غليظاً أسود.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كَأَلْمُهَلِّ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيرِ (٤٦) فَإِنَّ الْغَلِيانَ حَقِيقَةٌ فِي امْتِلَاءِ الْقَدْرِ، وارتفاع ما فيها.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿حُدُوهُ﴾؛ أي: يقال للزبانية: خذوه.

ومنها: الاستعارة المكنية التخيلية، في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيرِ﴾ (٤٨) فقد شبه العذاب بالمائع، ثم خيل له بالصب.

ومنها: أسلوب التهكم والسخرية في قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩) فالتهكم عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع النذارة، وبالوعد في مكان الوعيد، تهاوناً من القائل بالمقول له، واستهزاء به، وقد تقدمت أمثله في مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿بَشِّرِ الْمُتَفَقِّينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧٨) وهو أغبط للمستهزأ به، وأشد إيلاماً له.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فِي مَقَايِرَ أَمِينٍ﴾ فإن وصف المقام بالأمن من المجاز العقلي، كما في قولهم: جرى النهر، ففيه إسناد ما للحال إلى المحل، وفيه الاستعارة التخيلية، إن قلنا إن الأمين من الأمانة، التي هي ضد الخيانة، كما قاله الزمخشري، كأن المكان المخيف يحزن صاحبه ونازله، بما يلقي فيه من المكاره، أو الكناية؛ لأن الوصف إذا أثبت في مكان الرجل، فقد أثبت له كقولهم: المجد بين ثوبيه، والكرم بين برديه.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٢) للتعظيم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد

- ١ - بيان بدء نزول القرآن.
- ٢ - وعيد الكافرين بحلول الجذب والقحط بهم.
- ٣ - عدم إيمانهم مع توالي النكبات بهم.
- ٤ - عظة الكافرين بقصص فرعون، وقومه مع موسى عليه السلام، وقد أنجى الله المؤمنين، وأهلك الكافرين.
- ٥ - إنكار المشركين للبعث، وقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾.
- ٦ - إقامة الدليل على نبوة محمد ﷺ.
- ٧ - وصف أهوال يوم القيامة.
- ٨ - وصف ما يلاقيه المجرمون من النكال والوبال.
- ٩ - وصف نعيم المتقين، وحصولهم على كل ما يرغبون.

والله أعلم

سورة الجاثية

وتسمى سورة الشريعة، هي مكية كلها في قول الحسن، وجابر، وعكرمة. نزلت بعد الدخان، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وابن الزبير: أنها نزلت بمكة، ورُوي عن ابن عباس، وقتادة: أنهما قالا: إلا آية منها، وهي قوله: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ فإنها نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب كما سيأتي، وهي سبع أو ست وثلاثون آية، وأربع مئة وثمان وثمانون كلمة، وألفان ومئة وأحد وتسعون حرفاً.

التسمية: سميت سورة الجاثية؛ لأنه يذكر فيها الأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، فيجثون من الفزع منها على الركب، وفي «التفسير المنير»: سميت سورة الجاثية أخذاً من الآية المذكورة فيها: ﴿وَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَآئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٨).

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم - رحمه الله تعالى -: جميع آياتها محكم غير آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ الآية (١٤) نزلت في عمر بن الخطاب، ثم نسخت بآية السيف.

المناسبة: ومناسبتها لما قبلها: أن أول هذه السورة مشاكل لآخر سابقتها في الأغراض والمقاصد. وقال^(١) أبو حيان: مناسبة أولها لآخر ما قبلها في غاية الوضوح، والظهور؛ لأنه قال في آخر السابقة: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِسَائِلِكَ﴾، وقال في أول هذه: ﴿حَمَّ﴾ ﴿تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١).

وفي «التفسير المنير»: تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجهين:

(١) البحر المحيط.

١ - ابتدأت هذه السورة بالكلام عن تنزيل القرآن من الله تعالى، والذي هو مكمل لما ختمت به السورة المتقدمة.

جعل القرآن بلغة النبي ﷺ، ولغة قومه العرب، فهو عربي اللسان نصاً، وفحوى ومعنى وأسلوباً، وفي ذلك حث على اتباعه، والإيمان به.

٢ - تشابه السورتين في الغايات الكبرى، التي يستهدفها القرآن، وهي إثبات وحدانية الله تعالى، من خلال بيان أدلة القدرة الإلهية، في خلق السموات والأرض، ومناقشة الكفار في عقائدهم الفاسدة، وضرب الأمثال من مصائر الأمم الغابرة، التي أهلكها الله سبحانه، لتكذيبهم الرسل.

والله أعلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ٢
 ٢ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٣ وَتَخْلُفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ
 مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ
 بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٥ وَبِئْسَ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٦ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ
 يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَرُورًا أُولَئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ مُهِينٌ ٨ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أُخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٩ هَذَا هُدًى وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ١٠ اللَّهُ
 الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْزِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَلِيَتَنَبَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٢ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا
 لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٣ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ
 مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ١٤ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَسِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا
 جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٥ ثُمَّ
 جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٦ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا
 عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ١٧ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ
 وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١٨﴾ .

المناسبة

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾
 ١... ﴿الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما (١)
 ذكر آيات القرآن العظيم.. أشار إلى ما لها من علو المرتبة، ورفيع الدرجة، ثم
 أوعد من كذبوا بها بعد سماعها، وأصروا على كفرهم بها بالويل والشبور،

(١) المراغي.

وعظائم الأمور، ثم بين أن عاقبتهم النار، وبئس القرار، ولا تنفعهم أصنامهم شيئاً، ولا تدفع عنهم ما قدر لهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَاحُ فِيهِ بِأَثَرِهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر^(١) فيما سلف الحجج الدالة على ربوبيته، ووحدانيته.. أردف بذكر آثارها، فمن ذلك تسخير السفن في البحار، حاملة للأقوات والمتاجر، رجاء أن تشكروا ما أنعم به عليكم، ومنها تسخير ما في السموات والأرض من شمس وأقمار وبحار وجبال لتنتفعوا بها في مرافقكم وشؤونكم المعيشية، ثم أمر المؤمنين بأحسن الأخلاق، فطلب إليهم أن يصفحوا عن الكافرين، ويحتملوا أذاهم، وعند الله جزاؤهم، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، ويوم القيامة يعرضون على ربهم، ويجازي كل نفس بما كسبت من خير أو شر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر^(٢) فيما سلف من آيات ربوبيته، ووحدانيته، تسخير السفن في البحار، حاملة للأقوات والمتاجر، وتسخير ما في السموات والأرض.. بين هنا، أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم كثيرة، وقد حصل بينهم الاختلاف بغياً وحسداً، تسلياً لرسوله ﷺ، بأن قومه ليسوا ببدع في الأمم، بل طريقهم طريق من تقدمهم، ثم أمر رسوله بأن يتمسك بالحق، ولا يكون له غرض سوى إظهاره، ولا يتبع أهواء الجاهلين الضالين، ثم ذكر أن القرآن معالم للهداية، تهتدي به القلوب الضالة عن طريق الحق، فتلزم الجادة وتصل إلى طريق النجاة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿حَمَّ﴾؛ أي: هذه^(٣) السورة مسماة بـ﴿حم﴾، فهو خبر لمبتدأ

(٣) روح البيان.

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

محذوف، إن جعلناه اسماً للسورة، أو مبتدأ خبره ما بعده، وإن جعل حروفاً مسرودة على نمط التعديد، فلا محل له من الإعراب. وفي «التأويلات النجمية»: يشير بالحاء إلى حياته، وبالميم إلى مودته، كأنه قال: أقسمت بحياتي ومودتي لأوليائي، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾؛ أي: تنزيل القرآن المشتمل على السور مطلقاً، خصوصاً هذه السورة الجليلة، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: واقع منه سبحانه وتعالى، والجملة جواب القسم، فدل على أن القرآن حق وصدق ﴿الْعَزِيزُ﴾ فدل على أنه معجز، غالب غير مغلوب ﴿الْحَكِيمُ﴾ فدل على أنه مشتمل على حكم بالغة، وعلى أنه ناسخ غير منسوخ، فليس كما يزعم المبطلون، من أنه شعر أو كهانة، أو تقول من عنده ﷺ، ممكن معارضته، وأنه كآساطير الأولين مثل حديث رستم، وإسفنديار وغيرهما، فيجب أن يعرف قدره، وأن يكون الإنسان مملوءاً به صدره.

والمعنى: تنزيل هذا الكتاب واقع من الله العزيز في ملكه، الحكيم في أمره وقضائه.

ثم أخبر سبحانه، بما يدل على قدرته الباهرة، فقال: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: إن في خلقهما، وخلق ما فيهما من آثار القدرة كالكواكب، والجبال والبحار، ونحوها ﴿لَا يَتَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لشواهد الربوبية لأهل التصديق، وأدلة الإلهية لأهل التوفيق، خص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بتلك الآيات والدلالات، فإنهم يستدلون بالمخلوق على الخالق، وبالمصنوع على الصانع، فيوضحونه، وهو أول الباب، ولذا قدم الإيمان على الإيقان، ولعل^(١) الوجه في طي ذكر المضاف هنا، وهو الخلق، وإثباته في الآية الآتية أن خلق السموات والأرض ليس بمشهود للخلق، وإن كانتا مخلوقتين، كما قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بخلاف خلق الإنسان، وما يلحق به من خلق سائر الدواب، فإنه كما أنه يستدل بخلقه على خالقه، فكذا يشاهد خلقه وتوالده،

(١) روح البيان.

فتكون المخلوقية فيه أظهر من الأول، هكذا لاح بالبال، والله أعلم بحقيقة الحال.

ومعنى الآيتين^(١): أي إن هذا الكتاب الكريم، أنزله العزيز الغالب، القاهر لكل شيء، الحكيم في تدبيره لكل ما خلق، فهو سبحانه مع قهره للعوالم المادية، والروحية، لا يتصرف إلا بالحكمة كما يشاهد في النبات والحيوان والأجسام الإنسانية، ودوران الكواكب وانتظامها في سيرها، فكل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة في صنعها، ومن ثم، أعقب ذلك بنتائج العزة والحكمة، فقال: إن في السموات السبع، اللاتي منهن ينزل الغيث، وفي الأرض التي منها يخرج الخلق، لأدلة واضحة للمصدقين بالحجج، إذا تأملوها، وفكروا فيها تفكير من سلك السبيل القويم، فيرتب المقدمات ليصل منها إلى النتائج التي هي لازمة لها، بحكم النظام الفكري، والترتيب العقلي.

وبعد أن ذكر الأدلة الكونية التي في الآفاق، أتبعها بذكر الأدلة التي في الأنفس، فقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أنفسكم أيها الإنسان من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه متقلبة في أطوار، مختلفة إلى تمام الخلق ﴿و﴾ في خلق ﴿مَا يَشَاءُ﴾ الله سبحانه وتعالى وينشره، ويفرقه في الأرض، حال كونه ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ وحيوانات تدب على الأرض، وما الموصولة معطوفة على المضاف إليه، والمعنى: وفي خلق ما ينشره الله تعالى، ويفرقه من دابة، وهي كل ما يدب على وجه الأرض من الحيوان مع اختلاف صورها، وأشكالها، وكثرة أنواعها، وأضمر ذكر الله هنا، لقرب العهد منه بخلافه في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ كما سيأتي. ﴿إِنِّي﴾ بالرفع على أنه مبتدأ مؤخر، خبره الظرف المقدم، والجملة معطوفة على ما قبلها من الجملة المصدرة بإن ﴿لَقَوْمٍ يُؤْتُونَ﴾؛ أي: لقوم من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه، واليقين علم فوق المعرفة والدراية، ونحوهما، وبينه وبين الإيمان فروق كثيرة، وحقيقة الإيمان هو اليقين، حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل رسول الله ﷺ بقوله: «اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي، ويقيناً ليس بعده كفر».

(١) المراغي.

يقول الفقير: لم يقل: للموقنين كما قال للمؤمنين، إشارةً إلى قلة هذا الفريق بالنسبة إلى الأول. وخص الإيقان بخلق الأنفس، لأن ما قبله من الإيمان بالآفاق، وهو ما خرج عنك، وهذا من الإيمان بالأنفس، وهو ما دخل فيك، وهذا أخص درجات الإيمان، فإنه إذا أكمل الإيمان في مرتبة الإيمان بترقي العبد إلى المشاهدة في مرتبة الأنفس، فكمال اليقين إنما هو في هذه المرتبة، لا في تلك المرتبة؛ لأن العلم بما دخل فيك أقوى منه بما خرج عنك، إذ لا يكذبه شيء، ولذا جاء العلم الضروري أشد من العلم الاستدلالي، وضم خلق الدواب إلى خلق الإنسان لاشتراك الكل في معنى الجنس، فافهم جداً، واقنع.

وفي «التأويلات النجمية»: أن العبد إذا أمعن نظره في حسن استعداده ظاهراً وباطناً، وأنه خلق في أحسن تقويم، ورأى استواء قده وقامته، وحسن صورته وسيرته، واستكمال عقله وتمام تمييزه وما هو مخصوص به في جوارحه وجوانبه، ثم تفكر فيما عداه من الدواب وأجزائها وأعضائها وأوصافها وطباعها.. وقف على اختصاص وامتياز بني آدم بين البرية من الجن في الفهم والعقل والتمييز ثم في الإيمان ومن الملائكة في حمل الأمانة، وتعلم علم الأسماء.

والمعنى: أي وإن في خلق الله إياكم على أطوار مختلفة من تراب، ثم من نطفة إلى أن تصيروا أناسي، وفي خلق ما تفرق في الكون من الدواب لحججاً لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرونها بعد العلم بصحتها.

﴿و﴾ في ﴿اختلاف الليل والنهار﴾ بتعاقبهما أو بتفاوتهما طولاً وقصراً، أو بسواد الليل، وبياض النهار ﴿وَمَا أَرْزَلْ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ عطف على ﴿اختلاف﴾ ﴿مِنْ زَيْقٍ﴾؛ أي: مطر، وهو سبب الرزق، عبر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتي القدرة والرحمة ﴿فَلَاخِيَا بِهِ الْأَرْضُ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع والثمرات والنباتات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: بعد يبسها، وعرائثها عن آثار الحياة، وانتفاء قوة التنمية عنها، وخلو أشجارها عن الثمار، ففيه^(١) تشبيه للرطوبة الأرضية بالروح الحيواني في كونها مبدأ التوليد، والتنمية، وتشبيه زوالها بزوال الروح وموت

الجسد ﴿و﴾ في ﴿تصريف الرياح﴾؛ أي: وفي تحويلها من جهة إلى أخرى، وتبديلها من حال إلى حال، إذ منها مشرقية ومغربية وجنوبية وشمالية وحارة وباردة ونافعة وضارة.

وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه في الوجود، إما للإيذان بأنه آية مستقلة، حيث لو روعي الترتيب الوجودي، لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح، وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر، بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار ﴿إِنَّت﴾ ودلالات على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة ﴿لَقَوْمٍ يَّعْقُلُونَ﴾؛ أي: يستعملون عقولهم في مصنوعات الله تعالى، ويتأملون فيها، فيثبتون وجود صانعها وعظيم قدرته، وباهر حكمته.

والمعنى^(١): أي وإن في تعاقب الليل والنهار عليكم، هذا بظلمته وسواده، وذلك بنوره وضياؤه، وفيما أنزل الله من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد موتها، فتهتز بالنبات والزرع من بعد جدوبها وقحوطها، فتخرج أرزاق العباد وأقواتهم، وفي تصريف الرياح لمنافعكم شمالية مرة، وجنوبية أخرى، صبا مرة، ودبوراً أخرى، لأدلة وحججا لله على خلقه، الذي يعقلون عنه حججه، ويفهمون ما وعظهم به من الآيات والعبر.

وقصارى ما سلف كله: أنكم إذا تأملتم الحكم المنبثة في السموات والأرض.. آمنتم بوحدة خالقها وقدرته، فإذا ازددتم علماً.. ازداد تثبتكم وفهمكم، فصرتم موقنين بها، لأن الإيقان يكون بتوافر الأدلة وتكاثرها، ومتى أيقنتم بجمال هذا الكون وحسن نظامه.. أصبحتم من ذوي العقول الناضجة، والأفكار النافذة في أسرار هذا الكون، وبديع صنعه، فتستطيعون أن تنتفعوا بما فيه، وتسخره لمنافعكم في هذه الحياة المليئة بالمطالب.

وإجمال ذلك: أن أول المراتب الإيمان بالله، فإذا ازداد المرء علماً وحكمة

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وبحثاً في دقائق الأشياء وعظائمه أصبح موقناً به وكلما ازداد بحثاً، ازداد عقله دراية، وفهما لأسرار هذا الكون، فسخره لمنافعه، واستفاد من نظمه التي وجد عليها، وعرف أنه لم يخلق عبثاً، بل خلق للانتفاع بما في ظاهره وباطنه، علويه وسفليه، أرضه وسماؤه، نوره وظلامه، فكأنه يقول: إنا أمرناكم بالنظر في العالم لتؤمنوا، فإذا ازددتم نظراً أيقنتم بي، وذلك كله مما يربي عقولكم، ويكملها إلى أقصى حدود طاقتها البشرية.

وفي «فتح الرحمن»: إن قلت: لم ختم^(١) الآية الأولى بقوله ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثانية بقوله: ﴿يُؤْتُونَ﴾، والثالثة بقوله ﴿يَقُولُونَ﴾.

قلت: لأنه تعالى، لما ذكر العالم ضمناً، ولا بد له من صانع، موصوف بصفات الكمال، ومن الإيمان بالصانع، ناسب ختم الأولى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولما كان الإنسان أقرب إلى الفهم من غيره، وكان فكره في خلقه وخلق الدواب، مما يزيده يقيناً في إيمانه، ناسب ختم الثانية بقوله: ﴿يُؤْتُونَ﴾، ولما كان جزئيات العالم من اختلاف الليل والنهار، وما ذكره معهما مما لا يدرك إلا بالعقل، ناسب ختم الثالثة بقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾، انتهى.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿يَأْتِي﴾ جمعاً بالرفع فيهما، وقرأ الأعمش والجحدري وحمزة والكسائي ويعقوب: بالنصب فيهما، وزيد بن علي: برفعهما على التوحيد، وقرأ أبي وعبد الله: ﴿لآيَات﴾ فيهما كالأولى، وتنكير آيات^(٣) في المواضع الثلاثة للتفخيم كما وكيفا، والعقل يقال: للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، ولهذا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

فَإِنَّ أَلْعَقْلَ عَقْلَانِ فَمَظْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ
وَلَا يَنْفَعُ مَظْبُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُ مَسْمُوعٌ

(٣) روح البيان.

(١) فتح الرحمن.

(٢) البحر المحيط.

كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ وَضَوْؤُ الْعَيْنِ مَنْ نُورُ
 وإلى الأول أشار النبي ﷺ بقوله: «ما خلق الله خلقاً، أكرم عليه من
 العقل». وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئاً، أفضل من عقل يهديه إلى
 هدى، أو يرده عن ردى»، وهذا العقل هو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا
 الْعَكِلُونَ﴾، وكل موضع ذم الكفار بعدم العقل، فإشارة إلى الثاني دون الأول،
 وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل، فإشارة إلى الأول، كما في
 «المفردات».

والمعنى^(١): لقوم ينظرون بعيون عقولهم، ويعتبرون لأنها دلائل واضحة
 على وجود صانعها وعظيم قدرته وبإلغ حكمته، وخص العقلاء بالذكر؛ لأنه
 بالعقل يمكن الوقوف على الدلائل. يقول الفقير: لعل سر تخصيص العقل بهذا
 المقام، وتأخير عن الإيمان والإيقان، أن هذه الآية دائرة بين علوي وسفلي وما
 بينهما، وللعقل مدخل تعقل كل ذلك، واشتراك بين الإيمان والإيقان، فافهم
 جداً.

﴿تِلْكَ﴾ الآيات القرآنية من أول السورة إلى هنا، وهو مبتدأ، وخبره قوله:
 ﴿إِنَّكَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، المنبهة على الآيات التكوينية ﴿تَتْلُوهَا﴾ ونقرؤها
 ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد بواسطة جبريل، حال كوننا ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: محقين، أو حال
 كون الآيات متلبسةً بالحق والصدق، بعيدةً من الباطل والكذب، وقرئ
 ﴿يَتْلُوهَا﴾ بياء الغيبة عائداً على الله، وقال في «بحر العلوم»: نتلوها عليك، حال
 عاملها معنى الإشارة، كأنه قيل: نشير إليها متلوة عليك، تلاوة متلبسة بالحق
 مقترنة به، بعيدةً من الباطل واللعب والهزل، كما قال: ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (١)،
 انتهى. ويجوز أن تكون إشارةً إلى الدلائل المذكورة؛ أي: تلك دلائله الواضحة
 على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته نتلوها عليك؛ أي: بتلاوة النظم
 الدال عليها ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ﴾ من الأحاديث، وخبر من الأخبار ﴿بَعْدَ اللَّهِ وَإِنِّي﴾؛
 أي: وبعد آيات الله، وتقديم الاسم الجليل لتعظيمه، كما في قولهم: أعجبني زيد

(١) روح البيان.

وكرمه، يريدون أعجبي كرم زيد، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ فإن اسم الله هنا أيضاً، مذكور بطريق التعظيم كما سبق هناك، أو معنى: بعد الله؛ أي: بعد حديث الله الذي هو القرآن، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وهو المراد بآياته أيضاً، ومناطق العطف التغيرات العنوانية ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: أن القرآن من بين الكتب السماوية معجزة باهرة، فحيث لم يؤمنوا به، فبأي كتاب بعده يؤمنون؛ أي: لا يؤمنون بكتاب سواه، وقيل: المعنى القرآن آخر كتب الله، ومحمد ﷺ آخر رسله، فإن لم يؤمنوا به، فبأي كتاب يؤمنون، ولا كتاب بعده ولا نبي.

وقرأ^(١) أبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة ونافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء التحتانية، وقرأ الأعمش، وباقي السبعة: ﴿تؤمنون﴾ بتاء الخطاب، وقرأ طلحة: ﴿توقنون﴾ بالتاء من فوق، وبالقاف من الإيقان والمعنى: يؤمنون بأي حديث، وإنما قدم الجار عليه؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام.

والمعنى^(٢): أي هذه آيات القرآن بما فيها من حجج، وبينات نتلوها عليك، متضمنة للحق، فبأي حديث أيها القوم، بعد حديث الله الذي يتلوه على رسوله، وبعده حججه وبرهاناته، التي دلكم بها على وحدانيته، تصدقون إن كذبتكم به.

والخلاصة: إذا كنتم لا تؤمنون بهذه الآيات، ولا تنقادون لها فبم تؤمنون وإلام تنقادون.

وبعد أن بين للكفار آياته، وذكر أنهم إن لم يؤمنوا بها فبأي حديث بعدها يؤمنون، أتبعه بالوعيد العظيم لهم، فقال: ﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: عذاب شديد كائن ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ أي: لكل كذاب ﴿أَثِيرٍ﴾؛ أي: كثير الإثم مرتكب لما يوجبه؛ أي: فالويل أشد الويل، والعذاب أقسى العذاب لكل كذاب، في قوله أئيم في فعله،

(٢) المراغي.

(١) البحر المحيط.

وبعد أن وصف هذا الأفاك بالإثم أولاً. أتبعه بوصفه بالاستكبار عن سماع الآيات، فقال: ﴿يَتَمَعَّ أَكْبَتْ اللَّهِ﴾ صفة أخرى لأفاك، والمراد: آيات القرآن، لأن السماع إنما يتعلق بها، وكذا التلاوة في قوله: ﴿تُنَلِّ﴾ وتقرأ تلك الآيات ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على ذلك الأفاك، والجملة حال من ﴿إِكْبَتْ اللَّهِ﴾. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ وبقيم ذلك الأفاك على كفره، ويدوم عازماً عليه عاقداً. قال في «المفردات»: الإصرار: التعقد في الذنب، والتشدد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله: من الصر؛ أي: الشد، والصرة ما يعقد فيها الدراهم، أو من إصرار الحمار على العانة، وهو أن ينحني عليها صاراً؛ أي: ضاماً أذنيه على رأسه، حال كونه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بما سمعه من آيات الله تعالى، والإذعان بما نطق به من الحق، مزدرياً لها معجباً بما عنده من الأباطيل، وكان^(١) النضر بن الحارث بن عبد الدار، وقد قتل صبراً، يشتري من أحاديث العجم مثل حديث رستم وإسفنديار، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، فوردت الآية ناعيةً عليه وعلى كل من يسير سيرته فيما هم فيه من الشر والفساد، وذلك التعميم لكلمة الإحاطة والشمول، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإصرار، والاستكبار بعد سماع الآيات، التي حقها أن تدعن لها القلوب، وتخضع لها الرقاب، فهي محمولة على المعنى المجازي؛ لأنه الأليق بمرام المقام، وإن كان يمكن الحمل على الحقيقة أيضاً، باعتبار منتهى الإصرار ﴿كَأَنَّ لَّهُ يَسْمَعَهَا﴾؛ أي: يصر مستكبراً كأنه لم يسمع تلك الآيات، و﴿كَأَنَّ﴾ مخففة، واسمها ضمير الشأن، والجملة حال من فاعل ﴿يُصِرُّ﴾؛ أي: ثم يصر على كفره مستكبراً، مشابهاً حاله حال من لم يسمعها؛ أي: مشبهاً بغير السامع في عدم القبول، والانتفاع ﴿فَيَصِرُّ﴾؛ أي: فبشر يا محمد ذلك الأفاك على إصراره واستكباره، وعدم استماعه إلى الآيات ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: وجيع؛ أي: أنذره بعذاب شديد، فإن ذكر العذاب قرينة على الاستعارة، استعيرت البشارة التي هي الإخبار بما يظهر السرور في المخبريه، للإنذار الذي هو ضده، بإدخال الإنذار في جنس البشارة على سبيل التهكم والاستهزاء، هذا

(١) روح البيان.

إذا أريد المعنى المتعارف للبشارة، وهو الخبر السار، ويجوز أن يكون على الأصل، فإنها بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يؤثر في بشرة الوجه بالتغيير، وهو يعم خبر السرور والحزن، ولذا قال في «كشف الأسرار»؛ أي: أخبره خبراً يظهر أثره على بشرته من الترح، وعبارة أبي حيان: فمعنى ^(١) ﴿ثُمَّ﴾ الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعد مارآها، وعاینها شيء يستبعد في العادة والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة، القاطعة بالحق من تليت عليه وسمعها، كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها، واستكباره عن الإيمان بها.

والمعنى ^(٢): أي إذا سمع آيات الله تقرأ عليه، وهي مشتملة على الوعد والوعيد والإنذار والتبشير والأمر والنهي والحكم والآداب، أصر على الكفر بها وجحدها عناداً، كأنه ما سمعها، ثم أوعده على ما فعل عذاباً أليماً في نار جهنم، فقال: فبشره أيها الرسول بالعذاب المؤلم، الموجه في جهنم، وبش القرار، وفي تسمية هذا الخبر المخزي بشري، وهي لا تكون إلا في الأمر السار، تهكم بهم، واحتقار لشأنهم، فهو من وادي قولك للكافر: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ^(٣)، وقول الشاعر:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِنْعُ

﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ ذلك الأفاك ﴿مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا﴾؛ أي: إذا بلغه من آياتنا شيء، وعلم أنه من آياتنا، لا أنه علمه كما هو عليه، فإنه بمعزل من ذلك، قرأ الجمهور ^(٣): ﴿عَلِمَ﴾ بفتح العين، وكسر اللام مخفة على البناء للفاعل، وقرأ قتادة، ومطر الوراق على البناء للمفعول، والمعنى: أنه إذا وصل إليه علم شيء من آيات الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَخَذَهَا﴾؛ أي: الآيات كلها ﴿هَزُوءًا﴾؛ أي: مهزوءاً بها لا ما سمعه فقط، وقيل: الضمير في ﴿أَتَخَذَهَا﴾ عائد إلى ﴿شَيْئًا﴾ لأنه عبارة عن الآيات، فالتأنيث باعتبار المعنى، والأول أولى؛ أي: وإذا وصل إليه

(١) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

(٢) المراغي.

خبرها وبلغه شيء منها جعلها هزوا، وسخرية. فقد روي: أن أبا جهل حين سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُورِ ﴿٤٢﴾ طَعَامُ الْآثِمِ ﴿٤٣﴾﴾ دعا بتمر وزيد، وقال لأصحابه: تزقموا من هذا، ما يعدكم محمد ﷺ إلا شهداً، وحين سمع قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: على النار، قال: إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدي.

ثم ذكر ما يصيب هؤلاء من العذاب فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأفاكون المتصفون بتلك الصفات، فالإشارة إلى كل أفاك من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح، والجمع باعتبار شمول كل، كما أن الأفراد في الضمائر السابقة باعتبار كل واحد واحد ﴿لَهُمْ﴾ بسبب جنائياتهم المذكورة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: عذاب يهينهم، ويذلهم في نار جهنم، ويذهب بعزهم بما كانوا في الدنيا يستكبرون عن طاعة الله واتباع آياته واتخاذها هزواً، ووصف^(١) العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم، واستهزائهم بآيات الله ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: جهنم كائنة من قدامهم؛ لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم؛ أي: من وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا، والتكبر عن الحق، جهنم فإنها من قدامهم؛ لأنهم متوجهون إليها، وعبر بالوراء عن القدام كقوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ﴾، وقول الشاعر:

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي

أو المعنى: من خلفهم؛ لأنهم معرضون عن ذلك، مقبلون على الدنيا، فإن الوراء اسم للجهة التي يوارىها الشخص من خلف أو قدام؛ أي: يسترها ﴿وَلَا يُغْنِي﴾؛ أي: لا يدفع ﴿عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ وجمعوا من الأموال والأولاد، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿شَيْئاً﴾ من عذاب الله، فيكون مفعولاً به، أو لا يغني عنهم في دفع ذلك شيئاً منهم الإغناء؛ أي: إغناء قليلاً، فيكون مصدراً، يقال: أغنى عنه إذا كفاه، وقوله: ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ﴾ معطوف على ﴿مَا كَسَبُوا﴾؛ أي: ولا ينفعهم أيضاً ما عبدوه من دون الله من الأصنام،

(١) روح البیان.

وتوسيط^(١) حرف النفي بين المعطوفين، مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى، من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً، مبني على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم، وقيل: زيادة ﴿لَا﴾ في الجملة الثانية للتأكيد. و﴿مَا﴾ في الموضعين، إما مصدرية أو موصولة.

والمعنى^(٢): أي ولا يدفع العذاب عنهم ما كسبوا من الأموال والأولاد، ولا تغني عنهم أصنامهم التي عبدوها من عذاب الله شيئاً ﴿وَلَكُمْ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعرف كنهه، ولا يقادر قدره؛ أي: بالغ إلى أقصى الغايات في كونه ضرراً. وقوله: ﴿هَذَا هُدًى﴾ جملة مستأنفة؛ أي: هذا القرآن هدى للمهتدين به؛ أي: في غاية الكمال من الهداية، كأنه نفسها، كقولك: زيد عدل ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكُفِّرُوا بَعْدُ﴾ القرآنية ﴿لَكُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ﴾؛ أي: من أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة عذاب.

والمعنى: أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أيها الرسول، هاد إلى الحق وإلى صراط مستقيم، لمن اتبعه وعمل بما فيه، والذين جحدوا بآياته الكونية في الأنفس والآفاق، وآياته المنزلة على ألسنة رسله، لهم العذاب المؤلم، الموجه يوم القيامة، وقرأ^(٣) طلحة وابن محيصن وأهل مكة وابن كثير وحفص: ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة لـ ﴿عَذَابٌ﴾ وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وباقي السبعة: بالجذر نعتاً لرجز ﴿اللَّهُ﴾؛ أي: الإله الذي يستحق منكم العبادة، هو الإله ﴿الَّذِي سَخَّرَ﴾ وذلّل ﴿لَكُمْ الْبَحْرَ﴾؛ أي: جعله على صفة، تتمكنون بها منه الركوب عليه، بأن جعله أملس السطح؛ أي: مستويه يعلو عليه ما شأنه الغوص كالأخشاب، ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه، فإنه لو جعل خشن السطح، بأن كان ذا ارتفاع وانخفاض لم يتيسر جرى الفلك عليه، وكذا لو جعله بحيث لا تطفو عليه الأخشاب ونحوها، بل تسفلت وغرقت فيه، لم يتيسر ذلك أيضاً، ولو

(١) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

جعله صلباً مصمتاً، يمنع الغوص فيه، لم يمكن تحصيل المنافع المترتبة على الغوص ﴿لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِ﴾؛ أي: بإذنه وتيسيره وأنتم راكبوها ﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة والغوص على اللؤلؤ والمرجان، ونحوها من منافع البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك بالإقرار بوحداية المنعم بها، والحكمة^(١) في هذا التسخير مختصة بالإنسان لا بالفلك، سخر البحر والفلك له، وسخره لنفسه ليكون خليفته، ومظهراً لذاته وصفاته نعمة منه، وفضلاً لإظهار الكنز المخفي، فبحسب كل مسخر من الجزئيات والكماليات، يجب على العبد شكره، وشكره أن يستعمله في طلب الله بأمره، ولا يستعمله في هوى نفسه، وله أن يعتبر من البحر الصوري، والذين يركبون البحر فربما تسلم سفينتهم، وربما تغرق كذلك العبد في فلك الاعتصام، في بحار التقدير، يمشي به في رياح المشيئة، مرفوع له شراع التوكل، مرسى في بحر اليقين، فإن هبت رياح العناية، نجت السفينة إلى ساحل السعادة، وإن هبت نكباء الفتنة، لم يبق بيد الملاح شيء، وغرقت في لجة الشقاوة، فعلى العبد أن يتبغى فضل الله، ويسعى في الطلب بأداء شكر النعم، كما في «التأويلات النجمية».

والمعنى^(٢): أي إن ذلك الخالق الواحد، الذي أقمت لكم الأدلة على وجوده، هو الذي يَسِّرُ لكم استخدام البحر، لتجري فيه السفن بإذنه وقدرته، حاملةً أقواتكم ومتاجركم، لتقوم بشؤونكم المعيشية، ولتطلبوا رزق ربكم منه بالغوص للدر تارة، والصيد تارة أخرى، ولتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم، التي تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر، فتعبده وتطيعوه فيما يأمركم وينهاكم عنه ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الموجودات، بأن جعلها مداراً لمنافعكم؛ أي: سخر لكم أيها العباد جميع ما خلقه في سمواته وأرضه، مما تتعلق به مصالحكم، وتقوم به معاشكم، ومما سخره لكم من مخلوقات السموات الشمس، والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح، ومن مخلوقات الأرض الدواب والأشجار والجبال مثلاً ﴿جَمِيعاً﴾ إما حال من ﴿مَّا فِي

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ»، أو تأكيد له ﴿وَمِنْهُ﴾ صفة لـ ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: كائناً منه تعالى، أو حال من ﴿مَا﴾؛ أي: سخر لكم هذه الأشياء كائنةً منه مخلوقة له، أو خبر لمحذوف؛ أي: هي جميعاً منه تعالى. وفي «فتح الرحمن»: جميعاً منه؛ أي: كل إنعام فهو من فضله؛ لأنه لا يستحق عليه أحد شيئاً، بل هو ويوجب على نفسه تكرماً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من التسخير ﴿لَا يَتَنَبَّأُ﴾ عظيمة الشأن، كبيرة القدر، دالة على وجود الصانع وصفاته ﴿لِقَوْمٍ يَلَفِكُونُ﴾ في بدائع صنع الله تعالى، فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها، ويوفقون لشكرها.

والمعنى: أي وسخر لكم جميع ما خلقه في سمواته وأرضه، مما تتعلق به مصالحكم، وتقوم به معاشكم، فمما سخر لكم من المخلوقات السماوية الشمس والقمر والنجوم والمطر والسحاب والرياح، ومن المخلوقات الأرضية الدواب والأشجار والجبال والسفن رحمةً منه وفضلاً، وكل هذه أدلة على أنه الله، الذي لا إله غيره، لمن تأمل فيها واعتبر بها، وتدبرها حق التدبر.

والخلاصة: أن العالم كله، كأنه جسم واحد، يحتاج كل جزء منه إلى الأجزاء الباقية، فلا يستقيم مطر بلا حرارة شمس، ولا تسير سفن، إلا بهواء أو فحم أو كهرباء وما شاكل ذلك، فالعالم كله كساعة منتظمة، لا يستقيم سيرها إلا إذا استكملت آلاتها وعددها، وخص المتفكرين لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها.

وعن طاووس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسأله: مم خلق الخلق؟ فقال: من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب، قال: فمم خلق هؤلاء؟ قال: لا أدري، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله، فقال: مثل قول عبد الله بن عمرو، فأتى ابن عباس، فسأله: مم خلق الخلق؟ فقال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب، قال: مم خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾، فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبوة.

وفي الآية^(١): إشارة إلى أن السموات والأرض وما فيهن خلقت للإنسان، فإن وجودها تبع لوجوده، وناهيك من هذا المعنى، أن الله تعالى أسجد ملائكته لآدم عليه السلام، وهذا غاية التسخير، وهم أكرم مما في السموات والأرض، ومثال هذا: أن الله تعالى لما أراد أن يخلق ثمرة خلق شجرة، وسخرها للثمرة لتحملها، فالعالم بما فيه شجرة، وثمرتها الإنسان، ولعظم هذا المعنى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: في هذا المعنى دلالات على شرف الإنسان، وكماليته لقوم لهم قلوب منورة بنور الإيمان والعرفان، إذ يتفكرون بفكر سليم، كما في «التأويلات النجمية».

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿وَمِنْهُ﴾، وقرأ ابن عباس ﴿منة﴾ بكسر الميم وشد النون، ونصب التاء على المصدر، قال أبو حاتم: نسبة هذه القراءة إلى ابن عباس ظلم، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس وعبد الله بن عمر والجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير، وحكاها أيضاً عن هؤلاء الأربعة صاحب «اللوامح»، وحكاها ابن خالويه عن ابن عباس وعبيد بن عمير، وقرأ سلمة بن محارب كذلك؛ إلا أنه ضم التاء؛ أي: هو منه، وعنه أيضاً فتح الميم وشد النون، وهاء الكناية عائدة على الله، وهو فاعل ﴿سَخَّرَ﴾ على الإسناد المجازي، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: ذلك، أو هو منه.

ولما علم سبحانه عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة أردفه تعليمهم فضائل الأخلاق، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله اغفروا واصفحوا وسامحوا عما يصدر من الكفار من الكلمات المؤذية، والأفعال الموحشة، ولا تقابلوهم بالمؤاخذة عليها إن أمرتهم بذلك ﴿يَغْفِرُوا﴾؛ أي: يغفر الذين آمنوا، ويعفوا، ويصفحوا ﴿لِّلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يخافون ﴿آيَاتَ اللَّهِ﴾ وعذابه، وانتقامه من أعدائه، ولا يرجون ثوابه، ولا يخشون مثل عقاب الأمم الخالية، ومعنى الرجاء هنا: الخوف، وأيام الله: وقائعته تعالى لأعدائه في الأمم

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

الماضية، لقولهم أيام العرب، لوقائعها كيوم بعث بوزن غراب، موضع بقرب المدينة، ويومه معروف؛ أي: قل لهم: اغفروا، يغفروا ويصفحوا ويعفوا، وقيل: مجزوم بلام مقدرة تقديره: ليغفروا، فهو أمر مستأنف، وإنما جاز حذف اللام؛ لأن الأمر الذي هو ﴿قُلْ﴾ عوض عنه، وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز به فيها وإضافتها إلى الله كبيت الله، وناقة الله والأول أولى، والأيام يعبر بها عن الوقائع، كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾، قال مقاتل: لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية، وذلك أنهم لا يؤمنون، فلا يخافون عقابه. وقيل: المعنى لا يأملون نصر الله لأوليائه، وإيقاعه بأعدائه، وقيل: لا يخافون البعث.

والمعنى^(١): قل يا محمد، للذين صدقوا الله ورسوله: اعفوا واصفحوا عن هؤلاء المشركين، الذي لا يخافون بأس الله ونقمته، إذا نالكم منهم أذى ومكره، قاله مجاهد. روى الواحدي، والقشيري عن ابن عباس: أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب مع عبد الله بن أبي، في غزوة بني المصطلق، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها: المريسيع، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي، فأبطأ عليه، فقال: ما حبسك؟ فقال: غلام عمر قعد على فم البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قرب النبي ﷺ، وقرب أبي بكر، وملأ لمولاه، فقال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك، فبلغ عمر قوله، فاشتعل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله، فأنزل الله هذه الآية.

وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس سبباً آخر، قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال يهودي بالمدينة يسمى فتحاصاً: احتاج رب محمد ﷺ، قال: فلما سمع عمر بذلك اشتعل على سيفه، وخرج في طلبه، فجاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول لك: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ فبعث رسول الله ﷺ في طلب عمر، فلما جاء

(١) المراغي.

قال: يا عمر ضع سيفك، قال: يا رسول الله صدقت، أشهد أنك أرسلت بالحق، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية، فقال عمر: لا جرم والذي بعثك بالحق، لا ترى الغضب في وجهي.

ثم علل بالمغفرة، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قَوْمًا﴾ كاملين كاظمين غيظهم على إذابة الكفار، جزاءً كاملاً وافراً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: على ما يكسبونه من الأعمال الصالحة، التي منها كظم الغيظ. والمراد^(١) بالقوم: المؤمنون. والتنكير لمدهم، والثناء عليهم؛ أي: أمروا بذلك ليجزي الله سبحانه يوم القيامة قوماً أي قوم، لا قوماً مخصوصين، بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة، التي من جملتها الصبر على أذية الكفار والمنافقين، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ، واحتمال المكروه ما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم.

وقد جوز أن يراد بالقوم: الكفرة، و﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: سيئاتهم التي من جملتها ما حكي من الكلمة الخبيثة، والتنكير حينئذ للتحقير، فإن قلت: مطلق الجزاء لا يصلح تعليلاً للأمر بالمغفرة، لتحققه على تقديري المغفرة وعدمها، قلت: لعل المعنى: قل للمؤمنين: يتجاوزوا عن إساءة المشركين والمنافقين، ولا يباشروا بأنفسهم لمجازاتهم، ليجزيهم الله تعالى؛ أي: ليجزي أولئك الكفرة يوم القيامة جزاءً كاملاً، يكافئ سيئاتهم، كأنه قيل: لا تكافؤوهم أنتم حتى نكافئهم نحن، ويدل على هذا المعنى الآية الآتية، والأول أولى، وأيضاً إن الكسب في أكثر ما ورد في القرآن كسب الكفار، ويجوز^(٢) أن يكون المعنى: ليجزيهم الله وقت الجزاء كيوم بدر، ونحوه. وفي الآية إشارة، إلى أن المؤمن إذا غفر لأهل الجرائم، وإن لم يكونوا أهل المغفرة لإصرارهم على الكفر، والأذى... يصير متخلياً بأخلاق الحق.

وقرأ الجمهور^(٣): ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: ليجزي الله، وقرأ زيد بن

(٣) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

علي، وأبو عبد الرحمن والأعمش وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ بالنون مبنياً للفاعل. وقرأ أبو جعفر وشيبة، وعاصم: ﴿ليجزي﴾ بالياء التحتية مبنياً للمفعول مع نصب ﴿قَوْمًا﴾، وفيه حجة لمن أجاز بناء الفعل للمفعول، على أن يقام الجار والمجرور وهو ﴿بِما﴾ مقام الفاعل، وينصب المفعول به الصريح وهو ﴿قَوْمًا﴾، ونظيره: ضرب بسوط زيداً، ولا يجيز ذلك الجمهور، وخرجت هذه القراءة على أن يكون الفعل بني للمصدر؛ أي: ليجزي الجزاء قوماً، وهذا أيضاً لا يجوز عند الجمهور، لكن يتأول على أن ينصب بفعل محذوف، تقديره: يجزي قوماً، فيكون الكلام جملتين إحداهما: ليجزي الجزاء، والأخرى: يجزيه قوماً. وعبارة البيضاوي هنا: وقرئ ﴿ليجزي قوم﴾، ﴿وليجزي قوما﴾؛ أي: ليجزي الخير أو الشر، أو الجزاء بمعنى: ما يجزي به لا المصدر. فإن الإسناد إليه سيما مع المفعول به ضعيف.

والمعنى^(١): أي ليجزي الله تعالى يوم القيامة قوماً بما كسبوا في الدنيا من أعمال طيبة، من جملتها الصبر على أذى الكفار، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ، واحتمال المكروه، ما لا يحيط به الوصف من الثواب العظيم في جنات النعيم.

ولما رغب سبحانه، ورهب، وقرر أنه لا بد من الجزاء.. أبان أن النفع والضر لا يعدو المحسن والمسيء فقال: ﴿مَنْ عَمِلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ وهو ما طلب به رضى الله تعالى ﴿فَلَنَفْسُهُ﴾؛ أي: فنفذ ذلك العمل الصالح وثوابه لنفسه عائد إليها ﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾؛ أي: عمل عملاً سيئاً، وهو كل ما يوجب سخط الله تعالى ﴿فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: فضرر إساءته وعقابها على نفسه لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء آجالكم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: إلى مالك أموركم لا إلى غيره ﴿تُزْجَعُونَ﴾؛ أي: تردون بالموت، فيجازيكم على أعمالكم خيراً كان أو شراً، فاستعدوا للقائه، ففيه ترغيب على اكتساب العمل الصالح، وترهيب عن ارتكاب العمل السيء.

(١) المراغي.

فمن الأول العفو، والمغفرة للمجرم، وصاحبه متصف بصفات الله تعالى .

ومن الثاني المعصية، والظلم، وصاحبه متصف بصفات الشيطان، فمن كان من الأبرار فإن الأبرار لفي نعيم، ومن كان من الفجار فإن الفجار لفي جحيم .

والمعنى: أي من عمل من عباد الله بطاعته فأنتهى إلى أمره وازدجر عن نهيه فلنفسه عمل، ولها طلب الخلاص من عذابه، والله غني عن كل عامل، ومن أساء عمله في الدنيا بمعصية ربه فعلى نفسه جنى، ولها اكتسب الضرر .

ثم بين وقت الجزاء فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ رَجْعُكُمْ﴾؛ أي: ثم تصيرون إلى ربكم حين العرض للحساب، فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أعطينا بني إسرائيل ﴿الْكِتَابَ﴾؛ أي: التوراة. قال سعدي المفتي: ولعل الأولى^(١) أن يحمل الكتاب على الجنس حتى يشمل الزبور، والإنجيل أيضاً انتهى. وذلك لأن موسى، وداود، وعيسى عليهم السلام. كانوا في بني إسرائيل ﴿وَالْفُكْرَ﴾؛ أي: الحكمة النظرية، والعملية، والفقه في الدين، أو فصل الخصومات بين الناس، إذ كان الملك فيهم ﴿وَالنَّبُوَّةَ﴾ حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم تكثر في غيرهم ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الْأَطْيَافِ﴾؛ أي: من اللذائذ، كالمن والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ كلهم أولهم وآخرهم حيث آتيناهم ما لم نؤت أحداً من العالمين، من كثرة الأنبياء فيهم، وقلق البحر، وإنجائهم، وغرق عدوهم، وإنزال المن والسلوى لهم، وانفجار اثنتي عشرة عيناً لهم من حجر صغير في مدة التيه، وتظليل الغمام عليهم، وليس المراد تفضيلهم على العالمين بحسب الدين والثواب، اهـ «زاده». وقيل: على عالمي زمانهم، فإنه لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله، ولا أحب إليه منهم ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ﴾؛ أي: وأعطينا بني إسرائيل ﴿بَيْنَاتٍ﴾؛ أي: دلائل ظاهرة، ومعجزات قاهرة ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾؛ أي: في أمر الدين، ف﴿من﴾ بمعنى: في، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾؛ أي: شرائع

(١) روح البيان.

واضحات في الحلال والحرام، أو معجزات ظاهرات، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو العلم بمبعث النبي ﷺ، وما بين لهم من أمره، وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، ويكون أنصاره أهل يثرب ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾؛ أي: فما وقع الاختلاف بينهم في ذلك الأمر الذي بين لهم ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ واليقين فيه؛ أي: إلا من بعد مجيء العلم بحقيقته، وحقيقته إليهم ببيانه وإيضاحه، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لثبوتهم، ورسوخه، وقيل: المراد بالعلم: يوشع بن نون، فإنه آمن به بعضهم، وكفر به بعضهم، وقيل: نبوة محمد ﷺ، فاختلَفوا فيها ﴿بَغْيًا﴾ واعتداء من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة، وحسداً حدث ﴿يَنْهَهُمْ﴾ لا شكاً فيها، فقد كانوا قبل ذلك وهم تحت أيدي القبط في غاية الاتفاق، واجتماع الكلمة، فلما جاءهم العلم، والشرع في كتابهم كان مقتضاه أن يدوموا على الاتفاق، بل كان ينبغي أن يزدادوا اتفاقاً، لكنهم لم يكونوا كذلك، بل صار ما هو مقتضاه للاتفاق مقتضياً للاختلاف لسوء حالهم، اهـ من «الخطيب».

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم ﴿يَنْهَهُمْ﴾؛ أي: بين المختلفين من بني إسرائيل ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

والمعنى^(١): أي إن ربك سبحانه، يقضي يوم القيامة بين المختلفين من بني إسرائيل بغياً وحسداً، فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، بعد العلم الذي أتاهم، والبيان الذي جاءهم منه، ويجعل الفلج للمحق على المبطل، والمقصد من هذا: أنه لا ينبغي أن يغتر المبطل بنعم الدنيا، فإنها وإن ساوت نعم المحق أو زادت عليها، فهو سيرى في الآخرة ما يسوءه.

وفي هذا: تحذير لهذه الأمة المحمدية أن تسلك مسلكهم، وأن تسير على نهجهم.

(١) المراغي.

ولما ذكر سبحانه وتعالى إنعامه على بني إسرائيل، واختلافهم بعد ذلك، وإعراضهم عن الحق بغياً وحسداً، ذكر حال نبيه ﷺ، وما من به عليه من اصطفائه، وأمره أن يعدل عن هذه الطريقة، وأن يستمسك بالحق، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنْهُنَّ﴾ ^(١) للاستئناف، والكاف مفعول أول لـ ﴿جَعَلْ﴾، و﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ هو المفعول الثاني؛ أي: و^(٢) جعلناك يا محمد على شريعة؛ أي: طريقة عظيمة الشأن، وسنة رفيعة القدر ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾؛ أي: من أمر الدين ﴿فَاتَّبَعَهَا﴾؛ أي: فاتبع يا محمد تلك الشريعة أنت وقومك وسائر أهل الأرض، بإجراء أحكامها في نفسك، وفي غيرك من غير إخلال بشيء منها.

وفي «التأويلات النجمية»: إنا أفردناك من جملة الأنبياء بلطائف فاعرفها، وخصصناك بحقائق فأدركها، وسننا لك طرائق فاسلكها، وأثبتنا لك الشرائع فاتبعها، ولا تجاوز عنها، ولا تحتج إلى متابعة غيرك، ولو كان موسى وعيسى حينئذ، لما وسعهما إلا اتباعك، قال جعفر الصادق رحمه الله تعالى: الشريعة في الأمور محافظة الحدود فيها، ومن الله الإعانة، والمراد بالشريعة هنا: ما شرعه الله سبحانه لعباده من الدين، والجمع شرائع؛ أي: جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين، يوصلك إلي فاتبعها، واعمل بأحكامها في أمتك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله، وشرائعه لعباده؛ أي^(٣): لا تتبع آراء الجهلة، واعتقاداتهم الزائفة التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش، ومن وافقهم كانوا يقولون له ﷺ: ارجع إلى دين آبائك، فإنهم كانوا أفضل منك وأسن، ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن الجهلة المذكورين ﴿لَن يُغْنُوا﴾؛ أي: لن يدفعوا ﴿عَنكَ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: مما أراد الله بك من العذاب ﴿شَيْئًا﴾ إن اتبعتهم. قال بعضهم: يعني إن أراد بك نعمة فلا يقدر أحد على منعها، وإن أراد بك فتنة فلا يقدر أحد بصرفها عنك، فلا تعلق بمخلوق فكرك، ولا تتوجه بضميرك إلى غيرنا، وثق بنا، وتوكل علينا ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: أنصار

(١) الفتوحات.

(٣) روح البيان.

(٢) روح البيان.

بعض؛ أي: بعضهم ينصر بعضاً، فلا يوالِيهم، ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم؛ لأن الجنسية علة الانضمام والانتصار ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ناصر المتقين الذين أنت قدوتهم، فدم على ما أنت عليه من تولية خاصة بالتقوى، والشرعية، والإعراض عما سواه بالكلية، وفي «التأويلات النجمية»: سماهم الظالمين؛ لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه، وسمّى المؤمنين المتقين لأنهم اتقوا عن هذا المعنى، واتخذوا الله الولي في الأمور كلها.

ومعنى الآيتين^(١): أي ثم جعلناك بعد بني إسرائيل، الذين وصفت لك صفتهم على نهج خاص من أمر الدين، فاتبع ما أوحى إليك، ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون الذين لا يعلمون توحيد الله، ولا شرائعه لعباده، وهم كفار قريش، ومن وافقهم فتهلك، ثم علل النهي عن اتباع أهوائهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن هؤلاء الجاهلين بربهم لا يدفعون عنك شيئاً مما أراد بك، إن اتبعت أهواءهم وخالفت شريعته، ثم بين أولياء الكافرين وأولياء المؤمنين، فقال: وإن الكافرين ليتولى بعضهم شؤون بعض في الدنيا، أما في الآخرة فلا ولي ولا شفيع، ولا نصير يجلب لهم ثواباً، ولا يدفع عنهم عقاباً، والله ولي المتقين؛ أي: والمتقون المهتدون وليهم الله، وهو ناصرهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور، والكافرون أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، فما أبعد الفرق بين الولايتين.

وقصارى ما سلف: دم على ما أنت عليه من اعتمادك على ولاية ربك ونصرته، وأعرض عما سواه.

ثم بين فضل القرآن، وذكر ما يجلبه التمسك بحبله المتين، فقال: ﴿هَذَا﴾ القرآن، وهو مبتدأ، خبره ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: براهين، ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين، أو إن اتباع الشريعة بصائر، وأنوار لقلوب من

(١) المراغي.

اتبعها تنورها بنور الإيمان، واليقين، وجمع الخبر باعتبار ما في المبتدأ من تعدد الآيات، والبراهين، اهـ «سمين». وقرئ^(١) ﴿هذه بصائر﴾؛ أي: هذه الآيات بصائر؛ لأن القرآن بمعناها ﴿وَهْدَى﴾؛ أي: هاد من ورطة الضلالة إلى طريق الرشاد ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمة، ونعمة كاملة من الله تعالى، فإن الفوز بجميع السعادات الدنيوية، والأخروية إنما يحصل به ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لقوم من شأنهم الإيقان بالأمور، وعدم الشك والتزلزل بالشبه فيها.

والمعنى: أي هذا القرآن دلائل للناس فيما يحتاجون إليه من أمر الدين، وبينات تبصرهم وجه الفلاح، وتعرفهم سبيل الهدى، وهو هدى ورحمة لقوم يوقنون بصحته، وهو تنزيل من رب العالمين، وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى، ورحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه، دون من كذب به من أهل الكفر، فإنه عليهم عمی.

الإعراب

﴿حَمَّ ١﴾ نَزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِن دَابَّةٍ لَّيَقُومَ يُوقِنُونَ ٤﴾.

﴿حَمَّ ١﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه السورة ﴿حَمَّ﴾؛ أي: مسماة بـ ﴿حَمَّ﴾ إن قلنا إنه علم للسورة، والجملة مستأنفة. ﴿نَزِيلَ الْكِتَابِ﴾: مبتدأ، ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: صفتان للجلالة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: خبر لـ ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿السَّمَوَاتِ﴾، ﴿لَآيَاتٍ﴾: اللام: حرف ابتداء. ﴿آيَاتٍ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر منصوب بالكسرة. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ صفة لـ ﴿آيَاتٍ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿فِي خَلْقِكُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿وَمَا﴾: اسم موصول معطوف على ﴿خَلْقِكُمْ﴾. ﴿يَبُذُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة صلة لـ ﴿وَمَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما يبثه. ﴿مِن دَابَّةٍ﴾

(١) البحر المحيط.

حال من العائد المحذوف؛ أي: حال كونه من دابة، ﴿ءَايَاتٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿لِقَوْمٍ﴾ صفة ﴿ءَايَاتٍ﴾، وجملة ﴿يُوقَتُونَ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٍ﴾ والجملة الابتدائية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَاخْتَلَفَ﴾ معطوف أيضاً على ﴿خَلَقَ﴾، منزل منزلته في كونه متعلقاً بمحذوف خبر مقدم، ﴿الَّيْلُ﴾ مضاف إليه ﴿وَالنَّهَارُ﴾ معطوف على ﴿الَّيْلُ﴾. ﴿وَمَا﴾ معطوف على ﴿اِخْتِلَافَ﴾، ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما أنزله الله، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ متعلقان بـ ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾: حال من العائد المحذوف، أو متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿فَأَحْيَا﴾ معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ ﴿أَحْيَا﴾، ﴿الْأَرْضَ﴾ مفعول به ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ظرف ومضاف إليه، ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ معطوف على ﴿اِخْتِلَافَ﴾، ﴿ءَايَاتٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿لِقَوْمٍ﴾ صفة لـ ﴿آيَاتٍ﴾، وجملة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٍ﴾.

فائدة: قال الزمخشري: وقرئ ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقَتُونَ﴾ بالنصب والرفع على حد قولك: إن زيداً في الدار وعمراً في السوق، أو وعمرو في السوق، وأما قوله: ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فمن العطف على معمولي عاملين، سواء نصبت أو رفعت، فالعاملان إذا نصبت هما إن وفي أقيمت ﴿الواو﴾ مقامهما، فعملت الجر في ﴿اِخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، والنصب في ﴿ءَايَاتٍ﴾، وإذا رفعت فالعاملان الابتداء، وفي عملاً الرفع في ﴿ءَايَاتٍ﴾، والجر في ﴿اِخْتِلَافَ﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿وفي اِخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

فإن قلت: العطف على معمولي عاملين على مذهب الأخفش شديد لا مقال فيه، وقد أباه سيويه، فما وجه تخريج الآية عنده؟

قلت: فيه وجهان عنده:

أحدهما: أن يكون على إضمار في، والذي حسنه تقدم ذكره في الآيتين قبلها، ويعضده قراءة ابن مسعود.

والثاني: أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور، معطوفاً على ما قبله، أو على التكرير ورفعهما بإضمار ﴿هي﴾، وقرئ ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ بالرفع.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَٰلَٰحِقٌ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿تَتْلُوهَا﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة في محل نصب حال من ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ﴾، والعامل فيه ما في الإشارة من معنى الفعل، ويجوز أن تكون ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ﴾ بدلاً من اسم الإشارة، وجملة ﴿تَتْلُوهَا﴾ هي الخبر، و﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿تَتْلُوهَا﴾، ﴿يَٰلَاحِقٌ﴾ إما حال من الفاعل؛ أي: محقين، أو من المفعول؛ أي: متلبسة بالحق: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ﴾ الفاء: استثنائية، والباء: حرف جر، ﴿أَي حَدِيثٌ﴾ مجرور بالباء. متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، والاستفهام توبيخي مضمن للإنكار؛ أي: لا يؤمنون. ﴿بَعْدَ اللَّهِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ﴿حَدِيثٌ﴾، و﴿ءَايَاتِهِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٌ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَرِّئْهُ بِعَذَابٍ آلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُزُواً أُولَٰئِكَ لَمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَبَلِّ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة قصد الدعاء. ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ خبر، والجملة مستأنفة، ﴿أَثِيرٌ﴾ صفة ﴿أَفَّاكٍ﴾، وهما صيغتا مبالغة للكذب والإثم، ﴿يَسْمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَفَّاكٍ﴾. ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَسْمَعُ﴾: في محل الجر صفة ثانية لأفَّاك، أو حال من الضمير المستكن فيه، ﴿تُنَلَّى﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُنَلَّى﴾، وجملة ﴿تُنَلَّى﴾: في محل نصب حال من ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ﴾؛ لأن سمع هنا دخل على ما يسمع فيتعدى إلى واحد فقط بالإجماع، وأما إذا دخل على ما لا يسمع كقوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ﴾،

أو سمعت رسول الله ﷺ يقول: كذا، ففيه الخلاف بين الأخفش ومن وافقه، وبين الجمهور، فعند الأخفش يتعدى حينئذ إلى الثاني، وعند الجمهور لا يتعدى إلى الثاني مطلقاً، كما هو مذكور في محله. ﴿تُمْ﴾ للعطف والترتيب الرتبي عند العقل. ﴿يُصِرُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَسْمَعُ﴾، ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ حال من فاعل ﴿يُصِرُّ﴾. ﴿كَانَ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: كأنه، وجملة ﴿لَوْ يَسْمَعُهَا﴾: خبرها، والجملة التشبيهية في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿يُصِرُّ﴾؛ أي: حال كونه مثل غير السامع، ﴿فَيُثِرُهُ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حاله المذكور، وأردت بيان ما يستحقه.. فأقول لك بشره ﴿بشره﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿يَمْلَأُ﴾ متعلق به. ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٍ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿عَلِمَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿أَفَّاكٍ﴾، والجملة في محل خفض فعل شرط لـ ﴿إِذَا﴾، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿مِنْ أَيْتِنَا﴾ حال من ﴿شَيْئًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، ﴿أَتَّخَذَهَا هُزُؤًا﴾ فعل ماض ناسخ، وفاعل مستتر يعود على الأفاك، ومفعولان، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر، معطوفة على جملة قوله: ﴿يَسْمَعُ أَيْتِنَا﴾ الله ﴿على كونها صفة لـ ﴿أَفَّاكٍ﴾، ﴿أَوَّلَيْكَ﴾ مبتدأ أول، ﴿لَمْ﴾ خبر مقدم لما بعده. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثان مؤخر. ﴿مُهِينٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٍ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة.

﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِدُ رَيْبَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ ﴿١٦﴾.

﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ خبر مقدم. ﴿جَهَنَّمُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع بدل من جملة قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على كونها خبراً للمبتدأ الأول، والوراء اسم للجهة التي يوارىها الشخص من خلف أو قدام، قال الشاعر وهو عبيد بن الأبرص:

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَذُبُ مَعَ أَلْوَدَانِ أَزْحَفُ كَالنَّسْرِ

﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُغْنِي﴾: فعل مضارع. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول فاعل، ويجوز أن تكون مصدرية، والمصدر المؤول هو الفاعل. ﴿كَسَبُوا﴾: فعل وفاعل صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مَنْ رَأَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾: زائدة لتأكيد نفي ﴿لَا﴾ الأولى، ﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية معطوفة على ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَسَبُوا﴾ على كونها فاعل ﴿يُغْنِي﴾، ﴿أَتَّخِذُوا﴾: فعل وفاعل، ومفعوله الأول محذوف، تقديره: ولا ما تخذوه، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿أَتَّخِذُوا﴾، ﴿أَوَّلِيَّةً﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿أَتَّخِذُوا﴾. والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة أو المصدرية، ﴿وَلَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، ﴿هَذَا﴾: مبتدأ، ﴿هَذِي﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَالَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿الذين﴾: مبتدأ أول، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول، ﴿يَأْتِيَنَّهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿كَفَرُوا﴾، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر، ﴿مَنْ يَجْزِي﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿أَلِيْدٌ﴾ صفة ﴿يَجْزِي﴾، أو صفة ثانية لـ ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول مع خبره معطوفة على جملة قوله: ﴿هَذَا هَذِي﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلْيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَقَدْ كُفِّرُوا شَكَرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿١٨﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مسوقة للاعتبار بتسخير البحر إلى عظمته، والسفن الجارية فيه لمخلوق هو أضال شيء بالنسبة لهما، ﴿سَخَّرَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على الموصول، والجملة صلة له، ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿سَخَّرَ﴾، ﴿الْبَحْرَ﴾: مفعول به، ﴿لِتَجْرِيَ﴾: اللام حرف جر وتعليل. ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿الْفُلُكُ﴾: فاعل. ﴿فِيهِ﴾:

متعلق بـ﴿تجري﴾، ﴿بِأَمْرِهِ﴾: حال من الفلك، أو متعلق بـ﴿تجري﴾ أيضاً، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿سَخَّرَ﴾، تقديره: سخر لكم البحر لجريان الفلك فيه، ﴿وَلَيَبْتَغُوا﴾ ﴿الْوَاوُ﴾: عاطفة، اللام: حرف جر وتعليل أيضاً، ﴿تَبْتَغُوا﴾: متعلق مضارع، وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿بِإِنْ فَضْلِهِ﴾: متعلق بـ﴿تَبْتَغُوا﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولا بتغائكم من فضله، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: لجريان الفلك فيه، ﴿وَلَقَلَّكَزْ﴾ ﴿الْوَاوُ﴾: عاطفة، ﴿لَعَلَّ﴾: حرف نصب وتعليل مستعارة لكي التعليلية، والكاف اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبرها، والجملة الاسمية في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بلعل التعليلية؛ أي: ولشكركم إياه سبحانه وتعالى على هذا التسخير. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾: معطوف على ﴿سَخَّرَ﴾ الأول، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل نصب، مفعول به، ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿مَا﴾ الموصولة، أو تأكيد لها. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: كائناً منه تعالى، أو حال ثانية من ﴿مَا﴾؛ أي: سخر لكم هذه الأشياء حالة كونها كائنة منه تعالى، مخلوقة له تعالى. ﴿إِنْ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَلِكَ﴾: خبرها مقدم ﴿لَا يَبْتَغِي﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿آيَاتِ﴾: اسمها مؤخر، ﴿لِقَوْمٍ﴾: صفة لـ﴿آيَاتِ﴾، وجملة ﴿يَنْفَكُّوْنَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾: مستأنفة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٧).

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿قُلْ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة الموصول، ومقول ﴿قُلْ﴾ محذوف تقديره: قل للذين آمنوا: اغفروا للذين لا يرجون أيام الله. ﴿يَغْفِرُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم في جواب الطلب المحذوف، كما قدرناه، والجملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَغْفِرُوا﴾، ﴿لَا يَرْجُونَ﴾: فعل وفاعل

صلة الموصول، ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾: مفعول به. ﴿لِيَجْزِيَ﴾: اللام: حرف جر وتعليل، ﴿يجزي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي جوازاً، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿يجزي﴾ وجملة ﴿يجزي﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَقْفُرُوا﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة أو المصدرية.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَقِيَّةَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَكَّيْنَاهُمْ مِّنَ الظَّالِمِينَ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾.

﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿عَمِلَ﴾ فعل ماضٍ وفاعل مستتر يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها، ﴿صَالِحًا﴾: مفعول به أو صفة لمصدر محذوف، ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾: الشرطية وجوباً، ﴿لنفسه﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فتواب عمله كائن لنفسه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة، مسوقة لبيان كيفية الجزاء. ﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط مبتدأ، وجملة ﴿أَسَاءَ﴾: فعل شرط لها، ﴿فَعَلَيْهَا﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فإساءته عليها، والجملة في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿تُرْجَعُونَ﴾: من الفعل المغير، ونائب فاعله معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: موطنه للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل، وهو بمعنى أعطينا يتعدى إلى مفعولين، ﴿بَقِيَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾: مفعول أول، ﴿الْكِتَابَ﴾ مفعول ثان، ﴿وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾: معطوفان على ﴿الْكِتَابَ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَزَكَّيْنَاهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَاتَيْنَا﴾. ﴿مَنْ﴾

الَّتِي بَتِ: متعلق بـ ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾، ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بـ ﴿فَضَّلْنَاهُمْ﴾.

﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ يَنْتَهِ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾.

﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ يَنْتَهِ﴾: فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ الأول ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿يَنْتَهِ﴾ ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿مَا﴾ نافية ﴿اخْتَلَفُوا﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مِنْ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿اخْتَلَفُوا﴾، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية مع ﴿مَا﴾. المصدرية في تأويل مصدر بإضافة الظرف إليه؛ أي: إلا من بعد مجيء العلم إياهم.

﴿بَغْيًا يَنْهَهُ﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ أَكْثَرِيَّ الْفَظْلِيِّينَ بِمَعْصِيَتِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿بَغْيًا﴾: مفعول لأجله منصوب بـ ﴿اخْتَلَفُوا﴾؛ أي: فما اختلفوا إلا لأجل البغي بينهم، و﴿يَنْهَهُ﴾: ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿بَغْيًا﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقْضِي﴾: خبره، ﴿يَنْهَهُ﴾: متعلق بـ ﴿يَقْضِي﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿يَقْضِي﴾، ﴿فِيمَا﴾: متعلق بـ ﴿يَقْضِي﴾ أيضاً، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ خبر ﴿كَانُوا﴾، وجملة ﴿كَانُوا﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ولكن هنا بمعنى الواو الاستثنائية، كما في «السمين». ﴿جَعَلْنَاكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿عَلَى شَرِيعَةٍ﴾ في موضع المفعول الثاني، والجملة مستأنفة، ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾: صفة لـ ﴿شَرِيعَةٍ﴾، ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿اتَّبِعْهَا﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ ومفعول به والجملة معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَاكَ﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: ناهية، جازمة، ﴿تَتَّبِعْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ مجزوم

بلا الناهية، معطوف على قوله: ﴿فَاتَّبَعَهَا﴾ ﴿أَهْوَاءَ الَّذِينَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿كُنْ﴾ حرف نفي ونصب، ﴿يُغْنُوا﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بـ ﴿كُنْ﴾، وعلامة نصبه حذف النون، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي المذكور قبله، ﴿عَنكَ﴾ متعلق بـ ﴿يُغْنُوا﴾، ﴿مِنْ اللَّهِ﴾: حال من ﴿شَيْئًا﴾؛ لأنه صفة نكرة، قدمت عليها، أو متعلق بـ ﴿يُغْنُوا﴾، ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، ﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنْ﴾: حرف نصب، ﴿الْقَلِيلِينَ﴾: اسمها، ﴿بَعْضُهُمْ﴾: مبتدأ، ﴿أُولَئِكَ بَعْضٌ﴾: خبر، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنْ﴾، وجملة ﴿إِنْ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَنْ يُغْنُوا عَنْكَ﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿وَلِئْلِ الْمُتَّقِينَ﴾: خبره، والجملة الابتدائية معطوفة على جملة ﴿إِنْ﴾، ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ﴾: مبتدأ وخبره، والجملة مستأنفة. ﴿لِلنَّاسِ﴾ صفة لـ ﴿بَصِيرَةٍ﴾. ﴿وَهَذَى وَرَحْمَةً﴾: معطوفان على ﴿بَصِيرَةٍ﴾ ﴿لِقَوْمٍ﴾: نعت لكل من ﴿وَهَذَى وَرَحْمَةً﴾، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَا يَتَّبِعُ﴾؛ أي: لعبراً للمؤمنين، ولشواهد على الربوبية للمصدقين. ﴿وَمَا يَبْكُ﴾؛ أي: يفرق، وينشر. أصله: يبث بوزن يفعل، نقلت حركة الشاء الأولى إلى الباء فسكنت، فأدغمت في الشاء الثانية. ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ وهي كل ما يدب على وجه الأرض من الحيوان مع اختلاف صورها وأشكالها وكثرة أنواعها، وأصله: دابة بوزن فاعلة، أدغمت الباء الأولى في الثانية فصار دابة. ﴿وَأَخْلَفَ آئِلٍ وَالتَّهَارِ﴾؛ أي: تعاقبهما ليل بعد نهار، ونهار بعد ليل. ﴿مِنْ رَزْقٍ﴾؛ أي: مطر، وسمى بذلك؛ لأنه سبب له. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾؛ أي: تحويلها من جهة إلى أخرى، ومن حال إلى حال. ﴿وَيَلٍ﴾ كلمة عذاب. ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٍ﴾ الأفاك كثير الإفك والكذب، والأثيم: كثير الإثم والمعاصي، وهما صيغتا مبالغة، كعليم بمعنى: كثير العلم. ﴿يُصِرُّ﴾ أصله: يصمر، نقلت حركة الراء الأولى إلى الصاد، فسكنت فأدغمت في الثانية. قال في «المفردات»: الإصرار التعقد في الذنب والتشدد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله: من الصر، وهو الشد، والصرة

ما يعقد فيها الدراهم. وقال بعضهم: الإصرار على الشيء ملازمته. ﴿وَرَأَيْهِمْ﴾؛ أي: من بعد آجالهم، والوراء اسم للجهة التي يوارىها الشخص من خلف أو قدام؛ أي: يسترها. وقال بعضهم: وراء في الأصل مصدر وارى، جعل ظرفاً ويضاف إلى الفاعل، فيراد به: ما يتوارى به، وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به: ما يواريه، وهو قدامه، ولذلك عدَّ من الأضداد. وفي «القاموس»: الوراء معرفة يكون خلف وقدام ضدَّ أو لا؛ لأنه بمعنى، وهو ما توارى عنك، والوراء أيضاً ولد الولد، ووري المخ كولي اكتنز، انتهى.

﴿وَلَا يُغْنِي﴾؛ أي: يدفع، يقال: أغنى عنه إذا كفاه. ﴿أَوَّلِيَّاءُ﴾ أصناماً ﴿يَرْجُونَ﴾ والرجز أشد العذاب. ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾؛ أي: ذلله وهيأه، بأن جعله أملس السطح، مستويه، يعلو عليه ما شأنه الغوص كالأخشاب، فإنه لو جعله خشن السطح، بأن كان ذا ارتفاع وانخفاض لم يتيسر جرى الفلك عليه، كما مر. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ والمراد بأيام الله: الوقائع المشهورة التي انتصر الحق فيها على الباطل، وأدبل الباطل بالجهاد، وهذا جري على أساليب العرب، إذ يقولون أيام العرب لوقائعهم المشهورة، كيوم بعث على حد قول السموءل اليهودي.

وَأَيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ فِي عَدُونَا لَهَا غُرَرٌ مَغْلُومَةٌ وَحُجُولٌ وأصل أيام: أيوم بوزن أفعال اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء. ﴿عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ والشريعة في الأصل: ما يرده الناس من المياه والأنهار، فاستعير ذلك للدين، والعبادة؛ لأن العباد يردون ما تحيا به نفوسهم، والجمع شرائع اهـ «سمين». وفي «القرطبي»: الشريعة في اللغة المذهب والملة، ويقال لمشركة الماء، وهي مورد شريعة، ومنه الشارع لأنه طريق إلى القصد، فالشريعة ما شرعه الله لعباده من الدين، والجمع الشرائع، والشرائع في الدين: المذاهب التي شرعها الله تعالى لخلقه، انتهى.

﴿لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أصله: يغنيون حذف نون الرفع لدخول أداة النصب عليه، وهو ﴿لَن﴾، ثم استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت النون، لمناسبة الواو. ﴿وَلِئَلَّا الْمُنْفِقِينَ﴾ أصله: وليبي بوزن

فعل، أدغمت ياء فعليل في لام الكلمة، فصار ولي بتشديد الياء. ﴿بَصَّيْتُ لِلنَّاسِ﴾ جمع بصيرة بوزن فعليلة. وفي «المختار»: البصيرة: الحجة، والاستبصار في الشيء اهـ. وفي «القاموس»: والبصيرة عقيدة القلب والفطنة، والحجة. والهمزة في الجمع أعني: ﴿بَصَّيْتُ﴾ بدل من ياء فعليلة، الواقعة حرف مد ثالثاً، زائداً في اسم مؤنث.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرورياً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع:

فمنها: التأكيد بإن واللام في قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾؛ لأن المخاطبين منكرون لوحداًنية الله تعالى.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾؛ أي: مطر من إطلاق المسبب وإرادة السبب، وهو المطر؛ لأن الرزق لا ينزل من السماء، ولكن ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات والرزق.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَلَحْيَا يَهُ الْآرَضِ﴾؛ لأنه استعار الإحياء للإنبات، فاشتق منه أحياء، بمعنى: أنبت على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ لأنه استعار الموت لليس.

ومنها: الإتيان باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى بعد مرتبتها.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله: ﴿فَأَيُّ حَدِيثٍ﴾.

ومنها: تنكير آيات في قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿آيَاتُ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وفي قوله: ﴿آيَاتُ لِقَوْمٍ يُقُولُونَ﴾؛ أي: تنكيرها في المواضع الثلاثة،

للدلالة على فخامة شأنها، وعلو قدرها.

ومنها: تقديم الاسم الجليل في قوله: ﴿بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ﴾ دلالة على تعظيمه، وعلو شأنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَفِثْرَةٌ بِعَذَابِ إِلِيمٍ﴾ حيث استعار البشارة التي هي الإخبار، بما يظهر سروراً في المخبر به، للإنذار الذي هو ضده بإدخال الإنذار في جنس البشارة على سبيل التهكم، والاستهزاء.

ومنها: تنكير شيئاً في قوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَّائِنَتِنَا شَيْئًا﴾ إفادة للتقليل.

ومنها: التضاد في قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ جَهَنَّمَ﴾ وهو استعمال لفظ يحتمل المعنى وضده، وهو مشترك بين المعنيين، فيستعمل في الشيء وضده، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: توسط حرف النفي بين المعطوفين في قوله: ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ﴾ مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر، وأجلى من عدم إغناء الأموال، والأولاد مجارة على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه ضرب من التهكم.

ومنها: الإطناب بتكرار اللفظ في قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لإظهار الامتنان.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَاتَّبَعَهَا وَلَا تَنْتَجِ أَوَّاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: المبالغة بذكر المصدر في قوله: ﴿هَذَا هُدًى﴾ كأن القرآن الكريم لوضوح حجته عين الهدى.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ كالإضافة في بيت

الله، وناقته الله.

ومنها: تنكير قوماً في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لغرض مدحهم، والثناء عليهم، إن أريد بهم المؤمنون، أو للتحقير والإهانة إن أريد بهم الكافرون.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾؛ لأنها حقيقة فيما يرده الناس من المياه والأنهار، ثم استعير للدين.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: وإنهم بعضهم أولياء بعض.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا هُمْ بِمُحْكَمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا إِعَابَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم مِمَّ يُمَيِّنُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدُ بَحْسَرِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَرَى كُلُّ أُنْثَىٰ جَائِيَةً كُلُّ أُنْثَىٰ دُعِيَ إِلَىٰ كِنِيسِهَا الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كَيْتُنَا يُطَقُّ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِيَنِي تُشَلَّىٰ عَلَيْكُمْ فَأَسْتَكَبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَحَفِّينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُومًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْمُلْكُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله ^(١) سبحانه وتعالى، لما ذكر الفرق بين الكافرين والمؤمنين في الولاية، فأبان أن الأولين بعضهم أولياء بعض، وأن الآخرين وليهم الله... أردف ذلك بذكر الفارق بينهم في المحيا

(١) المراغي.

والممات، فالمحسنون مرحومون في الحالين، ومجترحوا السيئات مرحومون في الدنيا فحسب، ثم ذكر الدليل على هذا، بأن الله ما خلق الخلق إلا بالحق، المقتضي للعدل أو الانتصاف للمظلوم من الظالم، والتفاوت بين المحسن والمسيء في الجزاء، وإذا لم يكن هذا في المحيا كان في دار الجزاء حتماً، لتجزى كل نفس بما كسبت فلا تظلم بنقص ثواب، أو بمضاعفة عقاب، ثم عجب سبحانه ممن ركب رأسه واتبع هواه وترك الهدى، وأضله الله وهو العليم باستعداده وخبث طويته، وأنه ممن يميل إلى تدسية نفسه، واجترار الآثام والمعاصي، فهو ممن ختم الله على سمعه وقلبه، فلا يتأثر بعظة، ولا يفكر في آية، وجعل على بصره غشاوة مانعة من الاستبصار والاعتبار، فمن بعد الله يهديه أفلا تتذكرون، وتتفكرون في هذا.

قوله تعالى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين قد اتخذوا إلههم هواهم، وأن الله سبحانه، قد أضلهم على علم بحالهم، وأنه ختم على سمعهم وقلوبهم، وجعل على بصرهم غشاوة... ذكر هنا جنائية أخرى من جناياهم، وحماقة من حماقاتهم تلك، أنهم أنكروا البعث، وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، وما ذلك منهم إلا ظنون وأوهام، لا مستند لها من نقل ولا عقل، ولم يجدوا حجةً يقولونها إلا أن قالوا: إن كان ما تقوله حقاً، فأرجعوا آباءنا الموتى إلى الحياة، فأمر الله رسوله أن يجيبهم، بأنه هو الذي يحييهم ثم يميتهم، ثم يجمعهم في يوم لا شك فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ الْمُبْطِلُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه^(١)، لما أثبت فيما سلف، أنه قادر على الإحياء مرة ثانية، كما قدر على ذلك في المرة

(١) المراغي.

الأولى.. ذكر هنا دليلاً آخر على ذلك، وهو أنه تعالى مالك الكون كله، فهو قادر على التصرف فيه بالإحياء في الإعادة، كما أحياء في البدء، ثم ذكر من أهوال هذا اليوم، أن كل أمة تجثو على ركبها، وتجلس جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، وكل أمة تدعى إلى صحيفة أعمالها التي كَتَبَتْهَا الحفظة، لتحاسب عليها، ويقال لهم: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا شاهد عليكم أصدق من كتابكم، فهو صورة أعمالكم قد كتبتها الملائكة في دنياكم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ...﴾ الآيات إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر^(١) أهوال العرض والحساب، وأن أعمال كل أمة تعرض عليها، ويقال لهم: هذا ما كتبه الحفظة في الدنيا، فهو شهادة صدق لا شك فيها.. أردف هذا، بيان أنه بعد انتهاء هذا الموقف، يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم، ويوبخ الكافرون على ما فرط منهم في الدنيا، ويقال لهم: لا عذر لكم في الإعراض عن آياتي، حين كانت تتلى عليكم إلا الاستكبار، والعناد، وقد كنتم في الحياة الأولى إذا قيل لكم: إن يوم القيامة آت لا شك فيه، قلتم: لا يقين عندنا به وهو موضع حدس وتخمين، فها هو ذا قد حل بكم، جزاء ما اجتريتموه من السيئات، وما كنتم تستهزؤون في دنياكم، إذ قد خدعتكم بزخارفها، فظننتم أن لا حياة بعد هذه الحياة، ولا مأوى لكم إلا جهنم فادخلوها، ولا مخرج لكم منها، ولا عتبي حينئذ، فلا تنفع توبة مما فرط منكم من الذنوب.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما قاله الكلبي^(٢): أنها نزلت في علي، وحمزة، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، وفي ثلاثة من المشركين: عتبة وشيبة والوليد بن عتبة، قالوا

(٢) تفسير الرازي ٢٧/٢٦٦.

(١) المراغي.

للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقاً... لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أنا أفضل حالاً منكم في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام، وبين أنه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع، مساوياً لحال الكافر العاصي في درجات الثواب، ومنازل السعادات.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن المنذر، وابن جرير عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تعبد الحجر حيناً من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر، فأنزل الله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ...﴾ الآية. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي، أحد المستهزئين؛ لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه.

نزول بقية الآية: ﴿وَوَحَّمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ قال مقاتل^(١): نزلت في أبي جهل، ذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة، ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ، فقال أبو جهل: والله إنني لأعلم أنه صادق، فقال: مه وما ذلك على ذلك، قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله، وكمل رشده، نسميه الكذاب الخائن، والله إنني لأعلم أنه صادق، قال: فما يمنعك أن تصدقه، وتؤمن به، قال: تتحدث عني بنات قريش، أني اتبعت يتيماً أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى إن اتبعته أبداً فنزلت: ﴿وَوَحَّمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ...﴾ إلخ، كلام^(٢) مستأنف مسوق لبيان تباين حالي المسيئين، والمحسنين إثر بيان تباين حالي الظالمين، والمتقين. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني، والهمزة لإنكار الحساب، لكن لا بطريق إنكار الوقوع نفيه، كما في قوله تعالى:

(٢) أبو السعود.

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٧٠.

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ١٨ ﴿بل بطريق إنكار الواقع واستقبحه، والتوبيخ عليه، والاجترار الاكتساب، و﴿حَسِبَ﴾ فعل ماضٍ من أخوات ظن و﴿الَّذِينَ﴾ فاعله، وجملة ﴿أَنْ يَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ سادة مسد المفعولين لـ ﴿حَسِبَ﴾، وقوله: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جار ومجرور في موضع المفعول الثاني لـ ﴿لجعل﴾، وقوله: ﴿سَوَاءٌ﴾: بالنصب حال من الضمير في الظرف، والموصول معاً لاشتماله على ضمير الفريقين، على أن السواء بمعنى المستوي، و﴿تَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفعان بالسواء على الفاعلية.

والمعنى^(١): بل أظن الذين اكتسبوا الشرك والمعاصي، مع ما لهم من مساوي الأحوال، أن نصيرهم في الحكم، مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، مع ما لهم من محاسن الأعمال، ونعاملهم معاملتهم في الكرامة، ورفع الدرجة، حالة كون كلا الفريقين مستويًا، محياهم ومماتهم؛ أي: محيا الفريقين جميعاً ومماتهم، كلا لا يستوون في شيء منهما، فإن هؤلاء في عز الإيمان والطاعة، وشرفهما في المحيا، وفي رحمة الله ورضوانه في الممات، وأولئك في ذل الكفر والمعاصي وهوانهما في المحيا، وفي لعنة الله، والعذاب الخالد في الممات، وشتان بينهما، وقيل: المراد إنكار أن يستووا في الممات، كما استووا في الحياة؛ لأن المسيئين والمحسنين مستو محياهم في الرزق والصحة، وإنما يفترقون في الممات ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء وقبح حكمهم هذا، على أن ﴿مَا﴾: مصدرية، والفعل للإخبار عن قبح حكمهم، أو بشئاً حكموه، ذلك على أن ﴿سَاءَ﴾ بمعنى بشئ، و﴿مَا﴾: نكرة موصوفة بمعنى شيء، والفعل لإنشاء الذم.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرفع، و﴿مماتهم﴾ بالرفع أيضاً، وأعربوا ﴿سَوَاءٌ﴾ مبتدأ، وخبره ما بعده، ولا مسوغ لجواز الابتداء، بل هو خبر مقدم وما بعده المبتدأ، والجملة خبر مستأنف، والمعنى: إنكار حسابانهم أن محياهم

(٢) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

ومماتهم سواء، وقرأ زيد بن علي وحمزة والكسائي وحفص: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب، وما بعده مرفوع على الفاعلية، أجرى ﴿سَوَاءٌ﴾ مجرى مستويماً كما قالوا: مررت برجل سواء هو والعدم، وجوز في انتصاب ﴿سَوَاءٌ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون منصوباً على الحال، و﴿كَالَّذِينَ﴾ المفعول الثاني: والعكس، وقرأ الأعمش: ﴿سواء﴾: بالنصب ﴿محياهم ومماتهم﴾ بالنصب أيضاً، وخرج على، أن محياهم ومماتهم ظرفي زمان، والعامل إما ﴿أَنْ يَجْعَلَهُمْ﴾ وإما ﴿سَوَاءٌ﴾.

والثاني: أن يجعل بدلاً من مفعول ﴿يَجْعَلَهُمْ﴾، والمفعول الثاني: ﴿سَوَاءٌ﴾؛ أي: نجعل محياهم ومماتهم سواء.

ومجمل معنى الآية^(١): أي أیظن هؤلاء الذين اكتسبوا الإثم والمعاصي في الدنيا، فكفروا بالله وكذبوا الرسل، وخالفوا أمره، وعبدوا غيره، أن نجعلهم كالذين آمنوا به، وصدقوا رسله، فنساوي بينهم في دار الدنيا، وفي الآخرة، كلا، لا يستون في شيء منهما، فإن أهل السعادة في عز الإيمان والطاعة، وشرفهما في المحيا، وفي رحمة الله، ورضوانه في الممات، وأهل الشقاء في ذل الكفر، والمعاصي، وهوانهما في المحيا، وفي لعنة الله، والعذاب الخالد في الممات، فشتان ما بينهما وما أبعد ما بين الثريا والثرى.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء ما ظنوا، وبعد أن نساوي بين الأبرار، والفسجار في دار الآخرة، وفي هذه الدار، وفي الآية إرشاد إلى تباين حالي المؤمن العاصي، والمؤمن المطيع، وقد أثر عن كثير من الناسكين، المخبتين لربهم، أنهم كانوا ييكون عند تلاوة هذه الآية، حتى سموها مبكاة العابدين.

أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» والطبراني، وجماعة عن أبي

(١) المراغي.

الضحى قال: قرأ تميم الداري سورة الجاثية، فلما أتى على قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الآية، لم يزل يكررها ويبكي، حتى أصبح وهو عند المقام، وأخرج ابن أبي شيبة عن بشير مولى الربيع بن خثيم، أن الربيع كان يصلي، فمر بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾ فلم يزل يرددّها حتى أصبح، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها: ليت شعري من أي الفريقين أنت.

فلا يطمعن^(١) البطال في ثواب العمال ولا الجبان في مقام الأبطال ولا الجاهل في مقام العالم ولا النائم في ثواب القائم، فعلى اجتهد المرء يزيد أجره، وبقدر تقصيره ينحط قدره، وفي بعض الكتب السالفة: إن الله منادياً ينادي كل يوم: أبناء الخمسين زرع دنا حصاده، أبناء الستين هلموا إلى الحساب أبناء السبعين ماذا قدمتم وماذا أخرتم؟ أبناء الثمانين لا عذر لكم، ليت الخلق لم يخلقوا، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا وتجالسوا بينهم، فتذكروا ما عملوا، ألا أتاكم الساعة فخذوا حذرکم.

وفي الخبر: «إذا أراد الله سبحانه بعبد خيراً، بعث إليه ملكاً من عامه الذي يموت فيه، فيسده، وييسره، فإذا كان عند موته أتاه ملك الموت، فقعده عند رأسه فقال: يا أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فذلك حين يحب لقاء الله، ويحب الله لقاءه، وإذا أراد بعبد شراً بعث إليه شيطاناً من عامه الذي يموت فيه، فأغواه، فإذا كان عند موته، أتاه ملك الموت، فقعده عند رأسه، فيقول: يا أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتفرق في جسده، فذلك حين يبغض لقاء الله، ويبغض الله لقاءه»، ويقال: إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة، أنسه بالوحدة، وأغناه بالقناعة، وبصره بعيوب نفسه، فمن أعطي ذلك، فقد أعطي خير الدنيا والآخرة.

وعن أبي بكر الوراق رحمه الله تعالى: طلبنا أربعة فوجدناها في أربعة، وجدنا رضى الله في طاعة الله تعالى، وسعة العيش في صلاة الضحى، وسلامة

(١) روح البيان.

الدين في حفظ اللسان، ونور القلب في صلاة الليل، فعليك بالتدارك قبل فوت الوقت، فإن الوقت سيف قاطع.

ثم أقام الدليل على عدم التساوي، وأبان حكمة ذلك، فقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: لأجل إظهار الحق والعدل بين العباد، فالباء تعليلية بمعنى اللام، وقوله: ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ﴾ معطوف على ﴿بِالْحَقِّ﴾ عطف علة على علة؛ لأن الباء تعليلية؛ أي: ولتجزى كل نفس مكلفة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: النفوس المدلول عليها بكل نفس؛ أي: والحال أن الخلائق ﴿لَا يَظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب المحسن، أو بزيادة عقاب المسيء.

والمعنى^(١): أن المقصود من خلق هذا العالم إظهار العدل والرحمة، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة، وحصل التفاوت في الدرجات والدركات بين المحققين والمبطلين، ويجوز أن يكون معطوفاً على علة محذوفة، تقديرها: وخلق الله السموات والأرض بالحق، ليدل بهما على قدرته، ولتجزى كل نفس، إلخ. وجوز ابن عطية أن تكون هذه اللام لام الصيرورة؛ أي: فصار الأمر منها من حيث اهتدى بها قوم، وضل عنها آخرون؛ لأن يجازى كل واحد بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، انتهى. ولا وقف على قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ وعند أبي حاتم، فالوقف عليه تام بجعل لام ﴿لتجزى﴾ لام قسم؛ أي: لم يخلق الله السموات والأرض للجور والظلام، بل خلقهما للحق والعدل، ومن العدل أن يخالف بين المحسن والمسيء، في العاجل والآجل، وليثيب كل عامل بما هو له أهل، فلا يبغض المحسن ثواب إحسانه، أو يحمل عليه جرم غيره فيعاقبه به، أو يجعل للمسيء ثواب إحسان غيره.

والخلاصة: كل عامل يجزى بما كسبت يده، ولا يظلم بنقص ثواب، ولا بتضعيف عقاب.

ثم بين أحوال الكافرين، وذكر جناياهم على أنفسهم، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ

(١) المراح.

أَتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ﴿١﴾ وهو تعجيب لحال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكانه عبده، والهمزة: للاستفهام التعجيبى داخله على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنظرت يا محمد إلى حال أسير الهوى، فرأيت من اتخذ ما تهواه نفسه الخبيثة إلهاً ومعبوداً، وترك متابعة الهدى، واختار متابعة الهوى، ففي الكلام استعارة تمثيلية، أو تشبيه بليغ حذف منه أداة التشبيه؛ أي: جعل هواه كإلهه في طاعته؛ أي: انظر يا محمد، واعجب من حال من ركب رأسه وترك الهدى وأطاع الهوى، فكانه جعله إلهاً يعبده من دون الله، فهو لا يهوى شيئاً إلا فعله، لا يخاف رباً ولا يخشى عقاباً، ولا يفكر في عاقبة ما يعمل، قال سعيد بن جبیر: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به، وعبد الآخر، وعن أبي رجاء العطاردي: أنه أدرك الجاهلية، وهو ثقة مات سنة خمس ومئة، وعمره مئة وعشرون سنة، قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه.. ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حُثْوَةً من تراب، فحلبنا عليها، ثم طفننا بها.

وفي هذا: إيماء^(١) إلى ذم اتباع هوى النفس، ومن ثم قال وهب بن منبه: إذا شككت في خير أمرين، فانظر أبعدهما من هواك فاته، وقال سهل التستري: هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك وقال الإشبيلي الزاهد:

فَخَالَفَ هَوَاهَا وَأَغْصَبَهَا إِنْ مَنْ يُطِيعُ هَوَىٰ نَفْسِهِ يُنْزِعُ بِهِ شَرَّ مَنْزِعٍ
وَمَنْ يُطِيعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَةَ تُرِيدُ وَتَرْمِي بِهِ فِي مَضَرٍّ أَيْ مَضَرٍّ
وقال البوصيري:

وَخَالَفَ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَأَغْصَبَهُمَا وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النَّضْحَ فَأَتَّهِمُ
وقال بعضهم:

نُؤْنُ الْهَوَانَ مِنْ الْهَوَىٰ مَسْرُوقَةً فَأَسِيرُ كُلَّ هَوَىٰ أَسِيرُ هَوَانَ
وقال الآخر:

(١) المراغي.

فَأَعْرِضْ هَوَى النَّفْسِ وَلَا تُرْضِهَا إِنَّكَ إِنْ أَسْخَطْتَهَا زَانَكَا
 حَتَّى مَتَى تَطْلُبُ مَرْضَاتَهَا وَإِنَّمَا تَطْلُبُ عُذْوَانَكَا
 وقال ابن عباس: ما ذكر الله سبحانه هوى في القرآن إلا ذمه، قال تعالى:
 ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَلَاهُ كَتَلِ الْكَلْبِ﴾، وقال: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾، وقال:
 ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وروى عبد الله بن عمرو بن العاص، عن
 النبي ﷺ فيما ذكره النووي في كتاب «الحجة» للمقدسي: «لا يؤمن أحدكم حتى
 يكون هواه تبعاً لما جئت به». وقال أبو أمامة سمعت النبي ﷺ يقول: «ما عبد
 تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى».

وروى شداد بن أوس عن النبي ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد
 الموت، والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله». أخرجه أحمد والترمذي
 وابن ماجه، والحاكم. وعنه ﷺ أنه قال: «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً
 ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر
 العامة». أخرجه الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني. وعنه أنه قال: «ثلاث مهلكات،
 وثلاث منجيات، فالمهلكات: شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه،
 والمنجيات: خشية الله في السر والعلن، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في
 الرضا والغضب». أخرجه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر وهو ضعيف،
 وحسبك ذماً لاتباع الهوى، قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ
 الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

وقيل: معنى ﴿أرأيت﴾ أخبرني عن حال من اتخذ هواه إلهاً، فيتعدى^(١) إلى
 مفعولين، الأول: هو من اتخذ، والثاني: محذوف تقديره: مهتدياً يدل عليه
 قوله: فمن يهديه من بعد الله؛ أي: لا أحد يهديه من بعد إضلال الله إياه، وفيه
 حينئذ تجوزان^(٢)، إطلاق الرؤية، وإرادة الإخبار على طريق إطلاق اسم السبب
 وإرادة المسبب، لأن الرؤية سبب للإخبار، وجعل الاستفهام بمعنى الأمر بجامع

(٢) الفتوحات.

(١) البحر المحيط.

مطلق الطلب .

وقرىء^(١) : ﴿آلهته هواه﴾ لأنه كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى، يعبد كل وقت واحداً منها . وقوله : ﴿وَأَصَلَّهُ اللَّهُ﴾ سبحانه معطوف على صلة ﴿مِنْ﴾ ، وقوله : ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ إما حال من الفاعل ؛ أي : حال كون الله عالماً في سابق علمه، بأن جوهر روحه لا يقبل الصلاح، أو من المفعول ؛ أي : حال كون ذلك الضال، عالماً بأن الحق هو الدين، ويعرض عنه عناداً، كقوله : ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ ؛ أي : خذله فلم يجعله يسلك سبيل الرشاد؛ لأنه قد علم أنه لا يهتدي ولو جاءت كل آية، لما في جوهر نفسه من الميل إلى ارتكاب الإجرام واتباع الشهوات، فهو يوغل في القبائح دون زاجر، ولا وازع .

﴿و﴾ قد ﴿ختم﴾ وطبع ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ فلا يتأثر بالآيات تتلى عليه ليعتبر بها، ولا يتدبرها ليعقل ما فيها من النور والهدى ﴿و﴾ ختم على ﴿قلبه﴾ فلا يعي حقاً، ولا يسترشد إلى صواب ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً﴾ عظيمة، وغطاء مانعاً، يمنعه أن يبصر حجج الله، وآياته في الآفاق والأنفس فيستدل بها على وحدانيته تعالى، ويعلم بها أن لا إله غيره .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشوة ولهم عذاب عظيم ٧﴾ . وقرأ الجمهور^(٢) : ﴿غِشْوَةً﴾ بكسر الغين المعجمة، وقرأ عبد الله، والأعمش : بفتحها، وهي لغة ربيعة، وقرأ الحسن، وعكرمة، وعبد الله أيضاً : بضمها، وهي لغة عكل، وقرأ الأعمش أيضاً وطلحة وأبو حنيفة ومسعود بن صالح وحمزة والكسائي : ﴿غشوة﴾ بفتح الغين وسكون الشين، وقرأ ابن مصرف والأعمش أيضاً كذلك إلا أنهما كسرا الغين .

ثم ذكر أن مثل هذا لا طمع في هدايته، فقال : ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ﴾ ويرشده ﴿مِنْ بَعْدٍ﴾ إضلال ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه إياه ؛ أي : فمن يوفقه لإصابة الحق، وإبصار محجة

(٢) البحر المحيط .

(١) المراح .

الرشد بعد إضلال الله إياه، والاستفهام إنكاري؛ أي: لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك، والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري داخل على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تلاحظون^(١) أيها الناس فلا تتذكرون، ولا تتفكرون، فتعلموا أن الهداية لا يملكها أحد سواه، أو فلا تتعظون؛ أي: أفلا تتذكرون أيها القوم فتعلموا، أن من فعل الله به ما وصفنا، لن يهتدي أبداً، ولم يجد لنفسه ولياً ولا مرشداً، وقرأ الجمهور: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال، والجحدري يخففها، والأعمش بتاءين.

ومجمل معنى الآية^(٢): أي أخبرني عن حال ذلك الكافر الذي أطاع هواه وترك الهدى، واتخذ دينه ما يهواه، فكأنه جعل الهوى إلهه، يعبد من دون الله، فلا يهوى شيئاً إلا اتبعه دون مراعاة لما يحبه الله ويرضاه، فهذا مما يدعو إلى العجب، وكان الحارث بن قيس لا يهوى شيئاً إلا فعله، والعبرة بعموم لفظ الآية، لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله.

وقد أضله الله، وخذله مع علمه بالحق، ومعرفته الهدى من الضلال، وقيام الحجة عليه، وطبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وعلى قلبه حتى لا يفقه الهدى، وجعل غطاء على بصره وبصيرته حتى لا يبصر الرشد، ويدرك آيات الله في الكون، التي تدل على وحدانية الله تعالى، فمن يوفقه للصواب والحق، من بعد إضلال الله له بسبب انحرافه واتباعه هواه، أفلا تتذكرون تذكر اعتبار، وتتعظون حتى تعلموا حقيقة الحال.

ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: قال منكروا البعث من غاية غيهم وضلالهم، وهم كفار قريش، ومشركوا العرب، وفي «كشف الأسرار»: هذا من قول الزنادقة، الذين قالوا: الناس كالحشيش أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يصيبنا الموت، والحياة فيها، وليس وراء ذلك حياة، وتأخير ﴿نَحْيَا﴾ لأن فيها شبه مراعاة الفاصلة،

(٢) التفسير المنير.

(١) روح البيان.

ولأن ﴿الواو﴾ لمطلق الجمع، وقيل: نموت نحن ويحيا فيها أولادنا، وقيل: نكون نطفاً ميتة، ثم نصير أحياء، وقيل: في الآية تقديم وتأخير؛ أي: نحيا ونموت، وكذا قرأ ابن مسعود. وعلى كل تقدير، فمرادهم بهذه المقالة: إنكار البعث، وتكذيب الآخرة، وقد جوز^(١) أن يريدوا به التناسخ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان، قال الراغب: القائلون بالتناسخ قوم ينكرون البعث، على ما أثبتته الشريعة، ويزعمون أن الأرواح تنتقل من الأجساد على التأبيد؛ أي: إلى أجساد آخر. وفي «التعريفات»: التناسخ عبارة عن تعلق الروح بالبدن، بعد المفارقة من بدن آخر، من غير تخلل زمان بين التعلقين، للتعلق الذاتي بين الروح والجسد. وقرأ زيد بن علي ﴿ونحيا﴾ بضم النون ﴿وَمَا يَهْلِكُ﴾ ويعدمنا، ويفنيها ﴿إِلَّا الدَّهْرُ﴾؛ أي: إلا مرور الزمان، وهو مدة بقاء العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ثم يعبر به عن كل مدة كبيرة، وهو خلاف الزمان، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة، وقيل: إلا مرور الأيام والليالي، قال مجاهد، يعني السنين والأيام. وقال قتادة: إلا العمر والمعنى واحد. وقال قطرب: وما يهلكنا إلا الموت. وقال عكرمة: وما يهلكنا إلا الله، وقرأ عبد الله: ﴿إِلَّا دَهْرٌ﴾، وتأويل إلا دهر يمر، كانوا يضيفون كل حادثة إلى الدهر، وأشعارهم ناطقة بشكوى الدهر، حتى يوجد ذلك في أشعار المسلمين، قال ابن دريد في مقصورته:

يَا دَهْرُ إِنْ لَمْ تَكُ عُثْبَى فَاتَّيْتُدُ فَإِنَّ إِرْوَادَكَ وَالْعُثْبَى سَوَاءٌ
ومجمل المعنى^(٢): أي وقال المشركون الذين سبق ذكر بعض أوصافهم:
لا حياة بعد هذه الحياة، التي نحن نعيش فيها، فنموت وتحيا أبنائنا من بعدها،
وهذا تكذيب صريح منهم للبعث والمعاد.

وقصارى ذلك: ما ثم إلا هذه الدار يموت قوم، ويعيش آخرون، وليس هناك بعث ولا قيامة ﴿وَمَا يَهْلِكُ﴾ إِلَّا الدَّهْرُ؛ أي: وما يفنيها إلا مر الليالي

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والأيام، فمرورها هو المؤثر في هلاك الأنفس، ويضيفون كل حادث إلى الدهر، وأشعارهم ناطقة بذلك، قال:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ
وقد كانت العرب في جاهليتهم، إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، وقد جاء النهي عن سب الدهر، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -: أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: استقرضت عبي فلم يعطني، وسبني عبي، يقول وادهراه وأنا الدهر». قال الشافعي^(١) وأبو عبيدة، وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»: كان العرب في الجاهلية إذا أصيبوا بشدة أو بلاء، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

ثم نعى عليهم مقالهم هذا، الذي لا دليل عليه، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: وما لهؤلاء المشركين، الذين ينفون البعث والحياة بعد الموت ﴿بِذَلِكَ﴾؛ أي: بما ذكر من اقتصار الحياة على ما في الدنيا، وإسناد الحياة والموت إلى الدهر ﴿مِنْ عَلَيْهِمْ﴾ ويقين، أسند إلى عقل، أو نقل، و﴿مِنْ﴾: مزيدة لتأكيد النفي؛ أي: وما لهم علم ويقين بذلك ﴿إِنْ هُمْ﴾؛ أي: ما هم ﴿إِلَّا﴾ قوم ﴿يَظُنُّونَ﴾ بذلك؛ أي: ما هم إلا قوم قصارى أمرهم: الظن والتقليد من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به في الجملة، هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم، وأما المؤمنون فقد

(١) ابن كثير.

أخذوا بالنصوص، وسلكوا طريق اليقين، وتجاوزوا عن برازخ الظن والتخمين، وأثبتوا البعث والحشر والصراط والجنة والنار.

والمعنى: أي وما لهم بقصر الحياة على حياة الدنيا، ونسبة الإهلاك إلى الدهر علم يستند إلى عقل، أو نقل، وقصارى أمرهم: الظن والتخمين، من غير أن يكون لهم ما يتمسكون به من حجة نافذة.

وفي الآية إشارة، إلى أن القول بغير بينة ولا حجة، لا ينبغي أن يعول عليه، وأن اتباع الظن منكر عند الله تعالى.

﴿وَإِذَا نُنَادِيهِمْ﴾؛ أي: على منكري البعث ﴿إِنْتُنَا﴾ الناطقة بالحق، الذي من جملته البعث، حالة كونها ﴿يَنْتَدِي﴾؛ أي: واضحات الدلالة على ما نطقت، أو مبینات له، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ وغير ذلك: ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، وبه استدل أبو حيان، على أن العامل في ﴿إِذَا﴾ ليس جوابها؛ لأن ﴿مَا﴾ النافية لها صدر الكلام، واعتذر عن دخول الفاء في الجواب، بأنها خالفت أدوات الشرط في ذلك، فإنها لا بد من دخول الفاء فيها، نحو: إن تزرنا فما جفوتنا؛ أي: فما تجفونا. و﴿حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي^(١): ما كان متمسكاتهم بشيء من الأشياء يعارضونها به ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾؛ أي: إلا قولهم عناداً واقتراحاً ﴿أَتَمُوتُوا يَتَابَعُونَ﴾؛ أي: أحيوهم، وابعثوهم من قبورهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنا نبعث بعد الموت، وقد سبق في سورة الدخان؛ أي: لا حجة لهم إلا هذا القول الباطل، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة؛ لأنها إنما تطلق على الدليل القطعي. وتسميته^(٢) حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم، أو لتزليل التقابل منزلة التناسب للمبالغة، فأطلق اسم الحجة على ما ليس بحجة، من قبيل:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

(٢) روح البيان.

(١) روح البيان.

أي: سماه حجة، لبيان أنهم لا حجة لهم البتة؛ لأن من كانت حجته هذا، لا يكون له حجة البتة، كما أن من ابتدأ بالضرب الوجيع في أول التلاقي، لا يكون بينهم تحية البتة، ولا يقصد بهذا الأسلوب إلا هذا المعنى، كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة والمراد: نفي أن يكون لهم حجة البتة، وقرأ الجمهور^(١): ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ واسمها ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾، وقرأ الحسن وعمر بن عبيد وزيد بن علي وعبيد بن عمير وابن عامر فيما روى عنه عبد الحميد، وعاصم فيما روى هارون، وحسين عن أبي بكر برفع ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ على أنه اسم ﴿كَانَ﴾.

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ما شاء أن يحييكم في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيها عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد البعث جميعاً أولكم وآخركم، صغيركم وكبيركم، منتهين ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ للجزاء ثم أكد ذلك ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك في هذا البعث والجمع، فإن من قدر على البدء بقدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء، لا محالة لتجزي كل نفس بما كسبت، والأديان جميعاً متضافرة على تحقيقه، وحصوله يوم القيامة، والوعد المصدق بالمعجزات دل على وقوعه حتماً، والإتيان بآبائهم حيث كان، مزاحماً للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه.

وقصارى ما سلف^(٢): أن البعث أمر ممكن، أخبر به الأنبياء الصادقون، والحكمة تقتضي حصوله، والعقل يؤيده فهو واقع لا محالة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني: الكفرة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ تحتم البعث والجزاء بمقتضى وعده؛ أي: ينكرون البعث، ويستبعدون عودة الأجساد بعد موتها، وحين تكون عظماً نخرة، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ۖ﴾^(٣)؛ أي: يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرونه قريباً وما دعاهم إلى ذلك إلا جهلهم، وقصر نظرهم، وهذا^(٣) استدراك

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

على قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأن فيه شائبة ريب ما، وفيه إشارة إلى أن الله يحييكم بالحياة الإنسانية، ثم يميتكم عن صفة الإنسانية الحيوانية، ثم يجمعكم بالحياة الربانية إلى يوم القيامة، وهي النشأة الأخرى لا ريب في هذا عند أهل النظر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون؛ لأنهم أهل النسيان والغفلة.

وَفِي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتُ لَأَهْلِهِ وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورُ وَإِنْ أَمَرَأَ لَمْ يَخَيَّ بِالْعِلْمِ مَيِّتٌ وَلَيْسَ لَهُ حِينَ النُّشُورِ نُشُورُ ﴿وَلِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الملك المطلق، والتصرف الكلي فيهما، وفيما بينهما مخصوص بالله تعالى، وهو تعميم للقدرة بعد تخصيصها؛ أي: إن الله^(١) سبحانه مالك العالم العلوي والسفلي، جار حكمه فيهما دون ما تدعون من دونه من الأوثان والأصنام.

ثم توعّد الكافرين أهل الباطل فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ والعامل في^(٢) ﴿يَوْمٍ﴾ ﴿يَخْشَرُ﴾ الآتي، و﴿يَوْمِذٍ﴾ بدل منه، قال العلامة التفتازاني: مثل هذا بالتأكيد أشبه، وأنى يتأتى أن هذا مقصود بالنسبة دون الأول؟.

قلت: اليوم في البذل بمعنى الوقت، والمعنى وقتئذ إذ تقوم الساعة، ويحشر الموتى فيه، وهو جزء من ﴿يوم تقوم الساعة﴾ فإنه يوم متسع مبدؤه من النفخة الأولى، فهو بدل البعض، والعائد مقدر، ولما كان ظهور خسرهم وقت حشرهم، كان هو المقصود بالنسبة، كذا في «حواشي سعدي المفتي»، ومعنى ﴿يَخْشَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾: يظهر خسرانهم ثمة، يقال: أبطل فلان إذا جاء بالباطل، وقال شيئاً لا حقيقة له، والمراد: الذي يبطلون الحق، ويكذبون بالبعث؛ أي: يخسر المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل.

والمعنى^(٣): أي ويوم تقوم الساعة، ويحشر الناس من قبورهم للعرض، والحساب سيظهر خسران أولئك المنكرين الجاحدين، بما أنزل الله على رسله من

(٣) روح البيان.

(١) روح البيان.

(٤) المراغي.

(٢) المراغي.

الآيات والدلائل، بدخولهم في جهنم وبئس المستقر، وقد جعلت الحياة والصحة والعقل كأنها رؤوس أموال، والتصرف فيها بطلب السعادة الأخروية يجري مجرى تصرف التاجر في ماله طلباً للربح، أما الكفار فقد أتعبوا أنفسهم، وتصرفوا فيها بفعل الآثام، والإشراك بالله، تصرف التاجر الذي أساء في تجارته فوكس فيها، ولم يجد في العاقبة إلا الخسران والخذلان والطرده من رحمة الله، وذلك ما لا يرضاه عاقل لنفسه، يزن الأمور بميزان الحكمة والسداد.

ثم بين حال الأمم في ذلك اليوم، وما تلاقيه من الشدائد، انتظاراً لفصل القضاء، فقال: ﴿وَتَرَى﴾ أيها المخاطب في ذلك اليوم، رؤية عين ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المجموعة، مؤمنينهم وكافرينهم، حال كونها ﴿جَائِيَةً﴾؛ أي: باركة جالسة على الركب من هول ذلك اليوم، غير مطمئنة؛ لأنها خائفة، فلا تطمئن في جلستها عند السؤال والحساب، يقال: جثا إذا جلس على ركبته، أو قام على أطراف أصابعه، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿جَائِيَةً﴾؛ أي: مجتمعة، بمعنى: أن كل أمة لا تختلط بأمة أخرى، يقال: جثوث الإبل وجثيتها، جمعتها، والجثوة بالضم: الشيء المجتمع.

فإن قيل^(١): الجثو على الركب إنما يليق بالكافرين، فإن المؤمنين لا خوف عليهم يوم القيامة.

فالجواب: أن الأمن قد يشارك المبطل في مثل هذا، إلى أن يظهر كونه محقاً مستحقاً للأمن.

وقرىء^(٢): ﴿جَازِيَةً﴾ بالذال المعجمة، والجذو أشد استيفازاً من الجثو؛ لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ كرر ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾؛ لأنه موضع الإغلاظ والوعيد ﴿تَدْعَىٰ إِلَيْنَا﴾؛ أي: إلى صحيفة أعمالها، فالإضافة مجازية للملابسة؛ لأن أعمالهم مثبتة فيه، وقيل: إلى كتابها الذي أنزل عليها لتعبد ربها بهديه، وكتابها الذي نسخته الحفظة من أعمالها، ليطبق أحدهما

(٢) البحر المحيط.

(١) روح البيان.

على الآخر، فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا، ومن خالفه هلك، وكان من الأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٤). ونحو الآية قوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وفيه إشارة^(١) إلى عجز العباد، وأن لا حول ولا قوة لهم فيما كتب الله لهم في الأزل، وأنهم لا يصيهم في الدنيا والآخرة إلا ما كتب الله لهم على مقتضى أعيانهم الثابتة، فلا يجرون في الأفعال إلا على القضاء، وقرأ يعقوب ﴿كل أمة تدعى﴾ بنصب كل أمة على البدل، بدل النكرة الموصوفة من النكرة، وأفرد كتابها اكتفاءً باسم الجنس لقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾.

ثم ذكر أنهم يندرون وييשרون بما سيبني عليه حكم القضاء ﴿الْيَوْمَ﴾ معمول لقوله: ﴿تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ويقال لهم حال دعائهم إلى كتابهم: اليوم تجازون بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا خيرها وشرها، فمن كان عمله الإيمان والطاعة، جزاه الله بالجنة، ومن كان عمله الشرك والعصيان، جزاه بالنار كما قال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة جاء الإيمان والشرك، فيجثيان بين يدي الرب تعالى، فيقول الله للإيمان، انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك انطلق أنت وأهلك إلى النار». وقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ إلخ، من تمام ما يقال لهم حينئذ، ولما كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله، أضيف إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره، وإلا فالظاهر: أن يضاف إلى الأمة بأن يقال: هذا كتابها كما فيما قبلها. وعبارة «فتح الرحمن» هنا: فإن قلت: كيف أضاف الكتاب إلى الأمة ثم أضافه إليه تعالى في قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾؟

قلت: الإضافة تحصل بأدنى ملابسة، فأضافه إلى الأمة لكون أعمالهم مثبتة فيه، وأضاف إليه تعالى لكونه مالكة، وأمر ملائكته بكتابته؛ أي: هذا الكتاب الذي تدعون إليه كتابنا؛ أي: كتاب حفظتنا الذي كتبته عليكم في الدنيا، ودونت

(١) روح البيان.

فيه أعمالكم.

﴿يَطِئُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يشهد عليكم ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق من غير زيادة، ولا نقص، والجملة خبر آخر لهذا، و﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿يَطِئُ﴾ فهو صورة تطابق ما فعلتموه حذو القذة بالقذة، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ إلخ، تعليل لنطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها؛ أي: إنا كنا نأمر الحفظة بنسخ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وكتابته في صحائف أعمالكم، وإثباتها عليكم حسنة كانت أو سيئة، صغيرة كانت أو كبيرة، أول فأول، فهي وفق ما عملتم بالدقة والضبط؛ لأن السنين للطلب، وفي هذا^(١) إجابة عما يخطر بالبال من سؤال فيقال: ومن يحفظ أعمالنا على كثرتها مع طول المدة، وبعد العهد، فأجيبوا بهذا الجواب.

قال الواحدي^(٢): وأكثر المفسرين، على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه قالوا: لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل. وقيل: المعنى نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون، وقيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعملهم العبد، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات، وتركوا المباحات، وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه، أمر - عز وجل - أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب، وسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب.

ثم فصل حال الفريقين فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من الأمم، وصدقوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: وعملوا الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي﴾ محل ﴿رَحْمَتِهِ﴾ وهو الجنة؛ أي: فأما الذين آمنوا بقلوبهم، وعملت جوارحهم صالح الأعمال التي أمر بها الدين، فيكافئهم ربهم على ما عملوا، ويدخلهم جنات النعيم، وقد جاء في الحديث الصحيح: «أن الله تعالى قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء»

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من إدخالهم في رحمته تعالى ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: الظاهر كونه فوزاً لا فوز وراءه.

يقول الفقير: وأما الفوز^(١) العظيم فهو دخول جنة القلب، ولقاؤه تعالى، ولكن لما كان هذا الفوز غير ظاهر بالنسبة إلى العامة، وكان الظاهر عندهم الفوز بالجنة، قيل هو الفوز المبين، وإن اشتمل الفوز المبين على الفوز العظيم؛ لأن الجنة محل أنواع الرحمة؛ أي: هذا المذكور هو الظفر بالبغية التي كانوا يطلبونها، والغاية التي كانوا يسعون في الدنيا لبلوغها، وهو فوز لا فوز بعده ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله وعملوا السيئات، فيقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنَّا يَٰيُنَى﴾ المنزلة ﴿تَتْلُو﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بواسطة رسلي، والجملة الاستفهامية مقول للقول المحذوف كما قدرنا، والهمزة فيه للاستفهام التقريعي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم تكن تأتيكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم، فحذف المعطوف عليه ثقة بدلالة القرينة عليه ﴿فَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ أي: تكبرتم عن الإيمان ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾؛ أي: قوماً عاداتهم الإجرام والإشراك.

أي: وأما الذين جحدوا وحدانية الله تعالى، فيقال لهم تأنيباً وتوبيخاً: ألم تكن تأتيكم رسلي فتتلو عليكم آيات كتبي فتتكبرون عن الإيمان، ولا عجب، فديدنكم الإجرام وارتكاب الآثام، والكفر بالله، لا تصدقون بميعاد، ولا تؤمنون بشواب ولا عقاب، والمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصي ﴿و﴾ كنتم ﴿إذا قيل﴾ لكم؛ أي: إذا قال لكم المؤمنون: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: إن ما وعده من الأمور الآتية فهو بمعنى الموعود ﴿حَقٌّ﴾ واقع لا محالة ﴿وَالسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة التي هي أشهر ما وعده ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك في وقوعها لكونها مما أخبر به الصادق المصدوق، ولقيام الشواهد على وجودها ﴿قُلْتُمْ﴾ من غاية عتوكم يا منكري البعث من الكفار والزنادقة ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾؛ أي: أي شيء

(١) روح البيان.

هي، استغراباً لها؛ أي: أنكرتموها، وقلتم ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أي: ما نعلم ذلك إلا حدساً وتوهمًا. وأصله^(١): نظن ظناً، فأدخل حرف النفي والاستثناء لإثبات الظن، ونفي ما عداه، كأنه قال: ما نحن إلا نظن ظناً، أو لنفي ظنهم فيما سوى ذلك مبالغاً، ثم أكده بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾؛ أي: أنها كائنة.

فإن قلت^(٢): إن قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يدل على أنهم قاطعون بنفي البعث، وقولهم: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ يدل على أنهم شاكون في إمكانه ووقوعه، وبين الآيتين معارضة.

قلت: يجمع بينهما بأن المجرمين كانوا فرقتين في أمر البعث، فرقة جازمة بنفيه، وهم المذكورون في قوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وفرقة كانت تشك وتتحير فيه، وهم المذكورون في هذه الآية. اهـ. «زاده» بتصرف.

وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد^(٣): ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْ وَعَدُ اللَّهِ﴾ بفتح الهمزة، وذلك على لغة سليم، والجمهور قرؤوا بكسرها، وقرأ الجمهور ﴿وَالسَّاعَةَ﴾ بالرفع على الابتداء، وقرأ حمزة بالنصب عطفاً على ﴿وَعَدُ اللَّهِ﴾، وهي مروية عن الأعمش وأبي عمرو وعيسى وأبي حيوة، والعيسي والمفضل.

والمعنى^(٤): أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار من طريق الرسول ﷺ والمؤمنين: إن وعد الله بالبعث والحساب، وبجميع الأمور المستقبلية في الآخرة حق ثابت، وواقع لا محالة، والقيامة لا شك في وقوعها فآمنوا بذلك، واعملوا لما ينجيكم من العذاب قلتم: لا نعرف ما القيامة إن نتوهم وقوعها توهماً مرجوحاً، أو ظناً لا يقين فيه ولا علم، وما نحن بمتحققين، ولا موقنين أن القيامة آتية؛ أي: كأنهم نفوا كل الظنون إلا الذي لا ثبوت علم فيه، وأكدوا هذا المعنى بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾.

ثم بعد هذا التوبيخ والنقاش، ذكر الله تعالى ما يفاخرون به من العذاب

(١) البيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) التفسير المنير.

(٤) زاده.

فقال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾؛ أي: ظهر للكفار في الآخرة ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: أعمالهم السيئة، على ما هي عليه من الصورة المنكرة الهائلة، وعاینوا وخامة عاقبتها: والمراد^(١) الشرك والمعاصي، التي كانت تميل إليها الطبائع والنفوس، وتشتبهها وتستحسنها، ثم تظهر يوم القيامة في الصور القبيحة، قالوا فالحرام على صورة الخنزير، والزكاة التي لم تؤد على صورة الشجاع الأقرع، والعلم بلا عمل على صورة الشجرة اليابسة، والرجوع عن الحق إلى الباطل في صورة تحول الوجه إلى القفا، إلى غير ذلك من الصور المتنوعة، بحسب الأعمال المختلفة، ولكن ليس لبعض هذه الصور أصول يستند إليه، فكل ما أثمر لهم في الآخرة، إنما هو من زرع زرعه في مزرعة الدنيا بأعمالهم السيئة، ويجوز أن يراد ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ جزاؤها، فإن جزاء السيئة سيئة مثلها، فسميت باسم سببها، وهذا أولى ﴿وَمَعَاقٍ﴾؛ أي: أحاط ﴿بِهِمْ﴾ ونزل عليهم ﴿مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ في الدنيا من الجزاء والعقاب ﴿وَقِيلَ﴾ من جانب الحق سبحانه ﴿الْيَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿نَسْكَرُكُمُ﴾؛ أي: نترككم في العذاب ترك المنسي، ففي ضمير الخطاب استعارة بالكناية، بتشبيههم بالأمر المنسي في تركهم في العذاب، وعدم المبالاة بهم، وقرينتها النسيان ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؛ أي: كما تركتم عدته ولم تبالوا بها، وهي الإيمان والعمل الصالح، وإضافة اللقاء إلى اليوم، من إضافة المصدر إلى ظرفه؛ أي: نسيتم لقاء الله، وجزاءه في يومكم هذا، فأجرى اليوم مجرى المفعول به، وجعل ملقباً. ففي هذه الإضافة توسع، لما فيه من إضافة الشيء إلى ما هو واقع فيه، وفيه إشارة إلى أنهم زرعوا في مزرعة الدنيا بذر النسيان، فأثمرهم في الآخرة ثمرة النسيان ﴿وَمَا أَرْثَكُمُ﴾؛ أي: مستقركم ومسكنكم الذي تأوون إليه ﴿الْثَّأْرُ﴾؛ أي: نار جهنم؛ لأنها مأوى من نسينا، كما أن الجنة تأوي من ذكرنا ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونكم، فيمنعون عنكم العذاب؛ أي: ما لأحد منكم ناصر واحد، يخلصكم منها.

(١) روح البيان.

ومجمل معنى الآيتين^(١): أي وظهرت لهم قبائح أعمالهم التي عملوها في الدنيا، حين قرؤوا كتب أعمالهم، التي دونتها الحفظة، كي لا يكون لهم حجة إذا نزل بهم العذاب، ثم جُوزوا بما كانوا يهزؤون به في الدنيا، ويقولون: ما هو إلا أوهام وأباطيل، وخرافات قد دونها المبطلون.

ثم ذكر ما يزيد في تعذيبهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فقال: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْكَرُ﴾ إلخ؛ أي: وقيل لهم تغليظاً في العقوبة وإمعاناً في التهكم، والسخرية: اليوم نترككم في العذاب، كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا، وليس لكم مستنقذ ينقذكم منه، ولا مستنصر يستنصر لكم ممن يعذبكم.

والخلاصة: أنه تعالى جمع لهم ثلاثة ألوان من العذاب: قطع الرحمة عنهم، وجعل مأواهم النار، وعدم وجود الأنصار والأعوان، من قبل أنهم أتوا بثلاثة ضروب من الإجرام: الإصرار على إنكار الدين الحق، والاستهزاء به، والاستغراق في حب الدنيا، وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب ﴿بِأَنكُمُ﴾؛ أي: بسبب أنكم ﴿أَتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: مهزوءاً بها، ولم ترفعوا لها رأساً بالتفكر والقبول، ﴿وَعَزَّيْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ حين قلتم: لا بعث ولا حساب، فحسبتم أن لا حياة بعدها ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: من النار، والالتفات^(٢) فيه من الخطاب إلى الغيبة، للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، استهانة بهم، أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيبة النار. وقرأ الجمهور: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن وابن وثاب وحمزة والكسائي مبنياً للفاعل ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا هم يطلب منهم العتبي، والرجوع إلى طاعة الله سبحانه ليرضوه؛ أي: ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم؛ أي: يرضوه بالطاعة لفوات أوانه.

والمعنى^(٣): أي هذا الذي حل بكم من عذاب الله، بسبب أنكم في الدنيا

(٣) المراغي.

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

اتخذتم حجج الله، وآيات كتابه، التي أنزلها على رسوله، سخرية تسخرون منها، وخذعتكم زينة هذه الحياة، فأثرتموها على العمل لما ينجيكم من عذابه، ظنا منكم أنه لا حياة بعد هذه الحياة، ولا بعث ولا حساب، فاليوم لا يخرجون من النار ولا هم يردون إلى الدنيا ليتوبوا، ويراجعوا الإنابة مما عوقبوا عليه.

والخلاصة: أنهم لا يخرجون، ولا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربهم عليهم؛ أي: لا يُطلب إرضاءه لفوات أوانه.

وبعد أن ذكر ماحوته السورة من آلائه تعالى، وإحسانه، وما اشتملت عليه من الدلائل التي في الآفاق والأنفس، وما انطوت عليه من البراهين الساطعة على المبدأ، والمعاد، أثنى على نفسه بما هو له أهل، فقال: ﴿قُلُّوْ﴾ سبحانه خاصة. ﴿الْحَمْدُ﴾؛ أي: جميع صنوف الحمد، وأنواعه، فلا يستحق لغيره؛ لأنه الفاعل المختار ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾؛ أي: مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع، وخالقهما، و﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: مالك جميع المخلوقات، علويها وسفليها من الأرواح، والأجسام، والذوات، والصفات، فلا يستحق الحمد أحد سواه تعالى، وتكرير^(١) الرب للتأكيد، والإيذان بأن ربيته تعالى لكل منها، بطريق الأصالة.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿رَبِّ﴾ في المواضع الثلاثة، بالجر على الصفة للاسم الشريف، وقرأ مجاهد وحמיד وابن محيصن: بالرفع في الثلاثة، على تقدير مبتدأ؛ أي: هو رب السموات إلخ، ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿الْكِبْرِيَاءِ﴾؛ أي: العظمة والقدرة والسلطان والجلال والعز والقهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وفي سائر المخلوقات، وخص السموات والأرض بالذكر لظهور آثارها، وأحكامها فيهما، وإظهارهما في مقام الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل ما قضى وقدر فاحمدوه؛ أي: لأن له الحمد، وكبروه؛ أي: لأن له الكبرياء، وأطيعوه؛ أي:

(٢) الشوكاني.

(١) روح البيان.

لأنه غالب على كل شيء، وفي كل صنعة حكمة جليلة.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري». أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري - رضي الله عنهما -، وقال بعضهم: وصف الحق سبحانه نفسه بالإزار والرداء دون القميص والسرويل؛ لأن الأولين غير مخيطين وإن كان منسوجين فهما إلى البساطة أقرب، والثانيين مخيطان ففيهما تركيب، ولهذا السر حرم المخيط على الرجل في الإحرام دون المرأة؛ لأن الرجل وإن كان خلق من مركب فهو إلى البساطة أقرب، وأما المرأة فقد خلقت من مركب محقق هو الرجل، فبعدت عن البساط، والمخيط تركيب، فقليل للمرأة: ابقِ على أصلك لا تلحقِ الرجل، وقيل للرجل: ارتفع عن تركيبك، انتهى.

ومعنى الآية: أي فليحمد على أياديه على خلقه، فإياه فاحمدوا، وله فاعبدوا، فكل ما بكم من نعمة فهو مصدرها، دون ما تعبدون من وثن أو صنم، وهو مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع، ومالك جميع ما فيهن، وله الجلال، والعظمة، والسلطان في العالم العلوي، والعالم السفلي، فكل شيء خاضع له، فقير إليه، دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وهو العزيز الذي لا يمانع، ولا يغالب، الحكيم في أفعاله وأقواله، تقدس ربنا جلت قدرته، وتعظمت آلاؤه.

وقصارى ذلك: له الحمد فاحمدوه، وله الكبرياء فعظموه، وهو العزيز الحكيم فأطيعوه.

الإعراب

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٦).

﴿أَمْ﴾: منقطعة، بمعنى: بل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري. ﴿حَسِبَ﴾

الَّذِينَ: فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لبيان تغاير حالي المسيئين والمحسنين، ﴿أَجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿تَجَمَّلُهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول أول. ﴿كَالَّذِينَ﴾: في موضع المفعول الثاني، وجملة ﴿جعل﴾ مع أن المصدرية في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي حسب، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾ صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ﴿تَجَمَّلُهُمْ﴾ فاعل بـ ﴿سَوَاءٌ﴾، ﴿وَمَمَاتِهِمْ﴾ معطوف عليه، والمعنى: أم حسب الذين اجترحوا السيئات، أن نجعلهم مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حال كونهم مستوين وإياهم في حياتهم ومماتهم؛ أي: مماثلين إياهم في الحالين، والاستفهام بمعنى: الإنكار والنفي، وبالرفع: ﴿سَوَاءٌ﴾ خبر مقدم، و﴿تَجَمَّلُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل نصب، حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور؛ أي: أم حسب الكفار أن نجعلهم مثل المؤمنين، حال كونهم مستوين في حياتهم ومماتهم، ليسوا كذلك، بل هم مفترقون أي افتراق في الحالين، وتكون هذه الحال مبينة لما انبهم في المثلية، الدال عليها الكاف التي هي في موضع المفعول الثاني. ﴿سَاءَ﴾ فعل ماض لإنشاء الذم. ﴿مَا﴾ مصدرية، وجملة ﴿يَحْكُمُونَ﴾: مع ﴿مَا﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿سَاءَ﴾ تقديره: ساء حكمهم هذا، أو ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة في محل نصب على التمييز، وفاعل ﴿سَاءَ﴾ مستتر تقديره: هو، وجملة ﴿يَحْكُمُونَ﴾ صفة لـ ﴿مَا﴾، والتقدير: ساء هو شيئاً حكموه، والمخصوص بالذم حكمهم هذا.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣٧).

﴿وَخَلَقَ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿خلق الله السماوات﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَالْأَرْضَ﴾: معطوف على السموات، ﴿بِالْحَقِّ﴾: إما حال من الفاعل، أو من المفعول، أو صفة لمصدر محذوف، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافية بيانياً، مسوقاً لبيان دليل نفي الاستواء بين الفريقين. ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ (الواو): عاطفة ما

بعدها على تعليل محذوف، تقديره: وخلق الله السموات والأرض بالحق، ليدل على قدرته، ولتجزى كل نفس، واللام: حرف جر وتعليل، ﴿تَجْزَى﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ نائب فاعل. ﴿يَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَجْزَى﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: ولجزاء كل نفس بما كسبت، الجار والمجرور: معطوف على الجار والمجرور في قوله: ليدل، على كونه متعلقاً بـ﴿خلق﴾ وجملة ﴿كَسَبَتْ﴾ صلة لما المصدرية أو الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما كسبته. ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الْوَاوِ﴾ حالية، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَظْلَمُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من نائب فاعل ﴿تَجْزَى﴾؛ لأنه بمعنى: ليجزى كل الخلائق بما كسبوا وهم لا يظلمون.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣).

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾: الهمزة للاستفهام التعجيبى داخل على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف والتقدير: أنظرت يا محمد إلى حال أسير الهوى، فرأيت من اتخذ إلهه هواه، كما مر في مبحث التفسير، والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿رَأَيْتَ﴾: فعل وفاعل، و﴿مَنِ﴾ مفعول ﴿رَأَيْتَ﴾ الأول، والثاني محذوف، تقديره: مهتدياً، ﴿اتَّخَذَ﴾ فعل ماضٍ، وفاعل مستتر صلة ﴿مَنِ﴾ الموصولة، ﴿إِلَهُهُ﴾: مفعول أول لـ﴿اتَّخَذَ﴾، ﴿هَوًى﴾: مفعوله الثاني، أو بالعكس، ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، معطوف على ﴿اتَّخَذَ﴾، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: حال من المفعول، وهو أولى من جعله حالاً من الفاعل، والمعنى: أضله الله وهو عالم بالحق؛ لأن المبالغة فيه أشد، والتشنيع به أكثر. ﴿وَخَتَمَ﴾ فعل، وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على أضل، ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ متعلق بـ﴿ختم﴾، ﴿وَقَلْبِهِ﴾ معطوف على ﴿سَمْعِهِ﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾ فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿ختم﴾، ﴿عَلَىٰ بَصَرِهِ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾، ﴿غِشًوَةً﴾ مفعول أول لـ﴿جعل﴾، ﴿فَمَنْ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يَهْدِيهِ﴾ خبره، ﴿مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ جار

ومجرور متعلق بـ ﴿يَهْدِيهِ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على مفعول. ﴿رَأَيْتَ﴾،
﴿أَفَلَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخله على محذوف، والفاء: عاطفة على
ذلك المحذوف، والتقدير: أتصرون على الغي فلا تذكرون، والجملة المحذوفة
مستأنفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَذْكُرُونَ﴾: فعل مضارع، حذفت إحدى تائيه مرفوع
بشبات النون، والواو فاعل، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ
إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا نُنْفِثْنَا بَنِينَ نَبَتْ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بَنَاءَنَا إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُعْمِدُكُمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة،
مسوقة لتفنيد مزاعمهم؛ إذ كانوا يزعمون أن هلاك الأنفس منوط بمرور الأيام
والليالي. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿هِيَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداء استثناء مفرغ. ﴿حَيَاتُنَا﴾:
خبر، ﴿الدُّنْيَا﴾ صفة للحياة، والجملة الاسمية في محل نصب مقول ﴿قالوا﴾،
﴿نَمُوتُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود عليهم، والجملة مستأنفة، مسوقة
لإيراد المزيد من عقائدهم الفاسدة، وجملة: ﴿وَنَحْيَا﴾ معطوفة على ﴿نَمُوتُ﴾،
﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يُهْلِكُنَا﴾: فعل ومفعول به. ﴿إِلَّا﴾ أداة
حصر. ﴿الدَّهْرُ﴾ فاعل، والجملة في محل نصب حال من فاعل ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾،
﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿بِذَلِكَ﴾ متعلق
بـ ﴿عِلْمٍ﴾ زائدة. ﴿عِلْمٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل نصب حال من
فاعل ﴿قالوا﴾، ﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، وجملة
﴿يَظُنُّونَ﴾: خبر المبتدأ. والجملة مستأنفة، ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِذَا﴾
ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿نُنْفِثُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق
به. ﴿إِنْفِثْنَا﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على
كونها فعل شرط لها، ﴿نَبَتْ﴾ حال من ﴿إِنْفِثْنَا﴾، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿كَانَ﴾ فعل
ماض ناقص، ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، وجملة ﴿أَنْ قَالُوا﴾
قالوا مع أن المصدرية في تأويل مصدر، مرفوع على كونه اسم كان مؤخر تقديره:

ما كان حجتهم إلا قولهم اثبتوا بآبائنا، وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا معطوفة على جملة قالوا ﴿اَثْبُتُوا﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿يَتَابَعَانَا﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مقول قالوا: ﴿إِنْ﴾ حرف شرط، ﴿كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وجوابها معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم صادقين فاثبتوا بآبائنا، وجملة الشرط مقول ﴿قالوا﴾، ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُخَيِّكُمُ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿ثُمَّ يُبَيِّنْكُمْ﴾: معطوف على ﴿يُخَيِّكُمُ﴾، ﴿ثُمَّ يَمُنُّكُمْ﴾: معطوف على ﴿يُبَيِّنْكُمْ﴾. ﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَمُنُّكُمْ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿رَبِّ﴾ اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، ﴿وَلَكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لَكِنْ﴾: حرف نصب، ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ اسمها وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبرها، والجملة الاستدراكية حال من ضمير ﴿فِيهِ﴾؛ أي: حال كونهم لا يعلمون مجيئه، ولا يعتقدون.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُطْلُوكَ ۝٧٧ وَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٨ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطَلِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٩﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَيَوْمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿يُحْسِرُ﴾، وجملة ﴿تَقُومُ السَّاعَةُ﴾: مضاف إليه، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف أضيف إلى مثله، وهو بدل من الظرف قبله، بدل بعض من كل، كما مر في مبحث التفسير، ﴿يُحْسِرُ الْمُطْلُوكَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿وَرَىٰ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ترى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر معطوف على ﴿يُحْسِرُ﴾، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾: مفعول به لـ﴿ترى﴾، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، ﴿جَائِئَةً﴾ حال من ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾، ويحتمل أن تكون ﴿ترى﴾ علمية، و﴿جَائِئَةً﴾: مفعولها الثاني، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾: مبتدأ، ﴿تُدْعَىٰ﴾ فعل مضارع مغير

الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾، والجمله خبر المبتدأ. ﴿إِنَّ كِتَابَهَا﴾: متعلق بـ﴿تُدْعَى﴾، والجمله الاسمية في محل نصب، حال ثانية من ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾، ﴿الْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يُجْزَوْنَ﴾، ﴿يُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، والواو نائب فاعل، وهو المفعول الأول. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول ثانٍ لـ﴿يُجْزَوْنَ﴾، والجمله الفعلية في محل نصب مقول للقول المحذوف؛ أي: ويقال لهم توبيخاً لهم: اليوم تجزون، إلخ. ﴿كُنْتُ﴾: فعل ناقص واسمه، وجمله ﴿تَقُولُونَ﴾ خبره، وجمله ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجمله في محل نصب مقول لذلك القول المحذوف، ﴿يَنْطِقُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر، والجمله في محل نصب حال من ﴿كِتَابُنَا﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَنْطِقُ﴾، ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: نطقاً متلبساً بالحق، أو حال من فاعل ﴿يَنْطِقُ﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، وجمله ﴿تَسْتَنَسِخُ﴾ خبره، وجمله ﴿إِنْ﴾ في محل نصب مقول لذلك القول المحذوف، على كونها معللة لما قبلها، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل نصب مفعول ﴿تَسْتَنَسِخُ﴾. ﴿كُنْتُ﴾: فعل ناقص واسمه، وجمله ﴿تَقُولُونَ﴾ خبره، وجمله ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رَحْمَتُ رَبِّهِمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما يقال لهم يوم القيامة، وأردت بيان حال الفريقين.. فأقول لك. ﴿أما﴾: حرف شرط. ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجمله ﴿ءَامَنُوا﴾ صلته، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾. ﴿فَيَدْخُلُهُمْ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿يدخلهم﴾: فعل مضارع ومفعول به، ﴿رَبِّهِمْ﴾: فاعل، ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾: متعلق بـ﴿يدخلهم﴾، والجمله الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجمله الاسمية جواب ﴿أما﴾، وجمله ﴿أما﴾ في محل نصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجمله إذا المقدرة مستأنفة، ﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل،

﴿الْقَوْلُ﴾: خبر، ﴿الْمَبْنِيَّ﴾: صفة لـ ﴿الْقَوْلُ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ عَلَيْنِي تَنْتَلِ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾ (٦٦).

﴿وَأَمَّا﴾ (الواو) عاطفة، ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط، ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: فيقال لهم: أفلم تكن آياتي إلخ، والجملة الإسمية جواب ﴿أَمَّا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ معطوفة على جملة ﴿أَمَّا﴾ الأولى، ﴿أَفَلَمْ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري، داخله على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم تأتكم رسلي، فلم تكن آياتي تنلى عليكم، والجملة المحذوفة في محل نصب، مقول لذلك القول المحذوف. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تَكُنْ عَلَيْنِي﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، ﴿تَنْتَلِ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿عَلَيْنِي﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿تَنْتَلِ﴾، وجملة ﴿تَنْتَلِ﴾: في محل نصب خبر ﴿تَكُنْ﴾، وجملة ﴿لَمْ تَكُنْ﴾ معطوف على تلك المحذوفة ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾: الفاء عاطفة، ﴿استكبرتم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لَمْ تَكُنْ﴾. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على ﴿استكبرتم﴾، ﴿تُجْرِمُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ (٣٢) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٣).

﴿وَإِذَا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ محكي لـ ﴿قِيلَ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفص بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾، ﴿وَالسَّاعَةُ﴾: (الواو): عاطفة ﴿السَّاعَةُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: خبره، والجملة الابتدائية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾، وقرئ ﴿والساعة﴾ بالنصب عطفاً على ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾، ﴿قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿نَدْرِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة في محل نصب مقول ﴿قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾.

﴿مَا﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿السَّاعَةُ﴾: خبرها، والجملة الاستفهامية سدت مسد مفعولي ﴿نَدْرِي﴾، علقت عنها باسم الاستفهام، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿نُظَنُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ظَنَّا﴾: مفعول مطلق، وظن هنا بمعنى الوهم، لا يتعدى إلى مفعولين، بل إلى واحد محذوف، تقديره: إن نظنه إلا ظنا، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْتُمْ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الوَإِ﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: حجازية، ﴿نَحْنُ﴾: اسمها، ﴿يُسْتَفْتَيْنِ﴾: خبرها، والباء زائدة، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿وَبَدَأَ﴾: ﴿الوَإِ﴾: استئنافية، ﴿بَدَأَ﴾: فعل ماضٍ، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، ﴿سَيِّئَاتُ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿سَيِّئَاتُ﴾: مضاف ﴿مَا﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿عَمِلُوا﴾ صلة الموصول، ﴿وَحَاقَ﴾: ﴿الوَإِ﴾: عاطفة، ﴿حَاقَ﴾: فعل ماضٍ ﴿بِهِمْ﴾ متعلق به، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَدَأَ﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسُكُكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾

﴿٢٢﴾

﴿وَقِيلَ﴾: ﴿الوَإِ﴾: عاطفة، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿الْيَوْمَ نَنسُكُكُمْ﴾: إلخ نائب فاعل محكي لـ ﴿قِيلَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَدَأَ﴾، ﴿الْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿نَنسُكُكُمْ﴾، ﴿نَنسُكُكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾، ﴿كَمَا﴾: الكاف، حرف جر ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿نَسَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾: مفعول به، ﴿هَذَا﴾ بدل من ﴿يَوْمِكُمْ﴾ أو صفة له، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾: مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: اليوم نساكم نسيانا مثل نسيانكم. ﴿وَمَاْوَاكُمُ﴾: ﴿الوَإِ﴾: عاطفة ﴿مَاْوَاكُمُ﴾: النار: مبتدأ وخبر، ويجوز العكس، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَنسُكُكُمْ﴾ على كونها نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الوَإِ﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُمْ﴾:

خبر مقدم، ﴿يَنْ﴾: زائدة، ﴿تَصِيرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على ﴿مَا﴾ قبلها.

﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٢٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾.

﴿ذَلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنكُمْ﴾ الباء: حرف جر وسبب ﴿أَنكُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: مفعول أول. ﴿هُزُوءًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أَنْ﴾ وجملة ﴿أَنْ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب اتخاذكم آيات الله هزواً، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿وَعَرَّكُمْ الْحَيَوةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، معطوف على ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾، ﴿الدُّنْيَا﴾ صفة لـ ﴿الْحَيَوةُ﴾، ﴿فَالْيَوْمَ﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حالكم في الدنيا، وأردتم بيان حالكم اليوم.. فأقول لكم: ﴿اليوم﴾: ظرف متعلق بـ ﴿يُخْرِجُونَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُخْرِجُونَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ ﴿يُخْرِجُونَ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ وجملة ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من الفعل المغير ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها، ﴿فَلِلَّهِ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿الْحَمْدُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ بدل، أو نعت للجلالة، ﴿وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾: معطوف عليه، وكذا ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: معطوف عليه بعاطف مقدر، ﴿وَلَهُ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم. ﴿الْكِبَرِيَّةُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ حال من ﴿الْكِبَرِيَّةُ﴾، أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف قبله، واختار بعضهم أن يتعلق بنفس الكبرياء؛ لأنه مصدر، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ معطوفة على ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: خبران له، والجملة معطوفة على ما قبلها، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ والاجترأح: الاكتساب، ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدي. قال في «المفردات»: سمي الصائد من الكلاب والفهود، والطير جارحة، وجمعها جوارح إما لأنها تجرح، وإما لأنها تكسب، وسميت الأعضاء الكاسبة جوارح تشبيهاً بها بأحد هذين، انتهى. والمراد بالسيئات: سيئات الكفر، والإشراك بالله سبحانه وتعالى. ﴿أَنْ يَجْعَلَهُمْ﴾؛ أي: أن نصيرهم في الحكم. ﴿يَحْيِيَهُمْ﴾ الأصل فيه: محييهم بوزن مفعل، قلبت الياء الأخيرة ألفاً لتحركها وفتح ما قبلها، وقوله: ﴿مَمَاتَهُمْ﴾ أصله: مموتهم بوزن مفعل أيضاً، نقلت حركة الواو إلى الميم، ثم أبدلت الواو ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال، وقوله: ﴿سَاءَ﴾ أصله: سوأ بوزن فعل قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. ﴿نَمُوتُ﴾ أصله: نموت بوزن نفع، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الميم فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد. ﴿وَنَحْيَا﴾ أصله: نحوي قلبت الياء الثانية ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿وَمَا يُلْكَا إِلَّا الْدَهْرُ﴾ وهو في الأصل: مدة بقاء العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ثم يعبر به عن كل مدة طويلة، وهو خلاف الزمان، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة، قال في «القاموس»: الدهر: الزمان الطويل والأبد الممدود، ودهرهم أمر كمنع إذا نزل بهم مكروه، فهم مدهور بهم ومدهورون، اهـ.

﴿يَظُنُّونَ﴾ أصله: يظنون بوزن يفعلون، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء فسكنت، فأدغمت في النون الثانية ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمُ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ الأصل فيه: يموتكم بوزن يفعل نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مد.

﴿جَائِيَةً﴾؛ أي: باركة على الركب مستوفزة، وهي هيئة المذنب الخائف من مكروه، يقال: جثا على ركبتيه يجثو، ويجثي جثواً وجثياً، على فعول فيهما إذا جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه، وفيه إعلال بالقلب أصله: جاثوة من الجثو قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة. ﴿تُدْعَى﴾ أصله: تدعو قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿الْيَوْمَ يُجْزَوْنَ﴾ أصله: تجزيون قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿إِلَّا كَتَبَهَا﴾؛ أي: إلى صحيفة أعمالها التي كتبتها الحفظة، لتحاسب على ما قيد فيها. ﴿يَطُغُّ﴾؛ أي: يشهد. ﴿تَسْتَنْسِخُ﴾؛ أي: تأمر الملائكة بأن تكتب وتنسخ، والنسخ في الأصل: هو النقل من أصل كما ينسخ كتاب من كتاب، لكن قد يستعمل للكتابة ابتداءً.

﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ وقال في «التعريفات»: الظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين، والشك، انتهى. واليقين: اتقان العلم بنفي الشك والشبهة عنه، نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يوصف به علم القديم، ولا العلوم الضرورية إذ لا يقال: تيقنت أن السماء فوقي.

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ بدا فيه إعلال بالقلب، أصله: بدو قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿تَسْتَنْكُرُ﴾ أصله: ننسيكم بوزن نفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: لقاى أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿وَمَا أُنْكُرُ﴾ أصله: مأويكم بوزن مفعل اسم مكان، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿أَتُخَذْتُمْ آيَاتِي اللَّهُ﴾؛ أي: حجج الله. ﴿وَعَرَّكُورُ﴾؛ أي: خدعتكم. ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: زينتها. ﴿يُسْتَفْتُونَ﴾؛ أي: ولا هم يطلب منهم العتبي، والرجوع إلى الله تعالى بالتوبة من ذنوبهم، والإنابة إلى ربهم لفوات أوانه وزمانه، وهو من باب استفعل السداسي، والسين والتاء فيه للطلب، يقال: استعتبت فاعتبني؛ أي: استرضيته قبل مني عذري، والمعنى: ولا هم يطلب منهم أن يعتبوا ربهم؛ أي: أن يرضوه بالطاعة لفوات أوانه، وهو في الدنيا. ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ والكبرياء: العظمة والملك والجلال والعز والسلطان وهي صفة أثرها تنزهه تعالى عن كل ما لا يليق به.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضرورياً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع:

فمنها: التجوز في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ فإنه بمعنى: أخبرني، ففيه تجوزان

إطلاق الرؤية، وإرادة الإخبار على طريق إطلاق اسم السبب وإرادة المسبب؛ لأن الرؤية سبب للإخبار، وجعل الاستفهام، بمعنى: الأمر، بجامع مطلق الطلب، اهـ «زاده».

ومنها: الاستعارة التمثيلية، أو التشبيه البليغ، في قوله: ﴿مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ إذا قلنا حذف منه أداة التشبيه والأصل: كإلهه في طاعته واتباعه.

ومنها: تنكير غشاوة في قوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ لإفادة التنويع، أو للتعظيم.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾.

ومنها: التهكم أو التقابل في قوله: ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾؛ لأن تسمية قولهم: حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم، أو لتنزيل التقابل منزلة تناسب للمبالغة، فأطلق الحجة على ما ليس بحجة، من قبيل:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

ومنها: التعميم في القدرة بعد تخصيصها في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾؛ لأنه خصصها أولاً بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾.

ومنها: شبه التأكيد في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ لأنه كالتأكيد لقوله: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ﴾ كما مر مع ما فيه.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ نَدَعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ لإفادة الإغلاظ والتشديد، والوعيد.

ومنها: الإضافة المجازية في قوله: ﴿كِتَابِهَا﴾؛ لأن الإضافة فيه لأدنى ملابسة؛ لأن أعمالهم مثبتة فيه.

ومنها: الإضافة إلى نون العظمة في قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ تفخيماً لشأن

الكتاب، وتهويلاً لأمره.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يقال: نطق الكتاب بكذا، إذا بينه ودل عليه. والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ﴾؛ أي: في جنته، ففيه إطلاق الحال وإرادة المحل والعلاقة المحلية.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿تَسْنَكُوا﴾ ففي ضمير الخطاب استعارة بالكناية، بتشبيههم بالأمر المنسي في تركهم في العذاب، وعدم المبالاة بهم، وقرينتها النسيان.

ومنها: إضافة المصدر إلى ظرفه توسعاً في قوله: ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؛ أي: نسيتم لقاء الله وجزاءه في يومكم هذا، فأجرى اليوم مجرى المفعول به، وجعل ملقياً.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، استهانة بهم، أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيبة النار كما مر في مبحث التفسير.

ومنها: أيضاً الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿الْيَوْمَ تَسْنَكُوا﴾ إلخ، مثل تركهم في العذاب بمن حبس في مكان، ثم نسيه السجنان من الطعام والشراب، حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية، والمراد من الآية: نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي؛ لأن الله تعالى لا ينسى ولا يعرض عليه النسيان.

ومنها: تكرير الرب في قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ للتأكيد والإيذان، بأن ربيته تعالى لكل منها، بطريق الأصالة كما مر.

ومنها: إظهار السموات والأرض في قوله: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيُّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع كون المقام للإضمار، لتفخيم شأن الكبرياء.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.
والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما في هذه السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

- ١ - إقامة الأدلة على وجود الخالق سبحانه.
- ٢ - وعيد من كذب بآياته، واستكبر عن سماعها.
- ٣ - طلب العفو من المؤمنين عن زلات الكافرين.
- ٤ - الامتنان على بني إسرائيل، بما آتاهم من النعم الروحية والمادية.
- ٥ - أمر رسوله ﷺ أن لا يطيع المشركين، ولا يتبع أهواءهم.
- ٦ - التعجب من حال المشركين، الذين أضلهم الله على علم.
- ٧ - إنكار المشركين للبعث.
- ٨ - ذكر أهوال العرض والحساب، وشهادة صحائف الأعمال على الإنسان.
- ٩ - حلول العذاب بالمشركين، بعد أن تتبين لهم قبائح أعمالهم.
- ١٠ - ثناء المولى سبحانه على نفسه، وإثبات الكبرياء والعظمة له^(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

(١) وقد تم تسويد هذا الجزء الخامس والعشرين من القرآن الكريم، بيد جامعته ومؤلفه، في الليلة الثالثة والعشرين، منتصف الساعة الخامسة من شهر الله المحرم، من شهور سنة ألف أربع مئة وخمس عشرة ١٤١٥/١/٢٣ هـ من السنين الهجرية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكي التحيات، اللهم يا مولى النعم، ويا راحم الأمم، ويا محيي الرمم أنت المعبود، وأنت المقصود، وأنت المستعان بكرمك، وجودك، وفيضك، وفقنا لإتمام هذا التفسير على الوجه الذي يرضيك عنا، وأن تبارك في أعمارنا إلى إكماله، وأن تصرف عنا العوائق والمعائق إلى انتهائه يا منيل رغبة الراغبين، ويا مجيب دعوة الداعين آمين يا رب العالمين، والحمد لله الذي تتم به الصالحات حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تم تصحيح هذه النسخة بيد مؤلفه ليلة العشرين من ذي القعدة في تاريخ ١٤١٧/١١/٣٠ هـ.

تم بحمد الله تعالى المجلد السادس والعشرون، ويليهِ المجلد السابع والعشرون.

شعر

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يُحَاوِلُهُ وَأَسْتَغْمَلَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ
يُنَادِي الْبَحْرُ يَلْفِظُ بِالْغَوَالِي وَيَزِمِي بِالزَّبْرِ جِدَّ وَالْأَلَالِي
يَقُولُ لِسَابِحِيهِ وَخَائِضِيهِ هَلُمُّوا فَالْتَفَائِسُ فِي خِلَالِي
يَا مَنْ بَارَكَ فِي الثَّيْنِ وَالرُّمَانِ بَارِكِ اللَّهُمَّ فِي الرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ

الفهرس

٧ سورة فصلت الآيات من (٤٧) إلى (٥٤)
٧ - المناسبة
٩ - أسباب النزول
٩ - التفسير وأوجه القراءة
٢٣ - الإعراب
٢٨ - التصريف ومفردات اللغة
٣٠ - البلاغة
٣٢ مجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة
٣٤ سورة الشورى
٣٥ سورة الشورى الآيات من (١) إلى (١٨)
٣٦ - المناسبة
٣٩ - أسباب النزول
٣٩ - التفسير وأوجه القراءة
٧٣ - الإعراب
٨٢ - التصريف ومفردات اللغة
٨٥ - البلاغة
٨٨ سورة الشورى الآيات من (١٩) إلى (٣٩)
٨٨ - المناسبة
٩١ - أسباب النزول
٩١ - التفسير وأوجه القراءة
١٠٧ - فصل في ذكر التوبة وحكمها
١٣١ - الإعراب

١٤١	- التصريف ومفردات اللغة
١٤٥	- البلاغة
١٤٨	سورة الشورى الآيات من (٤٠) إلى (٤٢)
١٤٨	- المناسبة
١٥٠	- التفسير وأوجه القراءة
١٧٠	- الإعراب
١٧٧	- التصريف ومفردات اللغة
١٧٩	- البلاغة
١٨٢	خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من الموضوعات
١٨٤		سورة الزخرف
١٨٦	سورة الزخرف الآيات من (١) إلى (٢٥)
١٨٦	- المناسبة
١٨٨	- أسباب النزول
١٨٨	- التفسير وأوجه القراءة
٢١٦	- الإعراب
٢٢٤	- التصريف ومفردات اللغة
٢٢٧	- البلاغة
٢٣٠	سورة الزخرف الآيات من (٢٦) إلى (٥٦)
٢٣١	- المناسبة
٢٣٣	- أسباب النزول
٢٣٤	- التفسير وأوجه القراءة
٢٥٨	- قصة موسى عليه السلام مع فرعون اللعين
٢٦٦	- الإعراب
٢٧٧	- التصريف ومفردات اللغة
٢٨١	- البلاغة
٢٨٥	سورة الزخرف الآيات من (٥٧) إلى (٨٩)

٢٨٥ المناسبة
٢٨٧ أسباب النزول
٢٨٨ التفسير وأوجه القراءة
٣٢٠ الإعراب
٣٣١ التصريف ومفردات اللغة
٣٣٤ البلاغة
٣٣٧ خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد
٣٣٩	سورة الدخان
٣٤٠ سورة الدخان الآيات من (١) إلى (٣٣)
٣٤٠ المناسبة
٣٤١ أسباب النزول
٣٤٢ التفسير وأوجه القراءة
٣٦٦ الإعراب
٣٧٣ التصريف ومفردات اللغة
٣٧٧ البلاغة
٣٨٠ سورة الدخان الآيات من (٣٤) إلى (٥٩)
٣٨٠ المناسبة
٣٨١ أسباب النزول
٣٨٢ التفسير وأوجه القراءة
٤٠١ الإعراب
٤٠٦ التصريف ومفردات اللغة
٤١٠ البلاغة
٤١٢ خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد
٤١٣	سورة الجاثية
٤١٥ سورة الجاثية الآيات من (١) إلى (٢٠)
٤١٥ المناسبة

- ٤١٦ - التفسير وأوجه القراءة
- ٤٣٨ - الإعراب
- ٤٤٦ - التصريف ومفردات اللغة
- ٤٤٨ - البلاغة
- ٤٥١ سورة الجاثية الآيات من (٢١) إلى (٣٧)
- ٤٥١ - المناسبة
- ٤٥٣ - أسباب النزول
- ٤٥٤ - التفسير وأوجه القراءة
- ٤٧٦ - الإعراب
- ٤٨٥ - التصريف ومفردات اللغة
- ٤٨٦ - البلاغة
- ٤٩٠ خلاصة ما في هذه السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد